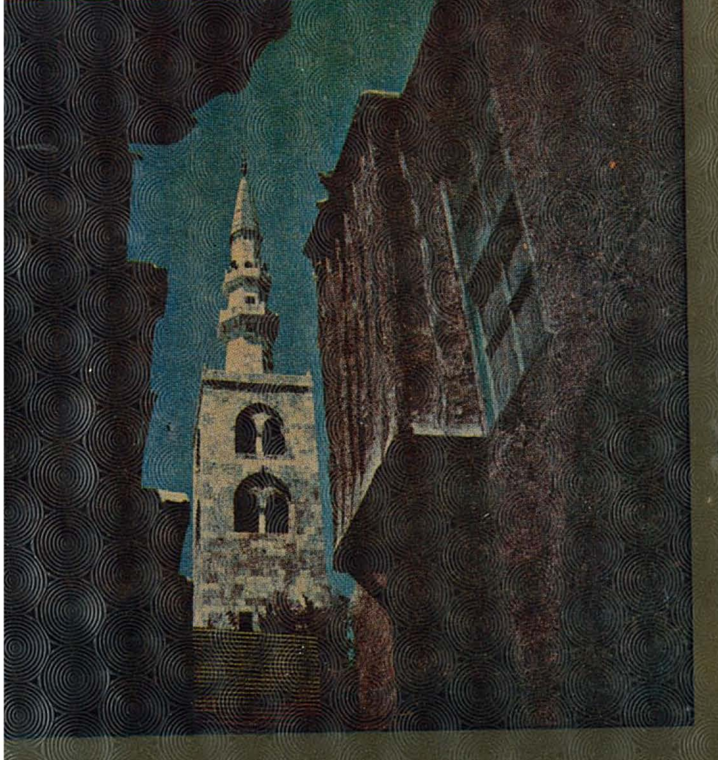
أحمد حلمي العلاف



مدونة أبو عبدو

أبو عبدو البغل

دمشق

في مطلع القرن العشرين

أعده للطبع وعلق عليه ووضع فهارسه وقدم له

علي جميل نعيسة

دمشق
في مطلع القرن العشرين

ألفه

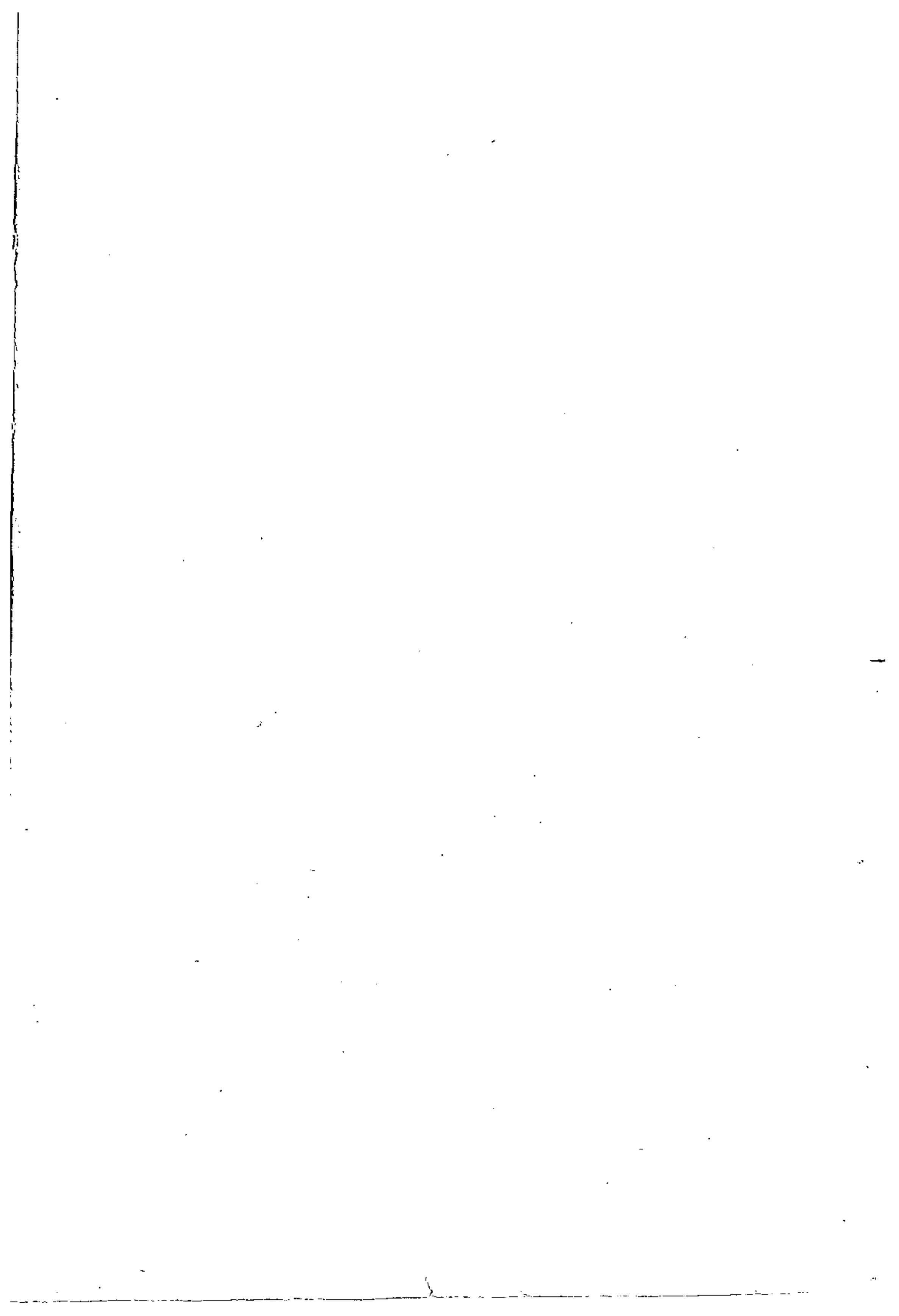
أحمد حلمي العلاف

أعده للطبع وعلق عليه ووضع فهارسه وقدم له

علي جميل نعيسة

منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي

دمشق – ١٩٧٦



الإهـــداء

إلى الروح الزكية الطاهرة

روح ولدي " عمّار "

يا من غاب عنّي فجأة في ربيعه السابع ، ولم يزل صدى ضحكاته تسمع في أعماقي وهو يقرأ في مسوّدة الكتاب بعض طرائفه ..

هذا جهدي إليه لتبتهج به روحه

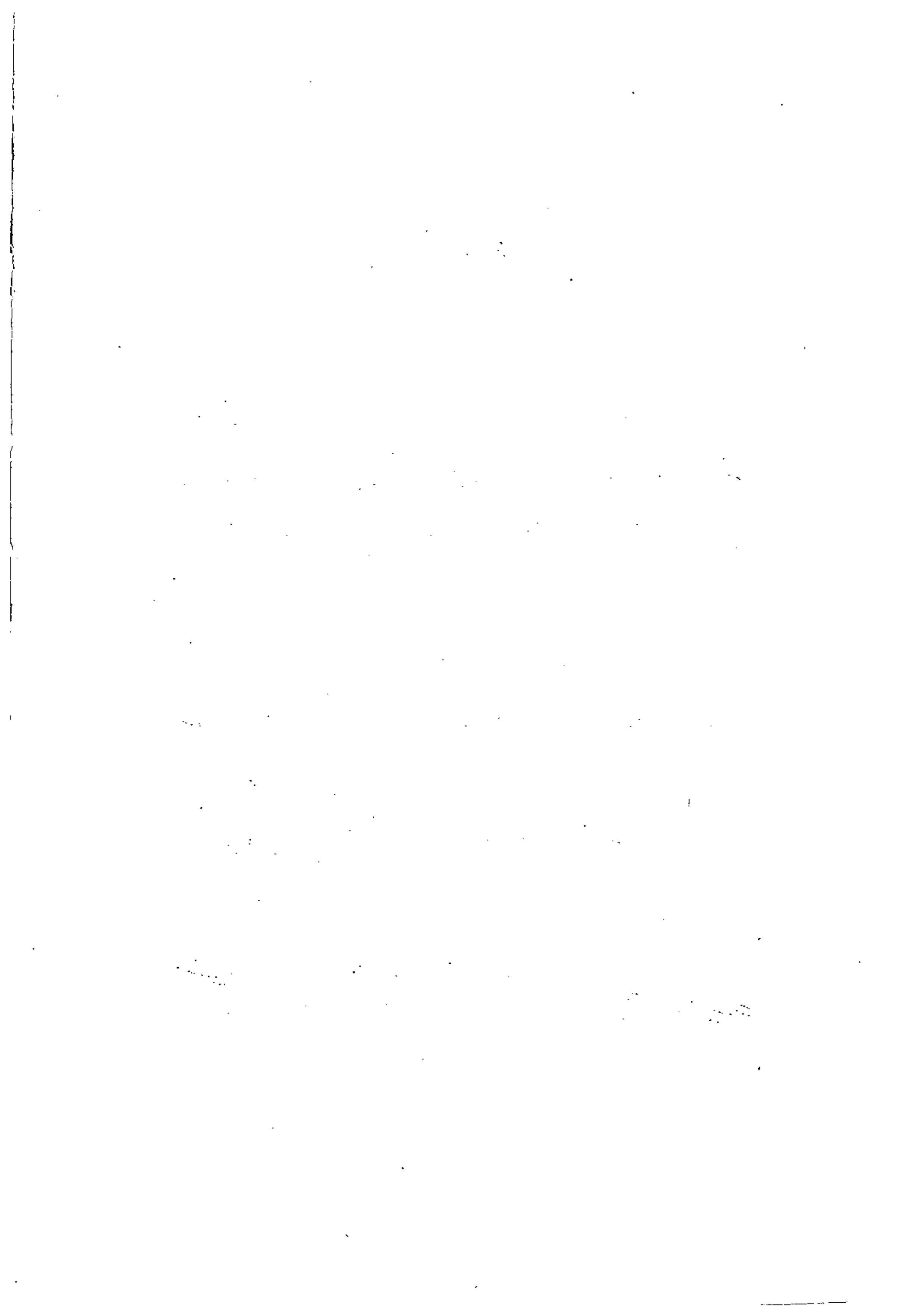
ولعلّني أوفّيه بعد رحيله ما اعتقدت أنّي لم أستطعه في حياته .

لقلبي المتفطّر الصبر وله الرحمة

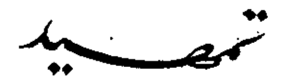
دمشق ٢١ رجب ١٣٩٦هـ .

١٨ تموز ١٩٧٦م .

علي جميل نعيسه



بسم الله الرحمن الرحيم



مدينة دمشق التي نحبّ ، ذات التراث الحضاري المعبرّ عن أمة عربية أصيلة أينما سرت في أحيائها وأزقتها وجاداتها يهتف بك صوت جميل من الماضي السحيق ، يشدّك إليه بألف صورة وصورة حلوة ورائعة .

دمشق سليلة المجد العربي والحافظة لتراثه ، تعرّضت للغزوات أكثر من مرّة في تاريخها الطويل ، ومع ذلك بقيت في رسوخها وصبرها علامة بارزة واضحة لأصالة أمتنا العربية .

ودمشق المحروسة حفظت في قلبها وروحها التقاليد العربية والعادات الراسخة لأمتنا فكان ذلك برهانا على خلود حضارة هـذه الأمة .

* * *

أسماء دمشق

لدمشق أسماء كثيرة وصفات عديدة أطلقت عليها ، وفيما يلي بعضها :

الشام :

أقدم أسماء دمشق فقد ذهب بعض الباحثين إلى أنها من اسم (سام) أبي الذين اختطّوها من اللاديين والآراميين. ومعنى (سام) (الاسم) ، فهو بلا شك أبو الاسماء ، واسم أبي الآباء الذين سكنوها .

دِمَشْقُ وأصل التسمية :

هي بكسر الدال وفتح الميم (دِمَشق) ، وبكسر الدال والميم أيضاً (دِمِشق) وهو الاسم الشائع في القديم والحديث ولذا كثرت في أصله وفي تأويله الأقوال والروايات ، فالباحثون العرب حاولوا أن يعيدوه إلى أصل عربي ، منهم أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي صاحب كتاب (اشتقاق أسماء البلدان) . فقد قال : « وأما دمشق فيقال إنها من دَمْشَق ، وناقةٌ دَمْشَق : أي سريعة . ويقال : دَمْشَقَ الضربَ دمشقةً : إذا ضرب ضرباً خفيفاً سريعاً » . وقال ابن الأنباري: « ودَمْشَقَ : فعل، من قول العرب: ناقة دَمْشَق اللحم : إذا كانت خفيفة» . وروى ابن خالويه أن سيف الدولة سأله عن دمشق: هل يقال فيها دمشق أم لا ؟ فأجاب: «اسم هذه المدينة

ليس عربياً فيما ذكر ابن دريد إنما هي معرّبة ، ولا يقال بغيرها . فأمّا الدمشقة في المشي . يقال : دَمْشَق يدمشق دمشاقاً : إذا أسرع . وكل سريع : دمشق » .

يقول ياقوت في معجمه : « إن دمشق سميت باسم دماشق بن قاني بن مالك بن أرفخشذ بن سام بن نوح » . ويقول في رواية أخرى : « إن العازر غلام ابراهيم بنى دمشق وكان حبشياً وهبه له نمرود بن كنعان حين خرج من النار ، وكان الغلام يسمّى دمشق فسمّاها باسمه» . يلاحظ هنا أن اسم العازر ورد في التوراة باسم « اليعازر الدمشقي » مالك بيت ابراهيم .

وعاد ياقوت فأعطى دمشق تفسيراً لغوياً فقال : « قيل سميّت بذلك لأنهم دمشقوا في بنائها أي أسرعوا . وناقة : دَمْشَق : أي سريعة » .

وروى (أبو بكر محمد الفرضي) وكان أسر وبقي في بلاد الروم مدة أن رجلا من حكماء الروم قال له : إنّما سميّت دمشق بالرومية وأن أصل اسمها (دومسكس) أي مسك مضاعف لطيبها وكثرة ازهارها لأن (دو) للتضعيف و (مسكس) هو المسك ثم عربت فقيل دمشق .

وهناك أسطورة عن سبب تسميتها دمشق تقول : إن الابن الرابع لأرام بن سام هو (ماش) قد غادر قومه أرض شنعار جنوب جبل اراراط وحلّ في بقعة دمشق فأعجب بها ،وأراد أن يؤسس مدينة فيها ، وكان أخوه الأكبر (عوص) أسس مدينة في حوران فطلب إلى أخيه (ماش) أن يسمي المدينة باسم جده (سام)

فرفض وتخاصما ، وضرب (عوص) أخاه بحجر على رأسه فانسكب دمه على حجر أساس المدينة ، ويقال إنه مات وسمّيت المدينة بعد ذلك بثلاثة أسماء : الأول (شام) تكريماً لسام . والثاني (دمشق) لأنه دم (ماش) — وهذه كلمة آرامية معناها دم الشقيق — أي أنالمدينة بنيت بدم الأخ الشقيق — . والاسم الثالث (داماش) لأن بني يافث بن نوح لما سمعوا بالخبر قالوا : (داماش) أي (دم ماش) ، ولما هاجروا وسكنوا في أوربة لفظوها (داماس) لأن حرف الشين غير موجود في الحروف اللاتينية القديمة .

وذكر (ستيفانوس) البيزنطي ، وقد عاش في القرن السادس قبل الميلاد أن اسم دمشق يرجع إلى أن البطل (دمسكوس) ابن الإله (هرمس) جاء من اليونان إلى سورية وبنى مدينة باسمه .

ويفسّر الكتاب اليونان اسم دمشق تفسيراً آخر يتعلق بشخص (دماس) الذي قالوا عنه إنه مؤسس المدينة ، وهو أن (دماش) رافق الإله (يونيسوس) إلى سورية فقالوا (خيمة دماس) .

وجاء في نصّ أن أحد خلفاء (مرشاش) توغل في أراضي الهيكسوس جنوباً بعد فتح حلب حتى (دَمَشومس) وهذا اللفظ يشبه لفظة دمشق .

ووردت في النقوش الأثرية المصرية باسم (خيطا) وربما كان معنى هذه الكلمة (الفضّة) ، وإذا كان هذا صحيحاً فإنه يكون أول ذكر لدمشق في التاريخ ، كما أن المؤرخ (سترابون) ذكر مغاور دمشق في العصر الحجري .

ويردّ الباحثون الغربيون كلمة دمشق إلى أصول كلدانية أو

سريانية قديمة، وعمدتهم في ذلك أن هذه الكلمة وردت بالهيروغليفية في آثار تل العمارنة والكرنك بلفظ (تِمسْقو) و (تيرامسكي) و (دمشقا) ومعناها الأرض الزاهرة أو المثمرة أو الحديقة الغناء ، ومن هذا اللفظ أخذ اليونانيون كلمة (داماسكوس) وعنهم نقل الإفرنج هذا الاسم .

كما ورد اسمها في الآثار الآشورية (دمشقي وتمشكي) ، وقيل ذلك في العبرية والسريانية .

وكان الآراميون يسمونها (درمسق) أو (درمسوق) .

وقيل: إنها مشتقة من (ادم) أي الأرض و (سمق) أي الأحمر في السريانية .

وقيل : إنها مشتقة من (دم شقه) أي شرب الدم ، يعني دم هابيل فيها .

وشرح القديس (هيرونيم) في تفسيره لسفر رعاموس ١ :٥ : اسم الدمشقيين بشاربي الدم ، إشارة إلى اضطهادهم شعب الله . وقال في سفر زكريا ٩ : ١ : إن دمشق تفسّر في لغتنا بشارب الدم ، أو دم المسيح . فيشار بالمعنى الأول إلى شعب دمشق الدموي ، وبالثاني إلى توبته من بعد ظلمه .

وقيل ـ نقلاً من التوراة ـ : إنه لما قتل قابيل أخاه هابيل سأله الله تعالى : أين هابيل؟قال : لا أعلم . ألعلي حارسٌ لأخي ؟ فقال سبحانه وتعالى : إن صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض ، ومن المحقق أن اسم دمشق في اللغة السريانية معناها الأرض التي شربت الدم .

وقيل : إن كلمة (دمشق) فارسية وأصلها (دم بشك) وسميت (وادي التين) وربما كان ذلك لوجود وادي التين في سوق وادي عقربا أو الجبل ، لوجود شجر التين في معبدها .

من أسماء دمشق القديمة :

(مدينة العازر) خادم إبراهيم الخليل . ومدينة (نعمان السرياني) وهو أحد سكانها . و (بيت رامون) نسبة إلى هيكلها الذي كان باسم الإله (رامون اللودي) ، ومنه اسم (برمانة) في ظاهر دمشق .

ومن أسمائها المتداولة ــ خاصةفي النصوص الأدبيةمن شعر ونثر ــ :

(جلق) و (جيرون) من باب تسمية الكل بالجزء ، و (البريص) .

ومن أسمائها أيضاً :

(عين الشرق كله) أطلقه عليها يوليانوس الروماني لعظمة عمرانها .

ومن أسمائها العربية :

(دمشق الشام) تمييزاً لها عن غرناطة الأندلسية المسماة (دمشق العرب).. و(ذات العماد) : سميت بذلك لكثرة أعمدتها. و(حاضرة الروم). و (حصن الشام) . و (باب الكعبة) . و (فسطاط المسلمين) . و (العذراء) ولعل هذه التسمية نسبة إلى مريم العذراء ، وفي دمشق الكنيسة المريمية ، أو أنها تعريب كلمة (جنيق) بمعنى العذراء . و (قاعدة وادي سورية) المعروفة (بسورية المجوّفة) .

ومن ألقاب دمشق :

(الفَيْحَـاء) : لاتساعها ورائحتها الزكية . و (الغنّـاء) : لالتفاف أشجارها الكثيفة . و (جنة الأرض) : لكثرة حدائقها وغزارة مائها . و (قرية المَسَرَّة) كما سمّـاها ارميا النبي .

* * *

أصل بناء دمشق [1]

وكما اختلف في أصل اسم دمشق اختلف أيضاً في أول بانٍ لها . وخلاصة الروايات الكثيرة عن بنائها أن بانيها هو أحد هؤلاء :

دمشاق بن قاني بن لامك بن أرفخشذ بن سام بن نوح .

جيرون بن سعد بن عاد بن إرم بن سام بن نوح وسماها (إرم ذات العماد) وباسمه سميّت . ويقال : إن بها أربعمائة ألف عامود من الحجارة الضخمة .

العازر غلام ابراهيم — وكان حبشياً — ويسمّى دمشاق .

دمشاق بن نمرود بن كنعان .

دمشق بن آدم بن سام بن نوح .

بنو أراسف الكنعاني الذين بنوا بابل وصور ودمشق .

اليونان .

بني شيطانان — يقال لهما بريد وجيرون — لسليمان بن داود سقيفة مستطيلة على عمد وبنيا حولها مدينة لطيفة فسمي المكان باسمهما أو باسم أحدهما (جيرون) .

---

(1) انظر احمد قدامة — مجلة العمران — عدد خاص عن مدينة دمشق — ١٩٦٧ .

جيرون بن سعد بن عاد وسميّت باسمه وهي إرم ذات العماد .
ويقال إن بها أربعمائة ألف عامود من الحجارة الضخمة، وقد عثر تحت الأرض على بعض تلك العواميد على شكل شارع مستطيل تكتنفه العواميد من الجانبين وذلك لما احترق الجامع الأموي فأخذ بعضها لعمارته في سنة ٣١١ هـ .

سوراسب ملك الفرس ، أو الضحّاك ، أو بيوراسب .

قيل بنيت على رأس ثلاثة آلاف ومائة وخمس وأربعين سنة من جملة الدهر الذي يزعمون أنه تسعة آلاف سنة ، وولد إبراهيم بعد بنائها بخمس سنوات . وهذا ما ينفي خبر أن بانيها هو اليعازر غلام ابراهيم .

وجاء في التوراة أن ابراهيم تبع أسرى لوط ابن أخيه إلى (صوبة) الواقعة في شمالها وكانت هذه الواقعة ١٩١٣ قبل المسيح .

روي أن مكان دمشق كان داراً لنوح .
وروي أنها بنيت أولا في وادٍ عند ذيل جبل قاسيون .
وروي أن المقدونيين جددوا بناء دمشق في مكان أبعد بقليل عن مكان تأسيسها الأول رغبة منهم في الابتعاد عن الجبل وجعلها في السهل قريبة من الأنهر .

ووصفت أنها كانت بيضوية الشكل ، طولها من الشرق إلى الغرب نحو ميل ، ومن الشمال إلى الجنوب نحو ميل ونصف .

ومن الثابت أن دمشق كانت موجودة منذ الألف الثالث قبل الميلاد وكانت على ضفة بردى الجنوبية على (تل السماكة) بين شارع الجراب

شمالاً ومئذنة الشحم ، وكان مركزها (معبد حدد) موضعه أسفل الجامع الأموي ، ويظن أنها كانت قرية زراعية لما احتلها الآراميون الوافدون من بلاد الرافدين وجعلوها عاصمة دولتهم ، وتذكر التوراة أن فيها نهرين هما (أبانا) و (بربر) والأول يقابل بانياس الآن والثاني بردى .

يقول ابن عساكر في كتابه (تاريخ مدينة دمشق — المجلدة الأولى — ص ١٠) : إن أول حائط وضع على وجه الأرض بعد الطوفان حائط حران و دمشق ثم بابل .

ويقول أيضاً عن أبواب دمشق ونسبها إلى الكواكب والفلك :

قرأت في كتاب عتيق : باب كيسان (لزحل) وباب شرقي (للشمس) وباب توما (للزهرة) وباب الصغير (للمشتري) ، وباب الجابية (للمريخ) وباب الفراديس (لعطارد) وباب الفراديس الآخر المسدود (للقمر) .

أما إطلاق (الشام) على دمشق فهو من باب إطلاق العام على الخاص ، والعرب كثيراً ما يسمون المدن القواعد بأسماء أقاليمها فكانوا يقولون بلا فرق : (دمشق) أو (الشام) .

* * *

دمشق والتاريخ

في التاريخ حوادث تخبرناعن دمشق بأنها استولى عليها الآشوريون والفرس وغزاها الاسكندر الأكبر في عام ٣٣٢ قبل الميلاد بعد معركة (ايسوس) ثم أصبحت جزءاً من المملكة السلوقية التي أسسها (سلوقس) أحد قواد الإسكندر ، وكانت عاصمة (ديمتر ياس) الثالث حيث عرفت باسم ديمتر ياس و (انطيوخوس) الثالث عشر السلوقي كما ضمها (بو بي) الى الامبراطورية الرومانية في عام ٦٤ قبل الميـــلاد ، وصارت من أهم مجموعة (ديكابوليس) ، وبعد ذلك أصبحت جزءاً من امبراطورية الروم البيزنطيين .

وهكذا حتى بزوغ الفجر العربي القوي بعد الدعوة العربية الإسلامية حيث تدكّ أبوابها وحصونها الجحافل العربية المؤمنة والمنظمة الثائرة بقيادة البطلين العربيين أبي عبيدة بن الجرّاح وخالد بن الوليد وتتهاوى الحصون ويستسلم الغرباء عن أرضها وترابها وتراثها وتقاليدها وهم الروم البيزنطيون وذلك في معركة اليرموك في شهر أيلول من عام ٦٣٥ م ، وتزدهر فيها حضارة العرب في امبراطورية عربية قوية على رأسها بنو أميّة لمدة قرن من الزمن تقريباً ،ولكن رياح التغيير وأعاصيره كانت شعار هذا الشرق منذ الأزل ، حيث يقضى على الدولة الأموية ، ويأتي العباسيون وتعيش الامبراطورية مجدها الذهبي الحضاري وذلك بعد أن تكون الفتوحات العربية قد حققت القسم الأعظم من أهدافها .

ولكن الدولة العباسية وفروعها وما تلاها تتداخل في شؤونها عناصر غريبة، وتبعاً لذلك يتوالى على حكم دمشق كل من السلاجقة والفاطميين حتى عام ١٠٧٦ م حيث يحكمها الأيوبيون ، ويستغل الوضع غزاة ذلك العصر حيث يحتل دمشق (هولاكو) المغولي بجحافل جيوشه الغازية ، ويقضي على الحضارة والخضرة والجمال في دمشق الفيحاء وذلك في عام ١٢٦٠ م عندما حكم دمشق الأيوبيون ثم المماليك ،

وفي تلك الفترة ساهمت دمشق في صد غزوين عسكريين كبيرين استهدفا الوطن العربي : أحدهما أتى من الغرب وهو الغزو الصليبي ، والآخر أتى من الشرق وهو الغزو المغولي الذي عمل فيها السلب والنهب والقتل والتخريب بحقد عجيب غريب وذلك في عام ١٤٠٠ م ، وهكذا يسير تاريخها حتى الحكم العثماني التركي إثر معركة (مرج دابق) عام ١٥١٦ م ، حيث يكتب فيها النصر للعثمانيين ويهزم المماليك ، ويستمر ليلها طويلاً مكفهراً تحت النير العثماني حتى عام ١٩١٨ م حيث يحتلها مستعمرون جدد أيضاً هم الافرنسيون إثر معركة ميسلون في ٢٤ تموز عام ١٩٢٠ م ويستمر ذلك حتى السابع عشر من نيسان عام ١٩٤٦ .

ومدينة دمشق ليست ماضياً سياسياً وحضارياً فحسب ولكنها تضم بين جنباتها الكثير من القادة الشهيرين أمثال : معاوية بن أبي سفيان ، وصلاح الدين الأيوبي ، ونور الدين محمود بن زنكي ، كما تضم الكثير من الصالحين مثل : محيي الدين بن عربي وعدد آخر ما يزال رفاتهم يرقد في الصالحية و جبل قاسيون وغيرهما .

وهكذا يتراءى لنا التاريخ السحيق في قدمه ، ان دمشق عاصرته وقهرته ، وعانت من عثراته أحياناً .

وقد أنشد بعض الصالحين المتأخرين شعراً في فضل دمشق وما تشتمل عليه من مواضع لها في نفوس الناس حرمة ومحبّة يقول فيه :

يا صَاحِ كَمْ في قاسيونَ وسَفْحِهِ
من مَشْهَدٍ يَسْتَوْجِبُ التّعْظيما

فالرَّبْوَةُ العُلْيـــا يفَضِّلها الذي
أضحَى بتَفْسيرِ الكِتـابِ عَـليما

والنَّيْرَبُ المَشْهُورُ يَعْرِضُ فَضْلَهُ
مَنْ زارَهُ أوْ ذَاقَ فِيهِ نَعِيمـــا

ومَغَارَةُ الدَّم فَضْلُها مُتَواترٌ
ما زِلْتُ أَسْمَعُهُ ـ هديتَ ـ عَظِيما

ولكَهْفِ جبْرِيْلَ الأمينِ فَضيلَةٌ
مَذْكُورَةٌ وَقَعَتْ إليَّ قَدِيمـا

ومَغَارَةُ الجُوعِ الشّرِيفَةُ تَحْتَهُ
كم عَابِدٍ فيها أبنَّ مُقِيمـــا

وَمَقَامُ بَرْزَةَ لَيْسَ يُنْكَر فَضْلُه
أَعْني مَقَامَ أبيـكَ إبراهيمـا

ولَكَمْ مَكَانٍ فِيه لَيْسَ بمَسْجِدٍ
أَضْحَى على المُتَعَبِّدينَ كَرِيمـا

رُؤِيَ النّبِيُّ مُصَلِّيـاً في سَفْحِهِ
صَلّوا عَلَيْـهِ وسَلّموا تَسْليما

وبِهِ قُبورُ الأَنْبِياء فَمَنْ مَضَى
لِيزورَهُم فَقَدِ ابْتَغَـى التّكْرِيما

فَأدِمْ زيارتَـــه وواظب قَصْـدَهِ
لتنَالَ أجْـراً في الجِنانِ جَسيما(١)

هذه هي دمشق الماضي مشرقه ومظلمه ، وهذه دمشق التاريخ والاسواق (السويقات) العتيقة ، والأغاني ، والبيوت المتلاصقة ، والأعراس الشعبية وغيرها ، تقدم لنا الكثير من عبق الذكرى وعمق الأصالة.

* * *

(١) ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق ـ المجلدة الثانية القسم الاول ـ ص ١١٢ .

مؤلف الكتاب

هو المرحوم احمد حلمي بن سليم العلاف ،ولد وعاش وتوفي في دمشق، وكانت ولادته في الصالحية (أبو جرش) في عام ١٨٩٨ م على أغلب الظن فهو يقول في الصفحة ٢٨٤ : « إنني اذكر اجتماعاً خلال العام ١٩٠٨ في دارنا وكنت إذ ذاك في العاشرة من عمري » .

تعلّم القراءة والكتابة كباقي أفراد جيله آنذاك لدى الحجوات والشيوخ،ثم التحق بالمدرسة في جادة (الجامع الجديد) ، وبعد ذلك بمدرسة (عنبر) ثم (بالمدرسة العثمانية) و (الرشدية العسكرية) ، وخدم في الجيش العثماني بأن التحق في مقر التعليم العسكري في الآستانة في الأول من أيلول ١٩١٦ حتى الأول من كانون الثاني ١٩١٧ حيث أصبح وكيل ضابط في الجيش التركي في أول أيار ١٩١٨ واستمر في هذه الوظيفة حتى الثـاني من كانون الثاني ١٩١٩ حيث أنهى خدمته بالجيش العربي ودخل المدرسة الحربية منذ الثامن عشر من كانون الثاني ١٩١٩ حتى السابع عشر من تشرين أول ١٩١٩ وتخرّج برتبة ملازم ثانٍ وبقي يخدم في الجيش العربي حتى الحادي والثلاثين من تموز ١٩٢٠ وسرّح إثر معركة ميسلون التي كانت بداية الغزو الاستعماري الفرنسي للقطر العربي السوري .

عهد إليه في الجيش الفيصلي بتدريب الأغرار ، وكذلك في الجيش الأردني الحجازي ، ثم درس في معهد الحقوق بدمشق خلال الأعوام

١٩٣٠ — ١٩٣٣ م وتخرج منه ، والتحق بالقضاء وأسندت إليه وظيفة « عضو ملازم حاكم صلح » في الرقة منذ الثالث عشر من كانون الأول ١٩٤١ حتّى الثاني من حزيران ١٩٤٣ ، ثم نقل بالوظيفة نفسها إلى بلدة الميادين حتّى الثامن والعشرين من تموز ١٩٤٤ حيث صرف من الخدمة وعمل بالمحاماة ، وهكذا حتّى الخامس والعشرين من نيسان ١٩٤٩ ثم عيّن في أعمال التجنيد ضابطاً برتبة ملازم ثان في الجيش العربي السوري معاوناً لمدير العدلية العسكرية ، وبقي كذلك حتّى وفاته في السادس من شهر آب ١٩٥٩ .

أما والده فكان يعمل فرّاء — صناعة الفراء — ثم عمل بالتنجيد (منجداً) ، لذلك فهو من أسرة إن لم تكن فقيرة فهي متوسطة الحال نستطيع أن نلمح ذلك من حديثه عن نفسه في هذا الكتاب حيث يصدر في حديثه عن ذكريات طفولته المعذّبة القاسية التي بقيت راسخة في ذهنه لم تفارقه ، وخاصة خلال دراسته الأولى حيث يقول في الصفحة ١٩٠ عن مشايخ كتاتيب تلك الفترة ما يلي : « ولاقيت مالاقى غيري المقيم على ارشادهم فما كنت أقيم عند واحد أكثر من أسبوع وأسابيع حتّى أبادر إلى العصيان عن الذهاب إليهم ، ولولا معرفة والدي البسيطة في النواحي العلمية لتفهمت كل ما خفي عني من أعمال أولئك الشيوخ ولكان نزل بي مثلما كان ينزل بالباقين ولكن المولى تعالى حمانا منهم » .

ويقول في الصفحة ١٩١ : « فهذا الأسلوب الحماري الذي كان يسلكه الشيوخ وهم نشأوا عليه فظلوا مثله جامدين لا حقيقة لهم بالحياة ولا معنى . . . وهذا ما كان يحمل الأطفال على الخوف من الشيخ والدراسة » .

وما أن تتسع مداركه حتى أخذ يرصد ما في النواحي الإدارية والسياسية وغيرها من مفاسد وسوء تنظيم فيقف من كل ذلك موقف الناقد المتطلع إلى التحرر والثورة عليه ، فيقول في الصفحة ٨٠ متحدثاً عن فقد المساواة في التجنيد فلا يساق إلى الجندية إلاّ أبناء الفقراء ، وأما أبناء الأغنياء فلهم من ورائهم من يستطيع حمايتهم من السوق بالرشوة وغيرها :

« على أن مختار الحي يعرف تماماً العائلات التي يمكنها دفع الأموال واستخلاص أبنائها ، فيتّفق معهم على مبلغ معين ويدفع عن ابنهم المدلل شخصاً مسكيناً ليس له من يدافع عنه . وبذلك تروج بضاعة الرشوة ويتفاقم النشاط فينجو من ينجو ويُظلم من يُظلم ، ومنهم من يختمون على غيابه خارج البلاد أو على وفاته ، أو على أنه مجهول محل الإقامة مقابل مبلغ معيّن يقتسمه المختار مع رئيس شعبة أخذ العسكر (التجنيد) على حسب وعي الرئيس وخبثه ، فإن كان رئيس الشعبة فطناً فاهماً عارفاً مواطن الخبث استطاع أن يجعل المختار واسطة أرباح وتمويل ، وإن كان الأمر على العكس سَرَح ومَرَحَ وغاص وسبح كيف يشاء ، وتكثر هذه التلاعبات أثناء إعلان النفير العام ، فضبّاط أخذ العسكر (أي التجنيد) بذلوا وسائطهم ليكونوا في التجنيد بقصد السرقات واختلاس الأموال وكان أولئك الضبّاط يسمُّون (ضباط الرّديف) ، وهؤلاء ليسوا من الجندية ولا من الوطنية ولا من الأحداث في شيء .

فإن كان وقت المعاينة الطبيـة يحين دور الأطبـاء لإساءة الاستعمال فيتركون من يشترون أنفسهم بمبالغ معيّنة يفتدون منها ، ومنهم من يدخل الجندية حاملاً آلامه وأوجاعه وليس له من يسعفه ، فإما أن يقضي في الجندية ويلاقي حتفه من تأثير المرض أو أن يكون من طويلي

الأعمار فيدخل المستشفى أو يبرأ من نفسه دون واسطة غير لطف الله تعالى .

لذلك كنت ترى أبناء الأغنياء وهم أقوياء الأبدان يسرحون ويمرحون ، ولا يذهب غالباً إلى الجندية إلا المرضى والمعيلون وأرباب العاهات ممن ليس لهم شافع » .

أما موقفه من السلطة العثمانية ومواقفها المعادية لأماني الشباب العربي وتطلعاته في تلك المرحلة فكان موقفاً وطنياً وعربياً ، لانه في تلك الفترة كانت الحركة العربية القومية المناوئة للدولة العثمانية قد بلغت أوجها نتيجة لليقظة العربية التي كانت بدايتها تأسيس الجمعيات السرية والعلنية المعادية للحكم العثماني ، وكذلك ظهور عدد من الادباء والمفكرين والمصلحين ، فتراه يتحدث عن نفسه أنه انتسب إلى حزب العهد الذي تأسس في عام ١٩٠٨م وأصبح من شبابها العاملين فيقول : «ثم سجلت عضواً عاملاً رسمياً . » ويقول في مكان آخر : « وكنت ترى المتظلمات داعيات بكسر الحكومة العثمانية وفناء موظفيها الخونة » ويقول أيضاً : « فكانت هذه المظاهرات تلجأ إليها الحكومة تغطية لتقصيرها وضعفها وعجزها ، وبالأحرى لخيانتها حقوق الشعب ، هي السلاح الوحيد وهي كل ماأعدته للمكاره والنوازل التي كانت تتوالى على رؤوس رجالها الأصنام فاقدي كل حس وطني وشعور ديني » .

* * *

كتاب دمشق في مطلع القرن العشرين

عندما وقع نظري على مخطوطة الكتاب في المرة الأولى كان هناك أكثر من دافع يجذبني لأن أقوم بإعداده للطبع ونشره ، ففيه روح دمشق وعطرها الممزوج بالصور الرائعة من الماضي العربي العظيم .

ومؤلف هذا الكتاب يتحدث كما ذكرنا عن دمشق في هذه الفترة ، وهذا نوع من التاريخ الاجتماعي حيث إن المؤرخين حتى القرن التاسع عشر كانوا يهتمون بالتاريخ السياسي فقط ، ولكن منذ القرن الثامن عشر بدأ بعض المفكرين يوجّهون أنظار الناس إلى نوع جديد من التاريخ هو التاريخ الاجتماعي الذي يهتم بعادات المجتمع وتقاليده ويهتم بالجماعة أكثر من اهتمامه بالأفراد ، وهذا الكتاب يمثّل التاريخ الاجتماعي لمدينة دمشق ، لكن مؤلفه لم يستطع إنهاءه أو نشره لأسباب نجهلها .

تناول المؤلف في كتابه وصف دمشق (طوبوغرافياً) والحديث عن المظاهر المختلفة لوجوه حياة سكانها في مطلع القرن العشرين (ديموغرافيا وفلكلوريا) فأحاط بذلك إحاطة تكاد تكون كاملة ، فوصف ملابس الناس على مختلف طبقاتهم وطوائفهم ، ووسائل النقل والركوب ، وأنظمة أحياء دمشق ، ومراسم الناس في الأعياد والمناسبات والمواسم كالمولد وليلة المعراج وليلة النصف من شعبان وشهر رمضان وما في ذلك من احتفالات وغير ذلك ، وتحدث عما يجري من الحفلات وما يتبع

من التقاليد في الختان والجندية والأعراس والولادات تفصيلاً ، ومراسم جلوس السلطان والاحتفال بذلك ، ووصف الأذكار والسيارات والشيوخ ، وتكلم عن الحرفيين وما كان ينتظم بعضهم من نقابات . ثم ذكر الحفلات في موسم الحج والمواسم الفصلية وما فيها من أسابيع كالخمسانات والسبتيات وغير ذلك ، وعرض صوراً لأحوال الباعة والتعامل بين الناس ، وعقد فصلاً في الحياة الثقافية ذلك الزمان — المدارس وحال التعليم فيها — . وفصلاً آخر في النزهات (السيارين) والملاهي والسهرات صيفاً وشتاء وما يجري في ذلك من أفانين الألعاب والأغاني والأناشيد والأمثال والحكايات ، وعقد فصلاً طريفاً في الفتوة والفتيان (الزكرتية) وفي لهجاتهم وتقاليدهم ومصطلحاتهم . وعرض في فصل نظام الإدارة والمال في الدولة . وأفرد فصلاً أفاض فيه الحديث عن الصحافة والسياسة والقضية العربية ومشاركة الناس وحماساتهم في هذه الميادين . ثم قدم نماذج طريفة جميلة من الأغاني الشعبية (أغان راقصة ، أغاني أطفال ، أغاني هدهدة الأطفال) ونماذج أخرى من الصيغ والمصطلحات الدارجة في المخاطبات بين فئات مختلفة من الناس يعرض ذلك كما يلفظه المتكلمون بهذه المصطلحات والصيغ . وتكلم عن الأطعمة الدمشقية المشهورة يسميها ويصف طرائق إعدادها ، وتحدث في فصل عن ألعاب الأطفال في دمشق وهي تلك الألعاب الموسمية التي يتوارثونها عفوياً .

موضوعات هي في الغـــاية من القيمة والطرافة ، فهذه الصور للوجوه المختلفة عن الحياة الاجتماعية والفلكلورية في دمشق إبان تلك الفترة لم يبق منها اليوم إلا ظلال لا نكاد نلمحها إلا في بعض الأحياء القديمة سجلها المؤلف تسجيلاً حياً متحركاً يسمعنا فيه الصوت والنغمة واللهجة ويرينا الحركة واللون ، وأسلوبه في عرضه رشيق رشاقة الموضوعات التي عالجها ، يحس فيه صدق أصالة المنتمي إلى دمشق .

* * *

إعداد الكتاب

للكتاب مخطوطة واحدة محفوظة في مركز الوثائق التاريخية بدمشق برقم (٢١ القسم الخاص — المجاهدون) عدد صفحاتها ٧٩ صفحة من القطع ٣٣ × ٣١ سم ، كتبها العلاف بخطّه قبل وفاته بفترة قصيرة ، ويبدو من كتابتها وما شطب المؤلف عليه من بعض عباراتها ثم كتابة بعض صفحاتها بالقلم الرصاص أن هذه المخطوطة مسوّدة لكتاب لم يتح للمؤلف إتمامه فقد جاء في آخر فصولها عنوان لفصل لم يتكلم عنه ، ثم أثبت في الفهرس الذي ألحقه في آخر الكتاب عناوين لأبحاث لم ترد في النص ،وكأن هذا الفهرس الذي وضعه العلاف مخطط للكتاب بشكله الكامل ، وقد نبهنا إلى ذلك في موضعه (انظر صفحة ٣٨١)

قمت بانتساخ المخطوطة وإعدادها للطبع من إثبات علامات الترقيم وقيّدت من الكلمات والشعر والأمثال والعبارات والمصطلحات بالشكل ما يحتاج إلى ذلك ، ثم شرحت المصطلحات والكلمات العامية الواردة في الكتاب وأثبت الشروح والتعليقات في الهامش . وذيّلت الكتاب بكشافين الأول يشتمل على التعريف بالمواضع ، والثاني على التعريف بالأعلام ، ثم ضممت إليهما فهرساً للمصطلحات والكلمات العامية مع ذكر ما يقابلها في الفصحى ، وفهرساً آخر لعناوين الأبحاث ، وأخيراً ألحقت بهما ثبتاً بالمراجع والمصادر .

خاتمة :

رغم أنني لست دمشقي المولد لكني عربي النشأة والتربية ، وممن أحبُّوا دمشق التاريخ العربي الثريّ المعطاء ، ورغم الصعوبات التي لقيتها في بعض التعابير والكلمات واستعمال بعض المصطلحات وبعض العادات ، فإنني اكتسبت الفائدة في معرفتها والتعرُّف عليها ، سواء من بطون الكتب ، أم من بعض الأصدقاء ، وهذه المعرفة ربّما أفادتني في تحقيق أمنيّتي من أجل كتابة ما يشبه هذا الكتاب عن بلدتي (بسنادا) في محافظة اللاذقية .

ورغم كل الصعاب والمتاعب فإنني أعود لأقول بأن عملي هذا هو جزء من دين عليّ لمدينة عشت فيها فترة من عمر شبابي والتي أحبّ ونحبّها جميعاً : دمشق . .

والله خير حافظاً وهو العلي العظيم

دمشق ٢٢ جمادى الثانية ١٣٩٦ هـ

٢٠ حزيران ١٩٧٦ م

علي جميل نعيسه

* * *



دمشق
في مطلع القرن العشرين

مقدمة موجزة
دمشق

دمشق : لم تتوفر لدى علماء التاريخ والآثار الأدلة المقنعة عن حقيقة مبدإ تأسيس مدينة دمشق والأمم الأولى التي أنشأتهاواستوطنتها، لما توالى عليها من الأحداث في مختلف الحضارات القديمة . إلا أن المجمع عليه في ذلك أنها من أولى المدن العريقة بالقدم ، بل الوحيدة بين مثيلاتها التي حافظت على حضارتها وشهرتها ، وصمدت للأحداث الهدامة التي صارعتها في مختلف العصور. وخرجت ظافرةً منهاتتمتع بحصانتهاوشهرتها.

موقعها :

تقع دمشق وسط القطر الشامي ١ المعروف بجودته واعتداله، والشهير بتقلّب أجوائه في مختلف المواسم ، واحتوائه كافة أنواع المناطق الموزعة على سطح الأرض ، فهي بذلك صورة مصغرة عن الكرة الارضية ،

---

(1) ذيلنا الكتاب بكشافين ، أولهما : للتعريف بالاماكن الوارد ذكرها في الكتاب بعد أن رتبناها على حروف المعجم .

وثانيهما : للتعريف بأسماء الاعلام الواردة فيه مرتبة على الحروف أيضا .

ورأينا من الخير وضع هذه التعريفات في هذين الكشافين الملحقين تيسيراً على القارىء والمتتبع لاعتمادنا في سردها الترتيب المعجمي ثم لئلا نثقل حواشي الكتاب بهذه التعريفات .

واقتصرنا في الحواشي على تعليقات توضح بعض المقاصد وعلى شروح للمصطلحات والكلمات العامية التي يزخر بها هذا الكتاب .

تجد في أقاليمها صورة أصلية صحيحة عن مختلف أقاليم الأرض ، وهي قلب القطر ، وقطب العالم القديم ، ومحور الأحداث التاريخية ، وقبلة الأمم ، ومحط رحالها وأطماعها ، وأماني قادة التاريخ والفاتحين منذ أقدم العصور .

أهل دمشق :

لم يكن أهل دمشق إلا النتاج الطبيعي لتربتها وأجوائها المتباينة، فهم أشداء ، رحماء ، فتاكون ، وادعون يغلب عليهم اللطف والإستئناس والميل للاجتماع والمرح واللين في المعاشرة ، والطلاقة ، وحسن الوفادة ، والإباء والوقار عند الجد ، والأنفة والثورة عند الضيق ، والغضب للكرامة عند مسّ الشعور ، لايحتملون الذل ، ولايقيمون على ضيم ، ولايصبرون على الظالم الفاجر ، مهما بسط لهم من المغانم والعطاء .

* * *

الموضوع
وصف دمشق

تربعت دمشق فوق بساط سُنْدُس حاكته يد القدرة من جنات غوطتها الفيحاء ، وجعلت لها من جبل قاسيون متكأ تشرف منه على رياضها الغنّاء ، وعرشاً زخرفته لها بألوان الصخور يمثل رسوخها وثباتها ، ويوفر لها لطافة الجو في موسم الشتاء .

افتتن الأتراك العثمانيون بدمشق كما تعشقها الأقوام في ماضي العصور ، وقد زان كمالها الطبيعي آثار أقدام [1] النبوة فزادتها شرفاً وشهرة ، لذا أطلق العثمانيون عليها اسم (الشام الشريف) [2] ، وفي اعتقادهم كالكثير من الناس أنها ستكون الموئل والملجأ ودار هجرة

---

(١) حيث يقال : بأن النبي محمد (ص) وقف يعلن عدم رغبته في دخول المدينة .فهي جنة الله ومايدخل المرء الجنة مرتين وموضع قدمه في مسجد بناحية القدم الشريف من جنوبي دمشق (مجلة العمران عدد خاص عن مدينة دمشق سنة ١٩٦٧ .

(١) ومنها ما أخرج أحمد في مسنده وأبو داود وابن حبان في صحيحهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : عليكم بالشام فانها خيرة الله من أرضه يجتبي اليها خيرته من عباده ـ وقلب الشام دمشق .

اخرج ابو القاسم الرازي من حديث أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أربع مدائن في الدنيا من الجنة : مكة والمدينة وبيت المقدس ودمشق ، واربع مدائن من مدائن النار في الدنيا : أرمينية وقسطنطينية وانطاكية وصنعاء .

(ابن طولون ـ القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ص ٣٨٠)

يأوي اليها المؤمنون على مرّ الزمان الى ماشاء الله وهذا مادعاهم يقولون : « أوّلي شام أخري شام » ، أي أنها الأولى والأخيرة ، ويقصدون بذلك أنها المحشر للأمم قاطبة ، ويدعونها الطاهرة المباركة . ومن غريب الصدف أن أحد المهندسين العثمانيين أشرف على أبنيتها من سفح الجبل فوجدها بشكل ينطبق على شكل حرف (الطاء) فكان الحرف الأول من كلمة «طاهرة» ولما نشر ذلك بين الدوائر الحكومية هنأوه على ذلك الا بتكار الموفق لمدينة يحترمونها من صميم الفؤاد .

* * *

حدود دمشق

كانت دمشق محاطة بحدائق وخمائل من سائر أطرافها ، ولها أبواب متعددة اندثرت [1] ولم يبق منها إلاّ ماكان في جهاتها الشرقية والشمالية والجنوبية ، وقد أصبحت في قلب المدينة الآن .

ا ــ بوّابة الصّالحيّة :

ومنها يخرجون الى طريق الصالحية (في مدخل شارع بغداد ونهاية شارع الملك فيصل اليوم) .

ب ــ بوابة الله :

(باب مصر) وهو في نهاية الميدان (طريق حوران) .

جـ ــ باب المُصَلّى .

د ــ باب الصغير .

هـ ــ باب الجابية .

و ــ باب البَريد .

---

(1) يقول ابن عساكر : « قرات في كتاب عتيق عن أبواب دمشق السبعة : باب كيسان لزحل ، باب شرقي للشمس ، باب توما للزهرة ، باب الصغير للمشتري ، باب الجابية للمريخ ، باب الفراديس لعطارد ، باب الفراديس الاخر المسدود للقمر » [ابن عساكر ــ تاريخ مدينة دمشق ص ١٥]

وهذه لم يبق لها إلاّ المكان الذي يشمل بمسمّاه الحي المجاور له .

أما الأبواب الماثلة إلى يومنا فهي : باب شرقي ، باب توما ، باب السلام ، باب المَنَاخ ، ثم أبواب القلعة : من سوق الحجا واحد ، وآخر من العَصْرُونية .

وهكذا كانت دمشق منفصلة عن القرى المجاورة لها تماماً ، كالصالحية ، جوبر ، المزة ، كَفَرسُوسة ، القدم ، بَرْزة ، القابون . وقد أصبحت هذه القرى من أحيائها وتتصل بها بشوارع وجادات وقصور فخمة ، وحوانيت للتجارة والصناعة .

. . .

نهر بردى

يروي غوطة دمشق بقسميها الشرقي والغربي نهر بردى وروافده وفروعه . فالروافد عيون صغيرة وكبيرة تنساب إليه أثناء جريانه من منبعه في سهل الزَّبَداني حتى يصل مضيق الرَّبْوة . أشهرها : عين الفيجة وعين الخَضْرا وعين الكفير ، والبجّاع وغيرها فيتكامل عند قرية (الهَامَة) وهناك يتفرع عنه (يزيد) بين الربوة ودمّر يتفرع (تُورَا) ويتجهان نحو الغوطة الشرقية فيرويان قراها وسهولها .ثم يتفرع منه عند مضيق الربوة الفروع الآتية يدخل بعضها الدور والبعض الآخر يتجه الى الغوطة الغربية : الداراني ، القَنَاة ، بانياس، القَنَوات ، ثم فرع عَقْرَباء .

ومافضل من مياه بردى تتابر على جريانها إلى أن تنتهي في بحرة (العُتَيْبَة) شرقي الغوطة .

* * *

اقسام المدينة

كانت تقسم إلى ثمانية أثمان وكل واحد منها إلى أحياء وحارات وأزقة ، وهي : قَنَوات ، مأْذَنَة الشَحَم (الحراب) ، القَصّاع ، العَمَارَة ، سوقساروجــة ، اليهود ، باب السّريجة ، الميْدان ، ثم لما اتصلت الأبنية بقرية الصالحية أصبحت هذه من أقسامها الرئيسية .

تصل الأزقة والشوارع والحارات بين أحياء دمشق وأقسامهاالصغرى ، فما كان نافذاً متصلاً بالشوارع الكبرى يدعى (الزُقَاق) ، وما كان غير نافذ يدعى الدَخْلة . ويسمي الأول الأتراك زقاق : (زقّاغي) والدخلة : (جيْقمازي) مشفوعة باسم الدخلة أو الزقاق .

. . .

وصف المدينة الداخلي :

كان في دمشق ثلاثة أسواق كبرى :

١ ــ سوق الحميدية الممتد من جادة (السنْجَقْدار ــ ميْدان) ، وعلى شكل عمودي فوقها إلى أن ينتهي بباب البَرْيد من الجامع الأموي ومنقسم إلى الأسواق الآتية :

أ ــ سوق الأروام :

ويكثر فيه بيع الملابس القديمة بأنواعها .

ب ـ سوق الحميدية :

ويكثر فيه بيع الأجواخ والأقمشة إلى أن ينتهي عند سوق المِسْكيّة أمام الأموي حيث دكاكين بيع الكتب والقرطاسية .

٢ ـ سوق مدحت باشا :

ويمتد عمودياً على جادة سنْجقدار ـ ميدان حتى ينتهي إلى (باب شرقي) من أبواب دمشق . وينقسم إلى أقسام :

الأول : خاص بحوانيت باعة الأحذية .

والثاني : باعة العباآت والعُقْل لذلك كان يسمى سوق (العبجية) .

والثالث : سوق العطارين .

ثم سوق الخضر ، ثم حوانيت مختلفة إلى أن ينتهي إلى باب شرقي .

٣ ـ سوق البزورية :

ويبتدىء من سوق العطارين التابع لسوق مدحَت باشا ، وينتهي عند باب القوّافين الجنوبي للجامع الأموي . وتباع فيه أنواع لوازم الأفراح من سكاكر وعطورات وحبوب وشموع وسواها . وقد جرى توسيعه من قبل مدحت باشا الوالي التركي .

وهذه الأسواق الرئيسية الكبرى الثلاثة مغطاة بسقوف مرتفعةللوقاية من عوارض الشتاء والصيف .

٤ ـ سوق الذرّاع :

ويمتد من سوق الحميدية حتى ينتهي بسوق العَبَجيّة من سوق مدحت باشا ، ويتفرع منه : سوق القاشاني ، والقَبَاقِبيّة ، وهو

مغطى أيضاً بسقف في جميع تفرعاته ، وتكثر فيه المخازن الكبرى وتباع فيه لوازم نسائية من أمتعة وخيطان وعطورات ولوازم الخياطة ولباس الأفراح النسائية .

٥ – سوق الحجا :

ويمتد من السنْجَقدار حتى سوق الأروام وفيه تباع الألبسة والمحافظ الجلدية ، وله سقف في جميع أطرافه ، وله اربعة مداخل : الأول من السنجقدار . الثاني والثالث من خلف السنجقدار .الرابع من سوق الأروام .

. . .

أما جاداتها :

١ – جادة المرجة – سنْجَقدار – درويشية – باب المُصلّى – الميدان – وهذه كلها جادة واحدة تبتدىء من ساحة الشهداء (المرجة) وتنتهي في بَوّابة مصر (تسمى بعرف العوام بَوّابة الله) .

فقسم السنجقدار على طرفيه فنادق وحوانيت لبيع الحلوى ، والمطاعم ، فاذا بلغت (السنجقدار) بدأت حوانيت مختلفة من صيادلة ، وحلاقين ، وباعة أكياس وخِيَم ، فاذا وصلت المنفذ الثاني من سوق الحجا المحاذي لباب قلعة دمشق الرئيسي وجدت إلى اليمين مدخل سوق ضيق كان ينتهي إلى جامع (يدعى جامع سيدي خليل)وفيه حوانيت لبيع الألبسة القديمة وبعض دكاكين مختلفة من

بقالة ١ وعطارة ٢ . وينتشر أمامه باعة الأغذية الفاضلة عن طعام الجند حيث كانت توضع في سطول ٣ كبيرة وتوزع على صحون بسيطة يعتمد عليها الأغراب من الفلاحين وفقراء المغتربين والمتسولين . وقد هدم هذا السوق واستبدل عنه بسوق جديد آخر .

ثم اذا تقدمت قليلاً من جادة السنجقدار وباتجاه سوق الحميدية ، كان هنالك باب عظيم بقي وهو خاص بجند الحراسة العائدين إلى قصر المشيرية (قصر العدل اليوم) وإلى جانبه جامع سرايْ المُشيريّة (المعروف

---

(١) البقال : لغة عامية معناها : بياع الاطعمة والمأكولات ــ وهو كالسمان ــ الا أن البقال متفوق عليه بزيادة أنواع في الاطعمة ، في أيام الفاكهة يوجد عنده من أعلاها كالعنب في أيامه وهلم جرا ، فمن كان جائعا واشتهى طعاما ــ سوى اللحم والطبيخ ــ فيجد عنده الخبز والجبن بسائر أنواعه ، وغير ذلك مما تشتهي نفسه من نحو عنب وبطيخ وبرتقال على حسب كل أوان ، ويمكن ان حرفة البقال تتميز على السمان بتلك الزيادات التي ذكرناها ، مما لاتوجد عند السمان . وهذه الحرفة كثيرة في الشام ، سيما في الاماكن الشهيرة كسوق علي باشا (زالت هذه السوق منذ مطلع هذا القرن) عند سوق الخيل .

(جمال الدين القاسمي ــ قاموس الصناعات الشامية ــ جـ٢ ــ ص ٤٨)

(٢) العطارة : هي مهنة أو حرفة العطار ــ في الاصل ــ لمن يبيع العطر . وأما الان فهي اسم لمن يبيع اصنافاً شتى من سكر ، وارز ، وملح ، وغيرها ، ومن العطارين من يتقن كيفية عمل السكر لانواع متعددة (اصناف السكر ، والمربايات ، الشرابات) ويعتني العطارون ببيع اللوز والفستق ، والبندق ، والجوز ، والصنوبر ، ثم اصناف الشمع المتعددة ، واصناف الزهورات والبذورات التي تدخل العلاجات وغيرها واصناف الشمع والكبريت ، والصوفان ، وورق الكتابة ، وورق السيكارة ، والصابون ، والمسامير ، وماء الزهر ...

ولهذه الحرفة سوق مهم بدمشق يعرف بـ (سوق البزورية) . ويقرب منه الى محلة باب الجابية سوق يسمى (سوق السكرية) . (المصدر السابق ص ٣١٣)

(٣) مفردها : السَّطل وجمعها أسطال وسطول : اناء من نحاس أو معدن ما له عروة يحمل بها (المحيط)

بالسراي العسكرية) وكان خاصاً بالمشير وهو أعظم صاحب رتبةعسكرية في الدولة ، وقائد حاميتها وشؤونها العسكرية المختلفة ، وفي داخل الطريق الموصلة لقصر المشيرية (جادة النصر اليوم) ، كانت توجد ثكنة عسكرية للمشاة وتعرف باسم (اورْته قشْلَه) أي الثكنةالمتوسطة . وإلى جانبها مقام (عثمان بن الحبال) من رجال الملك الظاهر بيبرس ، وقد تهدمت جميعها وتحولت إلى جادة النصر التي تنتهي عند قصر محطة الحجاز الكبرى .

ثم تسير على الجادة العامة من السنجقدار فتجد سوقالدرويشية (هنا جامع درويش باشا) ويكثر فيه باعة اللوازم الخشبية كالكراسي والمقاعد والدرابزونات١ الخشبية ومطارق الكبة ، والأجران الخشب ، وباعة متنوعة ، حتى تصل إلى مدخل سوق مَدْحَت باشا فإذا تجاوزت المدخل في الجادة دخلت سوق السنانية ، وفيه جامع سنَان باشاويتفرع من هنا ثلاثة منافذ ، اثنان على يمين الجادة أحدهما يتصل بحي القنوات وينتهي الى (سيدي خمار) والثاني يتصل بمنفذين آخرين احدهماينتهي بطريق قرية كَفرْسُوسَة والثاني بحي المَيْدان وقبر عاتكة وسواها .

ثم تسير في الجادة الرئيسية حتى تصل إلى (الباب الصغير) ممايلي باب المصلى وهي المقابر الجنوبية للمدينة ومنها منفذ الى حي الشاغُور ، فتستمر بالجادة إلى أن تدخل باب المصلى وعلى طرفيه حوانيتالحدادين ونجاري الأدوات الزراعية الخشبية كالنير والأعْواد وما ماثلها وهنالك

---

(١) الكلمة (يونانية) جمع (درابزون) وهي القوائم المنتظمة التي يعلوها متكأ . (انظر المنجد)

حدادون وجلادون (١) وفرّاية (٢)، على طول الجادة في جانبيها حتى تصل الجَزْماتية حيث تكثر حوانيت لوازم القادمين من قرى حوران، جزمات: (حذاء طويل وله طغراء زرقاء). وعباآت وألبسة مختلفة عربية، وهكذا حتى تصل الى باب مصر.

. . .

الجادة :

٢– جادة المرْجة – سوق علي باشا – سوق الخيل – العلاّفين – خان الباشا – الحواصل – العمارة – مسجد الأقْصاب – باب توما.

كنت تدخل من المرجة (ساحة الشهداء اليوم) إلى سوق علي باشا وهو سوق ضيق خاص ببيع السكاكر والفواكه الممتازة الأخضر منها والمجفف، ولهذا السوق سقف وبابان كانا يوصدان ليلاً. فتخرج منه الى باحة سوق الخيل (وكانت سوقاً للخيل ثم انقلبت في ذلك الوقت إلى مكان وقوف العربات، والحمير البيض التي سنبحث عنها عند بحثنا عن وسائط الركوب داخل المدينة وخارجها).

ومنه إلى سوق العلاّفين وعلى طرفيه بعض المقاهي وحوانيت بيع الحبوب والدواجن من الطيور والدجاج والأرانب والحمام وماشابهها.

ثم تخرج منه إلى ساحة (البحرة المدوّرة) حيث ترى منفذين :

أحدهما إلى اليمين ويدعى (الزرابلية) وفيه تباع أحذية المزارعين وينتهي بجادة السِنْجَقدار.

---

(١) من يعمل بصناعة الجلود من تجفيف وحفظ وغير ذلك.

(٢) مفردها (الفراء) وهو من يصنع العباءات المبطنة بجلود الغنم، وكانت مهنة هامة في دمشق.

والمنفذ الثاني وينتهي إلى (سوق العتيق) وفيه أنواع اللحوم والخضر ويعود لينتهي في سوق الخيل ويتصل بجادة (جَوْزة الحَدْبَاء إلى سوق سَارُوجَة) كما سيأتي . فتخرج منه إلى (خان الباشا) حيث هنالك باعة الخضر والفواكه ، ومنه تصل إلى سوق المحايرية ، وهو خاص بعمل المحارات والصناديق والخيم ، وفيه أعظم شجرة دلب في دمشق إذ كانت مجوفة يوضع فيها مختلف الصناديق على شكل دكان ومساحة تجويفها ثلاثة أمتار مربعة موزعة الفروع على الجوانب ، لكل فرع منها دائرة أسطوانية تزيد على الأربعين سنتمتر مربعة ، وقد أزالها الأتراك قبل النفير العام الأول بقليل وإلى جانبها قطعة من الحجر الأسود بشكل قدح مدور يبلغ طول محيطها سبعة أمتار .

وإلى جانب ذلك منفذ يذهب إلى سوق المناخلية ، وفيه باعة الأخشاب والأحذية ، ويمتد إلى باب الخارجي ومنه إلى سوق العصرونية الذي يباع فيه مختلف أنواع الزجاج والأكواب ولوازم الدور والبناء من مسامير وسواها وأراكيل(1)

---

(1) مفردها : « أركيلة » أو « النارجيلة » . كلمة فارسية تعني جوزة الهند وهي تقسم الى قسمين ، شيشة ، وجوزة وتسمى (بورية) ، أما الشيشة زجاجة بللور كالقنينة ، تختلف كبرا وصغرا ، وجنسا وحسنا ، وغلاء ورخصا ، وغالب ورودها من بلاد الفرنج ، وقد تكون من غير البللور ، من المعدن النحاس الأبيض ، منقوشة نقشا لطيفا ، ترد غالبا من بلاد الهند .

والجوزة هي المرادة من صنعة الشام ، وأركيلة الجوزة هي قشرة جوز الهند الاولى بأن تثقب الجوزة ، ويزال لُبها ، حتى تصير فارغة ، وتصقل ، وتثقب ثقبين : ثقب في رأسها ، وثقب أنزل منه ، يوضع في الاعلى قلب من خشب ، مخروط ، لطيف ، مثقوب . وفي الثاني قصبة مجوفة ، وعلى رأس القلب المذكور رأس من نحاس أصفر ، يوضع على القلب . بعد وضع التنباك فيه بعد نقبه أثقابا صغارا ، وتوضع النار على التنباك فيمص شاربها من القصبة ، فيصعد دخان التنباك لحلقه ، فتأخذه نشوة وطرب . وهذه تصنع في محلة الدرويشية ــ وباب القلعة .

(انظر : محمد سعيد القاسمي ــ قاموس الصناعات الشامية
وحسن الحمامي ــ الازياء الشعبية في سورية)

وبرابيش ١ ، وأوان وصحون ودَّعية وخزفية ممتازة حتى تصل إلى سوق الحميدية ، ثم توالي قليلاً على الجادة إلى منفذين أحدهما يتصل بالمناخلية والثاني على اليسار منفذ (المناخ) ويتصل بجادة سوقساروجة ، وحي العقيبة ، وفيه الحدادون على اختلاف مصنوعاتهم ، وإلى اليسار سوق النحاسين .وعلى الجوانب حواصل الخشب حتى تصل الى مفرق العمارة ، فتجد منفذين : أحدهما إلى اليمين يصل الى باب (النوفرة) وباب الكلاسة وباب العمارة من جامع الأموي ، والثاني :إلىاليسار ، فيصل إلى حي العقيبة ومقابر الدحداح . وفي كلا المنفذين حوانيت لأعمال وصناعات مختلفة ، فاذا واليت السير في الجادة بلغت مَسجد الأَقْصاب وفيه منافذ إلى (حكر السرايا) و (حكر النعناع) حتى تصل البساتين ، وفي اليمين مداخل الدَّبّاغة ومصانع الجلود وفيه (باب السلام) الذي ينتهي إلى حي القيمرية والقصاع ، فتوالي السير إلى أن تصل إلى باب توما ، ثم البساتين وطرق القرىالشرقية والشمالية الشرقية الموصلة الى عذراء والثنايا . ومنفذ أمامي يذهب إلى قرى الغوطة بالشرق ، ثم تسير بالجادة الى اليمين حتى تبلغ حي اليهود والجادة الممتدة إلى باب شرقي ، وفيه مداخل كثيرة .

---

(١) مفردها « بربيش » غير عربية وهيأنابيب المياه تصنع من الجلد أو البلاستيك أو سواه ، ومنها ما يستعمل في (الاركيلة) التي يشرب بها التنباك وهذا النوع شريط من الحديد يلف على قالب كالقصبة مستوية من الخشب ، ثم يلصق عليه جلد رقيق بالسراس ، ثم يلف فوق الجلد شريط أصفر أرفع من شريط باطنه ، أو شريط لماع يسمى (طرفا) أصفر ، تم يقطع ويجعل طوله على حسب رغبة المشتري ، ويجعل في أحد طرفيه فم من الخشب ، الذي يسمى بـ « البز » ؛ وفي الطرف الآخر مثلها ؛ الا ان رأسها رفيع لأجل وضعها في فم قالب الاركيلة ، وبعض (الاكابر).يجعل لطرفيه ــ الفم والعَقِب ــ آلتين من الفضة كالقلب ، كما هو معلوم .
(انظر : محمد سعيد القاسمي ــ قاموس الصناعات الشامية)

٣ — جادة سوقساروجة — جَوْزة الحَدبَاء — الشيخ مجاهد — ستي زَيْتو ُنة — العقيـْبة — مقابر الدحداح — البساتين .

وعلى طرفي هذه الجادة منافذ وأزقة وحارات متعددة ومداخل شتى ، تنتهي هذه الجادة شرقاً إلى الدحداح فالبساتين الشمالية ، وشرقاً تتصل بمسجد الأقصاب فباب توما وتصل إلى (الباب الشرقي) . وجنوباً تصل (بالعمارة) إلى النَوْفَرَة إلى القَيْمَرية شرقاً ومأذنة الشَحْم جنوباً ، وعلى جوانبها منافذ وأزقة كثيرة ، تتصل بكافة أطراف الشمال والشرق والجنوب من المدينة . كما يوجد منفذ قبلي من جَوْزة الحدباء إلى سوق الخيل ، فسوق علي باشا .

٤ — جادة الصالحية :

وتبتدىء من المرجة (ساحة الشهداء اليوم) فيتجه قسم منها على محاذاة بَرَدى ويصل الى الرَبْوة فدمر فباقي القرى الشمالية ، والقسم الآخر يتجه نحو الصالحية بين البساتين ، وكان على محاذاة مدخل جادة (سوقساروجة) بوابة كبرى تعرف باسم بوابة الصالحية ، ولم يكن منفذ جادة بغداد موجوداً ، وأمام البوابة كان (المستشفى العسكري) وظل كذلك طول مدة الانتداب الافرنسي حيث هدم بعد الجلاء ، وبني خلفه دائرة الأركان العامة للجيش السوري حالياً وتسير جادة الصالحية بين البساتين حتى إذا بلغت (جادة البرلمان السوري اليوم) رأيت جدولاً يسير على وجه الأرض مكشوفاً ،وعلى جانبيه البساتين ، ثم تسير إلى محلة الشهداء (اليوم)ولم يكن هناك سوى مسجد الشهداء بين البساتين وخلفه جدول آخر ،وهكذا تظل بين البساتين حتى تصل إلى محلة (عَرْنوس) وهنالك جدول وبعض دور على حافته ، يخترق الجادة من الغرب إلى الشرق وهكذا بين البساتين حتى تصل إلى

قصر (زيوار باشا) وهو (مدرسة تجهيز البنين اليوم وقد كان مدرسة للطب) ، ومنه بين البساتين حتى تصل (الجسر الأبيض) ومن هنا تبتدىء دور قريةالصالحية (حي الصالحية اليوم) . ثم تكثف هذه الجادات كما يتفرع عنها جادات صغرى كثيرة تتصل بأزقة وحارات المدينة .

ومما ينبغي الإلماع إليه أن سوق البزُورِيّة كان ضيقاً لايفصل جانبيه أكثر من مسافة مترين ، وقد خربه بعد أن أحرقه (مدحت باشا) ليستطيع حمل الناس على توسيعه ، ماعدا القسم الباقي إلى الآن وهو المكان الذي يبرز فيه (مخزن أسعد باشا) فيعارض الطريق ، وقد بذل الباشا جهوداً مع الآستانة حتى أفلت من إصلاحات مدحت باشا وظل المخزن معترضاً الطريق حتى الآن . وكذلك كان سوق مدحت باشا .

* * *

أحياء دمشق المشهورة :

حي الصالحية بعد أن ألحق بدمشق ، وهو على سفح الجبل ، حي سوقساروجة ، حي العقيبة ، العَمَارَة ، مسجد الأَقْصَاب ،القَيْمَرية ، الخَراب ، مأذنة الشحم ، باب شرقي ، القَصَّاع ، باب توما ، حي اليهود ،الشَاغُور ، الميدان باب المصلى ، جَرْمَاتية ، الساحة والقاعة، باب مصر ، القنوات ، باب سريجة قصر الحَجّاج ، سويقة ، قبر عاتكة ، شُوَيْكة ، الخَضيرية .

وأول قرية اتصلت بمدينة دمشق هي الصالحية نظراً لوفرة الأضرحة والمزارات فيها ؛ ثم لجودة هوائها وتربتها المرتفعة الجافة ، فأصبحت

اليوم أكبر من دمشق نفسها قبل اتساعها ، وفيها حي الصالحية وهي أساس القرية ، ثم حي مهاجري الأكراد ، ثم حي مهاجري كريد والبوسنة والبلقان من مسلمي الأتراك والأرناؤوط [1] والروم ،ثم حي اليهود،وحي النصارى .

الخلاصة إن دمشق كانت بمثابة بناء داخل حديقة غناء بالنسبة لما حولها من البساتين المتصلة بقرى الغوطة المحيطة بها .

(1) وهم سكان ألبانيا والتي تسمى بلاد الارناؤوط وهي من دول البلقان تقع بين يوغوسلافيا واليونان وبحر الادرياتيك .

نفوسها

لم يكن في عهد الأتراك العثمانيين سجلات صحيحة لكثرة تلاعب الموظفين بها تحت تأثيرات شتى ، منها الاهمال والكسل ، وعدم وجود رؤساء ومفتشين مخلصين ، ومنها الرشوات التي كانت تعطى لمأموري النفوس ١ عن طريق مختاري ٢ الأحياء هرباً من الجندية ، فيظل القسم الأغلب فيها مكتوماً ، ومع ذلك فقد كانت تقدر نفوسها بنحو ثلاثمائة ألف نسمة ، بما فيهم المستوطنون فيها من مسلمي الأجانب وكانوا كثرة لايستهان بها ، كالأَفغان ، والعجم ، والهنود ، والأَرْناؤوط ، والشَرْكس ، وغيرهم ٣ .

. . .

(١) هم الموظفون الذين يعملون في دوائر الاحوال المدنية (الشخصية) حيث يمنح المواطنون البطاقات (الهويات) الشخصية وغيرها .

(٢) مفردها : (مختار) شخص تختاره الدولة في الاحياء والقرى (أصغر الوحدات الادارية) ليكون صلة الوصل بين الدوائر الحكومية والمواطنين فيما يتعلق ببعض المسائل البسيطة (زواج ـ ولادة ـ وفاة ـ الخ ...)

(انظر : التقسيمات الادارية في ج٠ ع٠ س٠ ص٥)

(٣) جاء في ذيل صفحة الأصل عبارة : « كان سوق الحميدية خندقا » دون أي زيادة ، وربما كان المقصود من ذلك هو الخندق الذي كان يحيط بالمدينة والذي ردم كله ، أو يقصد بها الخندق الذي يحيط بقلعة دمشق والذي كان يمتلىء بالماء عند اللزوم ، وذلك حتى القرن السابع عشر ، وذكر أحد المؤرخين أن عمقه عند القلعة كان ينوف على مائة ذراع .

(عبد القادر الريحاوي ـ تاريخ مدينة دمشق ص ١٤٧)

ملابسهم :

كان لكل من الطوائف في دمشق أزياء خاصة من الكساء في أعمالهم ومثلها في مواسم اعيادهم .

فالمسلمون منهم : يلبسون القنباز ١ وعليه معطف رقيق ويلبسون عمائم مطرزة فوق الطرابيش ضيقة من أطرافها إلا من ناحية الجبهة فإنها ترتفع إلى محاذاة القسم العلوي من الطربوش ولونها بردقاني٢ أو بردقاني فاتح ، فإذا كانت العمامة ساترة أطراف الطربوش ومنحطة إلى الآذان، فتشير إلى أن صاحبها من العلماء الزاهدين ؛ وان كانت من القماش الأبيض الرقيق فإما أن يكون إماماً ، أو خطيباً لمسجد ، أو قاضياً أو مفتياً ، أو شيخ مدرسة قرآنية ، وان كان القماش أخضر فإن كانت ملتفة على تاج كان من السادة الرفاعية ٣ ، وان كانت على الطربوش

---

(١) القنبار (الغنباز) كما يروي المقري في تاريخه هو ثوب طويل يصل الى مشط القدم ، مفتوح بكليته من الامام – فهو اذن من اللباس المتصالب كما يقول : (لوروغوران) عريض من الاسفل ثم يضيق تدريجيا نحو الاعلى ؛، ويردف الطرف الايمن عادة فوق الطرف الايسر ويغلق عند العنق بزر ظاهر .

(د . حسن حمامي الازياء الشعبية وتقاليدها في سورية ص ٢٧٢)

(٢) نلاحظ أن المؤلف يكتب « بردقاني » وليس « برتقالي » ولم نجد تفسيراً لذلك. كما أن بعض معاصريه يكتبونها مثله أيضا .

(٣) احدى الطرق الدينية الصوفية تنسب الى القطب الكبير والامام الشهير ، أحد الاقطاب سيدي أبي العباس أحمد محيي الدين بن أبي الحسن علي الرفاعي ، رضي الله عنه ، ولد سنة ٥١٢ هـ وتوفي سنة ٥٧٨ هـ ، وضريحه ببلدة أم عبيدة بالعراق ، وزي هذه الطريقة الاسمر والابيض . ونحن هنا لن نتحدث عن أساليب هذه الطرق وانما فقط نذكر مؤسسيها .

(د . أبو الوفا الغنيمي التفتازاني – الطرق الصوفية في مصر ص ٧٥)

فمن السادات والأشراف ١ ، وإن كانت سوداء فمن السادة القادرية٢ ، وان علا اللون الأخضر قطعة مستديرة مقصبة ٣ كان من الأشراف . وإن كانت على قلنسوة طويلة من الصوف الأحمر أو الوبر فيدل على أنه شيخ السادة المولوية٤ . وهؤلاء يلبسون الجبة٥ إما خضراء أو سوداء أو حمراء ، وكل حسب رغبته والطريقة المرتبط بها ، وأما بقية الناس فكانوا يلبسون الطرابيش الحمراء ولها طغراء سوداء مدلاة الى الخلف أو إلى أحد الجانبين ، كما هي اليوم .

ومنهم من كانوا يضعون على رؤوسهم العمائم التجارية الكبيرة ، تستر عامة الطربوش ، ملتفة فوق طغراء زرقاء غليظة تمتد الى مافوق

---

(١) السادات والاشراف : هم المنتسبون الى آل البيت عليهم السلام « الى علي ابن أبي طالب » رضي الله عنه من بنيه وبناته .

(٢) احدى الطرق الدينية الصوفية تنسب الى الامام الكبير ، والعارف الجليل ، أحد الاقطاب الاربعة ، سيدي أبي صالح عبد القادر بن موسى بن عبد الله الحسني الجيلي رضي الله عنه المتوفى سنة ٦٥١ هـ ، وضريحه ببغداد مشهور ، وسند هذه الطريقة حتى أبي سعيد الحسن البصري رضي الله عنه (وشيوخ الطريقة القادرية هم الآن في مدينة حماة) .

(. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ـ الطرق الصوفية في مصر ص ٧٥)

(٣) أي أنها مزينة بالشريط المطروق من الذهب أو الفضة .

(انظر المنجد)

(٤) احدى الطرق الدينية الصوفية تنسب الى الامام الولي العارف الشهير مولانا جلال الدين اروملي البكري الصديقي المتوفى سنة ٦٧٢ هـ ، وضريحه في مدينة قونية من بلاد الترك .

(د . أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ـ الطرق الصوفية في مصر ص ٧٥)

(٥) الجبة : معطف من الجوخ قديم في حياة الشرق والشرقيين أخذه الغرب عن كهنة الاشوريين والفرس ، وليس للجبة عادة ياقة أو جيوب وتكون عريضة الاكمام وتقوّر على استدارة العنق ولا تلتقي حافتاها الاماميتان الا بضمهما بواسطة اليدين كما ليس لها أزرار ، ولا عرى ، لذا تبقى مفتوحة على الدوام .

(د . حسن حمامي . الازياء الشعبية وتقاليدها في سورية ص ٢٧٨)

الأذن اليمنى أو الأذن اليسرى من جانب واحد ، والطربوش مضلع كطرابيش أهل المغرب . فأما أصحاب العمائم التجارية الصغيرة فهم سواد الناس على اختلاف مهنهم ؛ فكان الشاب إذا تزوج أو انتهت مدة خدمته في الجندية ؛ يشد العمامة من هذا الطراز فوق رأسه ، فإن كان منسوباً لدار علم أو دين أطلق لحيته غالباً . ويلبس هؤلاء القَنَابيز كتانية أو قطنية أو حريرية حسب مهنهم فان كانت المهنة شاقة كان القنْبَاز من القماش العادي ، وان كان يحترف حرفة نظيفة خالية من اعتلاق الأوساخ يلبس القنْباز الحرير ، وألوان تلك القنابيز وأجناسها مختلفة ، مصرية ، حامدية ، آلاَجه ، البَتّة ، وغيرها ثم يحزمون أوساطهم بحزام عريض من الشال ١ المقلم ، أو من القطن الأبيض ، أو الملّون ، أو من الحرير ، ويربطونها إلى الجانب الأيسر ، ويضعون بين الشال والقنْباز الساعة المدلاة من العنق بخيط حرير أو قطن . أو السواك ويكون غالباً مربوطاً بخيط المحزم ، وإلى جانب الظهر يعلقون البَشْكير ٢ (منشفة صغيرة) وهي خاصة للوضوء ، ويحتاجها أحياناً لنقل بعض الفواكه أو الخضر أو الخبز عند عودته إلى الدار .

وكان معظم الناس يلبسون الأحذية المكشوفة إلا عند أصابع الرجل ويسمونها (كَنْدَرَة) إما سوداء أو حمراء ، يحتذونها بدون جوَارب

(١) الشال : زنار أهل الجبال العالية الشديدة البرد والتسمية في الاصل فارسية ولكنها دخلت عموم لغات العالم ، وهي نوع من القماش (الموصلين) أو (الصوف) بحيث تبطن من الداخل وتلف حول الخصر دوائر متعددة بحيث تبدو ثنياتها من لامام متدرجة ومنسقة فوق بعضها بعدد فردي دائما .

(د . حسن حمامي . الازياء الشعبية ص ١٥٢)

(٢) كلمة فارسية .

غالباً . ومنهم من كان يلبس القباقيب في الشتاء غالباً ،وبصورة عامة فإن كسوة القنْباز كانت للصيف غالباً ، وأما العمال وأصحاب المهن الشاقة فيلبسون السروال الأسود الضخم يضيق عند كعبي الرجل ، فيحزمونه على أوساطهم بعد أن يدخلوا فيه ثوباً مفتوحاً من الصدر يسمى (متيان) ١ وتحت المتيان الصَدْرِيّة ولها أزرار من نفس القماش أو من الخيوط المنسوجة بشكل أكَرَة ، وتحت الجميع قميص ممايلي الجسم وبعد أن يدخل الجميع في نطاق سرواله الأسود غالباً ويكون السروال أحياناً بألوان أخرى يشدّعلى خاصرته وبطنه بقطعة قماش بعرض كف اليد وبطول ثلاثة أذرع بلون أحمر أو أبيض يسمونه (الكمر) ٢ ، وله بمنتصفه جلدتان مثقوبتان طويلتان أو أكثر يدخلهما في أحد طرفي الكَمَر بواسطة قطع حديدية صغيرة منحنية ، وفي وسطها مسمار معلق بها ويلف باقي الكَمَر إلى نهايته وهو مجوف يضع فيه الدراهم المعدنية غالباً .

وكانت الأحذية الحمراء الرقيقة تستعمل من قبل أغلبية الناس لرشاقتها وخفتها ، فيتبارون بنشيجها (زقزقة) عند السير .

---

(١) يلبس فوق الصدرية وهو قطعة نصفية مفتوحة من الامام ذات أكمام طويلة ويبقى (المتيان) مفتوحا دائما من الامام ويتصالب طرفاه من الاسفل فوق الزنار وليس له أزرار ، أما قماشه ولونه فيكونان متممين لقماش ولون الثياب عامة ويطرز بالقصب من الامام وعلى طرفي الكمين بزخارف هندسية متنوعة .

(الازياء الشعبية وتقاليدها في سورية ص ١٤٩)

(٢) كلمة فارسية تعني الزنار أو النطاق . وهذا يكون من الحرير المقلم في الصيف وقد يكون نطاقا من الجلد العريض أو الضيّق وله ابزيم ، وقد يكون من الصوف المحبوك السكري اللون وبعرض يتراوح بين ١٠ ــ ١٢ سم ويستعمله الباعة والحرفيون.

(المصدر السابق ص ٢٧٧)

أما طبقة المتوسطين والأغنياء فكانوا يلبسون الأحذية اللماعة ، (شُوْفْرو) ، وفي الشتاء كانوا جميعاً يلبسون الجوارب الصوفية من صنع البلد ، وخاصة كانت نساء الأكراد تنسجها بمغازل يدوية ، وتكون ملونة وبأشكال هندسية جميلة ، وكان بعضهم يجلّدونها فيضعون فوقها قطعاً من الجلد الرقيق يخيطونها بها من فوق أصابع الرجل وباطن القدم حتى خلف القدم مما يلي الكعبين ، ويلبسونها بالقباقيب شتاء ، أما المتوسطون والأغنياء فكانوا يلبسون المِسْتْ (الخف) من الجلد بستر الكعبين ليستطيعوا مسحه عند الوضوء زمن البرد ، وقليل منهم يلبسون (الصَّبْ) أي بعد أن يكسو قدمه بالخف يلبس حذاء جلد واسع وهذا على نوعين : واحد من صنع الأجانب والآخر من صنع البلد ، يتفاوت استعماله بين طبقات الأغنياء والمتوسطين غالباً .

إن طبقة الصناع والعمال يلبسون الطاقية من نسيج ملون ؛ أو اللبادة من الصوف أو الوبر المضغوط ، ويحزمون فوقها الكوفية أو المنديل أو قطعة قماش أخرى . ومنهم من يضع الكوفية على رأسه ويربط جانبيها فوق رأسه بعد أن يمر بهما من تحت ذقنه ، ومنهم من يلقي طرفيها بعد لفها على الرقبة إلى الوراء فوق الطربوش أو الطاقية ، دفعاً للبرد أو حرارة الشمس . ثم إنهم جميعاً أثناء ممارستهم الأعمال يكتفون بستر رؤوسهم بطاقية رقيقة تكون تحت العمائم أو الكوفيات ، ومن الناس من يختارون العقال الأسود (ابْرِيْم) فوق الكوفية وغالبية هؤلاء من بعض الأرياف أو من الاكراد .

على أن كافة هذه الملابس تختلف أيام الأعياد أو المواسم والأفراح كما سترى ذلك في محله .

إن كسوة القنباز تخف قليلاً في الشتاء إذ يعمد الناس الى السراويل الجوخ والميّاتين والصّداري التي غالباً ماتكون من لون وجنس واحد ويضعون فوقها المعاطف الصوفية والعباآت ، فكل له عباءة من جنس معين حسب مقدرته المالية ، وألوانها شتى ، وتكون غليظة قوية لاتنفذ منها الأمطار ، ومع ذلك فلا تكاد تخلو يد من مظلة واقية المطر (شَمْسيّة) يختلف جنسهاوقيمتها،وكلها سوداء ، إلافي الصيف فإنها غالباً بيضاء.

كان من العادة فيمن أتموامدة الجندية ودخلوا في قسم (الرّديف أو المستحفظ) من الرجال ، وهم الذين تجاوزوا الأربعين فما فوق أن يضعوا على رؤوسهم العمائم الغليظة فوق الطربوش المغربي والطغراء الزرقاء الثخينة ، ويلبسون (الدّامِر أو القطشية) ١ وكلاهما كسوة إلى حذاء البطن مفتوحة ومطرزة بلونها إن كان الدامر أزرق أو أسود فوق صدرية من لونه ، وتحته الشّال العريض ، ويكون أحياناً لون العمائم أغباني ٢ أو أزرق مزركش بزرقة وبياض وسواد بشكل

---

(١) القطشية : قطعة نصفية مفتوحة من الامام عريضة وواسعة ذات أكمام طويلة ليس لها أزرار لذا تبقى مفتوحة من الامام على الدوام ، ولانها ترتدي فوق الثياب تكون موضوعا لزخارف كثيرة ومطرزات كثيرة وغنية على غاية من الروعة والجمال إذ يلبسها الجنسان بفخار واعتزاز ولا سيما العروسان ، أما (قشطية) العمل تكون بسيطة وبدون زخارف ذهبية يقتصر على دروب من الخلف ، ولونها أسود عموما .
(د . حسين حمامي ـ الازياء الشعبية وتقاليدها ـ ص ١٨٤)

(٢) الاغباني : وكانت تعرف بـ « عزيز خان » عبارة عن قطعة من ثوب مربعة طولها ذراعان في مثلهما ، تعمل من الحرير الدقيق لونها أبيض وأدكن ، تطرز بألوان الحرير الجميلة وبأنواع الرسوم التي قد تعجز عنها ريشة المتفننين من المصورين »، وكانت تستعمل للعمائم فقط على قماش قطني وبعض الحرير .

أما الآن تطرز منها أثواب طول الثوب تسعة أذرع وعرضه ذراع ، وتعمل منها القفاطين وهي الالبسة الوطنية في الشام ، وتسمى القطعة منه : أي ما طوله ذراعان وعرضه كذلك « سلك أغباني » وهو يستعمل في الشام كغطاء للرأس أي كوفية وزنارا وملفا للاولاد الرضع ، وعمامة .

(انظر : محمد كرد علي ـ خطط الشام ٢٠٤/٤
محمد سعيد القاسمي ـ قاموس الصناعات الشامية ص ٢٨٢)

رسم دقيق . وكان بعض الناس يتجرد صيفاً من الكسوة إلا من سربال أبيض وفوقه الخرقة ١ (مضربية) من الأطلس ٢ مشغولة بشكل دقيق، وعلى رؤوسهم من جنسها تفريعة ضيقة ، وهم الطبقة الغنية .

أما لباس الدوائر الحكومية ، فكان اللباس الافرنجي جاكيت٣ صدرية ، سروال ضيق وفوقه معطف من جنسه أو من أقمشة أخرى شتاء ، وتختلف ألوانها ونسيجها باختلاف المواسم الجوية ، من برودة وحرارة واعتدال ، وكان ذلك غالباً عند ممارستهم الأعمال الرسمية لدى الدوائر ، وأما خارجها فكانوا يشاركون الناس بلبس القنابيز الروز ٤ أو القماش الأبيض صيفاً وعلى رؤوسهم الطرابيش الحمراء بطغراء تمتد على طول الطربوش ، خلافاً لطغراء العسكريين فقد كانت تعادل نصف الطغراء العادية ، ويلبس هؤلاء تحتها القمصان المنشاة (أفرنجية) بقبة بيضاء عالية مرتبطة بربطة مدلاة على الصدر وتدخل تحت الصدرية ، وذلك لوقاية قبة الجاكيت من وسخ الرقبة عند التعرق ، وكذلك الأكمام

---

(١) الخرقة (مضربية) اسمها الحقيقي (المدربية) ، يلفظها العوام « مضربية » وتشبه في تفصيلها المعطف الا أنها عريضة الاكمام تبقى مفتوحة على الدوام ، وهي مقلمة على الغالب ، وتدرب بخطوط مستقيمة أو مائلة .

(قاموس الصناعات الشامية ص ٢٨٢)

(٢) نوع من القماش الحريري المنسوج ذو وجه لامع بألوان زاهية فاتحة أزرق ، أو زهري او احمر او أصفر الخ .

(محمد سعيد القاسمي ـ قاموس الصناعات الشامية ـ ٢٨٢ والمنجد ص ٤٦٩)

(٣) الكلمة غير عربية ، وهي نوع من الملابس الخاص بالرجال ، مستوردة من الغرب ، أشبه بالمعطف القصير ، تصنع من الجوخ ، وطويلة تصل حتى الركبة تقريبا .

(المصدر السابق ص ٢٤٧)

(٤) القنابيز الروز ، تستخدم لفصل الصيف فقط وتصنع من الحرير الابيض الساذج وهو ما يطلق عليه اسم (الروز) .

(المصدر السابق ص ٢٧٣)

ويتباهون في وضع بنود ١ الساعات من جانب إلى آخر فوق الصدرية الضيقة في جيوبها ، ويتختمون بمختلف أنواع الخواتم ، وعلى أنوفهم أنواع مختلفة من النظارات الزجاجية ، (كُوزْلُكْ) للدلالة على الانهماك بالأعمال والأمور الرسمية الشاقة ووفرة المطالعة والدقة ، ولو كانوا بغنى عنها ، فيستوي في ذلك الشباب والشيوخ من ضعفاء البصر أو سليمي العيون .

ويزيدعلى ذلك أنهم يتطيبون ويمشون في الأسواق في وقع خاص من خطواتهم ، واذا تكلموا شمروا أنوفهم وتكلموا من جوانب أشداقهم بنبرات خاصة للدلالةعلى أنهم من الرسميين العظماء ، وإذا سألت [أحداً]٢ منهم عن عمله أو سألت أحد أقاربه وأصدقائه أجابك (في السرايا) بمنتهى العظمة والعجرفة .

ويتميزون بكلمة (أفَنْدِيْ) أو (بِكْ) غالباً ولايرضون لنسائهم الا كلمة (خَانُمْ) مقرونة إلى الاسماء الحقيقية ، وكثيراً مايسخّرون خادم الغرفة ليحمل لهم المتاع والخضر وحاجياتهم الأخرى إلى الدار أو يحمل صغارهم ويمشون أمام أو خلف السيدة (الخَانُم) في الأسواق ويسمونه (التَابِـع) .

ثم لابد في غير الشتاء من أن يكون له عصا (باسْتُونْ) ويكون رأسه مفضضاً أو مذهباً حسب درجة مكانته في السراي ، وكفاءته المالية ، وإذا خرج هؤلاء إلى الأسواق في غير الأيام الرسمية لبسوا

---

(١) مفردها : البَنْد : والمقصود هنا هو الخيط المجدول باليد الذي تربط به الساعة أو الطبنجة وسواها ويكون بألوان متعددة .

(انظر المنجد — وكنز العلوم واللغة — محمد فريد وجدي)

(٢) اضافة يقتضيها السياق .

قميصاً ملوناً طويلاً وفوقه معطف قصير (جاكيت) واحتذوا بالقبقاب للدلالة على أنهم من الطبقة الرسمية ، وكثيراً مايسير التابع خلفهم وبيده سلة الخضر أو الغلام المدلل على كتفه أو يديه ، فينظرون يمنة ويسرة في الأسواق بكبرياء كأنهم أغراب عنها ويرمون الناس بجوانب أحداقهم ، واذا تكلموا فبرؤوس أنوفهم وكلمات متقطعة ونبرات ملؤها الكبرياء والصلف ، ويتحاشون غالباً كثرة الكلام لئلا يصبح بينهم وبين الناس نوع من التودد وعدم الكلفة ، ويسخرون أحياناً من شاؤوا لأمورهم الخاصة ونقل حاجياتهم ، والناس على غاية من السذاجة يسرعون إلى قضاء حوائجهم ، وهم يعلمون أن لافائدة من ذلك إلا المباهاة بأنهم تعارفوا إلى واحد من موظفي (السراي) دار الحكومة ، وماكان فوق ذلك يتحاشى هؤلاء المخاليع من طبقة الموظفين من توجيه قوارص[1] الكلام لأولئك البسطاء من الناس .

هذا مجمل أنواع الأزياء مما يرتديه الرجال على اختلاف طبقاتهم من المسلمين .

* * *

أما الرجال المسيحيون واليهود :

فهم لايختلفون من ناحية القنباز والسروال إلا بالألوان فكانت ألوان قنابيزهم ميالة إلى الصفراء وعلى رؤوسهم الطرابيش [2] ذاتها ولكنهم

(١) في الاصل . « قوارس » ولعلها طفرة قلم .

(٢) لباس (غطاء للرأس) أصله من ألبانيا (ارناؤوط) وهو معروف ، ومن أصنافه الطربوش المعتاد ، ثم المصري ، والمغربي وكل منها له طرّة وهو على اصطلاح أهل دمشق تسمى (شرّابة) من الطرر المصطلح عليها بـ « الملكية » ومنها « العسكرية » ومنها « العباسية » وكل منها على صنفة مخصوصة ، والسلطان محمود خان (محمود الثاني) هو أول من لبس الطربوش من الملوك الاسلامية ، وترك التعمم تمشيا مع المدنيــة الاوربيــة .

(د . حسن حمامي . الازياء الشعبية وتقاليدها في سوريةص٢٨٢)

(جمال الدين القاسمي . قاموس الصناعات الشامية ج٢ ص ٣٧٥)

يعتمون فوقها بالمناديل (قطع أقمشة رقيقة قطنية ملونة كانت تستعملها النساء المسلمات لستر وجوههن) كالخمار فإذا رأيت الرجل يلبس قنبازاً مقلّماً ١ أصفر وطَرْبُوشاً فوقه المنديل أدركت أنه مسيحي ، ويعرفون فوق ذلك بحلق لحيهم وإطلاق شواربهم ، إلا أنهم يلبسون تحت القَنْبَاز سراويل بيضاء يدخلون نهايتها داخل الجوارب ٢ ويربطونها بها ، بينما المسلمون تتدلى سراويلهم تحت القنباز فوق الجوارب . أما المعاطف فلا تختلف في شيء عما يلبسه المسلمون . أما شبابهم فيلبسون الطرابيش المائلة إلى السواد وتكون طويلة وبها يُعرفون ، .

أما المتعلمون منهم فيلبسون اللباس الافرنجي ٣ ، وصغارهم السروال الافرنجي القصير ، وجوارب طويلة حتى الركبة .

واليهود يلبسون نفس هذا الطراز من اللباس ، إنما الغالب في اليهود الامتناع عن حلق اللحى ، فانهم يطلقونها . وطَرَابيشهم قصيرة يسترها منديل أو أكثر من منديل واحد . ويربطون في أعناقهم كيس الدراهم ويدخلونه في صدورهم داخل الصدرية ٤ وتحت المتيان والمحزم خوفاً من الضياع .

وكان أكثر النصارى يشتغلون في الصرافة ٥ أو الخياطة أو البناء

---

(١) بخطوط طولانية مستقيمة وبألوان متعددة أغلبها الابيض .

(٢) مفردها : الجورَب ـ جمع جوارب وجَواربَة : لفافة الرجل (كلمة فارسية) وتعرف باسم (كلسات) . (انظر المنجد)

(٣) وهو لباس أهل المدن الآن والمؤلف من (جاكيت وبنطال) وربطة عنق فوق القميص ، وهذا النوع من اللباس ينسب الى بلاد الافرنج .

(٤) ثوب يغشي الصدر والمولدون يقولون صدرية على النسبة الى الصدر .
(د . حسن حمامي . الازياء الشعبية وتقاليدها في سورية ص ٢٨٣)

(٥) الصرافة : حرفة الصراف ، أو الصيرف والصيرفي جمع صيارفة : بياع النقود بنقود غيرها . (انظر المنجد)

والحجارة والنحاس ، أو أجراء في المقاهي والفنادق والمخازن الكبرى ، أو لدى قناصل[1] الدول الأجنبية ، وقليل منهم الذي كان يقبل على عمل من أعمال الحكومة .

وكذلك اليهود فلهم الصيارف وبيع الأمتعة المستعملة ، ومسح الأحذية وبيع البَيْض المشوي على رؤوسهم ، وقليل منهم يشتغلون ببيع الغزل والنسيج والأقمشة المختلفة من قطنية وصوفية وسواها ، أما وقت العمل فإن الجميع يتجردون من القنباز ويكتفون بالسروال والقميص أثناء العمل .



(١) مفردها : « قنصل » : كلمة أجنبية بمعنى ممثل أو مندوب دولة لدى دولة اخرى .

وسائط النقل داخل المدينة

لم تكن السيارة معروفة في ذلك العهد ، ولم يكن في مدينة دمشق للتنقل داخل المدينة إلا بضع عربات (عجلة) تجرها الخيل ، وكان مقرها في المرجة (ساحة الشهداء اليوم) ، حيث تقف إلى الجانب الشرقي تحت ظلال شجيرات الصفصاف حول حوض ماء مرتفع قليلاً ، تشرب منه منه خيول تلك العجلات ، وهي معدة بوجه خاص لتنقل الناس من حي الى حي وخاصة لنقل المرضى الى دور الأطباء ، إذ كانت العادة أن يسيروا على أقدامهم حيثما ذهبوا ، ولما تمّ الاتصال بين المدينة وبعض القرى المجاورة كانت هذه العربات تنتقل بين المدينة والصالحية ، والربوة ، المزة ، دمر ، داريّا ، جوبر ، عربين ، وبقية قرى الغوطة ولكن بشكل بسيط ونادر جداً ، اذ كان جميع القرويين يأتون على دوابهم الخاصة ، وكان لبعض بيوت الثراء في دمشق عربات خاصة بهم يمتطونها في روحاتهم وغدواتهم وسيرانهم [1] ، فكان لآل العظم ، والشمعة والحسيني والغزي واليوسف [2] ومن في طبقتهم عربات

---

(١) كلمة يستعملها العامة بمعنى « النزهة » المصحوبة بطعام ، وغالبا ما تكون في الربيع والصيف وقد يمتد الى أوائل الخريف وتدور في أيام العطل والاعياد ، وكان الناس قديما يذهبون الى (السيران) راكبين (الرهوانة) أو (الحمير) ويسير فرسان كل فئة على حدة الى مكان (السيران) ، وبعضهم يتخذون العربات ذات الخيول .

(انظر مجلة العمران ـ عدد خاص عن مدينة دمشق عام ١٩٦٧ ص ٢١٢)

(٢) جميعها عائلات دمشقية غنية ، لعب بعض الافراد منها دورا سياسيا بارزا في دمشق وخاصة في العهد العثماني .

وسوّاس يركبونها في الأعياد الرسمية أو الحكومية عند استقبال الولاة وكبار العسكريين أو عند وداعهم . وكانت هنالك واسطة أخرى للتنقل داخل المدينة وخارجها إلى القرى القريبة ، فهنالك سوق الخيل الذي أعدت فيه الحمر البيضاء للنقل ، ولونها أبيض ومن علاماتها تلوين ذيلها باللون الأحمر لتعرف بأنها من الحمير المعدة للإيجار ، كما كان لها برادع [1] بشكل واحد معروف عند كافة الناس ، فاذا أريد استئجار واحد منها أو أكثر (إذا كانوا جماعة) عمدوا إلى دكان صغيرة وهي بمثابة مركز شركة النقل فاستأجروا قدر حاجتهم وركبوها ، لساعة أو أكثر أو ليوم أو لأكثر ، ويذهب وراءهم أحد السعاة التابعين للشركة وبيده العصا أو السوط جرياً على قدميه فيضربها حتى تصل بهم إلى المكان المقصود ثم يعود بها . وكثيراً ما كانت تؤجر بدون ساعٍ إذا كان المستأجر معروفاً لديهم أو كان المحل المقصود الوصول إليه داخل المدينة وبوجه عام كان الناس يعتمدون على ركوب أقدامهم في قضاء حوائجهم سواء أداخل المدينة أم خارجها ، وفيما عدا ذلك فلا واسطة للتنقل ، وقد طلعت أواخر السنة العاشرة (العجلة) بسكليت [2] المعروفة وكانت نادرة وقليلة جداً ثم تكاثرت ، وائتلفها الناس فصارت اليوم تزدحم بها الأزقة والشوارع .

وسائط النقل الخارجية :

كان الناس يعتمدون في أسفارهم خارج المدينة الى المدن البعيدة وبنقل تجاراتهم على البغال والحمير ، يحتزمون بضائعهم ويركبون

---

(١) مفردها : « البردعة » كلمة عامية فصيحتها « البرذعة » وهي كساء الدابة ، معروفة .

(٢) الكلمة أجنبية المقصود بها « الدراجة الهوائية العادية » المعروفة .

ويقطعون الطرق على مسافات معينة ، بقوافل لها في رقاب دوابهاجلاجل صغيرة وكبيرة ، تساعد الدواب على النشاط والجد في السير كما تكون وسيلة استئناس المسافرين . وإذا كانت الطريق وعرة والمسافة بعيدة نزلوا في الطرق للراحة في (خانات) ١ مقامة لهذا القصد في العراء ، يأوون إليها في شدة الحر كما يحفظون أجسامهم وبضائعهم من الأمطاروالثلوج واللصوص والوحوش ليلاً وشتاء .

ومن أمثال العامة قولهم (هي ليلة يا مُكَاري) ٢ فإذا تحمل أحد صعوبات السفر أو شاقة الطريق قالوا له : (هي ليلة يامُكَاري) أي أنك تتحمل عناء ليلة ثم تخلد للاطمئنان والراحة ، ثم يقولون : (يقضي المكاري حياته وهو يمني نفسه دوماً بقوله هي ليلة يا مُكَاري) ، والأصح أن هذا المثل كان نتيجة مايتحمله المسافرون من غطرسة المكاري الذي هو دليل الطريق وقائد القافلة التي تأتمر بأمره وتسير بإرشاده ، فكانوا يقولون (هي ليلة يامُكاري) أي سنتحمل كل مانلاقي منك ولابد من الانتهاء من السفر .

---

(١) الخانات : مفردها « خان » فندق متسع لايواء المسافرين ، وكان لها مداخل ضخمة ذات عقود وأبراج ، وتتكون في الداخل من صحن متسع ، تربط فيه الدواب، ويحف بالصحن حجرات « حواصل » ، تودع فيه العروض ، تعلوها حجرات أخرى لمبيت المسافرين ، وفي الخارج حوانيت للتجارة .

(الموسوعة العربية الميسرة ـ طبعة ١٩٧٢ ـ اصدار دار الشعب في القاهرة ص ٧٥٠)

(٢) المُكَاري : اسم يغلب لمن يكون عنده دواب ، من خيل وبغال ، يؤجرها للركوب ، وحمل البضائع من بلد لاخر ، وكانت هذه الحرفة رائجة فيدمشق سابقا ، وذلك قبل حدوث الشمندوفير وكان لا يقل يوميا من وجود مئتي (مكار) بدمشق أو أكثر فانه لايقل مع كل مكاري من خمس أو عشر دواب . ومـا كـان يحتاجـه مـن أمـر اطعامهم ومبيتهم شيء كبير ، حيث تربح من ذلك المتعيشة من الاهالي والتجار والبوايكية والعلافة والخاناتية .

(جمال الدين القاسمي ـ قاموس الصناعات الشامية)

وقد قيل في هذا المعنى :

تَحَوُّل كمَا يَتَحَوَّل حمارسُوء سأَصْبر والأمُورُ لهَا فتوق
فإمّا أنْ أمُوتَ أو المكَاري وإمّا يَنْتَهي هَذا الطَرِيقُ

ومن الوسائط الخارجية المعروفة هو : (الحَنْتُور) وهو بشكل سيارة أوتوبوس (١) كبير يجره الدواب على مراحل بين دمشق وبيروت وسواها ، وفي كل مرحلة قصيرة تتغير الدواب إلى أن ينتهي المسافر إلى مقصوده . فيخرج من دمشق ويبدل الخيل في الهامة وبعد الاستراحة قليلاً تعود الخيل إلى دمشق بالعربة القادمة وتعود خيل البريد الواصل إلى الهَامَة بعربة دمشق ، وهكذا إلى ميسلون ، وهنالك محط آخر تستبدل فيه بل عدة محطات إلى أن يدخلوا المدينة المقصودة ، وهذه تدعى شركة (داليْجَانْس) وشركة السبيعي وقد أدركناها معطلة في المدينة داخل محطتها الرئيسية (محطة داليجانس) وهو مكان (العباسية اليوم) مقابل المصرف السوري اللبناني ودائرة الشرطة العامة . وذلك بعد أن امتدت الخطوط الحديدية لشركة (d. h. b.) الإفرنسية وسكة حديد دمشق (شيخ سَعْد) بحوران ، وقد أزيلت هذه الأخيرة ومددت بين يافا والقدس أثناء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٥ . ثم تلت ذلك سكة حديد دمشق حيفا ودمشق الحجاز ، فأوجدت نوعاً جديداً من النشاط التجاري والأسفار وخاصة لقضاء فريضة الحج ولكنها لم تلبث (٢) أن حطمتها معارك الحرب العامة الأولى ولاتزال معطلة بين معانو المدينة

---

(١) كلمة أجنبية بمعنى عربة كبيرة لنقل الركاب .

(٢) الاصل « تلبس » زلة قلم .

المنورة في الحجاز ، رغم المجهودات التي بذلتها اللجنة الخاصة المؤلفة في دمشق للسهر عليها وإعادة حقوقها من الدول المجاورة والأمم الاسلامية ذات العلاقة بالمشروع .

ومن القوافل الخارجية أيضاً للتنقل والسفر الجمال وقد كان الناس يقطعون عليها الصحراء الطويلة إلى الديار الحجازية المقدسة ، أداءً لفروض الحج ، كما كانوا ينقلون عليها متاعهم وتجاراتهم بين المدن الشامية البعيدة أو المصرية أو العراقية أو النجدية وخاصة في نقل المؤن للأقطار البعيدة ، وقد استعان العثمانيون عليها في الحرب العامة لنقل كافة أنواع المؤن والذخائر بين الجهات الجنوبية ، كما استعانت في جلب الحبوب ومختلف الأغذية من الأقطار الأخرى .

تعتمد بعض قرى الشراكسة [1] والتركمان [2] في نقل حبوبهم وتجاراتهم إلى المدن بواسطة أخرى جاؤوا بها من بلادهم ، وهي عبارة عن عجلة طويلة يجرها ثوران بواسطة النير ولكنها قليلاً ماكانت تستعمل إلا في مثل تلك القرى .

ثم إن لكل قرية بعيدة مرتبطة بدمشق عربة طويلة خاصة يجرها بضعة من البغال ستة أو ثمانية تنقل القرويين وحوائجهم إلى دمشق وتبيت

---

(١) جركس أو شركس : الشعوب التي قطنت سابقا شمال غربي القفقاس والشاطىء الشرقي للبحر الاسود ، هاجر أغلبها الى تركيا ، وسورية ، والاردن . (المنجد في الاعلام)

(٢) تركمان : قبيلة تركية أخضعها التتر ، عرفت منذ القرن الثاني عشر باسم تركمان موطنهم الاصلي في تركستان الغربية وايران وما وراء القفقاس ، والمقصود هنا هم المهاجرون منهم الى سورية .

(المصدر السابق ص ١٨٥)

في محطات الطريق العادية . ولها سقوف مقوّسة لدفع حرارة الشمس ، والثلوج والامطار ، وكانت هذه نادرة لم تشاهد الا بين دمشق وقلمون ، كما كانت تشاهد قوافل عجلات الثيران بين القنيطرة ودمشق أيضاً .

ثم إن هنالك من يقطع تلك المسافات مشياً أو ينقل متاعه على عاتقه من فقراء الناس والقرويين ولعل هذه الفئة كانت تؤلف بنفسها نظام الأسفار البدائي ، وتشاهد كثيراً منها حتى عصرنا هذا ، وإنهم لأشبه بالسائحين الأجانب الذين يفخرون إذ يجوبون الأقطار سعياً على الاقدام .

* * *

نظام الأحياء والامن

إن فقدان قوى الأمن ساعد على انتقال السلطات الإجرائية الحكومية إلى وجوه الأحياء ومختاريها دفعاً للشرور وحمل الناس على احترام الحقوق والشعور . فكل حي يسهر على راحة أفراده هيأة من وجوهه وأعيانه ، وهم بمثابة المجلس الإداري والقضائي والتنفيذي وحماة الحقوق بالنسبة لأفراد حيهم ، وكل خلاف ينشأ بين أفراد الحي فمردّه إلى هذه الهيأة تنظر في الخلاف وتفصل فيه بين المتخاصمين ، أما قوى الأمن الحكومية والسلطة الاجرائية الرسمية فمكلفة بصيانة نفسها ومحافظة الأماكن التي تسكنها ، تفتح أبوابها نهاراً لبعض المراجعين فإذا كان وقت الغروب أوصدوا أبواب المخافر وسكنوا إلى أسرّتهم ومضاجعهم لايبالون بما حدث وبما يحدث . لاسيما المخافر المتطرفة في جوانب المدينة فإنهم لايجرأون على الخروج من أماكنهم ليلاً مهما حدث .

وكان هؤلاء يعرفون عند العامة باسم (الضابْطيّة) ١ ويلفظون الضاد كما يلفظ الظاء ،حسب اللهجة التركية ، فإذا استفحل أمر حادث ما ، تنادوا واجتمعوا ومعهم طائفة من المشتكين ليقوموا بأعمال الإرهاب أو القبض على الأشرار بمساعدة الطرف الآخر من المعتدى

---

(١) وهم أفراد الشرطة . أو الضابطة العدلية (رجال الامن) .

عليهم ، فإذا أخفقوا استعانوا بالقوى العسكرية النظامية ، وقد حدث مثل ذلك كثيراً ،وشاهدناه عياناً فلهذه الأسباب كان رجال الاحياء يعتمدون على وجوه حيهم أكثر من اعتمادهم على حماية الحكومة وسلطتها .

ومن مقتضى نظام الحي العرفي أن يكون المختار (وكان يسمى آغا) هو الرئيس الأول بالحي يسانده الإمام ، ويعاضدهما بعض ذوي البطش من الرجال الأقوياء . وينضم إلى هذا المجلس بعض شيوخ وعلماء ووجهاء الحي عند الحاجة ، فهذا المجلس هو الحكومة وممثل الحكومة القائم بإدارة الحي . . فإذا كان للحكومة طلب من أفراد الحي استعانت بالمختار على استيفاء حقها من ضرائب أو تجنيد أو شكوى صادرة عليه من إحدى المحاكم . وأعضاء مجلس الحي يحافظون على أفراد حيهم تجاه الحكومة وبقية الأحياء الأخرى من الظلم والامتهان ، حرصاً على كرامة الحي وسمعته .

وإن لطائفة العونة (1) الأقوياء التابعين لمجلس الحي عادات مألوفة ، منها أنهم إذا حضروا الى حي آخر لمناسبة من مناسبات المجاملة خرج إلى لقائهم زملاؤهم من ذلك الحي ولاقوهم بالتأهيل والتكريم . ووسعوا لهم صدور المجالس وخاطبوهم بكل اعتناء وإكرام ، وكذلك مجلس الحي بكامله إذا اقتضى له أن يجامل حيّاً آخر ، يستقبل بمثل ذلك التكريم .

ولاتقتصر تلك المجاملات على المجلس والوجوه ، بل تتعداه إلى الأفراد. فإذا دخل أحد أفراد الحي الى حي آخر عرفوه وميزوه فإن كانت

---

(1) أنصار وأعوان يساعد بعضهم بعضا في كل أمورهم ويفرضون سيطرتهم على الحي .

بينهم وبين ذلك الحي مصادقة وتحابب أكرموه ، وإن كان هنالك جفاء وخصومة أوسعوه ضرباً وطردوه ، حتى يتم الصلح بين الحيين على يد حي آخر محايد أو أكثر ، وعندما تم المصالحة بينهما تقام المهرجانات وينزل الحيان الخصمان ضيوفاً عند وجوه الحي الذي عقد المصالحة ، فيأكلون ويشربون وينعمون على حسابه ثلاثة أيام أو أكثر ، ويعودون جميعاً إلى أحيائهم متصافحين متحابين .

وأما بقية العلاقات فسيأتي البحث عنها عند عرض المواسم والمهرجانات في الأحياء .

* * *

الأعيــاد

كانت الأعياد على نوعين : الأعياد الدينية ، والأعياد المدنية .

أما الأعياد الدينية عند المسلمين : فهي منحصرة في عيد الفطر ١ ، وعيد الأضحى ٢ ، وعيد المولد النبوي ٣ ، وهلال نصف شعبان .

---

(١) ولا بد من الاشارة الى أن الدمشقيين يعنون بالاشهر الحرم السابقة لعيد الفطر ، فيحتفلون فيها بالسابع والعشرين من رجب ، وبنصف شعبان ، وبليلة السابع والعشرين من رمضان (ليلة القدر) ويصوم الكثيرون منهم هذه الاشهر الثلاثة تباعا ، وعندهم لكل يوم فيه دعاء مأثور ، ولكل شهر طعام خاص ؛ فليلة الله ، ثم الغريبة ثم البرازق والجرادق ثم المعمول تتوالى في نظام خاص ويهتم بها الحلوانيون في مواسمها .

وفي عيد الفطر (العيد الصغير) مما يلي منها شهر رمضان المبارك ، له تقاليد كثيرة كانت في أساسها قائمة على البر بالفقراء ، وصلة الرحم وتمتين علاقات المودة بين الناس ، وتذكر الناس أحبابهم من الاموات والاحياء ، والاصل في هذا العيد توزيع الفطرة على مستحقيها ، والخروج الى المقابر صباحا قبل صلاة العيد أو بعدها وقراءة القرآن الكريم أو تكليف من يقرأ القرآن ثم تزاور الناس جماعات .

(٢) ويسمى (العيد الكبير) وفيه موقف الحاج على جبل عرفات الذي يبعد اثني عشر ميلا من مكة المكرمة في يوم (عَرَفة) في التاسع من ذي الحجة .

(٣) عيد المولد النبوي الشريف في ١٢ ربيع الاول من كل عام ، ميلاد الرسول العربي محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان الاحتفال بهذه المناسبة المباركة يتم بنصب الزينات من الاعمدة والاغصان وتوضع عليها الطنافس والصور التي يزهو بها كل صاحب دكان وتمثل عائلته وأفرادها وهم يحملون السلاح غالبا ويتمنطقون بالرصاص ، وتقدم الضيافات وتتبادل الاحياء الزيارات في عراضات كبيرة يطلق فيها الرصاص ، ويجول فيها اللاعبون بالسيف والترس والحكم ، وكان الحي الذي يزور حياً يهتف : صفوا الكراسي جيناكم ؛ فيجيبهم المضيفون : يامرحبا باللي جاي .

(مجلة العمران ـ عدد خاص عن مدينة دمشق ١٩٦٧)

ففي الأول : يذهب الناس إلى المساجد بأفخر مالديهم من الثياب والزينة ، وبعد أن يتموا صلاة العيد يتصافحون ويتسامحون ويباركون لمن يعرفون ومن لايعرفون من كافة الحضور ، فتتجلى بذلك رابطة الإخاء المسلمة بين الجماهير ، وعند عودتهم إلى دورهم يصافحون من يصادفونه أثناء الطريق ،وكانت ١ الكلمات المتبادلة بينهم في هذا العيد هي قولهم (عايدين فايزين كلّ عامْ وأنتم بخير تقبّل الله طاعتكم والعيدُ القادمِ تكونون على عرفاتْ . أو (تفرحون بأولادكم) أو يقول للشاب مثلاً : (تكون عريساً) . أو للمتعب المتضايق بالعيش وقلة السبب)٢ : (تكون فرّجَ الله عنك كُرْبتك) أو للحزين (يسرُّك الله ويجلو عنك الحَزَنْ) ، وأمثال ذلك على حسب حال من يعرفونه من الناس ، يوجهون إليه مثل هذه الأدعية ، ثم يتجمهرون فئات ووحداناً إلى تبادل الزيارات مع الأقارب والأصدقاء والمحبين .

تسبق عادة مراسم العيد بعض مراسم مألوفة ، فأول عشر من رمضان كانوا يسمونه (عَشْرُ المَرَق) وفيه الناس يهيئون لعائلاتهم وقت الافطار صنوف الطعام ، والعشر الثاني يسمى (عَشْر الخرَقْ) ، فيستعد الناس فيه لتجهيز الألبسة الجديدة للعيد ، والعشر الثالث (عَشْرُ الورَق) ، وفيه يبدأ الناس بإعداد أنواع الحلوى ويعتمدون على

---

(١) الاصل : « وكان » سهو .

(٢) السبب : الذريعة وما يتوصل به الى غيره ، يقال : انقطعت عنه الاسباب : أي ما يتسبب به أي ما يتوصل به الى المعيشة ، وتعاطي الاسباب ، كناية عن الاخذ والعطاء طلباً لتحصيل ما يحتاج اليه من أمر المعيشة . والمقصود به هنا هو قلة الرزق وضيق ذات اليد . (انظر المحيط ـ والمنجد)

صنف منها ليكون حلوى يوم العيد ، والوَرَق يصنع من العجين على شكل رغيف رقيق مستدير الا أنه كبير يقارب قطره المتر الواحد ، فيبتاعونه من محال خاصة ، ويذهبون به الى الدار (١) وبعد أن يلفوه على طياته يخرطونه (٢) بآلة قاطعة فيصبح قطعاً طويلة متوازية الجانبين ، فيأخذون طرفه ويضعون فيه قليلا من مسحوق السكر الخليط من الجوز الناعم ويلفونه مقرّناً (٣) ويقلونه بالزيت البلدي ويضعونه في القَطْر (سكر مغلي بالماء) ، ثم يخبئونه ليوم العيد ، ويسمونه (وَرَقْ) أو (سَنْبُوسَك) فالقطعة منه مثلثة الجوانب بشكل سطح مثلث ، ولايكاد يخلو من دار أيام الأعياد .

ثم يهيئون نوعاً آخر من العجين وبنفس الاسم ولكنه بشكل آخر مزمّم أحد جانبي القطعة ، وقد يجعلون قسماً من هذا بدون حشو ويسمونه (تويتات) ، وشكل حلزوني مطول وجوفه ظاهر التثنية فارغ من كل شيء ، يقلى في الزيت ، ويوضع في القَطْر ويخبأ للعيد أيضاً .

أما الطبقات الغنية فتستحضر الحلوى من البائع حاضرة جاهزة للأكل ، من هذا النوع ومن أنواع أخر مثلا ، (كل واشكر) (٤) ، (بَقْلاوة) ، (كنَافة مبرومة) ، (أصابيع قشْدَة) ، (كُنَافة بَصْمة) ، (صُرر) ، (شعيبِّيات) ، وغيرها من المعجنات . ومن العادات المألوفة أن المثرين يدعون لطعام (العيد) الذي يكون بعد أداء صلاة

(١) الاصل : « دار » زلة القلم .

(٢) كلمة عامية بمعنى « يقطعونه » .

(٣) أي مثلث الشكل له رؤوس ثلاثة .

(٤) أنواع من الحلوى سيرد ذكرها في فصل الاطعمة والحلويات .

العيد بعض ذويهم من المعسرين فيتناولون طعام العيد على سفرة واحدة ١ ، كذلك رؤساء الحرفة يدعون صناعهم وأجراءهم إلى طعام العيد ويعطونهم فوق ذلك بعضاً من المال ويسمونه (عيدية) وكانوا يفرحون بها .

وكذلك إذا عاد ٢ أحد الأصحاب أو الاقارب أصحابه أو أقاربه فكانوا يقدمون له الحلوى أو المُلَبَّس ٣ ، وعند خروجه يعطي صغار صاحب البيت قليلا من المال حيث يكون هيأه في جيبه لهذه الغاية قبل زيارته . أما طائفة المزارعين فكان لهم أصول خاصة : فكانوا يهيئون كميات كبيرة من الحلوى أو القَطَايف ٤ المقلية على صفاح في غرفة معينة فإذا أدخل زوار العيد ، وأدوا تحية التبريك وهمّوا بالخروج خرج أمامهم صاحب المنزل أو أحد أبنائه أو أقاربه فانعطف بهم الى تلك الغرفة فجلسوا على مائدة الحلوى ، وأكلوا كفايتهم وشربوا (القَهْوة المُرّة) العربية ، وخرجوا داعين لصاحب المنزل باستمرار الخيرات والسرور ، واستمطار الرغد والسعة ، أو الترحم على آبائه وأجداده .

---

(١) السفرة : جمعها سفر : وهي ما يبسط عليه الاكل ، والموائد كانت قديما بسيطة ، ليست إلا شيئا يمد على الارض كجلد أو قماش واسع مدور ويسمونه (السفرة) وقد تكون من الخشب تدعى (طبلية) وهي مائدة من الخشب مدورة واطئة توضع عليها صدور النحاس وفوقها الصحون الخزفية ويجلس حولها المدعوون حسب مراتبهم في السن والمكانة . (انظر القاموس المحيط . والريف السوري لاحمد وصفي زكريا ٢٨٨/٢).

(٢) الزيارة أيام العيد « المعايدة » .

(٣) نُقْل من لوز ونحوه يلبّس سكراً فسمي بذلك ، يقدم في الاعياد .

(انظر المنجد)

(٤) القطايف : نوع من الحلوى سيرد ذكره في فصل الاطعمة .

فإذا كان قبل العيد بيومين تفد أحمال غصون (آلاس) إلى المدينة وتنشر في الشوارع والأسواق حزماً صغيرة وكبيرة ، فيقبل الناس على شرائها ويهيئونها لزيارة أمواتهم صباح أول يوم العيد قبل بزوغ الشمس .

فإذا حان الوقت خرجوا باكراً فزاروا الأموات ووضعوا على القبور أغصان الآس ، ونزلوا ليستعدوا الى الذهاب لصلاة العيد في المساجد ، أما بقية حاجيات العيد فتعرض بألأسواق ، فترى يوم الوقفة ، كل حانوت إلى جانبيه أكياس الأرز والسكر وصحاف السمن الفاخر ، وعليها شتى الزهور الملونة .

كما يهيىء الباعة شتى أنواع السكاكر ١ ، وآلات وأدوات التسلية للصبيان والمفرقعات ٢ استعداداً للعيد ، ثم خلال فترة الأيام الثلاثة من العيد ، يقبل الأولاد بأفخر ملابسهم ويجوبون الأسواق ، فيشترون ويفرحون ، ويطلقون المفرقعات ويركبون الحمير المعدة للتنقل في مسافات قصيرة ، والعربات المجللات بالطنافس أو الخيول أو الهوادج ، والمحارات ٣

---

(١) الحلوى الملبسة سكراً أو المعالجة به ، وهي أنواع : مالبس من السكر على الفستق ، واللوز ، والصنوبر ، والجوز هند ، والبندق ، وهو يطلق عليه اسم «الملبس» وما يلبس على الحمّص فهي « القضامة على سكر »

(جمال الدين القاسمي ـ الصناعات الشامية جزء ٢ ـ ص ٣١٢)

(٢) نوع من الالعاب النارية في الاعياد ، يصدر عنها صوت انفجار خفيف ، يسر بها الاطفال .

(٣) مفردها : محارة من الخشب : وهي شقتان ، تحمل على ظهر الجمل ، كل شقة بطرف ، يحزمونها بقشاط غليظ ، ويغطونها بقطعة من قماش تعرف بـ« الاورتي » وهو مخصوص الى المحاير ، يعملونه من الخام ، ويزركشونه بأصناف الشريط ، تسع الشقة من المحارة فراش شخص واحد ، مع ما يلزمه من الثياب ، ومطرة للماء وغيره ، ومن يصنع (المحاير) يسمى « محايري » . (المصدر السابق ص ٤٢٠)

على الجمال تشبهاً بركب حجاج بيت الله الحــــرام ، أو يركبون القلابة ١ ذات الأسرّة الأربعة ، فتدور بهم دورات محورية ، أو الدويخات ٢ ذات الأسرة المتنوعة الأشكال والخيول المطهمة المصنوعة من الخشب فتدور بهم دورة مركزية ، فيصيح الأولاد مبتهجين ، ويطلبون الى صاحبها الاستمرار ، وينقدونه قطع الدراهم الصغيرة ، كالنحاسة ، أو أم الخمسة ، أو المتليك٣ ، فيقوم بأهازيج خاصة ويطلب إليهم ترديدها فيرددونها بأصواتهم الناعمة العالية .

أما طائفة البنات من الإناث ، فيعد لهن (أراجيح) ضمن دور مستورة مختلفة الشكل فيجلسون ٤ بها ، ويتأرجحون وينشدون ، ويلحنون ، ويضربون الرق ، ويفرحون ، ويسرون ، مقابل دريهمات قليلة وقد يستمرىء بعضهن الحال فيعاودون أرجحتهم .

ومن المعروض في العيد أيضاً الفول المسلوق ويسمونه (النابت) يجلسون على كراسٍ واطئة أمام مناضد بلدية خاصة مجلاة ، ويأكلونه ممزوجاً بالملح والدقة (الدقة نوع من البهارات) ، ثم هنالك باعة المخلل٥ بأنواعه ، وباعة

---

(١) نوع من الالعاب تستعمل للهو الاطفال ، تدور حول محورها حركة شاقولية . دائرية .

(٢) نوع آخر من الالعاب يجلس فيها الاطفال وتدور حول محورها بحركة أفقية ـ دائرية .

(٣) نقود عثمانية كانت العملة الرسمية في ذلك العهد يشرحها المؤلف فيما بعد .

(٤) كذا في الاصل سهو من المؤلف وصواب هذه الافعال المؤنثة «يجلسن...» وهكذا...

(٥) وهو أنواع بدمشق منها : اللفت والخيار والشوندر والقليفلاء واليخنا والفجل والباذنجان ولصنعها فانه بعد غسلها بالماء وتنظيفها أو سلق بعضها يضعون كلا على حدة في وعاء كبير من فخار يعرف ب « الخابية » بشرط أن تكون عتيقة مستعملة لهذه الغاية ، ويضعون فوقه الماء المملح ، لكل عشرة أرطال من كل صنف رطل ملح ، مع ماء عصير الليمون الحامض بكل خابية رطل ، ويتركونه مدة أربعين يوما للفت والشوندر والفجل واليخنا ، وعشرة أيام لباقي الانواع . وكان أهل محلة الصالحية من دمشق يتقنون هذه الصنعة جدا ، و (المخلل الصالحاني) ينسب اليها وهو مشهور .

(جمال الدين القاسمي ـ قاموس الصناعات الشامية ـ ج٢ ص ٤٢٤)

الألعاب والدمى الصغيرة ، والمزامير والنفاخات [1] ذات الاصوات المختلفة يقبل الصغار على شرائها ، فينفخون بها أثناء سيرهم في الأسواق .

ثم من الناس من يلجأ الى احضار بعض الضّباع أو الوحوش الأخرى ويضعونها في الحوانيت أيام العيد ، ويقف من يضرب على الطبل ويصيح بالغلمان (تعالوا ياأولاد ، تعالوا اتفرجوا على عدو بني آدَم) ، فيدخلون أيضاً ويزدحمون على الدخول .

وهنالك معروضات للتسلية كثيرة متنوعة يهيم الاولاد باقتنائها كل على حسب مايحمل من دراهم (العيدية) التي يأخذها من أبويه أو أحد أقاربه الأقربين ، ثم إن بعض الأولاد أنفسهم يعرضون نوعاً من الحلوى ويسمونه (لوز بعسل) ، وهو عبارة عن سكر معقد ممهد على صفيحة معدنية صغيرة وعليه حبات اللوز والصنوبر أو الجوز الناعم مرتب بأشكال هندسية مختلفة ، يحملها الولد باليد اليسرى ، ويحمل باليد اليمنى قطعة من الحديد أحد طرفيها مبسّط ويدعونه (مَلْوَق) ، ويبيع اخوانه كل واحد من هذا (المَلْوَق) بنحاسة [2] ، ويتفاخر بها عند ندائه للبيع ويردد العبارات الآتية بصوت عالٍ وأنغام خاصة قائلاً : (يالوز بعَسَلْ ، ياليتْ كل يوم عيد لَنَعْمل الملوق الحَديدْ ، ياليتْ كل يوم وقفة لنعمل الملوَق وشقفة [3]) وأمثال ذلك من العبارات التي تسترعي انتباه زملائه الاطفال .

---

(١) مفردها : النفاخة : وهي الفقاعة التي تطفو فوق الماء ، وهي كرة تعلو مملوءة هواء ، والمقصود هنا : مايشبه الابواق أو المزامير ينفخ بها الاطفال فتصدر أصواتا مختلفة . (المنجد)

(٢) انظر ص ٤٩ .

(٣) كلمة عامية تعني القطعة او الزيادة .

ثم هناك من يجمع شتى الخُرَد[1] والدمى وينادي (يانصيب ، نصيبك بالكيس) فيقبل الاولاد إلى الكيس ويمدون أيديهم فيستخرج ورقة صغيرة مكتوب فيها ماأصابه من تلك الخُرَد المعروضة .

ومما يلفت النظر أن بعض الاطفال يصطحبون المصاحف فجر العيد ويخرجون الى المقابر ، ويعرضون أنفسهم على الناس لقراءة ماتيسر لقاء أجور طفيفة ، فترى الغلام ينادي هكذا : (ياأرحَم الراحمين ، ياراحِم العِبَاد) فيناديه أحد الناس ، ويكلفه بالقراءة ، وغالباً يقرأون سورتي : (يس) و (الرحمن) ويتناولون عليها الأجور .

تستمر هذه الحالة في الأيام الثلاثة الى بعد عصر اليوم الثالث من العيد ، فإذا كان اليوم الذي يليه ، يخرج بعض الناس الى النزهات مع عائلاتهم وأولادهم ، ويسمون ذلك اليوم (جحش العيد) [2] ، فإذا انقضى انصرف الأولاد الى مدارسهم والناس الى أعمالهم وشؤونهم كالمعتاد ، متأسفين لسرعة انقضاء فترة العيد والسرور .

ومما ينبغي ذكره أن الناس في هذا العيد يوزعون (صدقات الفطر) على المحتاجين قبل حلول موعد صلاة العيد ، منهم مايوزع حسب النصاب

---

(۱) الخرده : ما صغر وتفرق من الامتعة ، وهي (فارسية) والخردجي : بائع الخردة وكان يسمى « الخرضجي » وهو من يتجر ببيع أصناف كثيرة وأنواع منوعة مخصوصة باستجلابها من البلاد البعيدة كبلاد الفرنج والاسلانبول أو القريبة كبيروت . وهنا نلاحظ أن المؤلف يخالف في مفهومه لهذه مع ما كان يعرف عن تلك المهنة في عصره .

(انظر المحيط وقاموس الصناعات الشامية ـ محمد سعيد القاسمي ـ جا ـ ص١٢٣)

(۲) يطلق العوام على اليوم الذي يلي آخر أيام العيد « جحش العيد » .

الشرعي ١ ومنهم من يزيد . أما عيد الأضحى يسمونه العيد الأكبر فيقوم الناس بنفس ما كانوا فيه في عيد رمضان ويزيدون على ذلك توزيع لحوم الأضحية قبل الصلاة ، وان وقفة هذا العيد وهو يوم (عرفة) يباشر الناس بالتلبية عقب كل صلاة حتى ينقضي العيد ، وينتهي العيد بأفول شمس اليوم الرابع منه ، وبالتالي يمضي الناس كلٌّ الى عمله .

* * *

(١) أي لزكاة الفطر ، ويجوز اخراجها من خمسة أصناف من القمح والشعير والتمر والزبيب والاقط (الجبن المتخذ من اللبن الحامض) ومقدار النصاب صاع من أحد هذه الاصناف .

(محمد فريد وجدي ـ كنز العلوم واللغة ـ ص ٧١٩ ـ وص ٨٢٣)

المراسم الرسمية في الاعياد

أما المراسم الرسمية في عيد الفطر فانها تجري على الشكل الآتي :

تطلق الحكومة المحلية المدافع ايذاناً بانقضاء رمضان ، فتتوقف صلاة التراويح في عشاء ذلك اليوم ، وتنقضي حفلات الوداع لرمضان التي تجري في المساجد والمآذن ، ان حفلات الوداع تجري عقب صلاة التراويح ، اعتباراً من الليلة التي تأتي مثيلتها في شوال القادم ، فيجتمع الناس حول جمهرة المؤذنين ، ويبتدىء كل مؤذن بتلحين عبارة الأسف والخوف والحزن على فراق رمضان ، فيردد ذلك جمهور المستمعين ، ومن ذلك أن المؤذن يبدأ قائلاً والناس في سكون وجلال رهيب صائحاً بملء صوته :

لما مضت أيام شهر الصيام

سالَتْ دموعي مثل القَطر الغَمام .

ياشهرنا زرتنا كل عام .

لاتشتكي لله اوزَارَنا .

واصفح فان الصَفْحَ من شيم الكرام .

فيردد الجميع قائلين :

ياشهرنا هذا ، عليك عليك السلام

ثلاث مرات . ثم يبدأ الثاني فيقول :

يا أمة الهادي قال نبيكم .

شعبانْ وشهر رَمَضان شهركُم .

قومُوا واضبْطوا صيامكم

عسى تنالون أعلى مقام

فيردد الناس النغمات الأولى ، ثم يأتي الثالث فيقول :

لما انقَضَتْ أيامُ الصيام

سَالَتْ دمُوعي مثل قَطْر الغَمَامْ .

ياعيدنا مرحباً .

وياشهرنا الماضي مني عليك السلام

فيردد الحاضرون عبارتهم . ثم يأتي الرابع فيقول :

اختُم قَوْلي بالصلاة على النبي .

مَكّي حَجازي هَاشميّ عربي يثربي .

صلى عليه الاله في الكتب

ماغرد القمري وماناح الحمام

فيردد الجميع عبارة الوداع ، وينفضُّ الناس باكين متألمين لانقضاء شهر الصوم فإذاخرجوا من المسجد انبسطت أساريرهم ، وتهللت لاستقبال العيد .

ومن المألوف في رمضان قيام (المُسحّر) ٢ في كل

---

(١) كذا الاصل والمعروف إنشاده « شعبان شهري ورمضان شهركم »

(٢) هو من يوقظ الناس لتناول السحور في شهر رمضان، يدور على البيوت قبل الفجر بساعتين وبيده طبلة يضرب عليها بجلدة ، ويتغنى بأقوال مختلفة ، فينبه أصحاب البيوت . وكل محلة بدمشق لها مسحر مخصوص بها حين دخول وقت السحور فينبه أصحابها ويدور عند الغروب على أصحاب تلك الدور فيعطونه من فضل طعامهم ، حتى اذا انتهى شهر رمضان وأقبل العيد ، فيدور عليهم ويطرق أبوابهم وكل شخص يعطيه على قدره من الدراهم مع اطعامه من حلاوة العيد .

(جمال الدين القاسمي ـ قاموس الصناعات الشامية ج٢ ص ٤٣٨ وانظر المحيط)

حي يضرب طبله ويوقظ الناس لطعام السحور قائلاً : (يانايم وحّد الله، قل لاإله الاالله) ، وينادي صاحب الدار باسمه ، ويطرق الباب ليصحو من نومه . في أواخر رمضان ينادي المُسَحّر هكذا (كل عامْ وأنتم سالمون) ، فيقبل الناس على اعطاء المسحرين العطايا المختلفة ، كما يوزعون الألبسة على فقرائهم عدا صدقات الفطر ، ويكون خبز البرازق [1] (بالدقيق والسمن وعليهالسمسم) لرمضان ، وكعك بالسمن (غريبة) [2] لشعبان ، وسكر ملون كالسوارلشهر رجب ويسمّى ليلة الله . .

ثم تقام الزّيَن والأفراح ، وتزدان الدوائر الرسمية بالقناديل والأضواء والأعلام ، والناس يرفعون على حوانيتهم ودورهم أعلاماً قديمة ، كتبت عليها بعض الآيات الكريمة ، وبعضها عائد إلى بعض شيوخ الطرق . ويضيفون إليها العلم الرسمي العثماني الأحمر .

ومن المراسيم : أنه يوم (٢٧ من رمضان) تقوم طائفة المولوية بدراويشها ببعض أنواع العبادة في المسجد الأموي حسب عادات طريقتهم المألوفة كما سنبحث عنها .

* * *

---

(١) واحدتها برزقة : وهي ما عملت من الطحين المعجون بالسكر ، غب أن يخمر يقرص أقراصاً صغارا وكبارا وترق تلك الاقراص وتبسط ويلت وجهها بالسمسم بكثرة وتوضع في صوان من نحاس ، ثم تخبز في الفرن ، لذيذة الطعم ويروج بيعها في شهر رمضان المبارك رواجا زائداً .

(قاموس الصناعات الشامية ــ ص ٢١٩)

(٢) « بالتصفير » نوع من الحلوى تصنع من طحين ناعم يعجن مع السمن المحمى والسكر ، وتصنع بشكل حلقات كالكعك أو بشكل الاكر ، لذيذة الطعم .

(المصدر السابق ص ٢١٩)

مراسم الزيت والشمع والمحمل :

ففي اليوم الأول من العيد ، تصطف الفرق العسكرية أمام المسجد الأموي ، وتؤدي التحية لوالي المدينة وقائدها العسكري ، وبعض كبار الموظفين ، وبعد الانتهاء تجري حفلة إخراج الشموع والزيوت المهيأة لإرسالها مع موكب الحج إلى الحرمين الشريفين ، وقد تجري في اليوم الأول والثاني ، ففي الأول : الزيت ، وفي الثاني : الشمع ، وفي الثالث : حفلة السَنْجَق ١ ، وتخرج جميعها في الأوقات المذكورة من جامع السنجقدار وتسير بموكب حافل بالموسيقى العسكرية ، وقطعات الجيش والأمن على جادة المرجة ـ الميدان إلى موضع العسالي (من بوابة مصر) فيخرج الناس لمشاهدة الموكب ويصطفون على جانبي الطريق من أول الجادة إلى نهايتها وفي الدكاكين والسطوح ، فيمرّ الموكب باجلال

---

(١) السنجق (الصنجق) جمع سناجق أي اللواء (الراية) وهي فارسية ، ففي اليوم الثاني من شوال من كل عام يسمونه (يوم الزيت) كان يجري الاحتفال بنقل الزيت من كفرسوسة ضمن ظروف على ظهور الابل حتى (الكيلار) في البحصة وهو المستودع الخاص بأدوات محمل الحج ، وفي اليوم الثالث من شوال يسمونه (يوم الشمع) يحتفل بنقل الشمع من الدار التي سكب فيها في كفرسوسة ووزنه ثلاثة قناطير ، كما يحمل ماء الورد من محصول قرية المزة ووزنه نحو قنطار ، والملبس ووزنه عشرة أرطال ، وهم يحملون الشمع على أعناق الرجال ملفوفا بالشال الكشمير وذلك من أجل الاهداء الى الحرمين . أما في اليوم الثالث يسمونه (يوم السنجق) يخرجون السنجق الشريف من القلعة التي كان يحفظ بها وينقلونه باحتفال مهيب الى دائرة المشيرية فيستقبله المشير ويضعه في قصره ، وفي اليوم الرابع ويسمونه (يوم المحمل) يخرج موكب الحج الشريف مع المحمل والسنجق باحتفال عظيم مهيب حيث يخرج الموكب الى حي الميدان ، فباب مصر ، ومنها الى قرية القدم التي فيها قبة جامع العسالي ويوضع المحمل في هذه القبة نحو عشرة ايام ريثما تنتهي أسباب السفر الى الحجاز .

(انظر : وصفي زكريا ـ الريف السوري ٢/١٦٦)

واحترام . وفي اليوم الرابع أو الخامس من شوال يخرج (المحمل الشريف) ١ وبرفقته السنجق أيضاً بموكب عديم النظير ، قاطعاً الجادة المذكورة حتى يصل إلى دار (آل سعد الدين) في منتصف الجادة ، وهنالك تتقدم شيوخ الأسرة السعدية وتلقم الجمل قطعاً من اللوز المزيج من السكر ، فيتهافت بعض الناس على التقاط الفضلات من فم الجمل تبركاً وتحبباً لأنه يحمل أعظم شعار يجتمع إليه المسلمون عند ذهابهم إلى الحج . ثم يمضي في الجادة إلى أن يصل إلى (العسالي) عند قرية القدم الشريف ، وينتظر تجمع الحجاج يوماً أو بعض يوم ، حيث تسير القافلة بإدارة أمير الحج ٢ بطريقها إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وفي مثل هذا اليوم فضلاً عن أهالي دمشق يتقاطر جميع سكان القرى المجاورة لمشاهدة سير هذا الموكب العظيم .

* * *

---

(١) شعار سيادة السلطان على الحرمين الشريفين يحمله جمل جميل الشكل قوي وعال لا يستخدم لأي عمل سوى الحج ، يحمل الكسوة السلطانية الى الكعبة الشريفة

(ابن طولون – تعليق دهمان – القلائد الجوهرية : ٦٦)

(٢) كانت الدولة العثمانية تتحمل نفقات الحج ، وتعهد بامارة الحج لواحد من كبار العسكريين في دمشق أو من زعماء العشائر العربية في فلسطين ، ويهيأ هذا الامير للخروج بالحج قبل حلول الموسم بثلاثة أشهر فيقوم أولا (بالدورة) أي زيارة المناطق الجنوبية من دمشق لجمع المال اللازم ، وقد يكون الوالي نفسه أمير الحج وهي مهمة صعبة وخطيرة، وواجباته أن يدفع عن الحجاج اعتداءات القبائل التي تنوي بهم شرا ، ولقد تولى أسعد باشا العظم والي دمشق امارة الحج لمدة (١٤ عاما) وكان الباشوات يتوقون الى هذا اللقب .

(البديري الحلاق) و (جان سوفاجيه)

أما مراسم عيد الأضحى :

فإنها لا تختلف عما يجري في عيد رمضان ، إنما يتهيأ الناس لتقديم الضحايا وتوزيعها قبل صلاة عيد الأضحى ، وتتبادل هنا عبارات المعايدة بين الناس ، فإذا لقي أحد صديقاً أو قريباً أو أي شخص مسلم أقدم كل منهما براحته إلى الآخر متصافحين ومرددين العبارات الآتية : (عايدينْ فائزينْ ، كل عام وأنتم بخيرْ ، أعادَه الله عليكم بالهَنا والمسرّاتْ ، وعيد القادِمْ تكونُون على حرمِ الله الشريفْ) .

أو يقولون : (تعيشونَ لأمثالهِ ، أنتمْ ومن تحبّونْ) ؛ أو أنهم يختصرون التطويل إذا كانت معرفتهم ببعضهم بسيطة وتكون هكذا : (كل عام وأنتم بخير ، أعاده المولى عليكم بالهناء) ؛ أو (كلّ عام وأنتم بخير ،العيد القـادم في حـرَم الله الشريف .) أو (على جبل عرفات) . .

ومن ظواهر هذا العيد أن يزحف أهالي دمشق إلى حي الصالحية ويصعدوا الجبل (قاسيون) بعد عصر يوم الوقفة ، ويلبّون كما يلبّي الحجاج في جبل عرفات ، عملاً بقول مأثور لديهم يسندونه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويزعمون أنه من أقواله وتواصيه ، وهو : (من فـاتَه زيارَتي فعَـليه بزيارة ابن خـالـتي). (وإن قاسيون يأتي بالدرجة الثانية من عرفات .) ، أما المقصود من ابن خالته الذي يعنونه فهذا يذهبون فيه مذاهب شتى منهم من يقول النبي ذو الكفل عليه السلام (وضريحه في قـاسيـُون) ، ومنهم من يذهب الى أبعد من ذلك فيزعم أن خالد بن الوليد فعل ذلك ومقامه في قاسيون ، على أن الصّـالحـيّة

وما تحويه من أضرحة قديمة ومزارات ومدارس كانت جديرة حقاً بالتقديس وإطلاق اسمها عليها .

وفي هذا العيدلا يكون الاستعداد آخذاً نشاطه في إعداد الملابس ، لأن الناس يلبسون ما خاطوه في عيد الفطر السابق .

ويتقارب في هذين العيدين الناس في الأفراح ورغد العيش ، إذ توزّع لحوم الأضاحي على فقراء الناس ، أو الأصدقاء المعسرين أو الأحباب فيأخذ كلٌ نصيبه من نعومة العيش خلال أيام العيد الأربعة .

ينفرد الناس بأولادهم وعائلاتهم في التلول وسفح الجبل والبساتين يمضون أيام العيد ، إن صادف في موسم الصيف والربيع ، أو أيام الدفء من الخريف ، أما في الشتاء فغالباً يقبعون في دورهم وفي المضافات [1] والمساجد ، أما الأولاد فلا ينفكون عن التجول في الأسواق مهما كان الشتاء بارداً وقارساً .

* * *

مراسم المدارس القرآنية في الأعياد :

تقوم(تلاميذ)المدارس القرآنية بتظاهرات قبل حلول الأعياد الدينية بثلاثة أيام ، فيطوف بهم شيخهم ، أو شيختهم إن كانت امرأة (كما سنبحث ذلك في بحث المدارس) ، فيصفهم بنظام الزكا [2] ، اثنان اثنان [3]

(١) وهي المكان المخصص لاستقبال الضيوف وتقدم فيها القهوة العربية (المرة) ولها ترتيب خاص ومعروف .

(٢) الزَّكا : الزوج من العدد ، يقال : « أخسًا هذا أم زكا » اي أفرد أم زوج . (المحيط)

(٣) كذا الاصل وهو سهو صوابه « اثنين اثنين » .

يسيرون خلف بعضهم ، يتقدم أحد الأطفال واضعاً على رأسه كرسي التلاوة ، وفوقه المصحف الشريف مجللاً بالمخمل الأخضر والكرسي كذلك مجلل ، وعلى جانبي الطفل زميلان أو أكثر خلف بعضهم وبيد كل منهم ورقة طويلة ملتفّة على بعضها بطول متر أو أقل أو أكثر ، فيفردها قليلاً قليلاً لقراءة ما فيها ويلفّ القسم الذي انتهى من قراءته أثناء ذلك ، وأما محتويات هذه الأوراق ، فهو عبارة عن أناشيد مختلفة مكتوبة بخط الشيخ على القاعدة النسخية باللون الأسود ومنقطة بالأحمر ، ومحاطة بخطوط خضراء ، وبين كل شطر وآخر نقطة مستديرة بماء الذهب ، وفي مطلع الورقة عنوان لها مخطوط بماء الذهب أيضاً . وعندما يصفّهم الشيخ أمام مدرسته يأمرهم بالمسير والمبادرة بالإنشاد ، فيبدأ حملة الأوراق بأناشيدهم منفردين ويردد أقوالهم بقية الطلاب ، من ذلك قولهم :

ياربنـــا يا ربنـــا	اغفر لنا ذنوبنـــا
وكفر عنا سيئاتنا	نحن وكل المسلمين

فيردد الجميع هذه العبارات ، ومن ذلك أيضاً :

يـــا ربنا بالبقرة	وبالرجال العشرة
تجعل أموري ميسرة	أنا وكل المسلمين

فيرددونها أيضاً ، ثم :

يا ربنا بآل عمران	و بالنبـــي العدنان
تحفظنا بسر القرآن	أنا وكل المسلمين

ثم :

يا ربنـــا بالمائـــده وبالرجال القاعـــده
تجعل أموري نافـده أنا وكل المسلمين

وهكذا إلى أن يصلوا إلى أقرب دار من دور الأولاد ، حيث يعلم ذلك ذووهم فيعدون لهم المقاعد في صحن الدار ليجلسوا عليها ، وعندما يفتح لهم باب الدار يدخلها الطلاب ويقولون :

(سلامٌ سلامٌ ، سلامٌ سلامٌ سلامٌ عليكم فردّوا السلام) .

ويكررها الجميع ثم يطوفون في باحة البيت دورة أو دورتين على هذا النحو ويجلسون والشيخ سائر إلى جانبهم يجلس على متكأ خاص معدّ له من قبل وليّ الطالب ، وبعد استراحة بضع دقائق توزع عليهم قطع الحلوى أو الملبس ١ ، أو الدراهم على حسب سعة وليّ الطالب ، ثم يمدّ الشيخ يده كالصحفة ليتناول قرشين أو ثلاثة أو أكثر باسم عيدية ، وقبل خروجهم من الدار ينهض الطالب ابن صاحب الدار ويقول كلمات علمه اياها شيخه هكذا :

أنت يا والدي نعم الوالد شفيق رفيق مساعد
عسى نراك في الجنان قاعد في فردوس ونعيم خالد

ثم يلتفت إلى جهة أمه ويقول :

وأنت يا أمي فنعم الوالدة شفيقة رفيقـــة مساعدة
عسى نراك في الجنان قاعدة مع زينبْ ومريم وفاطمة

على أن ظاهر معاني هذه العبارات الموجهة إلى أبويه تتضمن معاني الدعاء عليهم بالموت السريع كما ترى ، بينما الشيخ يقصد

---

(١) انظر ماسبق ص ٤٨ .

من تعليمها الطفل بأنه سيكون بعدهما نعم الطفل بذكرهما بخير في حياتهما وبعد موتهما ، وغير عاقٍّ بهما بل وفيّاً كل الوفاء ، ثم يلتفت الطفل إلى ناحية أخته ولو لم يكن له أخت ويقول :

وأنت يا أخت فأكرمينا ومن عَسَلِ النحلِ فأطْعِمينا .

وكلمات أخرى لا أذكرها. فتنهال عليهم قطع الحلوى أو الملبّس ، ويخرجون من الدار إلى بقية دور الطلاب على النحو المذكور ، وبعد أن يزوروها ويجوبوا في الأسواق بقصد الدعاية إلى الشيخ ومدرسته ، يعودون لمدرستهم فيوجّه إليهم الشيخ العبارة الآتية : « يا أولاد اسمعوا ، الذي منكم أعطاني أبوه عيْديّة فهو مسموح له من الآن أن يذهب إلى داره إلى ما بعد العيد ، وأما الذي لم يعطنا أبوه العيدية فسيبقى يداوم على المدرسة كل يوم حتى يأتي بالعيدية » .

وقد يستعين بالخيزرانة أحياناً على جوانب الطفل أو على رجليه ليذهب باكياً إلى أبيه ويأتي بالعيدية ، وأما الشيخ فإنه من الأصنام المقدسة التي لا يجوز مساس شعورها بكلمة إهانة أو تأنيب مهما ظلموا تلاميذهم .

* * *

مراسم الختام :

عندما يختم الطالب يبشّر أباه بذلك ويحدد موعد لزيارة الطالب إلى داره كالعادة في مراسم الأعياد ، إلا أنه يسبق ذلك أن يجلس الخاتم (وهو الطالب الذي أتمَّ قراءة المصحف الشريف) في المدرسة أمام الشيخ ويقرأ مبدأ سورة البقرة حتى يصل إلى آية : « ختم الله على

قلوبهم » فيقوم أحد الطلاب من إخوانه فيصفعه على قفاه ويلتقط طربوشه ، ويمضي جرياً إلى أبيه فيسلّمه إياه مقابل (حلوان) ، ثم يعود به إليه فيلبسه ويخرج الطلاب بالصورة المذكورة في موسم الأعياد بين الأناشيد والصياح إلى دار الخاتم فقط ، ويتناولون طعام الغداء والحلوى لديه ويهنئونه بإتمام معرفة قراءة المصحف ١ ، والحقيقة أنهم يهنئونه بخلاصه من فلقة ٢ الشيخ وعصاه .

وهنا يخرج الطالب من المدرسة ويتناول الشيخ (الحلْوَان) ، فيذهب الطالب ليمارس صنعة أبيه ويساعده على مضض الحياة إن كان فقيراً ، وإن كان غنيّاً أو متوسطاً يبقيه أبوه عند الشيخ بقصد إعادة التمرين ويسمّى هذا العمل (التجريد) ويسمى الطالب (المجرّد) ٣ ،

---

(١) كانت العادة في دمشق أن كل من أراد أن يختن طفله ، أو يحتفل بيوم ختمه القرآن الكريم يعمل له (نشيدة) ، وهي اجتماع أولاد مكتبه لابسين أحسن الثياب ، بعد أن يلبس الطفل المذكور الاثواب المقصبة والمزركشة ويزين بأصناف الحلي ، فتصطف الاولاد مثنى مثنى (بنظام الزكا) وهو بينهم وأمامه (المجري) لابسا ثوبا أحمر يصيح بصوت جهوري :

سعيد من يصلي على النبي قلب العامر يصلي على النبي

وبيده مجمرة فيها أنواع العود والبخور ، والاولاد ينشدون بأصوات عالية أناشيد الكتاتيب ويدورون بغالب سوق البلد ، ويعودون لدار صاحب (النشيدة) حيث يكون هيأ لهم الطعام وبعده يفرق عليهم جميعا الدراهم وقد يكتفي بتوزيع الدراهم من غير طعام ، أو بتوزيع قراطيس الحلوى .

انظر (جمال الدين القاسمي – قاموس الصناعات الشامية ٤١٨/٢)

(٢) الفلق : عود يربط حبل من أحد طرفيه الى الاخر وتجعل وجلا المجرم داخل ذلك الحبل وتشد فيضرب عليهما ، والفلقة : ماناله التلميذ من الجزاء بهذه الآلة . (المنجد)

(٣) هكذا وردت في الاصل وربما كان المقصود منها « التجويد » أي اعادة قراءة القرآن الكريم على قواعد التجويد .

حيث يعيد قراءة القرآن على الشيخ ، ويتعلّم قراءتي المولد النبوي الشريف والمعراج الشريف ، ويصبح في المدرسة (عريفاً) ١ ، يساعد الشيخ على تعليم غيره أيضاً من صغار الطلاب ، حتى يتمّ التلاوة أمام الشيخ مرّة أو مرتين أو لمدة سنة ويتعلّم خلال ذلك قراءة المولد النبوي الشريف والمعراج الشريف ، ومتى أتمّ ذلك انصرف إلى صنعة أبيه أو صنعة أخرى ، أو إلى حلقة بعض الشيوخ الأكثر استعداداً فيتعلّم الكتابة ومبادىء الحساب ، وبعدها ينظم في حلقة شيوخ المساجد ليتعلم قواعد دينية ويوالي مزاولة أعماله في الصناعة والتجارة أو غيرها ، فإذا سعفه الحظ انتظم إلى مدرسة ابتدائية فتعلم أشياء أخرى الى أن يستطيع الانتظام في مدرسة رسمية كما سيأتي بحثه في محله .

. . .

مراسم قراءة المولد :

يقوم الناس قبل حلول الثاني عشر من ربيع الأول بأيام فيقيمون معالم الزينة ويرفعون الاعلام ، وينصبون أغصان الاشجار ويعلقون بها القناديل وأنواع المفروشات الفاخرة في كافة الأسواق والأحياء ويعين كل حي ليلة لقراءة المولد باسم المحلة ويدعو أبناء الحي وبعض وجوه الأحياء الأخرى ، وتجري مختلف الألعاب بالسيف والترس ، والحكم٢ والألعاب النارية ، وتوزع صفاح الحلوى على المستمعين فيأكلون أو يوزع عليهم الملبس ، وهكذا في سائر الأسواق والأحياء والبيوت

---

(١) العريف : جمع عرفاء : وهو القيم بأمر القوم ، ويقال (عريف المكاتب) لولد يفوض اليه القيام على مراقبة الاولاد (يختار عادة من الطلاب المتفوقين) .

(المنجد ـ والمحيط)

(٢) الحكم : نوع من الالعاب سوف يشرحها المؤلف فيما بعد .

والمدارس . أما الحكومة فتقيم حفلة المولد النبوي الشريف نهاراً في المسجد الأموي وتدعو دائرة الأوقاف كبار الموظفين ووجوه الأحياء خاصة وبقية أفراد الشعب بصورة عامة ، توزع على الناس السكر والملبّس وتختم الحفلة بالدعاء لرجال السلطة وكافة المسلمين من قبل المفتي أوأحد الشيوخ الأفاضل من الحضور .

. . .

مراسم هلال رجب وجمعة رجب :

ان الاشهر الفضيلة باجماع سواد الناس وطبقة العوام هي : رجب وشعبان ورمضان ، وكثير من الناس من يباشر صيامه من مستهل رجب ، ويسمى هذا الشهر (رجب الفرد) لأنه وحده المنفصل عن موالاة الاشهر الحرم [1] ، حيث تأتي خلف بعضها وهي أشهر : ذو القعدة ، ذو الحجة ، والمحرم ، وكانت معروفة في الجاهلية ، واحترمها الاسلام .

---

(1) الأشهر الحُرم : هي : ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب ، لأن العرب كانت لا تستحل فيها القتال ، ومفردها الحرام .

أما شهر ذو القعدة «القِعْدَة » هو الشهر الحادي عشر من السنة القمرية يقع بين شوال وذي الحجة ، عدد أيامه ٣٠ يوماً ، سمي بذلك لأن العرب كانوا يقعدون فيه عن الغزو والميرة وطلب الكلأ .

ـ اما شهر محرم : فهو أول شهور السنة القمرية يقع بين ذي الحجة وصفر وعدد أيامه ٣٠ يوماً .

ـ ذو الحجة جمع ذوات الحجة : آخر أشهر السنة القمرية يقع بين ذي القعدة ومحرم عدد أيامه ٢٩ يوماً ، سمي بذلك للحج فيه .

(أعلام المنجد ١١٨)

مما يلفت النظر في هذا الشهر حادثـان أحدهما (جمعة رجب) و الثاني (ليلة المعراج الشريف) وهي الليلة السابعة والعشرون منه .

أما جمعة رجب :

فان الناس يقصدون حي الصالحية من سائر الجهات وخاصة من القرى المجاورة لدمشق بمـا فيهم سكان دمشق أنفسهم ، وذلك قصد زيارة الأماكن المقدسة ، وأضرحة الأنبياء والأولياء الصالحين فيها . وذلك قبل حلول صلاة الظهر ، يزحفون إلى الصالحية ويتسلقون جبل قاسيون فيزورون الكهف والأربعين ، والجوعية ، وذاالكفل عليه السلام ، وبقية مراقد الصالحين،ومنهم من يعمد بعد زيارة المساجد الى مسجد الحنابلة في سفح الجبـل فيقف أمام الباب الغـربي منه فيقرأ ماتيسر ويوهب ذلك الى الأنبياء وأرواح الصالحين ثم يسأل الله تعالى حاجته ، وينبغي أن يكون ذلك قبل أذان الظهر . ومن الناس من يضربون حلقة الباب كنايةً عن الطلب ليحظوا بالإجابة ويذكر أثناء ذلك حاجته كائنة ماكانت ، ويعود آمناً مطمئناً بأن الله تعالى سيستجيب له عاجلاً أو آجلاً ، وكثيراً ماكانت تقع الإجابة العاجلة مما أدى الى اعتقادسائر الناس بضرورة التزام حلقة الباب وراحوا يقرعونها بازعاج بسائق الجها[لة] مما أدى إلى قيام بعض عقلاءالشيوخوفضلاء العلماء بازالة الحلقة ، فرجع الناس الى المعتاد يدعون الله سراً وعلانية بكل هدوء وأدب واحترام وخشوع .

ليلة المعراج الشريف :

فإذا كان مساء اليوم السادس والعشرين من رجب اجتمع الناس في المساجد والدور لسماع قصة المعراج الشريف ، ويصغون اليها باحترام

ويتذكرون بها ماعملوا من شر فيرجعون الى الله تائبين من ذنوبهم متمسكين بأوامر دينهـــم ، يستغفرون على مافرط منهم ويتسامحون ، ونعمت العادة الحسنة التي هذبت كثيراً من أخلاق الناس ، وطهرت قلوبهم ونفوسهم مما داخلها من العادات الأجنبية كحب المال والتعامل بالربا ١ ، وتعاطي الميسر وشرب الخمور ، وارتكاب الفواحش ، وهضم الحقوق ، وظلم ذوي القربى واليتامى ، وغير ذلك ، ويزور الناس موتاهم ويتصدقون عن أرواحهم .

. . .

مراسم نصف شعبان :

يراقب الناس هـــلال شعبان بدقة ليتمكنوا من تحديد ليلة النصف المباركة ، فيصومون غالباً سحابة نهار ذلك اليوم ، وبعد صلاة المغرب يجلسون في المساجد أو في الدور مع عائلاتهم لقراءة دعاء نصف شعبان . ويباشرون العمل على الصورة الآتية : إذا كان في المسجد جلس الإمام والتف الناس حوله ، فيشير إلى من يحسن القراءة بقراءة سورة (يس) الشريفة على نية طول العمر ، وبعد الانتهاء من التلاوة سراً ، يباشر بالدعاء ، فإن انتهى اشار بقراءتها ثانياً على نية دفع البلاء ، فاذا انتهوا ، قرأ الدعاء ، ثم يشير بقراءتها على نية الاستغناء عن الاستجداء ثم يقرأ

---

(١) يقول القاسمي في قاموسه : يبدو انه كان بدمشق في تلك الفترة كثيرون يتعاملون بالربا وكانت هذه الحرفة بدمشق قبلا ، وكان البعض منهم يقرض المئة باثني عشر غرشاً سنوياً ، والبعض بثمانية عشر ، ومنهم من يقرض للفلاحين والعرب فيأخذ في المئـة خمسين أو ستين .

(جمال الدين القاسمي – قاموس الصناعات الشامية – ج ٢ – ص ٤٢٩) .

الدعاء ، وينصرفون إلى دورهم ليكثروا الصلوات والاذكار حتى صلاة الصبح ويرددون الادعية ، ومنهم من يحيي تلك الليلة في المساجد أو الكهوف في الجبل وفي الأماكن المقدسة فيدعون ويستغفرون ويصلون أملاً أن تصادف تلك الليلة ليلة الاستجابة أو ليلة القدر ، واشتهرت حلوى (الغرَيْبَة) [1] في هذا الشهر ، وإليك الدعاء المأثور : « اللهم ياذا المنّ ولا يُمَنّ عليك ، ياذا الجلال والإكرام ، ياذا الطّول والإنعام ، لا إله إلا أنت ظهر اللاجيّن وجار المستجيرين وأمان الخائفين ، اللهم إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقياً أو محروماً أو مطروداً أو مقتراً ، عليّ في الرزق فامحُ اللهم بفضلك شقاوتي وحرماني وطردي وإقتار رزقي واكتبني عندك في أم الكتاب سعيداً مرزوقاً موفقاً للخيرات ، فإنك قلت وقولك الحق في كتابك المنزل على لسان نبيك المرسل: ﴿يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ [2] ، إلهي بالتجلي الأعظم من ليلة النصف من شهر شعبان المعظم التي يُفرق فيها كل أمر حكيم ويبرم ، أن تكشف عنا من البلاء والوباء والبلاء مانعلم ومالا نعلم وماأنت به أعلم ، إنك أنت الأعز الأكرم ، وإنك علام الغيوب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم » .

. . .

مراسم رمضان المبارك :

لقد ذكرنا شيئاً كثيراً عن رمضان المبارك في مناسبات العيد المبارك وهنا تتميماً نذكر ما يلي :

---

(١) انظر ماسبق ص ٥٥ .

(٢) سورة الرعد . الآية : ٣٩ .

عندما يتحقق إنتهاء شعبان المبارك ، يقوم الناس عشاء ذلك اليوم بصلاة التراويح في المساجد ، ويهييء الناس طعام السحور من غروب شمس ذلك اليوم بعد أن يسمعوا أصوات المدافع .ايذاناً بحلول شهر رمضان .

يقوم الناس قبل أذان الصبح بتناول الخفيف من الطعام ويسمى طعام السحور ، وينتهي وقته إلى قبيل اذان الصبح حيث يسمى وقت الإمساك ، فيمسك الجميع عن كل ما يدخل الفم من غذاء ، أو ما يسبب إفساد الصيام والإفطار ، كما يمسكون عن إخراج فواحش الألفاظ ، ويبقون كذلك إلى غروب اليوم التالي .

ويسمّي الناس آخر غروب نهار من شعبان (يوم عَشَا صائِمْ) فتختلف أوقات العمل بالنسبة للصائمين ، فإذا كان وقت العصر انتهت الأعمال الرسمية بالنسبة للموظفين ، وكذلك بعض التجار وأرباب الصناعات الاخرى والشاقة منها ، وبعد صلاة العصر يصغون الى تدريس فقهاء المساجد ، ويستعلمون عما يفسد الصيام ، وعما ينبغي عمله من الخير والاحسان ، ثم ينفضُّون الى السوق فيهيئون طعام الافطار ، ومايتخلله من بهارج بالنسبة لمواسم السنة من فواكه وأكول مختلفة . وكثير من الرجال يشرفون على اعداد طعام الافطار بأنفسهم ، أو يؤازرون نساءهم قصد المعاونة والتسلية ، فإذا سمعوا طلقة المدفع جلسوا حول المائدة وقرأ أكبرهم أو رب الدار الدعاء الآتي : « اللهم لك صمت وبك آمنت وعليك توكلت ، اللهم إنك أعنتني فصمت ، ورزقتني فافطرت ، ذهب الظمأ وابتلت العروق ، وحصل الأجر باذن الله » . ثم يباشرون الطعام فإذا انتهوا قاموا إلى صلاة المغرب في دورهم أو في المساجد القريبة وظلوا كذلك إلى مابعد أداء صلاة العشاء والتراويح ،

ويعودون الى مجالسهم الخاصة وسهراتهم وسمرهممع ذويهم أوأصحابهم .
واشتهر في هذا الشهر خبز (الجَرَّادق) ١ وخبز (البرازق) وخبز (المَعْرُوك) . ومن الحلوى النَهْش ٢ ، والحلاوة الطحينية ٣الخاصة برمضان لطعام السحور .

. . .

خبز رمضان والجرادق :

أرغفة كبيرة مقلية ، وعليها خطوط من الدبس ، وعجينها فطير حيث تتقزز عند كسرها ليبوستها ، إلا انها عند وضعها بالفم تذوب حالاً .

أما البَرَازِقْ :

فأرغفة غليظة صغيرة معجونة بالسمن ، وعلى أحد سطح دائرتها محشو من السمسم ، وفيها السكر الكافي ولذيذة في الطعم .

أما الخبز المعروك :

فيصنع من جيد الدقيق بأشكال هندسية مختلفة ويكون سطحه مقمراً يضرب إلى الحمرة الدكناء ، ويكون لامعاً ويزعمون

---

(١) وهي مايعمل من العجين المائع ، توضع على صاج من نحاس على نار لينة ، حتى اذا جمد العجين على الصاج ، يقيمونه وينشرونه أياماً ، حتى اذا جف، يقلونه بالزيت ، ويرشون على وجهه مغلي الدبس ، تعرف بـ (اطباق الجرادق) ، ثم يضعونه في أقفاص كبار من القصب ، ويدورون به بالاسواق ، ولاتباع الا في شهر رمضان .

والجردقة : في اللغة هي : الرغيف ، وهي فارسية ، معرب « كرده » بالكاف العجمية ، معناه : المدور .

(انظر جمال الدين القاسمي ــ قاموس الصناعات الشامية ص ٢٢٧)

(٢) نوع من الحلوى : طبقات رقيقة من العجين تحشى بالقشدة ، وبعد نضجها في الفرن تسقى بالقطر . وهذا النوع لا يصنع الا في رمضان .

(٣) نوع من الحلوى المعروفة ، تصنع من السكر والطحينة المستخرجةمن السمسم .

أنهم يضيفون إليــه السمن ، وينادون على بيعــه في رمضان خاصة (تازَة ياغْلي) أي المسمن الجــديد التازج ، والتعبير أخــذوه عن الأتراك ليتفهمه أبناؤهم الساكنون في دمشق .

فاذا كانت ليلة السابــع والعشرين وهي المعروفة (بليلة القدر) على ماشتهر ، يحيونها الناس الى وقت السحور ، بعد أن يشاهدوا احفلات الأذكار من مختلف رجال الطرق وخاصة الطريقة المولوية في المساجد، وعلى الأخص في المسجد الأموي ، بعد انتهاء صلاة التراويح ، فيعمد الناس رجالاً ونساءً وأطفالاً إلى مسجد بني أمية ليشاهدوا تلك الحفلات. ويشترك فيها كبار الموظفين ووجوه الاحياء . ومقدار ماتستوعب باحته الكبرى . فيبدأ الدراويش ١ بدوراتهم المحورية على أكعابهم بنظام وترتيب يسترعي الاعجاب والإكبار .

إن اطفال الأحياء يترددون على المساجد لمشاهدة صلاة التراويح ، وكذلك النساء يذهبن للاشتراك في الصلاة في محل أعد لهن بينه وبين المصلين ستار يحجبهن عن الانظار .

ثم ان للأطفال ألعاباً خاصة بالبرازق يراهن أحدهم زميله على ضربه واحدة تنقسم بها البرزق إلى قسمين ، فإذا تجاوزت قطعها هذا الحد خسر الرهان وهكذا ،

ويستعملون أحياناً المرادن ٢ ذات الرأس الدقيق فيجعلونها في وترٍ وقوس صغير يوجهونها إلى كمية مرصوصة من البرازق فإذا نفذ السهم منها جميعاً كسب الرهان ، وهذه الالعاب كانت تجرى ليلاً في بعض منعطفات الاسواق ، وعقلاء الناس يشمئزون منها لأنها كسب غير حلال ، ونوع من الميسر .

---

(١) أفراد الطريقة المولوية مفردها (درويش) أي الفقير المتجول وهي كلمة فارسية .

(٢) نوع من السهام الحديدية يشبه السفود ذو رأس مدبب وفراش في ذيله .

ثم إن من عادة الاطفال أن يتجمعوا بعد الافطار أربعة أربعة أوأكثر فيطوفون على بيوت الاغنياء في حيهم ، يقفون على الباب ويصيحون قائلين :

لولا سعيد – وخالد (أبناء صاحب الدار) ماجئنا ،
حلّوا الكيس واعطونا
اعطونا مِصرِيّة
ياحارة ياشرعيّة
بيتنا بعيد
بَحارةْ العبيد
ياطالع على المادنــــة
اطلع ووَلّعيها
واشعل قَنَادِيْلها
قناديلها فضَّة
تركب على قدّه
فيها وإلاّ مافيها
فيها شَقّشَق العصفور
فيها فتّح المَنْثُور .

ثم يقولون :

تعطونا سحُورنَا
أو نكْسِرِ الباب بقرُوننا .

فيخرج صاحب الدار أو أحد أفرادها ويعطيهم ماتيسر من فواكه أودراهم أو غيرها من الحلوى .

ثم من العوائد أن يدور يطوف (المُسحِّر) على الدور قبل الافطار بساعة يضرب على طبلة فيخرجون إليه مختلف الأطعمة فيضعها في زنبيل

كبير ، ولديه صحف فارغة حتى يملأها ، ويعود بها إلى داره فيأكل منها كفايته ويوزع البقية على جيرانه المعوزين ، وهكذا حتى نهاية رمضان . ثم إن المسحّر يطوف على الدور للحصول على (عيدية) فيرشقه الناس بما تيسر من الدراهم مع بعض الأكول والحلوى .

وكانوا يسمون ليلة اليوم الثاني من شوال (ليلة اليتيمة) لانالناس يأوون الى مضاجعهم متشوقين إلى النوم لأن الليالي السابقة كانوا يحيون أكثرها بشؤون شتى ، وبذلك تكثر في هذه الليلة السرقات من اللصوص مستفيدين من استغراق الناس في نومهم .

• • •

مراسم شهر محرم :

إذا دخل شهر محرم عمّ الحزن كافة دور المسلمين ، لأن هذا الشهر يحمل معه ذكرى فاجعة كربلاء [1] ،وهي الجريحة[2] الدائمة في صدر كل مسلم سواءً من السنيين أم من الشيعة .

فأما الشيعة فمنذ اليوم الأول يجتمعون في دار فسيحة من دورهم ، فيقوم منهم من يقص تفاصيل الفاجعة على الجميع ويبدأ البكاء والنحيب ،

---

(١) ذكرى استشهاد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وذلك في العاشر من شهر محرم لعام ٦٠ للهجرة النبوية على صاحبها أفضل السلام ، وكان استشهاد الحسين بأن كاتبه أهل الكوفة ليبايعوه فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل لأخذ البيعة فبايعه نحو ثلاثين ألفاً فولى يزيد بن معاوية الكوفة عبد الله بن زياد فقبض على مسلم ابن عقيل وأمر بقتله ، فسار الحسين الى العراق (كربلاء) وحصلت بينه وبين والي الكوفة عبد الله بن زياد حرب انتهت بمقتله .

(محمد فريد وجدي ـ كنز العلوم واللغة ـ ص ٣٨٠)

(٢) والاصح أن يقول المؤلف الجراح .

والعويل ويضربون كفاً على كف ، ومنهم من يضرب رأسه وصدره قائلاً : (آه ليتنا كنا معهم) ، وتتجلى سحابة حزن وألم عميق على الجميع ، وبعد الفراغ ، وقبل نزوله عن منبره يقرأ ماتيسر من القرآن ، ويهب ذلك إلى أرواح شهداء الفاجعة ، ويعود كل منهم إلى داره مبللاً بالدموع . وهكذا كل يوم حتى العاشر من الشهر ، وهناك ينظم موكب حافل من كافة الشيعة بدمشق وأرجائها ، ويسير الموكب متجهاً إلى قرية (السيدة زينب) ، ويكون ترتيبه على هذا الشكل: أولاً : طائفة الرجال الأقوياء وبأيديهم العصي والحراب القصيرة ، ، وفي وسطهم تابوت مجلل بالبياض إشارة إلى تابوت الشهداء ، وخلفهم الشيوخ فالنساء . وأصوات البكاء والصراخ يملأ الموكب ، ويضربون رؤوسهم وأجسامهم إلى أن يصلوا الى قبر السيدة زينب ، وهناك تقام بعض مراسم الادعية والصلوات والذكرى ، فمنهم من يبقى ثلاث ليال ، ومنهم من يعود إلى داره .

أما المسلمون السنيون فإنهم يشتركون بالتفجع والآلام والبكاء من ذكر تلك الفاجعة بآل الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، ولكن ضمن حدود المنهيات شرعاً وبدون صراخ أو صياح أو ضرب مما لايرضاه الدين .

وعلاوة على ذلك فإن المسلمين يصومون اليوم العاشر ويسمى (عاشُوراء) ، ويفطرون على طعام الحبوب اتباعاً لسنة نبي الله نوح عليه السلام عند نزوله من السفينة عقب الطوفان ، ويوزعون من هذا الطعام على الفقراء والجيران والاصحاب ، ومنذ ذلك اليوم من المحرم يستعد الناس لاستقبال ذويهم ممن خرجوا إلى الحج .

. . .

طعام الحبوب :

أما الطعام فيتألف من خليط الفول والحمص واللوبياء ،والفاصولياء، والقمح المدقوق ، ويطبخ مع الدبس أو السكر ، أو اللبن الحليب ،فإن كان من النوع الأول ، فيسكب بأوان خزفية ١ ، ويذر على سطحه مسحوق الجوز ، وان كان من النوع الثاني ، فينثر عليه مسحوق اللوز، أو جوز الهند ، والنوع الثالث يبقى على شكله بدون زيادة . ثم يوزع الى الاحباب والفقراء عن أرواح الموتى ، وكثيراً مايطبخ ويباع في الأسواق في موسم الشتاء . وفي هذا الشهر يقرأ المسلمون دعاء أول السنة، كما يقرأون دعاء آخر السنة بنهاية ذي الحجة . وليس هنالك دعاء معين كما هو الحال ، في نصف شعبان ، بل عبارات متنوعة تتلخص في توجيه الحمد والثناء للمولى تعالى على حسن مامضى على الناس خاصة ، والمسلمين عامة من خير شاكرين آيبين وتائبين ، وفي أول السنة أيضاً يتوسلون بعد الحمد والثناء والصلاة على أشرف الانبياء صلى الله عليه وسلم ، أن يجعل عامهم بيسر ورخاء ، ويدفع عنهم الشرور والبلاء.

وأما في صفر ، فالناس في آخر يوم أربعاء منه يقرأون ماتيسر ، ويكتبون بطاقات صغيرة يضعونها في أواني المياه تبركاً باسمائه تعالى ويشربون منها ذلك اليوم .

. . .

(١) الاصل « بأواني » خطأ .

مراسم الختان

إن مراسم الختان تكون بين الرابعة والثانية عشرة من عمر الطفل ، هذا إذا لم يكونوا أجروا ختانه في اليوم السابع من ولادته ، يقوم الوالدان بدعوة الأقارب والأصحاب إلى يوم معلوم لحضور حفلة الختان ويسمونه (الطُّهُور) ، ويهيئوا الأطعمة ومختلف السكاكر والحلوى للمدعوين كما أن الاقارب يمدونه بكثير من القمح أو السمن ، أو الارز أو السكر ، ومنهم من يقدم الخرفان ، ومنهم من يقدم نوعاً من المصاغ والجواهر ، ويرسلون ذلك قبل حلول اليوم المعلوم إلى دار المضيف وذلك على سبيل المعاونة فيحفظ ذلك لهم ويهتبل فرصة أو مناسبة عند أحد هؤلاء ليقوم بواجبه مقابلة المثل بالمثل ، وتكون المقابلة بكثير من الشؤون خاصة في مواسم الحج عند عودة الحجاج ، أو في الاعراس ، أو الافراح الأخرى ، فلا ينسى أحدهم ماعليه من واجب حيال من سبقه.

وفي اليوم المعين يتقاطر المدعوون الى الدار ، فاذا لم تكن الدار على استعداد لقبول المدعوين استعار صاحب الدعوة دار أحد أصدقائه أو أقاربه لتتسع لجلوس المدعوين ، فتبدأ النساء بالزغاريد ، والرجال بالأناشيد ، ويأتون بالأطفال المراد ختانهم في ألبسة جديدة مزركشة ، فيجعلونهم في وسط الجمهور ويتقدم (المزيِّنْ)[1] أو الحلاق وهو الخبير

(1) المزين (الحلاق) والمصطلح عليه في دمشق هو من يختن الاولاد ، فكل من أراد ختن ولده يأتي بالمزين فيختنه له ويتعاهده عدة أيام حتى يبرأ وله على ذلك اكرام كل شخص على حسبه ، فالأغنياء كانوا يعطون المزين لحد الليرة ،، والبعض نصف ليرة ، والبعض الآخر مجيدي « الريال مجيدي يعادل ٢٠ قرشاً عثمانياً » . وتروج عملية الختان أيام الربيع بدمشق حيث يكون موسم الفول الاخضر .

(جمال الدين القاسمي ـ قاموس الصناعات الشامية .ـ ج٢ ـ ص ٤٣٦)

باجراء تلك العملية الجراحية فيمد يده إلى الأطفال مموهاً بأنه يريد أن يأخذ قياس طول ألبسته ليأتي له بلباس فاخر ، وبذلك يحصل التعارف بين الطفل والمزين ، حتى لاتأخذ الطفل الدهشة عند البدء بها ، ويكون قد ائتلفه وتكلم معه ، وإنه سيوهب له لباساً فاخراً ، وبعد انتهاء هذا التعارف بين المزين والأطفال على هذا الشكل ، يتقدم ثانية المزين ويكلف أحد الحاضرين على مسمع من الطفل قائلاً : خذ لي قياس قدمه من الخلف حتى لاأخطيء بالحذاء المقصب الجميل ، هذا والولد بدون سرواله ، بل بألبسته الحريرية المتدلية إلى قدميه ، فيأتي ذلك المخاطب ويكون من أقاربه ، ويمد يديه من الخلف إلى بين رجلي الطفل ويسنده إلى صدره قابضاً على يدي الطفل من الأمام ، وهنا يسرع الحاضرون بالصياح والتصفيق والصلوات بصخب وضجيج حتى لاينتبه الطفل الى يدي المزين حيث يكون هذا أخرج ميلاً (مرود) من الحديد دقيقاً وموسى ماضياً ، وبسرعة البرق أدخل المرود في حمامة الطفل بين الجلد والتمرة وعكفها إلى الخلف وقبض عليها بمثل المقص وقطعها وذر الذرور وربطها ، فإذا صاح الطفل لاتسمع صوته أمه خشية بكائها وتأثرها ، وهكذا بين الصخب والضجيج يقطع له ، فيأخذونه الى سريره ويضعون له (شمامة)[1] خوفاً من رائحة الزيوت الضارة . ويبقى كذلك يومين ، ولا يمضي غير قليل حتى يبدأ في السير قابضاً على سرباله من الأمام كي لايمس مكان القطع حتى يندمل .

ومن الناس من يضع الحناء والنقوش بالشمع المغلي الملوّن على الأكف

---

(١) قطعة من القطن مصرورة بقطعة من القماش ومبللة بالقطران تعلق بخيط في رقبة المختون وتتدلى على صدره بحيث تكون في متناول يده فيشمها عند تعرضه للروائح .

والأصابع والقدمين ، وإذا كان الطفل طالباً بإحدى المكاتب القرآنية زينوه بأفخر الملابس ووضعوا على رأسه إكليلاً من الزهور فوق الطرْبُوش ومشوا به على غرار سيرهم عند حلول الأعياد كما مرَّ حتّى يصلوا به داره ، ومن الناس من يركبونه على دابة مجلاة بالديباج ، وتقام العراضات [1] قبل ختانه ويطوفون به في الأسواق ، كل ذلك قبل الطهور وبنفس ذلك اليوم .

يجتمع الأقارب الأقربون قبل اليوم المعيّن للختان في دار المضيف ويقيمون حفلات الأغاني والرقص ويبقون كذلك إلى ما بعد شفاء المختون من جرحه ، وهذه الحفلات تعدّ بأهميتها في الدرجة الثانية من الأعراس .

* * *

(1) وبعض المدن السورية تستعمل الكلمة بمعنى التظاهرة الشعبية لفرح أو سواه من الاحتفالات .

مراسم الجندية

إذا بلغ الشاب العشرين من عمره فقد دخل في سن الجنديه الإلزامية فتعمد الحكومات المحلية إلى إصدار جداول الاحياء تحوي أسماء من تشملهم الخدمة الإلزامية فتعلقها في الساحات العامة أو مكان المجتمع العام عادة، وإلى جانب أبواب مساجد المدينة ويقوم كل مختـــار باستدعاء الطبّـال ليطوف الأزقة والحارات ضارباً على الطبل ليسهّـل عليــه تبليغ أوامر الحكومة لأفراد حيّه ، وتسمى هيئة الطبّـالين (مرفعجيّة) ويكونون [1] ثلاثة : أحدهم يعلق طبلة ذات وجه واحد على عنقه وتكون مدلاّة على صدره وبيديه قطعتا خيزران من الرفيع يوالي بهما النقر عليها ، وإلى جانبه آخر يحمل طبلاً كبيراً مستديراً بوجهين معلقاً بنجاد من الجلد فوق المتن الأيمن ومدلّى على جانبه الأيسر و [في] يده مطرقة ذات كرة من الخشب ، فيضرب على الطبل ضربات متقطعة ومتناسبة مع الطبلة الصغيرة ، والثالث يصيح بين كل فترة في مفترق الأسواق وحارات الحي وينادي (القَرعهْ العَسكرية يا إخوانِنَـا ، المُراجَعة في دائِرة أَخْذ العَسْكر ، والذي يَتَـأخّر عن المثول يَعدُّونه زَجْرِيّـاً فَيَخْدُم المدة مضاعفةً ، وعلى أبواب البَدَلْ المُسارعة إلى دفع البدلات) ، ويحدد الزمن المعيّن من قبل

(١) في الاصل : « ويكونان » سهو .

السلطات الحكومية ، فيهرع الناس إلى تذاكر نفوسهم فمنهم المعيل ، أو المريض ، أو الغائب ، أو المتزوج بفقيرة ، ومنهم الصحيح السليم الخالي من سائر أسباب التخلف عن الخدمة ، فيبدأون معاملاتهم الخاصة ، وهنا تتجلى براعة المختارين ويبدأ سوق مرابحهم وإثرائهم ، والقول لهم لدى الدائرة في كل ما يريدون ، فيأخذون الأموال ويقتسمونها مع رئيس التجنيد ولكنهم يظفرون بحصة الأسد منها .

على أن مختار الحيّ يعرف تماماً العائلات التي يمكنها دفع الأموال واستخلاص أبنائها، فيتّفق معهم على مبلغ معين ويدفع عوضاً عن ابنهم المدلل شخصاً مسكيناً ليس له من يدافع عنه . وبذلك تروج بضاعة الرشوة ويتفاقم النشاط فينجو من ينجو ويُظلم من يُظلم ، ومنهم من يختمون على غيابه خارج البلاد أو على وفاته ، أو على أنه مجهول محل الإقامة مقابل مبلغ معيّن يقتسمه المختار مع رئيس شعبة أخذ العسكر (التجنيد) على حسب وعي الرئيس وخبثه فإن كان رئيس الشعبة فطناً فاهماً عارفاً مواطن الخبث استطاع أن يجعل المختار واسطة أرباح وتمويل ، وإن كان الأمر على العكس سَرَحَ ومَرَحَ وغاص وسبح كيف يشاء ، وتكثر هذه التلاعبات أثناء إعلان النفير العام ، فضبّاط أخذ العسكر (أي التجنيد) بذلوا وسائطهم ليكونوا [1] في التجنيد بقصد السرقات واختلاس الأموال وكان أولئك الضباط يسمّون (ضباط الرَّديفْ) ، وهؤلاء ليسوا من الجندية ولا من الوطنية ولا من الوجدان في شيء .

---

(1) الأصل : « ليكون » سهو

فإذا كان وقت المعاينة الطبية يحين دور الأطباء لإساءة الاستعمال أيضاً فيتركون من يشترون أنفسهم بمبالغ معيّنة ، يفتدون منها ومنهم [من] يدخل الجندية حاملاً آلامه وأوجاعه وليس له من يسعفه ، فإما أن يقضي في الجندية ويلاقي حتفه من تأثير المرض ١ أو يكون من طويلي الأعمار فيدخل المستشفى أو يبرأ من نفسه دون واسطة غير لطف الله تعالى .

ولذلك كنت ترى أبناء الأغنياء وهم أقوياء الأبدان يسرحون ويمرحون ، ولا يذهب غالباً إلى الجندية إلا المرضى والمعيلون وأرباب العاهات ممن ليس لهم شافع . فيأتي دور الاقتراع فمن كانت ورقته بيضاء خرج من الجندية ، ومن كانت سوداء جنّدوه ، وتسحب الأوراق بحضور هيئة التجنيد من قبل شخص معيّن فيصيح (خالياً عسكرياً) ، فيصبح من المجندين ، وان صاح (خالياً باقياً) كان من مؤجلي القرعة إما حقيقةً صادفه الحظ أو نتيجة تلاعب في جانبي الكيس أي في زاويتيه ، حيث تكون السوداء في زاوية منه والبيضاء في زاوية أخرى ، فإن كان المكلف ممن لهم شفعاء من الذهب النضار سحب ورقته من الجانب الأبيض ، وإلاّ فحظّه سواد في سواد .

وكانت الحكومة العثمانية في عراك دائم مع اليمن ، ترسل الجنود إليها من الأمة الألبانية (أرناؤوط) أو (العرب) ، وكان يعرف الذاهب إلى تلك الديار بأن سفره بلا عودة ، فتكثر تلاعبات مختاري الأحياء ورؤساء الشعب والفارون من الجندية . ومن النادر على الجندي الذاهب إلى بلاد اليمن أن يعود سالماً ، فإمّا أن يموت عطشاً أو جوعاً ، أو

---

(١) الأصل : « المريض » سهو .

بسبب المرض أثناء الطريق ، أو يبقى مقيماً بين أهلها ، لذا كان يعتبر بعض المفكرين آنذاك بأن اليمن مقبرة عامة للجند العثمانيين .

كنت ترى في ذلك الحين بين بيوتات دمشق الكبيرة والصغيرة وأهلها الاضطرابات النفسية والتقوّلات والدعوات من المتظلّمات تشق عنان الفضاء ليلاً ونهاراً ، داعيات بكسر الحكومة العثمانية وفناء موظفيها الخونة ، وشتات شملها ، بسبب تلك المظالم المفضوحة على رؤوس الأشهاد .

فإذا انتهت المدة المضروبة عادة للجندية يتناول الجندي تذكرة الخلاص ويصبح في عداد الاحتياط حتى إذا بلغ الأربعين دخل في سنّ المستحفظ حتى سن الخمسين ، فإذا تجاوزها اطمأن على نفسه . على أن حالات النفير العام ما كانت لتفرّق بين هذه الدرجات ، بل كانت تصادر من يقع باليد من الأشخاص مهما كانت سنّه إذا رأوا فيه بقيّة أو أنسوا منه ثراءً أو فائدة ما ، حيث تعاد سوق الإساءات والمظالم والثراء الغير مشروع [1] للمخاتير والعونة ورؤساء الرديف [2] (التجنيد) . فبذلك كان يكثر الفارون من الجيش وتتحمّل الحكومة نتائج إساءة مستخدميها وموظفيها ، وكذلك أرباب البدل ما كانوا ليستطيعوا فدية أنفسهم بالمال لمرة واحدة أو اثنتين ، بل كان هؤلاء ينابيع ثروة دائمة لرؤساء الأحياء وشعب التجنيد ، فكل ما عنّ لهم أو احتاجوا إلى مال أعادوا النظر إلى هذا القسم من أفراد البدل ، وربّما تأثروا لترددهم عن الدفع فساقوهم قسراً على صفة المتخلفين عن الخدمة وهكذا . . .

* * *

(١) هكذا وردت في الاصل والاصح « الثراء غير المشروع » .

(٢) الرديف : جمع رداف ورُدَفاء : الجندي الذي يطلق سبيله الى وقت الحاجة ، تستعمل الآن بمعنى « الاحتياط » (انظر المنجد رَدِف)

مراسم الاعراس

إذا بلغ الشاب الثامنة عشرة ، وكان من عائلة متوسطة قادرة على دفع البدل لإنقاذه من الجندية ، أو كان أتمّ مدة الخدمة الإلزامية ، عمد أبواه للبحث عن زوجة صالحة ، ولا بدّ في هذه الحالة من أن يكون الشاب إمّا غنيّاً أو صاحب مهنة تدرّ عليه الرزق ، أو مدلّعاً على أبويه ، أو شديداً عليهما ، أو حالة من الحالات الأخرى التي تكفل له تلبية طلبه ، فيعمد أبواه إلى تزويجه .

والأوصاف التي سنذكرها هنا هي بالنسبة للعائلة الغنيّة أو المتوسطة في الثّراء على الأقل .

مقدمة الخطبة :

عندما تصح عزيمة الوالدين على البحث عن كنّة لهما ، يتذاكران فيمن يعرفانه من الأقارب ، ويجيلان الطرف حول بنات العمومة ، فالأخوال فالخالات والعمّات ، فالجيران . فإذا لم يوافق مشاربهم عمدوا إلى أبعد من ذلك المحيط .

تصطحب الوالدة اثنتين أو أكثر من قريباتها ، فيذهبن معاً إلى دار معيّنة أشار لهنّ بها أحد المطلّعين أو المطّلعات ، على وجود بنات حائزات الشرائط المرغوبة . وعندما يستقرّ بهنّ الجلوس وتبادل التحيّات الرقيقة تبادر أكبر القادمات بالسؤال عن الأحوال والدنيا

وهنا وهناك لعلّها خلال تلك الفترة تصادف مرور إحدى البنات فتسأل عنها هكذا : (ما شاءْ الله حَصَّنْتها بالله ، هذه البنَيّة بِنْتكم ؟) ، فإذا لم تصادف توجّه السؤال الآتي : (ولكن أحببنا أن نتشرّف بالتعارف معكم ، ثم علمنا بأن لديكم بنات وصفت لنا أخلاقهن فأردنا أن نتشرّف بصلة القربى ويكون لنا بذلك حظّ عظيم .) ، فإذا أجيبت على رغبتها كلّفت تلك الفتاة (أو الغائبة عند حضورها أو العودة في جلسة أخرى) بأن تتكرّم عليها بكأس من الماء ، وبهذا التكليف تشاهد خفتها ومشيتها وطولها وصحتها ومبلغ خجلها فإذا شربت شكرتها على لطفها وعادت الفتاة إلى غرفتها بعيدةً أو جلست قريبة منهن بعد تكليفها بذلك .

وقد تتكرر الزيارة ، وتكثر المشاهدات ، لأكثر من فتاة وأكثر من عائلة ، ومن قبل أكثر من خاطبة ، وقد تتقدّم إحدى الخاطبات فتربّت على كتف الفتاة إذا أعجبتها وتقبّل فمها تقبيلاً حاراً ، والقصد من هذه القبلة أن تفحص نَفَسها ، وهل لها رائحة كريهة ، أو كانت بخراء [1] ، أو رائحة دخان لتستعلم من ذلك إن كانت تدخن أم لا .

---

(١) بَخِرَ بخراً الفم : انتن ريحه فهو أبْخَرْ — رائحة الفم الكريهة — ومن عاداتهم أنه كان يناط بالبنات في سن الزواج وهي عادة من الخامسة عشرة فما فوق تقديم القهوة والشراب للخاطبات فتتأمل الخاطبات مشيتها ونقل أقدامها وأدبها في تقديم القهوة في الاياب والذهاب ، يخاطبنها فيرين غنة كلامها وفصاحتها ويقبلنها ليشممن رائحة فمها ومتى أصبح الامر قريباً واقعاً يذهبن الى الحمام معاً ويرين جسمها عارية وشعرها ويشممن آذانها وتحت أبطها ورائحة عرقها وثيابها وينقلن ذلك الى الخاطب وعميد الاسرة مع الوصف الكامل .

(محمد كرد علي — خطط الشام)

فإذا استقر رأيهم على الفتاة تبادل الطرفان الاستعلام عن الخاطب والمخطوبة ومكانتهم الاجتماعية ، وسنّ الخاطب وصنعته ، واسم العائلة ، ليفسحوا المجال لأنفسهم عن السؤال من الجيران ، فالخاطبون يسألون خلال تلك الفترة من الجيران عن أطباع وحال المخطوبة ، ومكانتها الاجتماعية وسمعتها ، كذلك يفعل أهل البنت بالنسبة لعائلة الخاطبين ، ويكون كل من الطرفين قد استعلم عن اسم الخاطب والمخطوبة بقصد الاستخارة ، فإذا حلّ موعد انتهاء الاستخبار جاء الخاطبون إذا اطمأنوا كما يريدون وفاتحوا أهل البنت بعزمهم على التشرف بصلة القرابة ، فإذا كان أهل المخطوبة أعجبهم حال الخاطب اتفقوا على ليلة معينّة يخبر الطرفان رجالهم بذلك ليفسحوا المجال لاجتماع الرجال بعد أن انتهت المرحلة التمهيدية عن أيدي النساء .

فإذا لم يطب لأحد الطرفين حال الآخر اعتذر عن ذلك بالقول : « ان الاستخارة ويا للأسف لم تكن مؤاتية ، وتدلّ على عدم وجود نصيب . » فينصرم بذلك حبل الزيارات إلى ما كانوا عليه قبل **التعارف** ، وربّما ألحّ أحد الجانبين بالطلب والإصرار فإمّا أن يتمّ الرضاء أو لا يتمّ .

ومتى اتفق الطرفان وأعلما الرجال بكل ما توقع لكل من الجانبين ، عمد الأب إلى بعض الوجوه والأقارب ، فاستدعاهم وعرض عليهم الأمر وكلفهم لأن يرافقوه في زيارة والد المخطوبة للاستعانة بهم على البتّ في الأمر . ثم يرسلون من يخبر والد المخطوبة فيضرب لهم

موعداً ويعدّ لهم متكأً ، ويمهّد لهم الراحة من الفاكهة والحلوى والأشربة والسيكارات ١ أو الأراكيل ٢ بعد أن يستعلم عن عددهم .

وفي الموعد المضروب يجتمعون ويتبادلون الأحاديث العامة ، ويتقرّبون بمناسبات الحديث شيئاً فشيئاً حتى تصادف حديث المناسبة التي أتوا من أجلها ، فيتفق الطرفان على المهر وما ينبغي ؛ ويتوسع الجانبان بالإطلاع على حال كل منهما ، ومن الطبيعي أن يكون والد المخطوبة استحضر طائفة لهذه الغاية من وجوه أقاربه ومحلته ، وربّما صادف بين الطرفين ذو معرفة سابقة بأحد الجانبين فيكون وسيلة لتقارب وجهات النظر أو حلّ المشاكل البسيطة المتعلقة بالمهر والجهاز وموعد العرس وخلاف ذلك .

وبعد الانتهاء من الجلسة يتقدّم الأسنّ من بين جماعة الخاطب ويطلب من الجميع قراءة الفاتحة على تلك النية بأن يجعلها ميمونة التبعية والحظ والسعادة ويدعو بما تيسّر فيؤمن الجميع على ذلك ، ويطلب عقب هذا ورقة النفوس ليبدأوا بمعاملة الخطبة بشكل رسمي وكان هذا نادراً إذ كان الناس لا يتقيّدون بورقة الأذن كما هي الحال في يومنا ، بل يهيئون ما ينبغي عمله لإحضار لوازم الجهاز .

وبعد الانتهاء ينصرف كل إلى داره ، ويبدأ الطرفان باعداد أسباب الجهاز والاستحضارات الأخرى والتواصل بينهم بدون انقطاع .

• • •

---

(١) السيجارة جمع سجائر وسجاير ، وهي اللفافة من التبغ ويقال أيضا «السيكارة» جمعها « سيكارات » والعادة أن تقدم في مثل هذه المناسبات . (المنجد)

(٢) انظر ماسبق ص ١٨ .

استعداد أهل العريس :

يستعدّ أهل العريس لإحضار المهر كاملاً ، ويهيىء قسماً من الدراهم يرسلها إلى أهل العروس استعداداً لإجراء حفلة العقد ، وتسمّى هذه (لَفافة كِتَابْ) أي مصاريف حفلة العقد ، فيقوم أهل المخطوبة بالاستحضارات المتعارفة للحفلة كالبن والفواكه والملبس [1] والدخان [2] والأراكيل [3] ، ثم يستعلمون من أهل العريس عن مقدار مدعويهم ليرسلوا على عددهم بطاقات رسمية ، وبعد الاستعلام يباشرون بطبع البطاقات المتضمنة الدعوة لحضور الحفلة ويوقعّها والدا الخطيبين وتكون غالباً على شقّين أحدهما بتوقيع والد العريس أو من ينوب منابه ، والثاني بتوقيع والد العروس أو من يكون مأذوناً بذلك ، وتتضمن البطاقة عبارات المجاملة ، وتعيين المكان الذي ستجري فيه الحفلة ، ويومها وساعتها ، ويتقدّم غالباً العقد تلاوة قصة المولد النبوي الشريف ، وفي اليوم والساعة المعيّنة يتوافد المدعوون ، وتجري المحادثات الوديّة مقدار ساعة ثم يحضر الخوان وعليه باقات [4] الزهور وصفاح السكر الملبس ، وتزين الدار بالأنوار والشموع فيتصدّر من يقرأ المولد النبوي الشريف وتوزع أكواب المرطبات

---

(١) انظر ماسبق ص ٤٨ .

(٢) يقصد به لفائف التبغ (السيكارات) .

(٣) انظر ماسبق ص ١٨ .

(٤) مفردها « بانه » كلمة أجنبيــة الاصل تعني مجموعة من الازهار مضموم بعضهـا الى بعض .

صيفاً أو الحليب المجمّد (طونْدَرمة) ١ أو المحلاية ، أو الحلوى شتاء والملبس ، وبعد فترة قصيرة يتقدّم وكيلا العروسين فيجلسان أمام الشيخ بحضور الجميع ، فيبادر الشيخ بخطبة العقد ، يبيّن فيها سنة الكون وبقاء البشرية وسنة الرسول الأعظم ، وحب التعارف والتكاثر ، وان ذلك مما يقرب البعيد ويحبب القريب فيصبح بعد أن كان غريباً صهراً ونسيباً. ثم يلقن وكيل الزوج أو أبا الزوج وهو بمواجهة والد الزوجة أو وكيلها وكل منهما ممسك براحة الآخر : « زوّج وانكح موكّلي ولدي فلان ابنتك فلانة العاقلة البالغة البكر على مهر مؤجله كذا ومعجّله كذا » . فيقول الآخر : « زوّجت وأنكحت موكلّي فلانة لابنك فلان على مهر . . . » فيقول الأول : « قبلت زواج ونكاح موكّلي . . . . » (العبارة نفسها) . أو أنهما يقتصران على كلمتي الإيجاب والقبول وتحديد المهر ، فيبادر الجميع لهم ويدعون لهم بالرفاه والبنين .

وعندها يخرج الوالد من جيبه كيساً فيه المهر ويعدّه أمام الحضور فيتسلمّه والد الزوجة أو وكيلها بحضور ومشاهدة الجميع ، ربما يعقب ذلك في نفس الليلة بعض سماع ألحان وطرب ، وينفضّون مسرورين داعين للعروسين بالسعادة والهناء .

---

(١) طوندرمة (ضرضرمة) لفظة تركية معناها الحليب المحلى المجمد بالثلج ، وهي تروج في فصل الصيف ، ومنها ما يصنع بالحليب والسحلب ، وعند تقديمها للمشتري يضعون عليها القشطة مع أصناف اللباب مثل : لب اللوز والفستق المقشور ونوع آخر منها يعملونها بالليمون والبرتقال ، ويضعون عليها ما تقدم .

جمال الدين القاسمي ـ قاموس الصناعات الشامية ـ ج ٢ ص(٢٨٤)

قد يصادف أن يحضر العريس العقد ولكن ذلك كان نادراً ، كما أن إلباس خاتم الخطبة ١ كما هي العادة اليوم والاجتماع إلى الزوجة كان ممنوعاً منعاً باتاً ويعدّ لديهم من المعيبات والكبائر ، إذ لا يجوز له أن يراها إلا ليلة الزفاف .

ثم ان الشيخ يبادر فوراً إلى تحرير صفة العقد بكامله مفصلا ويوقّع عليه بنفسه ثم الشهود الحضور ووالدا الزوجين ، ويحتفظ كل من الطرفين بنسخة عنه على حدة .

. . .

استعداد أهل العروس :

أما أهل العروس فبعد إحضار ما ينبغي من اللوازم للحفلة تحضر المدعوات ويحطن بالعروس وتكون جالسة بأفخر الثياب على أريكة مرتفعة عن الجلوس ، ناظرة إلى الأرض حياءً وخجلاً مستغرقة في صمت وهدوء طويل حتى نهاية الحفلة ، وكل حركة أو كلام أو ابتسامة تصدر عنها تعدُّ بالنسبة لها من المعيبات الدالّة على وقاحتها ، لذلك تبقى متظاهرة بالحزن العميق والألم والخجل يحمل وجهها علائمه فينساب العرق على وجهها وإلى جانبها والدتها ووالدة العريس يكفكفن دموعها وتندي جبينها ووجهها ، ويمسحنه عنها لأن الحركة منها عيب عظيم .

التجهيز :

بعد أن يحصل والد العروس على المهر يبادر إلى شراء معدات

(١) الخاتم هو ما يقدمه الخاطب عربونا لاثبات الخطبة .

الجهاز ، ويعطي قسماً من المال إلى زوجته لشراء الملابس الخاصة بالزفاف ، فينصرف كل منهما لإتمام عمله ، استعداداً لإنهاء اللوازم ليوم الزفاف الذي سيعيّن فيما بعد باتفاق الطرفين بعد انتهاء إعداد كافة حوائجهما .

فالزوجة تدعو العارفات من النساء الخياطات وتستعين بهن على شراء ملابس العروس وتباشر بخياطتها وانهائها ولا بدّ من شراء ملابس للوالدة ولشقيقات العروس أيضاً بتلك المناسبة ، لذلك فيضطر والد العروس أن يفادي بكمية كبيرة من الدراهم تضارع المهر بكامله أو تفضله ، إذ من المتعارف عليه أن يصرف والد الزوجة على جميع حاجاتها بالقدر الذي يستطيع حتى تكون حاجاتها تامة ، ولو أدى ذلك إلى بذل ما يبلغ أضعاف المهر المعيّن .

أما والد العروس فيعرض الأمر على أحد المنجدين ١ وينزل معه إلى الأسواق لشراء الدامسكو ٢ والمرآة والبرادي ٣ (الستائر) والمخدّات ٤ من لون وجنس معين ، يحدده النساء ويشرن عليه به ، ثم الصوف والقطن من أجل اللحف والفرش والمساند ٥ واللحاشات (نمارق) ، والبيرو أو الصندوق (على حسب نوعه وشكله) ،

---

(١) مفردها : النجّاد أو المنجّد : أي من يعالج الفرش والوسائد ويخيطها والمهنة أو الحرفة تسمى « النِجّادة » .

(٢)نوع من القماش منسوب الى دمشق وهي الثياب المزركشة بالرسوم من الحرير والكتان ، نقلها الشاميون من دمشق الى الاندلس .

(٣) مفردها « برداية » كلمة من أصل فارسي « بردة » تستر النوافذ والأبواب .

(٤) مفردها : المِخدّة ، جمعها : مخاد : مايجعل عليه الخد عند النوم وهي (الوسادة)معروفة .

(٥) المساند : اسم لما يستند اليه . وهي محشوة بالقش .

والبيرُو كلمة أجنبية رضيها الناس للدلالة على صندوق مستطيل له دروج لوضع ألبسة العروس وعليه قطعة من الرخام الأبيض النقي وفوقه المرآة من جنس ولون معيّن ، ثم أنواع الخزف (من صحون وزبادي [1] وكازات [2] بللّور زجاجي وودع) ، ومتكآت خفيفة مطرّزة مزركشة أخرى ، ووسادة النوم للعريس ، واللحاف الخفيف المزركش والشراشف [3] والبشاكير [4] اللائقة ، والسجّاد والحصير ، في دار العروس ، وإذا كانت العروس أو العريس ممن يقرأون كتاب الله تعالى فيجعل لهم من لون الجهاز ثوباً للمصحف الشريف .

أما والدة الزوجة فتبتاع القبقاب [5] والكندرة [6] ولوازمات [7] العروس الأخرى من كل ما تحتاج لشؤونها الخاصة . فإذا قاربت الحاجيات على الانتهاء وقبل يوم الزفاف بأسبوعين تكثر الاتصالات بين أهل العريس والعروس لمشاهدة نشاط كل منهما واستعدادهما ، تتقدّم

---

(١) مفردها الزبديّة : صحفة (أو صحن) من الخزف أو الزجاج تستعمل للسوائل من الطعام .

(٢) نوع من المصابيح الهوائية التي توقد بسائل الغاز (الكاز) زجاجية ودع ويسميها العامّة « شمعدان »

(المنجد ـ والمحيط)

(٣) مفردها : « شرشف » كلمة عامية أصلها غير عربي وتعني قطعة من القماش كبيرة كالملاءة تتخذ لتغطية الحشايا (الفرش) عند فرشها للنوم .

(٤) مفردها بشكير كلمة غير عربية انظر ص ٢٦ .

(٥) جمعه قباقيب : الحذاء المصنوع من خشب . (المنجد)

(٦) كلمة غير عربية يقصد بها الحذاء النسائي .

(٧) هكذا وردت في الاصل والاصح « لوازم » .

والدة العريس إلى أهل العروس بمبلغ من المال يسمى (تعيينة) ١ تسلّم لهم وتحدد يوم الزفاف نهائياً .

* * *

الحنّـــــــاء :

بعد الانتهاء من ذلك تباشر والدة العروس بجلب كمية كبيرة من الحنّـاء ، وتدعو صديقات ابنتها ليوم معيّن يسمى يوم (الحنّـاء) ٢. وعندما تحضرن يتحنين مع العروس ، من قبل امرأة معيّنة تضع لها الحنّـاء على قدميها ويديها ، وتفعل ذلك لصديقاتها وتبدأ ليالي الأفراح التمهيدية ، فتحضر طائفة من نساء الطرفين بدون دعوة خاصة فيسمرون ويتغنون ويسرون ٣ ، فإذا مضى أسبوع كامل على يوم الحنّـاء ، دعت والدة العروس أيضاً صويحبات ابنتها ليوم معيّن يسمى يوم (النّقْش) حيث تحضر النقّـاشة وتباشر فوق آثار الحنّـاء في يدي العروس وقدميها النقش بالشمع المزيج مع مواد لزجة ، وتجعله بأشكال خطوط منكسرة متوازية إلى حذاء الكعبين وعلى أصابع الرجل ، وهكذا في الكفين أيضاً ، وبما أن النقش يجري وهو حار لاذع تبدأ العروس في البكاء من شدّة الألم ، فتبادر النساء حولها بعملية التهوية

(١) المقصود به مبلغ من المال تقدمه والدة العريس لاهل العروس حين تعيين موعد الزفاف لشراء لوازم العرس .

(٢) حنّأ تحنيئا وتحنيئة حناة : خضبه بالحناء . وهو نبات يتخذ ورقة للخضاب الاحمر المعروف وله زهر أبيض كالعناقيد ، وهذه العمليـة تسبـق العرس بثلاثـة او اربعة ايام .

(٣) هكذا وردت في الاصل والصحيح : « يسمرن ويتغنين ويسررن الخ .. »

بواسطة المراوح المعروفة ويتندرن لها بالنكات اللطيفة تخفيفاً عنها من آلام الحروق بالشمع ، ويعملن على إضحاكها وحملها على الثبات والصبر ، لا سيما وصويحباتها يشتركن بنقش أرجلهن كذلك ويتفاخرن بالتحمل والصبر فتخجل وتتحمل ولكن على مضض ، فإذا مرّ ثلاثة أيام على هذا النقش عادت النقّاشة فحلّت الرباط عنها وأخذت تصحح بعض ما تفشّى منها ثانية وتصلح أظافرها جميعاً ، وفي اليوم الرابع تزيل الرباط عنها نهائياً ، وتزيل الشموع بالزيت ، فتبقى علائم النقوش بارزة بألوانها البنّية بشكل مألوف ومحبب للنساء .

. . .

الحمام والسّماط :

وفي هذه الفترة تدعو أم العروس أقاربها وأقارب العريس إلى الحمام ، وتستعلم عددهم ١ فتأخذ الحمام (حِمَاية) ٢ على حسابها ، لا يدخله ذلك اليوم إلاّ المدعوون ٣ من أقارب الزوجين ، وذلك في اليوم الأخير الذي سيتمّ مساء العرس ويكون زفافها على زوجها .

يذهب الجميع إلى الحمام ويقيمون ٤ فيه (السماط) وهو طعام خاص لكافة المستحمّات فيه ، حتى إذا كان العصر خرجت العروس وحولها الجميع بالزغاريد إلى دار أبيها أولاً كما سيأتي .

. . .

(١) هكذا وردت في الاصل والاصح « عددهن » .

(٢) هنا حجز الحمام لفترة معينة من قبل أم العروس وعلى نفقتها لها وللمدعوات.

(٣) هكذا وردت في الاصل والاصح « المدعوات » .

(٤) هكذا وردت في الاصل والاصح « يقمن »

المنجد :

أما المنجد فبعد أن يحصل على كافة اللوازم يحضر يومياً ، وعند الحاجة لدار العريس فيقيس ويفصل ويعاونه النساء على الخياطة حتى ينتهي من عمله في دار العروس ، فإذا انتهت تعيّن يوم معيّن يسمى (يوم نقل الجهاز) ، حيث يتفق أهل العروس والعريس على أشخاص عمّال ليحملوه ، ويجتمع المنجد في دار العروس مع كافة تلك الأشياء ويسمى (يوم الحزم) ، فيحزم المخدّات (القش من الدامسكو المخاط على شكل جميل) على حِدَة بالحبال الرفيعة (مَرَس) والمرآة على حدة ، والفراش واللحف والصحون والزبادي [1] على طبلات [2] خشبية ، والبيرو والسجّاد والحصيرة كل قسم منها ، فيحمله الحمالون من دار الزوجة إلى دار الزوج على هذا الترتيب :

١ً — المختار والإمام ووجوه الحيّ ، ويليهم بالترتيب

٢ً — حامل المصحف الشريف .

٣ً — خلفه البقج [3] الحريرية المزركشة بالصَّرْمَة [4] .

٤ً — حامل وسادة العريس .

---

(١) انظر ص ٩١ .

(٢) مفردها الطبلية وجمعها : طبليات : وهي المنضدة المستديرة مثل الطبل يرق عليها الخبز أو يؤكل عليها ونحو ذلك وهي كلمة عامية .

(٣) مفردها : البقجة : الصرة من الثياب ونحوها وهي كلمة (تركية) .

(٤) (الصارمة) أقمشة متينة النسيج مطرزة بخيوط الذهب أو الفضةاوالقصب.

(د. كاظم الداغستاني ـ البيت الشامي الكبير) ص ٣١ .

٥ً حامل اللحف .

٦ً ــ حامل الفراش .

٧ً ــ حامل السجادة .

٨ً ــ حامل المرآة .

٩ً ــ حامل الصندوق أو البيْرو .

١٠ً ــ حامل الخزف ويكون عادة أكثر من واحد ، ثلاثة فأكثر على حسب كثرتها وقلّتها .

ويتقدم هذا الموكب الطويل (المنجِّد) ومعه أُجراؤه ، فيسبق الموكب إلى دار العريس ، حيث هناك طائفة من النساء ينتظرن وصول الجهاز ، وعند دخول المنجد الدار ، تبدأ الزغاريد وكلّها مدائح للمنجد فيشق طريقه بين النساء ، فيستقبل القادمين مع الجهاز فيجلسون على جانب ويستعرض المنجد حملة الأشياء واحداً واحداً ، ويشير إليه بوضع ما يحمل في ناحية معينة حتى ينتهي الجميع من وضع الأشياء على غير ترتيب داخل الغرفة المعدّة للعريس ثم يقفل الباب ، ويضع المنجد المفتاح بجيبه خوفاً من فضول بعض النسوة فينزعن [1] أو يلوثّن أو يفسدن أو يسرقْن ، وبعد أن يتناول الحمّالون أجورهم ويشربون مع المختار والوجوه المرطبات والقهوة يخرجون جميعاً مسرورين .

وفي اليوم التالي وهو اليوم الذي سيكون العرس بعدغروب شمسه

---

(١) كلمة عامية بمعنى الاساءة او التخريب تستعمل في مدينة دمشق وبعض المدن السوريـة .

يذهب المنجّد مع بعض صنّاعه ، فيفتح الغرفة ، ويعلّق المرآة على الحائط ويثبتها تماماً فوق الصندوق أو البيرو المستطيل ثم يعمد إلى الستائر وهي قسمان ، قسم منها من الشيت ١ الأبيض يسدل على النوافذ بما فيها باب الغرفة من الداخل ، والقسم الآخر من نوع الجهاز وهي الطراريح ٢ الطويلة المعروفة باسم (طواطي) ٣ فتكون من الدامسكو الحرير نفسه ، وهي متعرجة ومخاطة بشكل حلقوي بسطوح دوائر مزممة ومنتهية بشرّابات (طُرّر) من نفس اللون ، ومثبتة على قطع خاصة من الخشب تسمى (قدّة) فيعلقها أيضاً على النوافذ ، ثم يعمد إلى (القاطع) ٤ وهو من الخشب على جوانب الغرفة فيضع عليه الطواطي وفوقها الوسائد (المخدّات) من جنسها ، وفي القسم المقابل لباب الغرفة يضع (الدفّ) وهو قطعة كبيرة مستطيلة على طول جدار الغرفة ومصنوع من نوع الصندوق والمرآة ، وفيه تجاويف (دروج) ٥ تضع ٦ العروس فيه ملابسها وملابس زوجها ، وبعد تثبيته أيضاً يضع في وسط الطوطاية

---

(١) نوع من القماش الكتاني ذو ألوان وأغلبه الابيض

(٢)و(٣) الطراريح «الطواطي» أو « الكراويت » هو القاطع المعد للجلوس وعليه طراحات مريحة (سهام ترجمان ـ ياmال الشام ـ ص ١٧٠)

(٤) نوع من (الكتبات) عليها وسائد وقياسات قش استرتها من الدامسكو حسب اللفظ العامي (تقاليد الزواج ـ اصدار وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ دمشق ـ سوريا)

(٥) الدرج : جمع أدراج ودرجة : عبارة عن سفيط صغير تدخر فيه المرأة طيبها . وأدواتها ـ سمي بذلك تشبثها بالسلم ودرجاته (انظر المنجد درج)

(٦) الاصل : « توصع » .

التي في الصدر فوق الدفّ اللحاشات (وسائد) المزركشة بصفّ جميل ، وفوقها لحاف العريس (الجودهله) ١ ويكون مشغولاً ومدرباً تدريباً هندسياً فنيّاً جميلاً ، فيضعه بشكل أشبه بالوعاء ٢ المعدّ للزهور ، بشكل مثني بثنيات لطيفة ، وفوق ذلك سجادة الصلاة ووسادة العريس الخاصة ، ويعلّق كيس المصحف على الجدار فوق الصدر ، ويضع الأواني الخزفية في تجاويف الحائط (مكتبات) والكازات ٣ والأواني الجميلة أمام المرآة فوق الصندوق أو البيرو ، ويضع السكَمْلَة ٤ أمام الصندوق وإلى جانبها أحذية العروس ، ويستغرق هذا العمل معه من الصباح إلى وقت الظهر ، فيتناول الطعام مع صنّاعه ويخرج بين صفوف المزغردات من النساء ، حيث يذهب إليه والد العروس ويحاسبه على المصاريف والأجور .

• • •

استعداد دار العريس

أما أهل العريس فإنهم يوزعون البطاقات قبل عشرة أيام على الأقلّ ، على المدعوات بعد الاستعلام عن العدد الكافي لأهل العروس ، وتكون هذه البطاقات موقّعة من والدة العريس ووالدة العروس ، وذلك

---

(١) كلمة غير عربية وتلفظ أحياناً « الجودة لك » بمعنى اللحاف جمع : لحف ، والملحف جمع ملاحف : سمي بذلك لأنه يشمل الانسان في التغطية أثناء النوم . (المنجد)

(٢) الأصل « بوعاء » .

(٣) انظر ص ٩١ .

(٤) وهي طاولة صغيرة جداً توضع عليها صحون السجاير « ترابيزة » .
(سهام ترجمان – يامال الشام – ص ٧٠)

لتتمكّن المدعوات من استحضار الألبسة الضرورية اللائقة بمشاطرة الأفراح ، أما إذا كانت المدعوات من آل الأصحاب العاديين ، فيكفي إرسال البطاقة إليهن قبل خمسة أيام ، والحكمة في ذلك أن قريبات العريس أو العروس يحتجن إلى كسوة فاخرة ليكنّ إلى جانب العروس أو العريس في حفلة الزفاف ، ولا تكون كسوتهن أقل قيمة من لباسها ، وهذا ما يحتاج فيه للوقت الكافي لإنها[ء] خياطتها .

. . .

حمّام العريس

ثم إن العريس يذهب مع طائفة من ذويه إلى الحمام على حسابه ، بعد أن يستدعي الحلاق (المزيّن) فيصلح شأنه ويعطيه حلوان ١ حلاقة العرس ، ويستعدّ بعد خروجه من الحمام لاستقبال طائفة كبرى من رجال الحي إلى طعام الغداء بعد أن يسبق ذلك دعوتهم بدون بطاقات ، فإذا حضر هؤلاء أكلوا وشربوا وقام فيهم والد العريس يدعوهم إلى الاشتراك بالعراضة ٢ بعد عشاء ليلة العرس مصطحباً كل معه فانوساً ، فيذهب هؤلاء ليستعدّوا إلى تلك المهمة ، ومنهم من يستعدّ لإجراء تمارين على ألعاب النار ، وألعاب الحكم ٣ ، وألعاب السيف والترس ، وغيرها من الألعاب الأخرى .

---

(١) كلمة عامية تعني المكافأة .

(٢) انظر ص ٧٨ .

(٣) وهي لعبة العصا والترس المسماة (الحكم) كان يتعلمها الشباب كمقدمة للعبة السيف والترس .

وغالباً ما يصادف أن أحد أقارب العريس يكلف والد العريس بإجراء (التَّـلْبِـيسة) [1] في داره وعلى حسابه أو في دار أخرى أكثر اتساعاً للمدعوين ، وعندها يبادر المضيف إلى إبلاغ الشباب والوجوه للاجتماع إلى التَّـلْبِيسة في داره ، ويهيىء لها أنواع الحلوى والدخان والمقاعد ، ويرسل مَن يأتيه بألبسة العريس الخاصة ليلة الزفاف ، فيستبقيها لديه ، وعندما يؤدي الناس صلاة العشاء يتهافتون على دار التلبيسة كما سيأتي .

. . .

نشاط أهل العروس

أما أهل العروس فيدعون طائفة من النساء القريبات والصديقات كما مرّ آنفاً إلى الحمام ، ويصلحن شأنها ثم يخرجن بها بالزغاريد حتى تصل إلى دار أبيها ، وهنالك يعدّ لها مرتفع فخم [2] تجلس عليه وتأتي (المَاشِطَة) [3] فترجِّل شعرها وتشبكه بأمشاط مختلفة اللون

---

(١) التلبيسة : هي إلباس العروس أو العريس ملابسها الجديدة الخاصة للاحتفال بهذه المناسبة وهي عادة من أحسن الملابس . (٢) الأصل : « مرتفعاً فخماً » .

(٣) الماشطة : هي الداية أو القابلة ، يطلق عليها هذا اللقب في وقت خاص ، وهو ليلة زفاف الزوجة الى بعلها ، وإن للداية في تلك الليلة مركزاً مهماً ، وعملاً وخدمة خاصين بها متوارثين الزمن السابق وذلك أن كل بنت تزوجت ، تأتي ليلة الزفاف دايتها معها ، لاتفارقها أبداً ، وهي التي تمشطها ، أي تسرح شعرها ، وبذلك سميت (ماشطة) وتلبسها ثيابها ، وتزينها بأصناف الحلي والحلل والشكول . وما كان في تلك الأيام يقوم بهذا الأمر إلا الماشطة ، وسببه عدم تنبه النساء لدقة التزيين بأنفسهن وتغفلهن. وكانت تبقى على باب المحل ، بعد أن تزف البنت إلى زوجها ، وينصرف أهلوه عنه ، منتظرة لندائها ، لغرض لها ، من شرب أو إحضار أمه أو أخته أو عمته ، أو الذهاب بالعروس لقضاء حاجة ، أو فرش الفراش ، وأمثال ذلك ، ولا تزال على باب العروسين إلى الصباح ويكرمها الزوج بمجمع أنواع الحلوى ، مع شمعة عسلية ، ويضيف إلى ذلك دراهم ، على قدر ثروة أصحاب العروس . (انظر جمال الدين القاسمي – قاموس الصناعات الشامية – ج٢ – ص ٤٠٩)

والشكل خاصة بالعروس وكلّها مزركشة بالأحجار الكريمة ثم تحفف [1] وجهها ويديها ورجليها وتضع عليها المساحيق والعطور ثم تأتي بدهن أسود خاص يسمى (خطوط) فتلون به حاجبي العروس وتضع على وجهها بعض نقاط سوداء للزينة إذا لم يكن لها شامات ، أو كانت فاتحة اللون لا ترى من المساحيق كالبودرة [2] والحمرة ، ثم تضفي على وجهها مسحوقاً ذراته لامعة يسمى (عرق الستّات) فإذا انتهت مهمة الماشطة تقدمت الخياطة فألبستها كسوتها وزينتها بأنواع المجوهرات المستعارة من الأصحاب ، فعلقتها في جيدها ومعصميها ، فإذا انتهت من ذلك وضعوا عليها ستاراً شفافاً وأمروها أن لا تتحرك ولا تنظر إلى أطرافها ولا تبتسم ، فتبادر النساء إلى مشاهدتها على تلك الحالة ، وفي جميع أدوار عمل الماشطة والخياطة لا تنقطع الزغردة عنها .

وهنا لا يفوت بيت العريس أن يسألوا أهل العروس عن مقدار مدعواتهم ليرسلوا إليهم وسائط الركوب (عربات) ، إن كانت الدار بعيدة ، وبعد أذان المغرب ينصرف كافة الرجال من دار العريس ويبقى بعض الناس ويتوجهون ليستعدّوا إلى الاشتراك في التلبيسة ، وهنا تذهب والدة العريس مع بعض النساء إلى دار العروس فيستقبلوهن[3] بالزغاريد وتتجاوب أصداؤها بينهم بتوجيه المدائح المتقابلة ، وبعد أن يستقرّ بهنّ المقام قليلاً يخرجن من غرفة العريس ، فيتقدّم والدها

(١) حف . حفاً . وحفافا الشيء : قشره . وحف الوجه واليدين والرجلين : أزال الشعر عنها . (انظر المحيط – والمنجد)

(٢) كلمة أجنبية تعني مسحوقاً ناعماً أبيض يدخل في صنعه بعض المواد الكيماوية والعطرية تستعمل للتجميل .

(٣) الأصل : « يستقبلهن » زلة قلم .

ومحارمها لوداع العروس وإسداء بعض النصائح لها ، ويظهرن فرحاً وألماً بآن واحد ، ثم يخرجن فتدخل أم العروس وأم العريس والدّايَة (القابلة) فقط إلى غرفة العروس ويكشفن عن موضع العفاف بها ، وتبقى القابلة إلى جانب العروس لا تفارقها حسب العوائد ، حتّى إذا أزفت ساعة الانتقال إلى دار العريس خرجن إلى المركبات ، فجعلن العروس وأمها وأم العريس والدّايَة (القابلة) في مركبة ، وبقية المدعوات في مركبات أخرى ويتوجّهن إلى دار العريس ، فإذا لم يكن هنالك داعٍ إلى المركبات سرن بها إلى دار العريس بين الهتاف والزغاريد ، وعند بلوغها باب الدار وقبل دخولها دار العريس يوضع لها كرسي تقف عليه وتعطى قطعة خميرة فتلصقها على أسقفّة الباب[1] ، ثم تدخلها فيستقبلها النساء المنتظرات في دار العريس ، ويقفن في باحة الدار على شكل حلقة فتدخل العروس ومدعواتها إلى تلك الحلقة فيحتطن بها في الباحة ويجرين لها (التَفْتيلَة) .

. . .

أما التفتيلة :

فإنها عبارة عن اجتماع النساء في باحة الدار على شكل دوائر متحدة المركز خلف بعضها وبأيديهن الشموع الملوّنة الجميلة موقدة ، فترى هذه الدوائر النسائية تدور بترتيب ونظام جميل وكلّهنّ في

---

(1) إلصاق الخميرة على الباب من قبل العروس يعني الرجاء أن يكون اكتساب العروس للأسرة ميموناً كتفاعل الخميرة في العجين ، وهذه العادة في معظم مناطق القطر العربي السوري . (تقاليد الزواج في سوريا – إصدار وزارة الثقافة والإرشاد القومي – سوريا – دمشق – ص ١٧٧)

أفخر الملابس كالحور العين ، فتنفرد إحداهنّ بصوتها الجميل [1] وتردد كلمات بديعة – سنأتي على ذكرها -- فتردد النساء جميعهن بصوت واحد تلك الألحان ، ثم يجلسن حول العروس ويتبادلن الأغاني حتى ساعة قدوم العريس .

. . .

التلبيسة :

بعد أن يؤدي الرجال صلاة العشاء يتوجهون إلى دار (التلْبيسَة) ويتبادلون عبارات المسرّات والتهاني ، وبعد ساعة أو ساعتين على الأكثر ينهض صاحب الدعوة وينادي العريس من بين الجميع إليه ويحتاط به والده وأعمامه وأصدقاؤه ، فتفكّ وتنشر بُقْجَة [2] الملابس ، ويبدأ بنزع ملابسه الحالية ، ويبدأ صاحب الدار بتسليم الملابس الجديدة والفاخرة قطعة قطعة ، وكلّما بدأ العريس بلباس قطعة صاحوا جميعاً:

(صلُّوا على محمد . كَحيلْ العينْ . وَمينْ يقْدَرْ يعَادِينَا . هيهه هِيهه) .

على أن هذه الألفاظ تحورت مع الزمن وفسدت ألفاظها فأصبحت هكذا :

« صلوا على محمد . مكحولْ العَينْ . ونيْرْ وغضيرْ [3] وعالدِينَا . وهيهه هيهه » .

* * *

---

(١) الأصل « جميلة » زلة قلم .

(٢) انظر صفحة ٩٤ .

(٣) نير وغضير « غدير » معناها « نير . تحمل » أي أن الزواج « نير » فتحمله . (د. ليلى الصباغ . المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ص ١٥)

موكب العريس :

بعد الانتهاء من إلباس العريس يخرجون جميعاً ، ويصطف الموكب أمام باب الدار على الترتيب الآتي :

١ً – صبيان الحيّ بعصيّهم وسيوفهم القصيرة ، ولهم قائد منهم يصيح فيرددون ما يقول ..

٢ً – يليهم طائفة الشباب العُزّاب من غير المتزوجين وبأيديهم العصي والحكم ، ليلعبوا بالحكم (١) أثناء الطريق وحولهم طائفة كبيرة مثلهم شاهري السيوف ولهم عقيد يرددون ألفاظه .

٣ً – ثم يليهم طائفة المتزوجين وبيد كل منهم فانوس كبير مضاء ، على صفين جنباً إلى جنب تاركين بين الصفين فراغاً بمقدار مترين أو أكثر حسب اتساع الطريق .

٤ً – ينتهي طرفا هذين الصفّين وبشكل هلال جماعة العريس ، فيقف العريس في منتهى الوسط تماماً وعلى يمينه مختار المحلة وإمامها وبعض الوجوه ، وعلى يساره والده أو عمّه وبعض الوجوه ، وبعد أن يستكمل الترتيب على هذا الشكل ، يقف آمر جماعة الفوانيس وهو بالنسبة لكامل أفراد الموكب القائد العام لهم فيصيح قائلاً :

يا هل العديّة
يا سامْعِينْ الصوت لا يقطع لكم ذريّة
لمن هذه الراية المجلية

---

(١) انظر ص ٩٨ .

وان هذه الراية وراية نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلّم والأنبياء الصالحين ،

وسلطان العـّـار فين

والوالي والمـْشير ودوائر الحكومة

وصاحب التلبيسة

ووجوه الأحياء

وراية والد العَريس

وأهل العريس والعرُوس

وكل من صلّى على النبي وبيّض الله . . .

فيردد الموكب بصوت واحد قائلين : « وشؤُوه » أي : وجهه .

وتسمى هذه الراية (راية صاحب التلبيسة) وعندها يسير الموكب ببطء ١ ، وبين كل فريق وآخر مسافة وأفراد ارتباط بينهم ، حيث ينفرد آمر كل طائفة بوصف يردده زملاؤه ، وكثيراً ما تكون الألفاظ تركيبية لا معنى لها كما سترى .

١ — أما موكب الصبيان فيردد هكذا :

نحن أولاد البدو وجدّنا ابن العرب

ويعنون الشيخ الأكبر قدس سره . ثم يقولون :

نحن اولاد مْحاربْ ، لُولُو

شيوخْ المقانبْ ٢ [لُولُو] ٣

(١) في الأصل « ببطيء » سهو .

(٢) هكذا وردت في الأصل ويحتمل أن تكون « المناقب » .

(٣) لازمة أضفناها لما جرت عليه عادة الصبيان في مثل هذه الأهازيج .

رجالْ المَضاربْ .   [لُولُو]

وغيرها حتى يصلوا أقرب جامع فيقفون منتظرين بقية الموكب وهم على أهاريج مختلفة .

٢ — أما موكب الشباب فيرددون هكذا :

هيّ لِنَا هيّ لِنَا   ضربْ السّيفْ طاعْ لِنَا
هيّ لِنَا هيّ لِنَا   عزّ العربْ يا عزّنا

٣ — أما الموكب الثالث وأكثريتهم من حملة السيوف فيرددون هكذا :

قم ارحل يا أمير الشّامْ   هُون ما بَقَى مَقَام
ما مقام إلاّ بمكّهْ   مكّه عليها السلام
سلطان مكه والحَرَمْ   يحكم على كل العرب
بنتْ العَرَبْ يا ويحْها   . . . .

٤ — أما الموكب الرابع وهو حملة الفوانيس وأكثره من الشيوخ فيتوسط آمرهم بينهم ويرددون هكذا :

صلّوا لنصلّي   صلّينا
وعليك يا نبينا   صلّينا
وعليك يا تْهامي   صلّينا
مصري وشامي   حجّينا

ثم يقول :

أهل اليمن نحن الحمى   أهل اليمن . . .
وسيوفنا تلعب سوى   . . . . .

ثم يقول :

يــا غليّم يا غــلامْ   لا تْروحْ دَرْب الشــمال
يأخــذك الــتركمــاني   يعملــوا لَـكْ جال مال
يعملــوا جلدك ربــاب   للشــيوخ والشــباب

ويتخلل ذلك بعض توقف عند بعض بيوت ذوي الجاه في الحيّ ويعملون له(الراية) التي نوّهنا بها .

ومن الغريب أن تركيا وهي في إبّـان محنتها على اليمن وحروبها الطويلة معها ،كانت تسمع هذه الأهازيج في مواكب العراضات ١ وعبارات :

نحن حِمى أهــل اليمن   وســيوفنــا تلعب سَوَا

ثم عبارات :

قُمْ ارحل يا أمير الشام   هُونْ ما بقي لك مقــام
ما مقــام إلاّ مكّـــة   [مكــة عليهــا السلام] ٢
سلطــان مكـــة والحَرَمْ   يحكم عــلى كل العرب

فهذه العبارات عداوة ظاهرة وجارحة لموظفي الترك في ذلك العهد ، وكانت دورياتهم المسلحة غالباً تواكب العراضات ، ولا ينتبهون إلى ما كان يقال فيها .

ثم إن هذه المواكب تأخذ بأطراف ساحة الجامع الخارجية ،

---

(١) مفردها (**العراضة**) انظر ص ٧٨ .

(٢) إضافة يقتضيها المزج .

فيتقدّم العريس مع والده والوجوه ، فيقرأ الفاتحة وما تيسّر [1] ويدعو الله تعالى بدعوات صالحات ، وتبدأ في الباحة ألعاب السيف والترس وألعاب الحكم ، وبما أن رجال المشاعل [2] يتخلّلون الصفوف في الموكب أثناء سيره ، يصطفون حول الباحة أيضاً مقداراً من الزمن ، ويتابعون سيرهم إلى دار العريس .

. . .

وصول العريس إلى الدار :

فإذا قربوا من الدار وقفوا أمام الباب ولعبوا بالسيوف والأتراس ، بينما آمر الموكب يردد مع الجماعات هذه العبارة :

الله يدبّرْه على هَاللّيلِه[3]
الله يعينـــه على ها لليله

ويرددونها كثيراً ثم يعملون (راية) وهي :

صلّوا علِي محمد . مَكْحُول العَيْن
من يِقْدِرْ يعادينا . هِه هِه هِه .

ويبارك الجميع وينصرفون كل لداره ، بينما النساء داخل الدار عندما تسمع أصوات العراضة وقدوم الموكب تزداد نشاطاً بالزغاريد حتى يدخل العريس، ولا يدخل مع العريس إلاّ أبوه ، وعندما يستقبلان

---

(١) أي من القرآن الكريم .

(٢) مفردها : المشعل : ما يشعل من الحطب ليستضاء به ويحمل بالأيدي . هكذا وردت في المنجد ، والأرجح أنها تعني هنا « الفوانيس » المضاءة بالشموع أو سواها من المواد كانت تحمل أو ترفع على أطراف العصي .

(٣) الأصل : « على هذه الليلة » وقد غيرناها لما يقتضيه إنشادها المعروف .

باحة الدار بين الزغاريد تتقدم والدته مع العروس إلى جانب والدها وتصبح هي وأبوه على جانبيهما ، ويشقّان الطريق بين النساء إلى الغرف الخاصة المعدّة للعريس ، فيجلسون على متكأ مرتفع وأمامهم الشموع والقناديل المضيئة وعلب الملبّس [1] ، وإلى طرف من الغرفة (القابلة) ثم تتقدّم والدة العروس فتسلّم على والد العريس ، وتتبادل معه ومع والدة العريس أيضاً عبارات التحية والمسرّات ، ثم ينهض والد العريس فينهضون معه ، وتقبّل العروس يد عمها والد زوجها وكذلك العريس ويخرج إلى غرفة بعيدة عن الأنظار ليكون قريباً من تأمين هدوء وسلامة الحفلة ، ثم تعود أم العروس وأم العريس والقابلة إلى غرفة العريس بعد تركهما مدة نصف ساعة ، وينزعان عن العروس بعض الحلي والزينة والزيادة من الثياب ويهيئون لهم السرير بحوائجه ، وتسرّ أم العريس بأذن العريس كلمات ، وأم العروس بأذن العروس كلمات ، والقابلة تسرّ للعروس ببعض نصائح جنسية ، ويخرجن من الغرفة ويوصدْن بابها عليهما ، وينتظرن قريبات من الباب خوفاً من حاجة أو طلب ، بينما بقية نساء الحفلة منهمكات في الزغاريد والأغاني والرقص والصخب بالغ أشدّه حتى بزوغ الفجر ، وبما أن المدعوات سيبقين طول الليل ساهرات فإن أهل العريس يسبق أن يقدّموا لهن [2] طعام العشاء الفاخر منذ مجيء العروس إلى الدار ، وتشترك أحياناً العروس بالطعام ، وبعض الأحيان لا تشترك خجلاً ، وعلاوة على ذلك فإن أهل العريس يقدّمْنَ في منتصف الليل بعض

(١) انظر ص ٤٨ .

(٢) الأصل : « لهم » سهو .

أكواب الشاي والخبز والجبن وقطع الحلوى ، بينما المدعوات قد احتاطت كل واحدة منهن على قسم من الكعك والبذر ١ والقضامة٢ والفستق والفواكه من بيتها عند قدومها للحفلة .

تبقى القابلة وأم العروس والعريس خلف الباب يرهفن أسماعهن إلى ما يدور بين العريس والعروس على قدر الإمكان حتى إذا سمعن صوت العروس تباشرن بالفرج ، وتبادلن التهاني ودخلن على العريس وقمن بواجبات سرّية خاصة ، ثم تعود العروس إلى ملابسها الأولى أو تغيّرها بثياب فاخرة أخرى ، وتخرج إلى مكان معيّن بين المدعوات فينهلن عليها بالأسئلة والممازحة ، وتعود الأغاني والرقص من جديد حتى طلوع الفجر ، فتغادر كل واحد[ة] من المدعوات حفلة العرس متوجهة إلى دارها ، ولا يبقى سوى الأقارب الأقربين من بيت العريس والعروس ، وهنا تنام العروس قليلاً خوفاً عليها من السهر والعريس نائم منذ انتهاء المعركة ليستطيع القيام باكراً والذهاب إلى الحمام فالمسجد ليؤدي مع والده صلاة الفجر .

. . .

(١) تجمع على بذور وبذار : وهو ما يزرع من الحب ، والمقصود هنا : نوى البطيخ بأنواعه والكوسا والقرع وهو يحمص بالملح ويؤكل . وطريقة صنعه كما في القضامة .

(٢) القضامة : هي الحمص « بكسر الخاء وتشديد الميم » المملح المحمص على النار ، وللقضامة أنواع : منها ما يعرف بـ « الصفراء » و« المملحة » « والمغبرة » . وكيفيتها : بأن ينقع الحمص في ماء مالح ، إذا كانت مالحة ، وإلا في ماء حلو ، حتى يلين الحمص ، فيضعه في المحمص ، وبأسفل الصاج موقد توضع النار فيه ، فيوقد بالنار اللينة ، ويشرع الصانع بتحريك الحمص بقطعة من خشب حتى يجف ويستوي .

(جمال الدين القاسمي – قاموس الصناعات الشامية – جـ٢ ص ٣٥٧)

الصبحة والصرة :

وبعد الصلاة يعود مع والده ، فتستقبله العروس وتقبّل يد الوالد ، ويتناولون طعام الصبوح معاً ، ثم يخرج العريس ووالده إلى السوق ويستبضع بعض حاجيات نسائية من جوارب ومَحَارِمْ (١) وعطور وأشباهها وتسمى هذه (الصرّة) ، فيعود بها إلى الدار مع قطعة من المجوهرات ، فيسلّم ذلك إلى العروس ويلبسها السوار أو القرط ، ووالده أيضاً يكون مستعداً لمثل ذلك فيلبسها خاتماً أو سواراً أو يعطيها دراهم معلومة وتسمى هذه (صبحة) .

. . .

حق الشعر :

أما العريس فيسبق حين خلوته الأولى بها ليلاً أن يبادرها بكلمات مألوفة ، وتبقى هي صامتة خجلاً ثم يداعبها قليلاً حتى تنفرج أساريرها فيقدّم لها بعض النقود أو قطعة من المجوهرات وتسمّى (حق الشَّعْر) .

ثم تبقى هذه الأفراح أسبوعاً كاملاً ، وبعده تمضي المدعوات إلى دورهنّ بعد إقامة حفلة الأسبوع .

. . .

---

(١) مفردها : المحرمة : وهي عامية تعني المناديل القطنية أو الحريرية وأنواعها كثيرة منها ما يستعمل كغطاء للرأس ، وكانت تجلب غالباً من مدينة استانبول والبعض كانوا يصنعونه في دمشق ويعرفون بـ « الرسامين » .

وأصل التسمية تغطية أجزاء من الجسم يحرم الشرع الكشف عنها . وفي بعض مناطق القطر توزع هذه المحارم أيضاً كهدايا لأقارب العروسين وذلك أثناء حفلة العرس أو المناسبات السعيدة الأخرى .

حفلات التعارف :

وبعد أيام تبتدىء حفلات التعارف بين عائلتي العروسين [1] ، يبدأ بها أهل العريس ، يدعون محارم العروس نساءً ورجالاً إلى وليمةٍ ، وبعد أيام يقابلهم بذلك أهل العروس في وليمة ، وهنا تجري مراسم التعارف بين أقارب ومحارم كل منهما ، فتتعرف العروس على أشقاء العريس والمحارم الذين لا يجوز لها أن تحتجب منهم ، كما يتعارف العريس على النساء اللائي لا يحتجبنَ منه ، وينصرف كل بسلام .

يتعذَّر أحياناً على العريس أن يتمّم خلوته مع العروس لأسباب صحيّة فتضطر والدتها إلى ملازمتها حتى يؤاتيها الله بالنصر والفرج .

. . .

ما يقال في حفلة التفتيلة :

قلنا بأن العروس عند وصولها باحة الدار تنتظم إلى حلقات المدعوات وتبدأ حفلة التفتيلة ، حيث تنفرد إحدى الغواني فتردد أشياء بصوتها العذب يرددونه جميعاً وَيدُرْنَ [2] ببطء حول الباحة . وإليك بعض ما يقال فيها :

هيها	يسعِد صَباحِك يا رِمّـان مليّسي
[هيها] [3]	يلّلي قَطفْتِك من البستان على كيْسي

(١) وبعد أسبوع من الزفاف تبدأ هذه الحفلات بدعوة أهل العروس للعروسين ، وتسمى : « ردة الرجل » .

(٢) الأصل : « يدورون » سهو .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة لاستقامة نغم الأهزوجة كما وضحه المؤلف .

[هيها]		إن قدّر الله وجلست مَجَالِيسي
[هيها]		لاكْتُبْ كتابك وحطّ النقد من كيسي
لولوليش

فهذه العبارات المتقطعة كلما انتهت الملحنة من ذكر واحدة منها بصوت رخيم ردد الجميع ألفاظ : (هيْهَا) ويمدُّونها بشكل يأخذ بمجامع القلوب سروراً وطرباً .

وعندما تبلغ المنشدة كلمة « أحط النقد من كِيْسي » يصيح الجميع هكذا :

(لولولوليش) .

ومن عبارات المنشدة أيضاً قولها :

هيها		يسعد صباحِكْ يا فلّة أفرنجيه
[هيها]		يا وردْ على أُمُّه يا خِلقه إلهيِّه
[هيها]		لَوْ قدَّمُوا لي بَدالِكْ من الألف لِلميّه
[هيها]		ما اهْوى بدالِك ، ولا لي من أحَد نيّه
[لولولوليش]

ويصادف أن يأتي أهل العريس بمغنيّات بالأجرة وأكثر هؤلاء من نساء اليهود ، فيطربن الحفلة سبعة أيام بلياليها لقاء أجور ، ويأخذن الحلْوان ١ من والدة العروس والعريس وأقاربهما أثناء الرقص بأساليب ساحرة خبيثة . فإذا ترددت إحداهن عن إعطائهن الحلْوان (ما تيسر

---

(١) انظر ما سبق ص ٩٨ .

من النقود) أو إذا استقللنه ، ندّدت بها بألفاظ مضحكة لتحمل الحضور على الاستهزاء بها ، فتضطر إلى الاستدانة لترشقها بما يرضيها من النقود وهكذا .

أما الزغاريد فأشهرها : أن تصيح واحدة قائلةً : (آوْهَـا) وهي محرفة عن كلمة (ها هو) ، ويرجح في تحليلها بالأصل عن لقيا آدم عليه السلام بحواء ، حيث بادرت عند رؤيتها له بقولها : (ها هو) وهذا تخريج جميل استحببته لتحليل لفظ (آوها) الذي ينادي به النساء [1] ، فعندما تصيح الواحدة متفردة بكلمة (آوها) ، بادر الجميع إلى مشاركتها بها بصوت واحد ، ثم يسكتن ، فتفرد قائلة :

شقْشَق العصفور لانْفَـلَقْ .

فينادين : (آوْها) ، فتقول :

بين الدَوالي والوَرَق .

فيرددن : (آوها) فتقول :

يا مَحْلَى شوْفةْ الغايب .

(آوها)

وِجْهُه مكَلـّلْ بالعَرَقْ

لولولوليش .

فكلّما قالت عبارة تسكت فينادين (آوها) وعندما تنتهي يقلن جميعاً (لولولوليش) . ومن ذلك أيضاً :

آوْها : زقْزَقةِ العصفُورَة

(١) يقول البعض إن أصلها « ارفعوا صوتكم أكثر (قووها) أو (آوها) » . (سهام ترجمان — يا مال الشام — ص ٧٥)

آوها
جُوّاتْ مَقْصُورَة
آوها
شِي لله يا شيخنا
آوها
يا قابِلْ النذُورا
لولولوليش .

ثم تنادي غيرها :

آوها
في بيْتنا رمّانه
آوها
حلوة ولفّانه
آوها
حَلَفْتْ ما اقْطفْها
آوها

حتى يجي العريس (وتذكر اسمه) بالسلامة : لولولوليش .

ثم تقول أخرى هكذا :

آوها
يا صحن تين
آوها
مجَلّل بالياسمين

آوها

عريسنا صغيّر

آوها

ما طبّق العشرين

آوها

يا ما دَبْكوا بأجْريهُم

آوها

يا ما تغامَزوا بعينيهُم

آوها

يا ما قالوا ما بيتزوَّج

آوها

تزوَّج وقَلَعْ عينيهُم

. . .

مراسم الولادة :

إذا بلغت الحامل الشهر الثامن من الحمل بدأت بإعداد كسوة المولود حتى إذا قاربت الوضع بقيت أمّها تتردد عليها فإذا تثاقلت ظلّت إلى جانبها حتى يتمّ الوضع ، وكان من المعتاد أن تهيىء علبة مستطيلة لها غطاء مقسّم إلى عدّة أقسام وتسمّى (القشوة) [1] فيوضع فيمكان كل منها بعض الحاجيات الضرورية للطفل كالزيت ، والآس المسحوق ، والمكحلة ، والترابة ، والبودرة ، واسفنجة ، وتدعى

(١) أو « طرابيزة » المولود ، وهي طاولة من الصدف فيها عدة بيوت ، لأدوات المولود والولادة : الآس الناعم ، والملح ، والكمون ، والقطن ، والمقص ، والخيط لربط السرة (سهام ترجمان — يا مال الشام — ص ١٠٠)

القابلة لمشاهدتها وتفتيش نواقص الولادة الخاصة بالطفل لتستكملها قبل الوضع .

فإذا رأت الحامل أنها على شكل غير طبيعي في جسمها مما يتناوبها من مغص وآلام ، عمد ذووها إلى القابلة فتسرع القابلة ، ويحمل أحدهم (كرسي الولادة) وهو أشبه بمنضدة منكسة على مقدار ارتفاع الكرسي العادي إلاّ أنه واسع تجلس إليه الحامل إبّان الولادة لتمسك عموديه بيديها الاثنتين فتعتمد عليهما حين الألم ويفرش لها سرير خاص ، فتجتمع نساء أقاربها حولها ويشجعنها[1] على الثبات والتحمل منتظرات أولاً سلامتها بالوضع ، ثم سلامة طفلها وأخيراً بيت القصيد الذي يدور في خلدهن وهو أن يكون المولود ذكراً .

على أن القابلة تكون حكيمة في مثل ذلك الحال ، إذ أنها تتلقى الوليد بيدها وتكتم عنهنّ الإفصاح بشيء عنه ، خوفاً على أمه أن تفرط بالفرح إذا كان ذكراً أو تفرط بالألم إن كان أنثى فيؤثر الوضعان عليها ، وجميع جسمها في أشدّ حالات الهيجان والاضطراب عقب الوضع ، كما تكتم ذلك على الحاضرات خوفاً من أن يجهرن بما يسرُّ أو يكدِّر .

فتقوم بشؤون الطفل وغسله وإنزال المشيمة وتقطع له وهو على يديها منكباً على راحتها ولا يبدو إلاّ ظهره ، حتى تنتهي إزالة أوضار الوضع عنه فتنظر في عينيّ أمه إن وجدتها هادئة لا خوف عليها من تأثير عندها تجيب على إلحاح الحاضرين رمزاً (اللّهم صلي على سيّدنا ونبيّنا محمد) ، فيدركن أن المولود ذكراً فيبادرن إلى الزغردة وتبادل البشائر والتهاني ، وإن كانت أنثى قالت : (الحمد لله على خلاصها بالهَناء)أو(اللّهم ارضَ عن ستّنا فاطمة) ، فيعلمن أنها أنثى فيتجلى صمت عميق عليهنّ فترةً ، فتصيح القابلة قائلة : « إن الله تعالى يرسل

(١) الأصل : « يشجعونها » سهو .

البنت إلى الوالدين ويتكفّل بمساعدتها ومؤازرتها على شقاء الدنيا ، أمّا الذكر فيقول له أرسلتك معيناً لأبيك ، فأيهّما أفضل هل الاستعانة بالولد أم الاستعانة بالله ؟ هذه رزقها كثير وفير فالحمد لله على خلاصها » فيردد الجميع « إيْ والله ، الحمد لله على خَلاصِها ، يا حبيبي ربّنا إنّه يعْلم بالحال ويجبُر الكسير » .

وبعد أن تلبسه تأخذه إلى أبيه فيستلمه ويؤذن في أذنه اليمنى ، ويتلو تكبيرات الإقامة بالأذن اليسرى ، ويقبّله ويحضر مع القابلة إلى غرفة الزوجة فيهنئها بمولودها ، فتتلقاه الداية وتضجعه إلى جانب أمه في السرير ، ويرشق القابلة بمنديل من الحرير ربط في إحدى زواياه ما تيسّر من الدراهم ، ويوضع الغذاء للحاضرين ويسمّونه (سُفْرة الخَلاص) والعرب يسمونه [الخُرْس]١. فيأكلون وتدور على الحاضرات أكواب (الكراوية) ٢ .

فتتردد القابلة يومياً على الدار وتغسل الطفل وتغيّر ملبوسه ، حتى اليوم الخامس فيتوافد عليها الغريب والقريب من النساء للتهنئة ويتناولون الكراوية ، وفي اليوم السابع يُدعى الأهل إلى مائدة ، يحضر ذوو المرأة من الرجال فيأكلون ويهنئونها بالسلامة ويتباركون بالطفل

---

(١) ترك المؤلف مكان هذه الكلمة بياضاً ويبدو أنه لم تحضره التسمية حال وضعه كتابه ، وأخذنا هذه التسمية عن المخصص لابن سيده ٤/١٢٠ يقول فيه : « ما صنع عند الولادة فهو الخرس وأما الذي تطعمه النفساء نفسها فهو الخرسة وقد خرست » .

(٢) شراب خاص يقدم عادة بعد الولادة ، ويتألف من شراب « الكراوية » المعروف المغلي والمحلى بجوز الهند واللوز والجوز المبشور والفستق الحلبي والصنوبر والبندق . (سهام ترجمان – يا مال الشام – ص ١٠٤)

ويتوجهّون بالأدعية المباركة ثم يعطونها ما تيسّر من الهدايا والدراهم ، مع بعض قطع مجوهرات مكتوبة بعبارات : (ما شاء الله) (تبارك الله) ، فيعلقونها على رأس الطفل فوق طاقية خاصة مزركشة جميلة ، أو على لفافته ١ أو صدّارته ٢ المسدلة على اللفافة ، وينحو نحوهم كافة الأقارب ومن لهم سابقة عليهم فيؤدي مقابل الماضي بشيء جميل يهدونه إلى الطفل من ثياب أو علب الملبّس أو سوى ذلك .

وهنالك حامل كرسي الولادة يأتي بعد أسبوع فيتناول علاوة على أجرته (حلواناً) دراهم أو مَحْرَمَة حرير ، أو كسوة على حسب مقدرة والد الطفل ، كما أنه يأخذ من والد أم الطفل ومن جدها وجداتها فيكون له بذلك نعم الربح .

ومن العادة المألوفة أن يترك الطفل ثلاثة أيام يُدعى (محمد) تبركاً وتيمناً وفي اليوم الرابع إما أن يبقى على هذا الاسم أو يسمّونه باسم آخر مستقل أو مقرون بالاسم الأول ، فإذا كان الطفل بكر أبويه أسماه الوالد على اسم جدّه لأبيه ، فإن كان (سعيداً) مثلاً : يسمّون الولد محمد سعيد ، وينادى أبوه بعد ذلك بالكنية (يا أبا سعيد) .

---

(١) اللفافة . جمعها لفائف : ما يلف على الرجل وغيرها .والمقصود بها لف الطفل الصغير « الوليد » لحمايته من العوامل الطبيعية ، ولنموه الجسمي الصحيح ، وتكون اللفافة : من القماش القطني الأبيض .

(٢) الصدارة : ثوب يغشي الصدر والمولدون يقولون صدرية على النسبة إلى الصدر . والمقصود هنا ما يوضع على صدر المولود فوق اللفافة ، وهي قطعة قماش مستطيلة أو نصف دائروية تنتهي بتطريزة .

وإن كان المولود أنثى سميّت (فاطمة) تبركاً وتيمناً باسم الزهراء بنت الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ورضي عنها . كذلك إلى اليوم الرابع فإما أن يبقى أو يبدّلوه باسم آخر من أسماء جداتها .

وتقام الأفراح عادة خلال أيام الأسبوع الأول من الوضع ، إمّا تحبباً للمولود أو تأسيّاً لأنه أنثى .

* * *

مراسم جلوس السلطان وولادته

كانت الحكومة تقيم أعياداً رسمية في الأيام المصادفة ليوم جلوس السلطان أو يوم ولادته، ويشترك الناس اشتراكاً شعبياً محلياً في سائر انحاء المملكة العثمانية ، وبالجملة فقد كانت دمشق تحيي هذه الذكرى طوعاً أو كرهاً ، فتقام معالم الزينة على الحوانيت والأبنية الرسمية ، ودور كبار الموظفين، وتقوم رجال الأحياء بالعراضات ليلاً ونهاراً في ذلك اليوم في دقة وترتيب .

فأمّا نهاراً فتجتمع وجوه كل حيّ ويضعون الأسس للموكب ويدعون الناس للعمل وفق ترتيبهم ويتوجهون بالموكب حتى يبلغوا دار الحكومة ، وبعد أن يقفوا قليلاً ويظهروا شعور الولاء ومشاطرة الحكومة بالأفراح يعودون من حيث أتوا . وغالباً ما يكون ترتيبهم في الموكب على الشكل الذي أوردناه في حفلات العرس ، وبنفس الأهازيج أو ما يماثلها ، وينبغي أن يتسلّح كل مشترك في الموكب بما عنده من السلاح وغالباً يتفاخرون بالسيوف ، ومنهم من يحمل الهراوى والعصي ، فيقف آمر الموكب على كتف أحد الأقوياء فيوصف ، ويردد الباقون أقواله وهكذا حتى ينتهي به المطاف .

. . .

العراضات والتظاهرات الشعبية :

تكون هذه التظاهرات غالباً بإيعاز من الحكومة المحلية لسبب سياسي قضت به ظروف الدولة ، تحاول به إظهار شعور المواطنين حيال الأجانب ، فتأمر به الحكومة وتساعد الأهلين على ترتيبه ، عندها يعمد وجوه الأحياء كالعادة المألوفة لديهم في المراسم الأخر ، فيتسلحون ويتوجّهون بمواكبهم إلى قصر الحكومة فيسقّطون أو يحيّون ، ويهددون ، ويتوعدون بأهازيجهم وصراخهم .

لما يئست الحكومة العثمانية من الدول العظمى في إقناعهم بحقوقها في بلاد البوسنة والهرسك ، وجزيرة أكريد ، أمرت البلدان في إقامة المظاهرات والاحتجاجات ، فكانت دمشق من المجلين في تظاهراتها ، حيث رتّب وجوه الأحياء العراضات واتفقوا على أن اقتسام أيام الأسبوع كل يوم كان خاصاً بعراضة حيّ من أحياء المدينة لمدة سبعة أيام .

فكان الناس يتحمّسون حقيقة لإخوانهم المسلمين في كريد أو بلاد البلقان ، **ويلتهب** شعورهم غيظاً وكرهاً للدول الأجنبية ، فيبتكرون **الألفاظ التي تشفي** الغليل ليقولوها خلال التظاهرات ، فكان وجوه الأحياء يتبارون ويتسابقون لأن تكون مواكبهم أكثر انتظاماً وأدق اتقاناً .

فكانوا علاوة على ترتيبهم في حفلاتهم الشعبية يجمعون الخيول ليركبها الشبان وهم على نسق على غاية من التنظيم لابسين الدروع

والمغافر ١ وبأيديهم الرماح ، وخلفهم مثلهم من حملة السيوف ، ووراء ذلك المشاة بمواكبهم وسيوفهم وعصيهم ، وكل قسم منهم يردد شيئاً جديداً خلاف الآخرين .

فمن الأقوال المبتكرة والتي ما تزال عالقة بأذهاننا منذ عهد الطفولة ، هي قولهم :

نحن نصُوم نحن نصلّي جزيــرة كريــد للعصْملّي

ويرددونها كثيراً أي جزيرة كريد للعثمانيين ، فيتابعون الجهار بصياحهم أيضاً قائلين :

نحن نصُوم نحن نصلّي جزيرة كريــد للعصملّي

وتمر المواكب أمام دور القناصل ورجال الدول الأجنبية الرسميين ، فيراقبونها باهتمام فتحصل لوالي المدينة بذلك نشوة لا تقلّ عن نشوة عودة الجزيرة حقيقةً إلى ملكهم ، وذلك لمجرد أن يرى أن الأجانب ترافق الجماهير بأنظارها [من] فوق الدور ومن شرفات المنازل ، وما كانت حقيقة لتفيد شيئاً ، كما لم تكن تبلغ مسامع الدول عنها شيء منها .

وقد حدث مثل ذلك أيضاً عندما أقدم أسطول إيطاليا لاحتلال ولاية طرابلس الغرب فقد نظمّت الحكومة المظاهرات وأمرت الناس بالصياح والصخب ، فنزلوا بمظاهراتهم بمثل ما أشرنا إليه ، وكان مما ابتكره رجال المظاهرات يردد من قبل الناس أثناء طوافهم شوارع

---

(١) الغفارة مفردها مغفرة .: زرد من الدرع يلبسه المحارب تحت القلنسوة .أو حلقة يتقنع بهاالمتسلح . (انظر المحيط ـ غفر)

دمشق قولهم :

طِلْياني يا ابن الكَلْبْ من قال لك تِنْزِلْ على الحربْ
سمعت بصوت العصملّي صرْت تِعوِّي مثل الكلب

وأشباه ذلك من السخافات التي كانت تلجأ إليها الدولة على غير هدى ، مجردة عن كل نيّة حسنة ، بينما كانت الجيوش الأجنبية تطأ رقاب الآمنين من أبناء الوطن العزّل من السلاح والعتاد .

فكانت هذه المظاهرات التي تلجأ اليها الحكومة تغطية لتقصيرها وضعفها وعجزها ، وبالأحرى لخيانتها حقوق الشعب ، هي السلاح الوحيد ، وهو كل ما أعدّته للمكاره والنوازل التي كانت تتوالى على رؤوس رجالها الأصنام فاقدي كلّ حس وطني وشعور ديني .

. . .

مراسم الأذكار ، وحفلات رجال الطرق :

كان الجهل في مدينة دمشق سبباً لالتجاء طبقة العوّام والخواص منهم إلى تحرّي طرق النجاة (١) في الدنيا والآخرة . وبسبب جهلهم الأساليب الشرعية في معاملاتهم الخاصة وبالنسبة لمواطنيهم التي يجب أن يتمشوا عليها وفق تعاليم الشريعة الغرّاء تفادياً من الوقوع في الأخطاء وبالتالي من الوقوع في شراك الذنوب والمعاصي ، ولما لم يكن من الوسائط بالنسبة إليهم ما يأخذ بأيديهم إلى جادة الحقّ والصراط المستقيمين ، إلاّ ملازمة طبقة العلماء وبعض الزهّاد ممن اشتهروا بفضلهم وزهدهم ونسكهم أخذوا يلتفّون حولهم منذ زمن بعيد ، يرجعون إليهم بكل ما يحتاجونه من أمور الدنيا والآخرة . فإذا سألت أحدهم إلى من أنت ترجع في استيضاح أمور دينك ودنياك قال لك: إلى شيخي فلان . وفعلاً كانت بالنسبة لوضعهم البعيد عن كل ثقافة ودراسة بل وتعليم بدائي ، خير وسيلة لتنظيم شؤونهم والمحافظة على أوامر دينهم . وكانت هذه الجماعات تلتفّ حول شيخها عقب صلاة العشاء أو المغرب أو أيام الجمع عقب صلاة الجماعة ، ليصغوا إلى ما يلقيه عليهم من النصائح والإرشادات التي تزكيهم وتنظم حياتهم ، ضمن أولئك الشيوخ من كان يرى الفساد متفشياً ومتأصلاً (٢) في الناس ، فيكثر إليهم دروس العبادة والتحذير من غضب الله ليكفّوا عن الضرر وإيقاع الأذى بين الناس في محيط تسوده الفوضى ، إذ لا حكومة ، ولا حكام ولا شرائع ولا قوانين ولا رجال يحافظون على أرواح الناس وحقوقهم

(١) الأصل : « النجات » سهواً .
(٢) الأصل : « مستئصلا » .

ويدرأون عنهم الأشرار ، فلم تكن هنالك وسيلة تحمي الناس وتدفع عنهم عادية بعضهم وأذاهم وبأسهم إلاّ أولئك الشيوخ الزهّاد .

وهذا ما جعل الأمر يستفحل في تمادي الغوص في البدع على ممرّ الزمن ، ويتعاقب على الناس بعض الشيوخ الجهلاء لا يعرفون من أمور الدين شيئاً ، فيبتدعون للناس مراسم وحالات ليست من الدين في شيء ، على أن مبدأ نشأتها لم تكن إلاّ لله ولخير عباد الله ، وضمن حدود الله .

ومن هذه الطرق المعروفة بزهد رجالها وكرامة مؤسسيها وفضل البادئين بها على أساس النهج في حدود الشريعة الغرّاء ، هي : الطريقة الرشيدية ، والرِّفاعية ١ ، والقادرية ٢ ، والشّاذلية ٣ ، والدّنْدَراويّة٤

---

(١) انظر ص ٢٤ .

(٢) انظر ص٢٥ .

(٣) تنسب إلى الشيخ أبو الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ هـ ، وتوجد لها الفروع الآتية : القاسمية — المدنية — السلامية — الحندوشية — القاوقجية — العفيفية الهاشمية — الإدريسية — الجوهرية — الوفائية — العزمية — الحامدية — المحمدية — الفيضية — الهاشمية — المدنية (د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني — الطرق الصوفية في مصر — ص ٦١) .

(٤) تنسب إلى الشيخ أبي العباس ابن السيد محمد الدندراوي ١٨٩٥ — ١٩٥٢ م ولد في بلدة « دندرة » في صعيد مصر ، وقد زار سوريا قبل الحرب العالمية الأولى ، وهي طريقة دينية صوفية تسمى « الرشيدية » أيضاً ، وانتشرت هذه الطريقة على يد شيخها الذي كان يقيم الأذكار في زاويته بدمشق بحي المهاجرين وطلعة شورى ليلة الجمعة ، وليلة الاثنين كان يقيم الأذكار في جامع السباهية بالدرويشية والأربعاء بمدرسة الرشيدية بالبوابة . تنتشر هذه الطريقة في بعض قرى الغوطة الشرقية أيضاً مثل « جسرين » .

(انظر : أحمد وصفي زكريا — الريف السوري — ٢/١١٤) .

والبَدَويّة ١ ، والمولوية ٢ ، والنقشبندية ٣ ، وغيرها من المؤسسات الدينية التي كانت لا تحيد في بداية أمرها وعهد شيوخها الأول عن الشريعة قيد شعرة ، ولكن عبثت بها أيدي الجهلاء فيما بعد فصارت بشكل لا يرضاه عقلاء العارفين من أفاضل العلماء .

على أن تلك الطرق كانت تسير في نهجها كما قلنا على مبدأ تحاشي الظلم والفوضى والإضرار بالناس وفق تعاليم الشريعة والتقشف في العيش والخشونة في الحياة والرضاء بما كسب ، والابتعاد عن الحسد ، والغضّ عما في أيدي الناس ،والاكتفاء بما يأتي عن طريق مشروعة وأسباب مشروعة ووسائط مشروعة ، وهي الصوفية الحقيقية بالنسبة للغضّ عن بهرجات ما في الكون من دواعي ميول النفس والشره ، والاسترسال بإشباع النفوس من اللذات ، والميل مع الأهواء وأشباهها .

على أن هذه الطرق بالرغم من كل ما طرأ عليها من مُمخرقين ودجالين ودعاة السوء لم تخل في زمن ما من رجال فيها يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويكفون الناس عن مواطن البغي والشرور ،

---

(١) تنسب إلى الشيخ أحمد شهاب الدين أبي العباس المتوفى سنة ٦٥٧ هـ ، وهو متصوف كبير ، ولد في مدينة فاس بالمغرب وتوفي في طنطا بمصر ، ألقابه : القطاب أي الفارس ، وأبو الفتيان ، والغضبان ، ومجيب الأسارى من بلاد النصارى ، قبره مزار ، له صلوات وأذكار (وصايا) . (المنجد في الأعلام ١٢٠)

(٢) انظر ص٢٥ .

(٣) تنسب إلى الولي الجليل الشيخ بهاء الدين محمد بن محمد الحسيني البخاري المعروف بـ « نقشبند » توفي سنة ٧٩١ هـ وقد أخذ الطريقة عن الشيخ طلال .

(د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني — الطرق الصوفية في مصر ص ٧٥)

ويرشدونهم إلى اتباع الهدى ويرسمون لهم سبلها ، وقد تضاءلت هذه الطرق في زمننا بانتشار العلم وكثرة المتعلمين فلم يعد ثمّة حاجة للرجوع والاعتماد على شخص أو أشخاص ليسوا كأشياخهم علماً ومعرفة ، إنمّا هم جهلاء مقلّدون قد ضلّوا سبيل شيوخهم وأفاضل علمائهم .

. . .

حفلات الأذكار :

تقام هذه الحفلات في ليالي الأعياد الدينية كافة ، وفي كل ليلة اثنين أو جمعة ، يجتمع المريدون في أحد المساجد عقب صلاة المغرب ، أو عقب صلاة العشاء ، ويقيمون الأذكار ، فإذا كانت في دار عادية أو في زاوية خاصة يهلّلون ويكبّرون قياماً وركوعاً وقعوداً وهم يذكرون الله تعالى أثناء ذلك ، وبحضور شيخ الحلقة ومقدّمي الطريقة ، ويتفرّد بينهم من ذوي الأصوات الجميلة فينشد بعض أناشيد لأحد الزهّاد من شيوخه بصورة تتناسب مع أصوات التهليل ، ثم تنتهي بالدعاء لكافة المسلمين والصلاح لأولياء الأمور وتلاوة ما تيسّر من القرآن لأرواح المسلمين ثم ينفضّون إلى بيوتهم .

وبعض الطرق يجري التهليل فيها سراً على ضوء ضئيل في مسجد خاص أو دار يذكرون الله تعالى سرّاً عدداً معيناً ويستغفرون ثم يدعون للمسلمين بالخير وينفضون .

ومن الطرق ما يجري فيها التهليل والتكبير على ضرب الطبول

وبلهجات خاصة تتحشرج في حلوقهم كلمات تهليل فلا يسمع البعيد عنهم قليلاً إلا أصواتاً كالمتضايقين في السعال ، وحكمة ذلك ، أن كثرة ترديد اسم الله تعالى ينتقل من اللفظ إلى القلب فلا يظهر في زفيرهم إلاّ حروف متقطّعة ، هكذا : (هم هم هم ، ها ها ها) ولكن يخرجونها من الصدر لا من الفم ، فكانوا يتجرّدون في حالهم واستمساكهم بذكر الله من الجسم المادي ويرتبطون بالمعاني العلوية ، فتتوثق العقول والأفكار بتخيّـل أنوار الذات الصمدانيّة ، فتتوقف أبصارهم عن الرؤيا وتتعلق بصائرهم بالأنوار الرحمانية ، فلا يكاد أحدهم في ذلك الوضع من الإخلاص لله أن يشعر ولا من ناحية من أنحاء بدنه ولو قطعت أعضاءه أو سلخت بشرته ، وذلك لتوجه القلب مع نور الفكر مع سائر شعور الأعصاب إلى تخيّـل الأنوار الإلهية .

ولكن فساد الأخلاق والخلق عبث بالغايات الحقيقية من هذه الأذكار ، فجعل منها نموذجاً مضحكاً لنسك الأعاجم ، بينما هو في حدّ ذاته لا يمنع من سعي أو عمل دنيوي لأنه يقوم في أوقات غير أوقات السعي والعمل وغير أوقات الفروض الدينية والصلوات ، ويخصص لذكر الله ليس إلاّ ، وهذا من العبادات وأسباب القربى من الله المقبولة لا يمكن أن يلوك عنها أي لسان بما يشين .

غير أن فساد الزمن — كما قلنا — سمح للكثيرين أن يخلّطوا أو يقلدوا تقليداً منكراً تتبرأ تعاليم الطريقة منها تبرؤاً مطلقاً .

لذلك أصبح من الضروري بعد أن بلغت هذه الدرجة بين أيدي الجهلاء ، أن تترك وتزول معالمها بالمرّة ، وأن يصير الاكتفاء بذكر الله

تعالى بكل أدب وهدوء ، كي لا يفسح المجال للجاهلين العابثين بالشطط عن الغاية فيظنوا أن عملهم هذا هو المقصود من الذكر ، أو أنه من التعاليم الدينية المنزهة عن كل بدعة أو ضلالة .

. . .

السيارات ١ وشيوخها :

لما كانت الطرق تسير في تعاليم شيوخها الحقيقيين كانت تقام مراسم زيارات بعض الأضرحة المعروفة لمشاهير الزهّاد والأولياء في أيام معيّنة من السنة ، وفي شكل موكب على غاية من الترتيب والخشوع ، ويكون ترتيبها على الشكل الآتي : تقوم طائفة من المريدين على شكل صفوف مؤلفة من خمسة أو أكثر يلبسون طواقي ملونة بالأخضر والأحمر وعليهم أردية مثلها غالباً ووظيفتهم أثناء السير أنْ يذكروا الله في سيرهم جهراً ، ثم يسير خلفهم حملة المزاهر ٢ يقرعونها بلطف وترتيب صفوفاً أيضاً وبينهم حامل اللواء الكبير له أطراف تنتهي بقطع من المَرَس ٣ يمسك بأطرافها بعض المريدين ويتوزعون على مسافة منه وحوله ، ليساعدوا حامله عن الوقوع

---

(١) مفردها (السيارة) وهي مؤنث « السيار » أي الكثير السير ، وأصلها القوم يسيرون والمقصود هنا مواكب المشايخ أصحاب الطرق ومؤيديهم ومريديهم لزيارة الأضرحة المعروفة في دمشق أو غيرها من مدن القطر الأخرى .

(٢) مفردها : المزهر وهي نوع من الدفوف على شكل الغربال تعطي صوتاً بالقرع عليها . (انظر المحيط)

(٣) نوع من الحبال غير الغليظة المصنوعة من الحرير أو القنب .

لجسامته وعدم عبث الرياح به ، ثم يأتي بعدهم حامل الطبل الكبير ، و (الحَـليليـة) : وهي عبارة عن صفحتين من النحاس ، يتبع الإيقاع عليها حسب ضربات الطبل ، أو أن الطبل يتبع ضرباتها ، وخلفهم يأتي شيخ الطريقة الحالي (ابن الوقت) الذي يجمع المريدون على رئاسته (ويكون غالباً من أحفاد المشايخ الأول أو المنتسبين لآل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم) ، راكباً على فرس ولابساً عمامة شيوخه الأوائل المنحدرة إليه يداً عن يد حتى انتهت إليه مع المشيخة والرئاسة ، ثم يحيط بالشيخ جماعة من المريدين يحملون أعلاماً صغيرة كتبت عليها بعض آيات كريمة ، كما أن العلم الكبير ملوّن بقطع مختلفة كتب على كل منها بعض من الآيات الجليلة .

ثم تأتي طبقة المريدين من الشبّان يحملون نَقّارات صغيرة يضربون عليها . وخلف هؤلاء بقية المريدين والمشتركين من بقية رجال الطرق ، يمشي هذا الموكب من مقرّ زاوية الشيخ الذي يجلس فيها للتدريس والإرشاد ، ويتوجّه لزيارة أقرب الأضرحة ، ثم يتابع سيره إلى ضريح أشهر مشايخ الطرق من أولياء الله ، وتشتدّ الأفواه بالذكر تهليلاً وتكبيراً ، ثم يعود إلى مقرّه وينفضّ كلٌّ إلى منزله بعد الدعاء للمسلمين من قبل ذلك الشيخ .

ومن المألوف بأن هذا الموكب يسمى (السَيّارة) والشيخ في الموكب شيخ السيّارة ، وكل حيّ بدمشق حسب طريقته يتوجه إلى جهة ، ففي أحياء المدينة يتوجه الموكب حتى يصل إلى زاوية (سعدالدين) في الميدان ، أو إلى زاوية مقام الولي الشيخ (رسلان) في ظاهر دمشق ،

أوإلى مقام الولي العارف بالله (السروجي) في حي الشاغور ، وفي الصالحية يذهب الموكب إلى ضريح (الزغبي) من الأولياء العارفين المشهورين ومحله ظاهر الصالحية إلى جهة حيّ المهاجرين من الحواكير ، وعندما يجتمع هذا الموكب يبدأ بالمسير حتى يصل أمام جامع سلطان العارفين الشيخ محيي الدين بن العربي ، وفي باحته الفسيحة يترفّع رجال الموكب إلى جوانب الساحة لتبقى خالية تماماً فيتأتى من يشاء من الناس وينكفئون على وجوههم جنباً إلى جنب حتى تمتلىء الباحة ، والتهليل والتكبير على أشدّه ، والشيخ على فرسه في الجانب الآخر ينظر ذلك ، فإذا انكفأ الناس على الشكل المذكور اشتدّ الذّكر وصاح الشيخ وأسرع بفرسه فوق ظهورهم إلى الجانب الآخر ، ولا يقوى على المجازفة بذلك من الشيوخ إلا من يثق بصحّة نسبه وطهارة قلبه وجسمه ونفسه ، ثم ينهض أولئك الناس واقفين غير شاعرين بما حدث ، ويكثر الإقبال على هذه العملية من قبل طبقة العمّال والمرضى وأصحاب العاهات ومن شاء .

ثم يواصل الموكب سيره حتى يصل إلى غايته في الزيارات ، كل ذلك يجري وطائفة معيّنة من المريدين بين يدي الشيخ عراة إلا مما يستر عوراتهم وبيدهم سياخ (1) من الحديد لها رأس دقيق وجانبه الآخر كرة من الخشب ثابتة فيه ، ومعلّق بها سلاسل فتراهم يفتلونها في أصابعهم ويضربون بها أيديهم أو ناحية من جسمهم ، وكثيراً ما شاهدناهم والسفود قد دخل من الخدّ ماراً بالفم وخارجاً من الخدّ الآخر

---

(1) مفردها : « سيخ » كلمة عامية تعني السفود .

وهكذا يمشون ، ومنهم في بطنه أو صدره معلقاً ، ولا تستغرب كثيراً إذا علمت بأن السفود لا يبقي أثراً ما بعد استخراجه من جسمه ، كما لا تجد قطرة واحدة من الدم ، وإن لذلك تعليلاً يدركه علماء النفس بشكل غير الذي يدرك أسبابه سواد الناس .

وهذه المواكب لا تكون إلا تمارين تمهيدية للموكب الكبير ، الذي يجمع كافة مواكب دمشق والأحياء والقرى المجاورة ، ويسير باتجاه قرية برزة حيث الكهف المعروف باسم (مقام إبراهيم الخليل) وهنا يحق لك أن تعجب إذا قيل لك بأن كل واحد من شيوخ السيارات الواردة إلى الزيارة مطلوب منه أن يدخل إلى هذا الكهف مع فرسه ، ومن باب لا يزيد طوله عن متر ونصف كما لا يزيد عرضه عن متر واحد ، وهنا لا يستطيع كل الشيوخ المجازفة ، فكل من كانت له شبهة في اتصال نسبه ، أو في نفسه ، أو في طهارة جسمه وسريرته ، فإنه يعتذر ، ويقف جانباً ، فيتجرد لهذه العملية من يثقون بأنفسهم من الشيوخ ، فيصطفون خلف بعضهم بين صفوف المريدين وهم مع المتفرجين يعدُّون بالآلاف على سفح الجبل ولا تسمع إلا أصوات التهليل والتكبير ، فيتقدَّم الشيخ الأول ويقرأ ما تيسّر وهو واقف عن الباب بمسافة أربعين متراً بين صفوف المريدين والمتفرجين ليس له طريق إلاّ مقدار المسافة بين موقفه مع فرسه وباب الكهف ، ولا يزيد عرض الطريق بين الصفين من الناس عن مترين ، فيصيح الشيخ بصوت عالٍ ويضرب بفرسه فتسير بسرعة البرق وهو عليها وتدخل به من الباب ، فيشكر الله تعالى جميع الناس ، ويتبركون به ، وبعد بضعة دقائق يأتي دور الشيخ الثاني في سيارة أخرى وهكذا يتعاقب

الشيوخ على الدخول بأفراسهم . وهؤلاء لا يزيد عددهم عن أربعة أو خمسة بين أكثر من ستين شيخاً مع مريديهم لا يقدمـــون على تلك المجازفة .

وقد شاهدنا مرة واحداً بفرسه فضاق الباب بها وبالشيخ الذي أصبح محصوراً بين ظهر الفرس وأسْقُفَّة الباب ، وشاهدنا الفرس تشتد وتحاول التملّص لداخل الكهف ولا تستطيع حتى عادوا بها إلى الوراء ، ومن الغريب أن لم نجد في وجه الشيخ ما يدلّ على كسر ضلوعه وأوجاعه ، إنّما كانت كآبة الخجل من زملائه والمتفرجين بادية على وجهه ، وحاول أن يعود إلى موقفه الأول ويعيد الكرَّة فمنعه زملاؤه من الشيوخ.

وهذا المهرجان الكبير يسمّى (موسم جمعة برزة) معروف عند أهالي دمشق قاطبة ، ويسمّى أيضاً موسم (خميس المشايخ) .

ثم أخذت حوادث الإخفاق على دخول الكهف سنة بعد سنة وتحصل من جراءذلك أضرار ومشاغبات بين مريدي الشيوخ ، والتقوّل على من عَثَرَ حظّه من الدخول ، فوقعت بذلك حوادث دامية بين الناس اضطرت على أثرها الحكومة العثمانية لإعلان منع هذه المواسم منعاً باتاً في كل الأنحاء .

. . .

مراسم أصحاب الحرف :

كانت مختلف الحرف بدمشق كما هي في سائر المدن الشرقية بطابعها البلدي وبصورة بدائية ، فلم تكن هنالك صناعات فنية بالمعنى المألوف في عصرنا الحاضر ، إنما كان معمل زجاج أخرج للناس مختلف أشكال وألوان الأواني البلّورية وبعض الأوعية الخزفية البسيطة ، ولكنه ما عتم أن أصبح عرضة للدسائس الخارجية ونشأ عن ذلك اختلافات داخلية في مجموعة هيئة الشركة انتهت بتعطيله وإغلاقه ولما يمض عليه أكثر من سنة واحدة . غير أن هنالك معملين بلديين سارا مع الزمن منذ القديم ولم يزالا باقيين حتى يومنا هذا ، أحدهما معمل الفخّار في صالحية دمشق فيخرج الأكواب والأكواز والأواني الفخارية ، والثاني في حيّ الشاغور من المدينة وهو معمل القزاز والبلّور البلدي .

أما بقية الحرف التي كانت تشتهر بها دمشق كالقاشاني مثلاً فقد بادت بفناء أربابها ، وكانت محصورة فيهم .

وأما الأعمال النحاسية فقد زالت عنها النواحي الفنيّة بسبب إهمالها من قبل المقتنين فبقيت نواحيها العادية وهي قاصرة على المناقل [1] وأدوات القهوة والمواعين [2] والقدور بشكلها البسيط . على أنه لا يزال

---

(١) مفردها : المنقل . وهو كانون النار ، شكله مستطيل ، أو بيضوي أو مستدير ، له أربعة قوائم ، نحاسي ، أو معدن عادي ، له زخرفة ، توقد أو توضع النار فيه أو الفحم ، كان يستعمل للتدفئة . (انظر المحيط — والمنجد)

(٢) نوع من القدور لكنها أكبر حجماً تصنع عادة من النحاس ، تستخدم لتحضير الطعام بكميات كبيرة .

هناك من أساتذة هذه المهنة من يستطيع صنع أوعية بأشكال هندسية مختلفة رائعة ، ولكن ليس هنالك من يرغب في الاقتناء نظراً لعدم الرغبة فيها وعظيم أجورها .

وكذلك الأعمال الخشبية للمناضد والكراسي والصناديق المصدّفة ١ والحفرية ، وقد كانت ولا تزال محصورة في عائلتين إحداهما مسلمة والثانية مسيحية ، وكانت تخرج عن أيديهم أشكال تحيّر الأفكار بدقتها وترتيب صنعها وفنها ، ولكنها زالت اليوم برغبة الناس عنها .

أما الجلود فقد كانت بشكلها البدائي بيد عمالها في حي مسجد الأقصاب ، وبوسائطها القذرة ، لذلك لم يكن لها سوق رائجة رابحة ، أما اليوم فقد تخرج جلوداً تضارع بها ما تنتجه فرنسا أو انكلترا جودة وإتقــاناً .

أما النسيج فقد كان مقتصراً على غزل الخيوط البلدية بالمحركات العادية اليدوية وتصنع أنواع الملبوسات منها حريرية وصوفية وقطنية ، ولكنها اليوم تتمشى على قواعد الفن وبآلات ومحركات القوى الكهربائية ،

---

(١) وكانت صناعة رائجة في دمشق وهي تعني وضع (الصدفة) على الصناديق والقباقيب. فبعد أن تتم نجارة الصناديق يحفرها الصناديقي بآلة حديدية – وهي الريشة – على مقتضى اتقان الشغل المطلوب ، ويوفق على مقتضى الحفر صدفة بواسطة مبرد حديد ، ويفرد تلك الحفر ، ويلصق به الصدفة المذكورة ، وهكذا .

وكان أغلب الناس في دمشق يرغبون في تجهيز العرائس بأخذ ما يلزم من تلك الأصناف الصدفية كـ « الخزانة » ولها « البيرويات » و « المرايا الكبار » مع « السكملة » وغيرها .

وكذلك بالنسبة لصناعة القباقيب (انظر جمال الدين القاسمي – قاموس الصناعات الشامية ص ٢٧٣) .

وعلى غاية من الدقة والإتقان بشكل يشمل سائر أنواع الأقمشة والجوارب والقمصان ولوازم الرجال والنساء بأنواعها .

وكذلك بقية الحرف ، كانت تسير بالدقّة والإتقان بشكل يتناسب ومقدرة المستهلكين لا على نسبة مهارة وكفاءة صنّاعها وحذّاقها ، لذلك أخذت بالتّدني فصارت إلى الاستقرار على أشكالها البسيطة .

. . .

النقـــابات :

لم تكن دمشق في ذلك العهد تتعرف بالنقابات ، لم تكن أسبابها متوفّرة حتى في المهن العلمية والثقافية كالمحاماة والطباعة وفروعها والهندسة وسواها . لم يكن لها نقابات تسعى لتعزيزها ورفع شأنها وحمايتها من جهلائها ، لذلك كنت ترى المحاكم غاصّة بالدجالين من مختلف عناصر الأمة تقوم بدور المدافع أو المحامي بالوكالة عن أرباب القضايا لدى مختلف المحاكم ، كما أن المحاكم نفسها لم تكن لها ما يرفع شأنها ولا من شروطها أن يكون القضاة بأجمعهم أرباب اختصاص في سائر درجاتها بل كان يتخلل الأعضاء الاختصاصيين المأذونين من معاهد الحقوق ، أعضاء آخرين يؤخذون بالانتخاب والانتقاء ، لذلك كان القضاء مشوشاً ومداراً لاستفحال الوساطة والارتشاء ، وبالتالي واسطة لضياع حقوق الناس والمظلومين .

ولم يكن في دمشق من المحامين المأذونين الاخصائيين ما يتجاوز أصابع اليد الواحدة ، بل كانت أكثريتهم من أرباب الحرف الأخرى ، تركوا (١) مهنتهم الأولى الخاصة بحرفتهم نتيجة إفلاس أو كساد،وغالباً ما تكون لهم قضية مزمنة مرّت عليها مختلف الأدوار في المحاكم أكسبتهم المرونة الكافية ليصبحوا محامين أو وكلاء دعاو (٢) لغيرهم ، وقد بقي الحال كذلك إلى عام ١٩٣٠ حيث جرى التصنيف فخرج بعضهم وبقي البعض الآخر هصرتهم المهنة إليها مدة كافية فانصهروا في عداد المحامين الحقيقيين .

---

(١) الأصل : « ترك » زلة قلم .

(٢) في الاصل « دعاوي » سهو .

ولم يكن هذا منحصراً في المحاماة والحرف بل إن دوائر الدولة كانت غاصّة بالموظفين الأميين اكتسبوا مرونة العمل ضمن إطار التمرين المحدود في أساليب المراسلات بين الدوائر ، فكان من هؤلاء من يرتقي لدرجة الحكام ومنهم من بلغ درجة وزير العدل وكان في أول أمره متمرناً على وظيفة محضر في المحكمة . وكذلك في الدوائر الأخرى حتى أصبح معروفاً بأن من يطرد من مدرسته لأي سبب كان ينتظم فوراً في دوائر الدولة ويصبح بعد قليل رئيساً للدائرة من أصحاب الرأي والحلّ والعقد فيها ، ومن هؤلاء من لا يزالون كذلك في زمننا رغم وجود حملة الشهادات وأرباب الكفاءات ، لذلك ينشأ هؤلاء مغترين أعداءً لأرباب الكفاءة يرمونهم بعدم المعرفة وعدم التجربة ، ويسومونهم أنواع الأوصاف حسداً وغيرة .

. . .

الأطبـــاء :

أما الأطباء فلم يكن في دمشق طبيب بالمعنى العلمي ، إنما كان أطباء نشأوا على أساس التجربة الكسبية من رؤسائهم ومعلميهم غير مدينين لأيّة ثقافة علمية أو أي جامعة طبية ، فكان في دمشق جميعها أربعة أو خمسة أطباء وكحّـال واحد ، ولم يكن هنالك طبيب جرّاح لأن الجراحة وطبابة الأسنان والعيون مجتمعةً كانت داخلة في اختصاص الحلاّقين ، فكنت تدخل دكّـان الحلاق تجد فيه أنواع المراهم والقناني الصغيرة ملأى بأنواع الأدوية الجراحية وإلى جانب ذلك ترى

ساحبات الأسنان والأضراس (كَلْبَة) معلقة في الجدار، والمبازل [1] إلى جانبها لفقء الدمامل وتنظيف الجروح ، فالحلاّق كان طبيباً جرّاحاً وكحالاً وطبيب أسنان ومزيّناً لقصّ الشعور ، وختان الأولاد . وبقية الأطباء الاختصاصيّين بالأمراض الأخرى كانوا على شاكلته أخذوا المهنة عن طريق التجارب بصورة عملية .

. . .

الصيــدلـة :

أما الصيدلة فكانت معدومة تماماً في دمشق ومنحصرة في حوانيت العطارين وأشهرهم (برو العطّار) إبراهيم العطار واسمه لا يزال يتداوله أبناؤه وأجراؤه بعد وفاته ، وأقدم صيدلية عرفت في دمشق صيدلية (سليم فارس) في سوق البزورية ، ولم تكن بشكل فني ؛ لأن الأطباء أنفسهم يطببون ويعطون الدواء من عندهم فإذا احتاجوا إلى دواء غريب أجنبي أمروا ذوي المريض أن يشتروا الدواء من صيدلية (سليم فارس) . وأكثر الأدوية كانت تؤخذ من العطارين ومنها (شرش الإنجيل [2] ، صبرة صفرة [3] ،

(١) مفردها : المبزل : آلة البزل . تستعمل لشق الجروح والدمامل كالمبضع .

(٢) لن نشرح الاسم العلمي لكل من هذه العقاقير حيث يمكن الرجوع اليها في الموسوعات ، وأكتفي هنا بشرح موجز لها ، مع تسجيل ما أفادني به من معلومات حانوت المرحوم « برو العطار » في دمشق :

شرش الإنجيل : مدر للبول ويفيد في أمراض المثانة والجهاز البولي .

(٣) ينتج من نبات الصبر (الوفر) له قيمة طبية كمادة مساعدة على الهضم « مسهل » ولأمراض الكبد .

خيار شنبر ١ ، هوا جُوّاني ٢ ، دم الأخين ٣ ، زنجبيل ٤ ، خولان ٥ ، حصى البان ذكر ٦ ، حشيشة القطة ٧ ، قرفة ٨ ، قرنفل ، جوزة الطيب ٩ ، خبازة ١٠ ، زر ورد ،

---

(١) اسمه العلمي (كيوكيوس ساتيفس) من الفصيلة القرعية ، موطنه آسيا وافريقيا كان يزرع ويستعمل بها من آلاف السنين ، له استعمال طبي قديم ، يساعد على الهضم وضد الإمساك خاصة وهو عقار لطيف .

(٢) يستعمل هذا العقار ضد الالتهابات والأورام الناتجة عن الجروح أو سواها وهو نوع من المراهم يدهن به موضع الألم .

(٣) راتنج أحمر ، يستخلص من عدد من النباتات يستعمل منذ القديم ، ويعالج به الزحار « الدوزنتاريا » .

(٤) من النباتات المعمرة — من الفصيلة المركبة صلد ، وطنه أمريكا ، أزهاره شعاعية صفراء ، وجذور غليظة ، يستعمل في الطب كمقو ، وأيضاً في علاج السعال وأمراض الصدر ، اسمه العلمي (اينولاهلينوم) .

(٥) يستعمل ضد القلق والاكتئاب النفسي والحزن وخاصة عند النساء ولانتظام الطمث « العادة الشهرية » لديهن .

(٦) يستعمل لبعض الأمراض الجنسية عند الرجال .

(٧) عشب معمر ، يكثر في الدنيا القديمة ، اسمه العلمي « فاروبيوم فالجار » أوراقه زغبية الملمس ، خضر إلى بياض ، ويسميه العامة في دمشق « فالوريان » ويستعمل للأمراض العصبية .

(٨) وهي معروفة وتأثيرها كالتوابل .

(٩) بذرة شجرة مستديمة الخضرة اسمها العلمي « مريستيكا فراجرانس » وهي تابل قديم ، يستخرج من غلاف البذرة تابل آخر ومن البذرة وغلافها زيت يستعمل في الطب ودهن الشعر .

(١٠) اسمها العلمي « مالكا بافيفلورا » ، عشب حولي قصير أوراقه مستديرة وكلوية الشكل ، تستعمل ضد الالتهابات ، فيها مادة (بوريكا) .

بزر الحرمل ١ ، عود الصليب ٢ ، خشب الكينة ٣ ، حنتيتة ٤ ، وأشباه ذلك) . فكان المريض يشتري الدواء من العطارين ويركّبه بنفسه في داره على حسب تعريف العطار ، وكثيراً ما كان يخطىء بالمقادير فتسبب له أمراضاً مستعصية أو ازدياداً في الأوجاع والأمراض بتأثير فاعليتها على الأعضاء الأخرى في جسمه ، فتكون القاضية ، أو أنه يبرأ بإذن الله ، أو إنه يترك الأمور على تصريفها فيموت بعلّته أو يشفيه المولى تعالى من مرضه ، وكثيراً ما سمعنا الناس يقولون تناول فلان الدواء فأثّر به وأماته ، أو أثّر به تأثيراً سيئاً فتناول طعاماً من الكبّة ٥ أو الفتوش ٦ فكانت العافية والشفاء ، وهكذا لو أمكن سؤال أهل القبور في ذلك العهد لأجابوك بأن موتهم كان نتيجة جهل الأطباء أو العطارين بإرادة الله تعالى ، وهذا لم يقتصر على الناس بل إن الأطباء الرسميين لدى الحكومة لم يكونوا بأرفع أو أعلم من هؤلاء الدجّالين ،

---

(١) بزر الحرمل : نبات صحراوي قصير ، أوراقه ملساء ، أزهاره بيضاء وخماسية الأجزاء ، السبلات ضيقة طويلة ، الثمرة عليه ثلاثية المسكن ، يكثر في منطقة البحر الأبيض المتوسط ، يستعمل ضد الزكام بالتبخر مع السكر .

(٢) ويسمى (عود الأنبياء أو خشب النبي) ، يحمله الطفل الصغير خوفاً عليه من المرض أو يحمله الطفل المريض .

(٣) يستعمل للملاريا ، ومقو لإفرازات المعدة .

(٤) تستعمل للروماتيزم . (انظر الموسوعة العربية الميسرة)

وبعض هذه المعلومات أخذت من حانوت (برو العطار) في دمشق بتاريخ ١٩٧٥/٥/٦ .

(٥) نوع من الطعام يستخدم فيه « البرغل وهو القمح المسلوق والمطحون » مع اللحم والبصل والجوز والتوابل ، وهي أنواع : مقلية ، مشوية ، وباللبن . ونيئة . . .

(٦) يصنع من قطع الخبز ، والخيار ، والنعنع والبقدونس ، والحامض ، والزيت ، والبصل ، وهو من نوع « المقبلات » .

فكان الطبيب الرسمي يستخدم لديه بعض الجنود فيمكث سنتين يخرج من بين يديه طبيباً أو جرّاحاً عند انتهاء مدة خدمته الإلزامية وعودته إلى وطنه وأهله ، فكان في دمشق طبيب جرّاح مشهور يدعى (السرّ طبيب عثمان باشا) فتخرّج على يديه الكثيرون توزّعوا في البلاد أطباء رسميين بأيديهم شهادة رسمية من يده يزاولون الطب والجراحة ويفتكون في الناس على غير هدى ، ومن هؤلاء الجرّاح المشهور (الساطي) وكان مقرّه جادة السنجقدار ، و (أحمد الجرّاح) و (عرابي الحلاّق) وغيرهم من تلاميذ ذلك الباشا ، وحوادثهم بالمرضى مشهورة لا يزال الكثيرون يعرفونها ، ومن الأطباء : ورْديْ شان ، عيسى طَنْجرة ، أبو شعر ، جبران ، الكَحيل ، مرانكُو ، الرومي .

* * *

الهندســــة :

أما الهندسة فلا علم لأحد بها ، لأن الناس جميعاً مهندسون بالفطرة ، يستقل كل منهم بذوقه في إقامة داره أو دكانه مستعيناً بالبنّـاء أو النجار أو النحّـات [1] ، وعلى الأسلوب الذي يختاره له ذوقه السليم !

(١) هو من ينحت أنواع الأحجار حسب المرغوب ، وكان أصحاب هذه الصنعة بدمشق أغلبهم مسيحيون . ولهم سوق مخصوص يعرف بـ « سوق النحاتين » ، ومحلات أخرى يوجدون بها ، ينحتون بها أصناف الأحجار ، ويهيئونها ويصنعونها في دكاكينهم يبيعونها لمن يرغب بمشتراها حاضرة ، مع نحت أحجار من نوع الرخام المختصة بالقبور المسماة بـ « الشواهد » وأجران الماء وغيرها .

(جمال الدين القاسمي – قاموس الصناعات الشامية – جـ ٢ – ص ٤٧٩)

أما هندسة المياه والجسور والكهرباء والميكانيك والشُعَب الأخرى فهذه لا تعلم دمشق لها وجوداً عندها .

والحكومة كانت أقل اهتماماً من الأهالي في سائر المهن العلمية والفنيّة ، وما كانت تقيم لها وزناً ولا تفكر في ناحية من نواحي الإصلاح المحلي أو العمراني أو الثقافي في البلاد ، ومنها دمشق المدينة التاريخية الكبرى .

. . .

الحـــلاّقون :

من الآثار القديمة الباقية في حوانيت الحلاقين تعليق اللوحات الحاويّة على مواعظ متنوعة ، يعلقونها في الجدران باعتبار أن الحلاق هو أيضاً (حجّـام) ١ إضافة لأعماله الكثيرة التي عددنا .

وإن قصص الحجّـامين مع الملوك كثيرة ومشهورة وكلها مواعظ وحكم ، لذلك ترى في جدران حانوته لوحات متراصَّة فوق بعضها على الجدار وكلها حكم ومواعظ .

. . .

---

(١) هو والحلاق والمزين بمعنى واحد ، والحجام باللغة (المصاص) ، وهو يمتص الدم بالمحجم وهي آلة كالقرن مجوفة ، رفيعة الرأس ، مثقوبة الفم ، يمتص الحاجم الدم بعد شرط الجلد ، وقد يحجم الحجام بغير القرن ككاسات الزجاج ، وهي أن تحرق قطعة ورق هش الشكل وتوضع في الكأس ، ويوضع الكأس على جلد العضو المحتاج لذلك ، فيمتص الكأس من الجلد امتصاصاً قوياً ، حتى إذا أريد إخراجه يقلع قلعاً بالجذب القوي ، وهو مانع لبعض الأمراض (محمد سعيد القاسمي – قاموس الصناعات الشامية – ج١ – ص ٩٣) .

من القصص المتعلقة بالحجّامين ، والأطباء ، والقضاة ، والمهندسين :

١ ـ ما يتعلق بالحجّامين :

كان لأحد الملوك وزير ناقم على ملكه ، فلما احتاج الملك إلى حجّام ، كلّف الحجام بأن يستبدل مبضعه المعدني بما يقدمه له من الفضة والذهب ، وكان مسموماً ، ولما تسلّم الحجام المبضع ووضع الطست[1] لبزل الملك بالمبضع الجديد وقع نظره على حكمة نقشها على طسته ومضمونها « من لم يفكر بالعواقب لا يأمن من المصائب » فأسرع حالاً ورمى المبضع من يده وتناول مبضعه القديم البسيط مما لفت أنظار الملك فسأله عن ذلك فشرح له الحكمة وقصّ عليه تكليف الوزير لأخذ المبضع المذهب ، وقال له : « يا ملك الزمان ، أنا لا أستعمل مبضعاً أجهل حقيقته وأخشى عاقبة استعمالي ما أجهل حقيقته ، لذلك أفضل مبضعي وقد جربته مراراً » فرضي الملك عنه ، وبعد الانتهاء نادى الملك وزيره وكلّفه بالحجامة بمبضعه المسلّم إلى الحلاق ، فلما اعتذر عن عدم حاجته للحجامة وتلطّف بالمعذرة أصرّ الملك عليه فصاح الوزير ، وأفصح بالحقيقة ولكن الملك أصرّ على بزله فلما بزله مات لساعته بسبب سريان السم في بدنه .

فلذلك نجد لهذه القصة آثاراً ظاهرة عند الحلاقين فلوحاتهم مشحونة بالعظات .

. . .

---

(١) الطست : جمع : طسوت : إناء من نحاس لغسل الأيدي ، ويستعمل لغسل الملابس ، وغير ذلك والكلمة فارسية . (انظر المحيط)

٢ — قصة الطبيب وأجيره الجاهل :

سأل أحد الأجراء أستاذه الحكيم الطبيب قائلاً : « يا أستاذي إنني لا أعجب من تأثير العلاج وشفاء المريض على يديك بقدر ما أعجب من معرفتك ما تناول المريض من الأطعمة قبل السؤال عنها إنما تعدد له بعض الأطعمة وهو يصادق عليها ، فمن أين لك هذه المعرفة ؟ فأرجوك بعد أن مضى عليَّ في خدمتك زمن طويل أن أتعلّم هذا السرّ لعلّي أريحك قليلاً من زيارة المرضى والأرباح تعود إليك » رضي الطبيب الأستاذ تعليم السرّ لأجيره واستكتمه بأن لا يبوح به ، وبعد أن استحلفه على شدّة التكتم قال له : « يا بني إنني عند وصولي إلى دار المريض أنظر إلى الأوساخ الملقاة جانب الدار فأحفظ بفكري ما أجد فيها من قشور الفواكه والخضر ، وعند دخولي الدار أتلفت يمنة ويسرة لأجد ما عندهم من فواكه أو خضر أو أطعمة في جانب حوض الدار ، وعند وصولي إلى المريض وقد ثبت لديّ من التجارب بأن المريض عادةً يشتهي أن يتناول ما يجد أمامه ويشارك أهل الدار بها ولو بمقدار طفيف فإذا رأيت قشر الموز أو البرتقال أو الجزر أو البطيخ وما ماثل ذلك ، وآثار أنواع الخضر التي يمكن أن تؤكل نيئة أو مطبوخة ، أحفظ ذلك في ذاكرتي وبعد معاينتي له أسأله : هل أكلت باذنجان ، هل أكلت برتقالاً هل أكلت كذا وكذا ، فيجيب إيجاباً ، وأعطيه الدواء اللازم ، فيتحقق المريض وذووه [1] أنني ماهر عالم بتأثير ذلك في جسمه فيطمئنون [إ]ليّ » . فقال الأجير : « إذن أرجوك أن ترسلني مكانك عند أول

(١) الأصل « وذويه » خطأ .

طلب لمريض فأخفف عنك بعض التعب » فأرسله يوماً إلى أحد المرضى فأخذ ينظر خارج الدار فلم يجد أثراً لشيء من الفواكه والخضر ، فدخل الدار وجال ببصره فلم يجد شيئاً أيضاً ، فلما خرج إلى المريض وفحصه أنّبهُ قائلاً : « إن سبب مرضك هو تناولك لحماً غير مألوف استعماله في بلدنا » فأجاب المريض سلباً، فأصرّ قائلاً : كلا : « إنك [أ]كلت لحم حمار أهلي » فضجّ ذوو المريض ضحكاً وتأنيباً وذهبوا به إلى أستاذه وشكوا له جهله وجنونه ، فهدأ روعهم واختلى بالأجير وسأله : « ما الذي حملك على هذا القول للمريض ؟ » فأجاب : « إنني اتبعت نصحك حرفاً بحرف ، فقد جُلْتُ بنظري خارج الدار وداخلها فلم أجد إلاّ بردعة (جلال) ١ ولم أجد أثراً للحمار فأيقنت بأن الحمار أكله المريض . . » فضحك على سخافته وطرده .

. . .

٣ — ما يتعلق بالقضاة :

قيل إن أحد القصّابين ٢ في الآستانة مركز السلطة العثمانية كان له مبلغ كبير من المال في ذمة أحد الباشوات العظام يماطل في تأديته وأخيراً لما اضطر إلى المطالبة لحاجته إلى المال ، أجابه الباشا بأنه لا يستطيع تقديم النقود له ، إنما كلّفه أن يطلب ما يشاء من وظائف الدولة

---

(١) هي الكلمة العامية للبردعة . وهي ما يوضع على ظهر الدابة تحت الرحل . (المحيط)

(٢) مفردها « قصاب » وهو الجزار ، كلمة فصيحة . (المحيط)

مقابل ديونه ، فاعتذر القصّاب لأنه أميّ لا يستطيع القيام بعبء الوظيفة التي تحتاج إلى قراءة وكتابة على الأقل ، فأجابه الباشا قائلاً : « كلاّ إنني اخترت لك وظيفة سهلة جداً لا تحتاج إلاّ إلى تعلّم بضع كلمات » ولما سأله القصّاب ، أجاب : « سأُعَيِّنُكَ قاضياً شرعياً لمدينة حمص وهي وظيفة شاغرة ، وما عليك إلاّ أن تطلق لحيتك وتلبس جبّة سوداء وعمامة كبيرة بيضاء وتمضي إلى مقر عملك ، وهناك يحضر أمامك المشتكون ، فأول ما ينبغي أن تبادر إليه هو طرح هذه الأسئلة « هل عندك شهود ، أتحلف اليمين » فإذا استنكف أمرت به فطرحوه أرضاً وقاموا عليه بالسياط ثم تطرحه خارج المحكمة . فهل هذا يسرّك ؟ » فاضطر الرجل للرضاء عن الواقع وأخذ مرسوماً بذلك وتوجّه إلى حمص ، على الشكل الذي أمره أن يظهر به بالجبّة والعمامة واللحية الطويلة ، وأصول المحاكمة المرتجلة ، فلما هبط حمص وكانت العادة أن يحضر وجوه البلد للسلام وتأدية فروض التحيّة والاحترام المتوجبّة ، فأمر أفراد الضابطة (1) أن يمنعوا دخولهم إليه مجتمعين ، بل واحداً إثر واحد ، وكلما أدخل شخص أن يوصد باب الغرفة خلفه ويبقى على انفراد ، ولمّا تجمهر الناس وأمرتهم رجال الضابطة بتعليمات القاضي امتثلوا وفتحوا الباب للداخل الأول وهو من عيون سَرَاة البلد ، وأوصدوا الباب خلفه فتقدّم من القاضي قائلاً :

الوجيه : على الرحب والسعة أهلاً وسهلاً بفضيلة مولانا العظيم .

القاضي : هل عندك شهود ؟

الوجيه : أنا يا سيّدي جئت للترحيب بمولانا . . .

---

(1) انظر ص ٤١ .

القاضي : (مقاطعاً) هل تحلفَ اليمين ؟

الوجيه : يا سيّدي أنا عبد فضيلتكم حضرت للترحيب . .

القاضي : (مقاطعاً) اطرحوه أرضاً واجلدوه .

فبدأ به الجلاّدون حتى بلغ درجة لا يقوى على الوقوف معها على انفراد ، إلا أنّه أدرك السرّ فكتم الأمر وأصلح شأنه وأعاد نظام ملابسه وقرر في نفسه أن يكتم الأمر عن بقية زملائه خارج الباب .

فلما خرج متهللاً باسماً سأله زملاؤه ، كيف وجدت فضيلة مولانا ، فأجاب : « إنه أحسن وألطف وأعلم قاض رأته حمص ، وقد حاول إجلاسي إلى جانبه ومحادثته فرأيت من علمه وفقهه ودرايته في استنباط غوامض المسائل الفقهية ما جعلني أحسب نفسي ما درست شيئاً من الفقه بالنسبة إليه ، فهلمّوا إليه واحداً بعد واحد . . » ثم مضى إلى شأنه . فلما دخل الثاني كان حظّه كالأول ، فأدرك ذلك وكتم عن الباقين وخرج يموّه عليهم بمثل ما فعل الأول . حتى أتى على أكثرهم وهم على تلك الحالة ، فصادف واحداً فاجراً منهم لم يتحمل الأسواط فملأ الغرفة صياحاً فابتدروه فرأوه بين السياط فأدركوا السرّ وتألّبوا جمهرة واحدة ودخلوا على القاضي محتجين صاخبين فاستوقفهم قائلاً : « أنا لست قاضياً إنّما أنا رجل قصّاب » ثم قصّ عليهم قصّته وقال : « إن بقائي في هذه البلد رهن مبلغ من المال فإذا حصلت عليه عدت من حيث أتيت » فجمعوا له المال ومضى . . .

. . .

قصّة المهندس :

ومثال ذلك ما يشبه قصة القصّاب ،لأحدهم أرسلوه من الآستانة ليكون رئيس مهندسي مرفأ طرابلس ، وهي وظيفة شاغرة منذ عهد بعيد ، وأرباب المصالح وجلّهم من الأجانب في انتظار قدوم رئيس المهندسين للتوقيع على الأوراق والمعاملات التي تحتاج إلى دراسة خاصة من الرئيس ، فلما عرضت عليه وتصفّحها على أسلوب ماكر ، استأجل الجواب إلى صباح الغد ، وشكي أمره للقائمقام فحضر القائمقام في اليوم الثاني والناس ينتظرون ، وأخذ المهندس يموّه أنه درسها ويشير بأصابعه على المخططات ، ولكنه كان يقصّ على القائمقام تفصيل تعيينه لهذه الوظيفة حتى لا يشعر الأجانب بجهالته ، كل ذلك والقائمقام يسمع ويتظاهر بأن الحديث دائر حول المعاملات وبما أن القائمقام كان أجهل من ذلك المهندس ، ولا يستطيع أن يجد لذلك حلاً ، مدّ يده وأخذ يشير بأصبعه على المخططات تمويهاً ولكنه كان يقول أثناء ذلك للمهندس : « إنك أخطأت بقبول هذه المهنة فلماذا لم تطلب وظيفة أخرى أو عملاً إدارياً مثلي . . . » .

. . .

وأمثلة ذلك كثيرة من النكات [1] والقصص المصطنعة بهذا الموضوع ، وإننا لا نشك أبداً بأن الوضع الحكومي والموظفين خلال العهد التركي كان غريباً عن تلك الأوصاف ، أو أمثال تلك النُّكاتْ ، أو كان أرفع من ذلك في ذلك العهد . . . .

---

(١) مفردها : النكتة جمع : نكت ونكات : الجملة اللطيفة تؤثر في النفس انبساطاً . (انظر المنجد)

لذلك لم يكن الجهاز الحكومي في ذلك الدور من الصحة والانتظام بأحسن حالاً من وضع الشعب وأرباب المهن العلمية أو الصناعية فيه .

. . .

المُنَجِّدُون ١ :

غير أن هذا الوصف العام للحرف وأربابها والفوضى التي كانت تسودها لم تكن مطلقة بدون تخصيص أو استثناء ، لأننا كنّا نشاهد بين تلك الحرف والصناعات الكثيرة حرفة واحدة لها نظامها وترتيبها المتقن وهي حرفة (المُنَجِّدين) وإليك بعض الوصف عنها :

إن لحرفة التنجيد صلة قوية في الدور وبالتالي بالنساء بشكل خاص ، فالمُنَجِّد يُدعى إلى الدار لإصلاح فراش أو لحاف أو وسائد قطنية

(١) مفردها : منجد : وهي من الحرف المعروفة في دمشق ، يخيط أصناف وجوه المفروشات البيتية ، كالفرشات والطراريح والكنابات والمخدات والحاشات والحف يستدعي المنجد من أراد أن ينجد بداره شيئاً أو عمل جهاز العروس ، فيشتري معهم ما يلزم من الوجوه والبطائن ثم يفصلها المنجد على قدر المكان الذي ستفرش به . فالبعض يعمل لتلك الوجوه قوالب من جنفيص ، وهو ما حيك من لحاء القنب ، فتحشى بالقش من قبل « الحشا » وتخاط ، وهذه معروفة بدمشق بـ « الطواطي » و « المخدات » . فيضع على تلك القوالب المحشية بالقش جزءاً من القطن ، بعد ندفه بآلة تعرف بـ « قوس المنجد » ، وهي عصا محنية ، بأسفلها عارضة ، يربط منها لرأس العصا وتر ويشد شداً وثيقاً ، فيمسكه المنجد بيده اليسرى ، وبيده اليمنى مدقة من خشب ، فيدخل القطن بين عصا القوس والوتر ، ثم يضرب بالمدقة على الوتر ، فيندف القطن ، ثم بعد ذلك يضع منه على تلك القوالب ، ويستره بقماش من خام تعرف بـ « الظهارة » ويخيطها مع القالب ، ثم يلبسه الوجه مخيطاً أولا . والبعض لا يرغب قوالب القش ، يحشي ذلك الوجه قطناً خالصاً ، وينجد الفرش المعدة للنوم بها ، والحف والحاشات ، وذلك بعد ندف القطن .

(انظر : جمال الدين القاسمي – قاموس الصناعات الشامية – ج٢ – ص ٤٧٣)

وصوفية ، فيذهب مستصحباً معه قوسه وكيس خيطانه والأجير ، فيضطر وهو في البيت بحكم المصلحة أن يغيّر قوالب الفرش أو اللحف أو الوسائد ، أو أنه يجد لها وجوهاً وقوالب مهيأة ، فإذا أراد إصلاحها يجدها طويلة أو قصيرة ، أو تحتاج في بعض أوضاعها إلى الخياطة ، وكان من المألوف أن يتصل بالنساء داخل الدار لإنجاز تلك المهمات المسلكية ، أو أن صاحبة المنزل قد تضطر إلى ترك المنجد في الدار ، وتخرج إلى قضاء بعض شؤونها ، فيبقى المنجد وحيداً في الدار ، لذلك كان من مقتضى هذه المهنة أن يكون المنجد أميناً مهذباً خلوقاً ذا أخلاق كريمة ، محافظاً على دينه ، فدفعاً لكل ما يمكن حدوثه من الشذوذ من بعض الجهلاء والشباب ، وحرصاً على سمعة المهنة ، وتوثقاً من أمانة المتعلمين والصنّاع والمعلمين ، اتفق رؤساء هذه المهنة منذ زمن بعيد على أن لا يسمح لأي كان تعاطي هذه المهنة مالم يكن حائزاً على شروط ضرورية واجبة ، يقدّرها رئيس المهنة وأعضاؤها ، ولا يسمح لأحد بتعاطي مهنة التنجيد إلا بعد توفّرها فيه وبمقتضى مراسيم خاصة . إليك هي :

يقبل معلّم التنجيد الأجير لديه فيعلّمه إلى جانب المهنة ، المحافظة على النظافة عموماً بما فيها نظافة الثياب ، ثم على نظافة اليد والأمانة ، ثم على التواضع وغضّ الطرف ثم على لين الكلام والخجل ، ويأمره بالصلاة ، فكنت ترى مثلاً الأجير جالساً في أحد جوانب الدكان متربعاً واضعاً يديه على ركبتيه مطرقاً (١) ، ينظر إلى الأرض ، وهذا أول ما يقوم به المنجد من ترويض الأجير مدة أسبوع ولا يستطيع

(١) في الأصل : « طارقاً » .

تغيير هذا الوضع ولا ينفلت عنه إلاّ لقضاء حاجة طبيعية وبعد الاستئذان من معلّمه ، ويبقى مدة أيام الأسبوع على هذا الشكل من الصباح إلى غروب الشمس وساعة الانصراف عن العمل .

فإذا مضى أسبوع على الأجير وهو على ذلك الوصف ، بدأ بتعليمه بعض المسائل البسيطة كتشميع الخيوط [1] وكناسة الحانوت . فإذا انتهى منها عاد إلى الجلوس والهدوء والصمت العميق ، ومن المحرَّم على الأجير النظر إلى خارج الدكّان أو إلى المارة أو إلى من يخاطب معلّمه من أرباب المصالح ، ويبقى كذلك إلى أن يأتلف تلك الأوضاع من الاحتشام ، والمعلّم يراقب أوضاعه ، سعاله ، عطاسه ، جلوسه ، كلامه ، لهجته ، نظافته ، ويوالي إسداء النصح له بكل صرامة والسوط في جانبه ، فإذا رأى شذوذاً بذلك ، نزل بالسوط على رجليه ، أو على يديه إن لم تكونا نظيفتين ، ثم يراقب كيفية تناول طعامه ويقوِّمه ويصححه ، بأن يأكل بأدب ، ولا يشرك جميع كفه وأصابعه ، وأن لا يظهر للمضغ صوتاً وأن لا يتلفت أثناء الطعام ولا ينظر إلى من يأكل ، وأن يتلطف باللقمة ويأخذها لفمه بتأن [2] وأن يغسل يديه بعد الطعام وقبله ، وذلك خوفاً على مختلف القماش العائد للناس من الوساخة أو تفشِّي الأدهان فيه ، ويعطيه خلال ذلك الإبرة ويمرِّنه على إدخال الخيط فيها ، ويأمره بتفتيح قطع الصوف والقطن (التَنْفيش) وتشميع الخيوط وذلك ضمن الصمت والسكون ، ثم يعلّمه أصول

(١) دهن الخيوط بالشمع ، وذلك لإكساب الخيوط المستعملة في التنجيد قوة وسهولة للعمل .

(٢) في الأصل « بتأني » .

(النَدْف) فيسلمه قوساً خفيفاً ومطرقة خفيفة ، ويعلّمه مبادىء تخطيط الفرش واللحف وطرحها وخياطتها ، فيزداد المتعلّم رسوخاً على جميع ذلك يوماً بعد يوم حتى إذا مضى عليه مدة لم يشاهد فيه اعوجاجاً غير قابل التقويم أبقاه عنده وإلاّ طرده فوراً ، فلا يجوز لمعلّم آخر أن يقبله عنده ، أما إذا رأى الاستقامة ظاهرة فيه ، فيبقيه ويدرّبه ويأخذه معه إلى الدور ، ويفهمه قبل الذهاب (بأن صاحب الدار ربّما وضع طعام الغداء لنا فإياك والشره ، كُلْ بأدب ، وكُلْ مما يليك ، ولا تبحث عن اللحم ، ولا تطل [١] النظر بالطعام ، وعندما تراني كففت عن الطعام فاكفف) . وهكذا يبقى الأجير مع معلّمه حتى يشبّ ويتعلّم الصنعة تماماً . على أنه يصادف عند المعلّم الواحد عدة أجراء وصنّاع ، وهم لديه بدرجات ، وصاحب الدرجة الأعلى يراقب دوماً حركات من دونه من الأجراء ، ويسدي النصائح بغياب معلمه ، وينقل ما يراه من الشذوذ إلى المعلّم ، فإذا اتضح للمعلم صحة ما نقل إليه ، أمر كبار الأجراء برفع رجلي المذنب ونزل به خمسة أسواط أو عشرة وأحياناً تبلغ الأربعين على حسب ما كان اقترف من الذنب .

وفي موعد معين في السنة يرفع المعلمون إلى لجنة المنجّدين المعقودة تحت رئاسة المعلم الأعلى المعيّن أسماء ما لديهم من الصنّاع الذين بلغوا درجة كافية تساعدهم على العمل على انفراد ، فيُستَدْعَوْن ليوم معلوم كلٌّ مع معلمه ، وبحضور اللجنة والرئيس يحضر هؤلاء

(١) في الأصل : « تطيل » . خطأ .

فيقبّلون أيدي الرئيس واللجنة ويجلسون إلى جانب مخصص لهم بكل أدب واحترام ، فيبدأ الرئيس بطرح الأسئلة على معلميهم واحداً بعد واحد ، سائلاً عن آدابهم وأمانتهم ونظافتهم ، والمحافظة على صلواتهم ، فيزكّونهم ويطلعون الرئيس على واقع حالهم تماماً ، فيعيّن الرئيس يوماً آخر قريباً لفحصهم مسلكياً ، وفي مكان متّسع يكون غالباً باحة أحد المساجد أو دار أهل الأعضاء أو المعلّم أو الرئيس ؛ وعند الاجتماع يوجّه أعضاء اللجنة بعض الأسئلة ويناقشونهم ليختبروا مدى معلوماتهم ، وخاصة فيما يتعلق بتفصيل أجهزة الأعراس وكيف تقاس ، وكيفية تدريب الجوادل ١ وكيف يتم تقسيمها ، ومقدار ما تحتاج من القطن إذا كان طولها كذا وكذا ، وأي الأقمشة تتحمل ثقلاً من الحشو أكثر من الأخرى ، والفارق بالحشو بين اللحاف القطني والصوفي ، وكذلك الوسائد ، وكيفية تفصيل البرادي ٢ ، والجوادل الصغيرة ، وكيفية تفصيل الطواطي ٣ والمخدات ٤ ، وكم تحتاج من القش والقطن ومقدار ما ينبغي تركه من السفايف ٥ ، وكم تحتاج من الكوبْشَة (الكوبشة معروفة وهي عرى وشناكل من حديد ليّن) إذا كان طولها كذا . . . وأمثال ذلك من الأسئلة ، ثم يطرح الرئيس سؤالاً عملياً عليهم فرداً فرداً ، فينادي أحدهم ويسلمه

---

(١) انظر ص ٩٧ .

(٢) انظر ص ٩٠ .

(٣) انظر ص ٩٦ .

(٤) انظر ص ٩٦ .

(٥) مفردها : السفيفة : النسيج . والمراد هنا : ما يترك من القماش من أجل تطريز أو تجميل الطواطي والمخدات . (انظر المنجد : سفّ) .

(الذراع) ١ ويأمره بأن يبدي له حاجة غرفة معيّنة من الوسائد القشّ ، أو البرادي أو خلافها ، فيبدأ الأجير بالقياس والجميع يشاهدونه ، ثم يعطيه قطعة قماش ويأمره بتفصيلها لحافاً أو وسادة أو ستارة ، أو جودلياً ، ويطلب إليه وضع خطوط بيضاء بواسطة الصابون مكان الطريق الذي سيجري عليه المقص ، وغيرها من الأسئلة العميقة فإذا وجد الرئيس واللجنة أن هؤلاء المتعملين صالحون ٢ للاستقلال بالعمل ، هنأهم تهنئة تمهيدية بقبولهم لحفلة (الشدّ) ، وإذا رأى بينهم مقصّراً أعاده إلى معلمه ، أو إلى معلّم آخر .

الشدّ :

إن حفلة الشدّ يعيّنها الرئيس واللجنة ، وإيضاح ذلك : أنّ الرئيس يوجه دعوة عامة إلى كافة المنجدين وصنّاعهم ٣ إلى مكان معيّن (ويكون بستاناً غالباً) فيجتمعون بذلك البستان مستصحباً كلّ منهم غذاءه ٤ معه ، من الصباح إلى الغروب وترتيبهم يكون على الصورة الآتية :

١ — يجلس الرئيس على مكان مرتفع قليلاً إلى جانبيه أعضاء

(١) الذراع : مقياس يختلف من بلد إلى آخر ، فالذراع البلدي المصري يساوي شبرين ونصف الشبر أي (٥٨ سم) ، والذراع المعماري يساوي ٣,٢٤ شبراً أي (٧٥ سم) . أما الذراع الاسلامبولي فيساوي ٢,٩ شبراً أو (٦٧ سم) .
(محمد فريد وجدي — كنز العلوم واللغة — ص ٤٧٩)

(٢) في الأصل : « أن هؤلاء المتعلمون صالحين » خطأ .

(٣) كان التسلسل في الحرفة هو : الأجير (المبتدىء — التلميذ) ثم الصانع — ثم المعلم — ثم شيخ الحرفة .

(٤) في الأصل : « غذاؤه » .

اللجنة ، معهم معلّمو أولئك الصناع الناجحين بالفحص وصنّاعهم .

٢ — فإذا تمّ الترتيب ، دعا الرئيس كافة المعلمين والمدعوين مع أجرائهم إلى استعراض الناجحين فيمرّون زرافات ، ثلاثة ثلاثة أو أوأ كثر أو أقل ليتعارفوا على الناجحين ويهنئوهم .

٣ — يعيّن الرئيس حدوداً لهم جميعاً في البستان لا يتجاوزونها .

ويتم جميع ذلك بظرف ساعة واحدة صباحاً ، ثم ينطلقون في حدود تلك الدائرة المعيّنة لهم في البستان فيجتمع كل منهم بمن شاء وأراد ، يختار كل منهم مع أجرائه ومع بعض المعلّمين ناحية يستقرون بها ويتجوّلون هنا وهناك وتقام الألعاب على اختلافها فيشترك من يشاء ويجلس للمشاهدة من لا يريد الاشتراك في الألعاب ، وتحدد منطقة وسطى تقوم طائفة بألعاب مضحكة ، فكل طائفة تتمتع بحريتها الكاملة من أحاديث وضحك وقصص وألعاب ضمن حدود الأدب حتى أذان الظهر ، فإذا قرب موعد الصلاة تنادوا استعداداً للوضوء والصلاة جماعة ، فيتقدّم الرئيس أو غيره ويأتم الجميع به ، فإذا انتهوا من الصلاة جلسوا حلقات خلف بعضهم [البعض] وبدأ كل معلّم يزكّي أجيره الناجح ويشيد بأخلاقه ومزاياه على مرأى ومسمع من المجتمعين ، فإذا انتهوا تفرقوا إلى ألعابهم وسرورهم ويتناولون طعام الغداء متفرقين كيفما يشاؤون ، فإذا أذن العصر عادوا إلى الصلاة وعقب الصلاة يجلس الرئيس وسط هلال من أعضاء اللجنة وعلى طرفي الهلال المعلّمون ، فبقية المعلّمين ، ثم على بعد عشرة أو خمسة عشر متراً تتشكل من الأجراء حلقات على شكل أهلّة باتجاه المعلمين ،يعان

الرئيس قراءة الفاتحة ، والصمدية ثلاث مرات فإذا تمّت القراءة أعقب الرئيس بالعبارات الآتية : بعد البسملة والحمدلة والصلوات على النبي صلى الله عليه وسلّم يقول ما خلاصته : « لقد منّ الله تعالى بفضله على مهنتنا فجعلها أرقى المهن وخصّها بالسرور والأفراح ، إذ لا يأتينا طالب عمل إلاّ لفرح أو لمسرّات أعراس وسواها ، وخصّها بالأمانة لأن أموال الناس بين أيدينا ، وكذلك أعراضهم في عهدنا وذمتنا وأمانتنا ، ندخل دورهم وكأننا منهم ونجلس إليهم وكأننا من محارمهم ، ونأكل طعامهم كأنفسهم ، ولهذا أكسبنا المولى تعالى من الأخلاق أتمّها وأكملها ومن الدين ما كبحنا به جماح نفوسنا ، وحرصنا على هذه المهنة وشرفها وأمانتها نحن ومن كان قبلنا سلاسل مروءة متصلة متسلسلة . نسلّمها لمن بعدنا كما تسلمناها من قبلنا ، والتسليم لا يكون إلا لأياد [1] نظيفة ترعى حرمتها وتحفظ عهدها ، وقد نشأت طائفة جديدة سارت على سنن معلميها فنشأوا على الأمانة والدين والتقوى وهم . . . » (يعدد أسماءهم مع أسماء معلّميهم) ثم يقول : « لذلك قدّمهم معلّموهم إلى (الشدّ) وسنشدّهم ونوصلهم بحلقتنا بعد أن تبيّن لنا منهم الكفاءة على تحمّل شروط المهنة ، وإننا نبتهل إلى المولى تعالى أن يثبت قلوبهم على التقوى والأمانة والاستقامة والغيرة على الإخلاص بكلّ ما يقدّم إليهم من عمل ويوفقهم ويرزقهم رزقاً حلالاً حسناً مباركاً » ثم يناديهم فرداً فرداً كل واحد مع معلمه فيتقدم ويجلس أمام الرئيس على ركبتيه ومعلّمه إلى جانبه ، فيمدّ الرئيس يده اليمنى ويقبض يد المشدود ويأمره أن يقول : « أعاهدكم

(١) الأصل : « لأيادي » .

على حرمة وكرامة مهنتي الشريفة ولا أغش ولا أظلم وأن أكون أميناً على جميع ما سيكون بيدي من مال ومتاع حتى يصل إلى أهله سليماً تاماً غير منقوص ، ولا أرتكب عملاً يسيء إلى سمعتي وأحافظ على صلاتي ، وأرعى ذمتي وأعلّم هذه المناقب إلى كل أجير يودّ العمل عندي بإخلاص ، وعليّ عهد الله في جميع ذلك ، مع إطاعتي لأوامر رئيس الحرفة ولجنتها وأشهد الله على ذلك والله خير الشاهدين » . فإذا تمّ ذلك ربت الرئيس على كتفه وهنأه ، ودعا [١] له بالتوفيق فينهض ويطوف على سائر المعلمين ويركع لمصافحتهم فيهنئونه ؛ ويدعون له بالتوفيق وهكذا حتى ينتهي الجميع ، ثم يتفرقون إلى دورهم ، ويباشر كلٌّ أعماله ضمن حدود تعهده وذمته .

فهذا هو الشد الذي كان يطلق على إدخال المتعلمين من أرباب هذه المهنة في عداد محترفيها ، ولم أسمع بوجود حرفة لها مثل هذا الترتيب الذي ذكرته مقتضباً ، أو شبيهه ، ولعلّ الحاجة أو الضرورة هي التي أوحت لأرباب هذه المهنة أن يكون بينهم مثل هذه الروابط والترتيبات ، فيشدُّون الصالح إلى حرفتهم ولهذا سمّوا هذا العمل (الشدّ) ، أو لعلّها من التشديد الحاصل من وفرة الشرائط والمزايا التي كانت مشروطة على طالب الانتساب إليها ، وأنهم يشدُّون أزر بعضهم بعضاً .

ومما يلفت النظر أيضاً بهذه المهنة ، أن للمعلّمين شارات خاصة في اجتماعاتهم وعند إجراء عمليّة الشدّ وهي أنهم يأتون بقطعة من

(١) في الأصل : « ودعى » .

الشال [1] فيعلقونها [2] في محازمهم ويتركونها مدلاة فوق ثيابهم منتشرة كالبيرق ، وبها يتميّزون عن بقية الناس عامة وعن أجرائهم وصنائعهم [3] المسنين ، لأن الأجير ربما بقي أجيراً طول حياته لسبب ما ولفقدان شرط من شروط الأهلية ، فيبقى هكذا إلى أن يموت لا يستطيع أن يستقلّ بالعمل .

. . .

---

(١) انظر ص ٢٦ .

(٢) الأصل : « يعلقون » سهو .

(٣) لعله يريد صناعهم » .

مراسم عدّة الحج :

ذكرنا كيف كان يخرج موكب الحج من دمشق المؤلف من المحمل والسنجق عقب عيد الفطر ، ومما يجب بحثه قبل البحث في كيفية عودته ، أن نشير إلى أن الحج كان يسير على البر بواسطة القوافل ، ففيها مختلف أنواع الدواب ، وبما أن طريق البر شحيحة بالمياه ، كان لا بدّ من الاستعداد لنقل الماء ، للناس ودوابهم .

وبما أنهم يسيرون ليلاً كان لا بدّ لهم من الأضواء والمشاعل (1) وحيث إن المسافة إلى الحجاز طويلة فكانوا يجعلونها على مراحل للراحة وتقديم العلف للدواب ، وللدواب لا بدّ من سوّاس يتفقدونها ويقدمون لها حوائجها ، كما كان لابد من الخيم ينزلون فيها ويأوون إليها ليلاً أو نهاراً من البرد وحرارة الشمس والرمال ، ثم لا بدّ من أناس يقطرون الركب فينزّلون ويُحمّلون وقت الراحة وعند السير ، وهنالك بعض قطعات الجند بأسلحتهم وأبواقهم ، ولهذا الموكب العظيم أمير يدعى (أمير الحج) (2) .

فالسُقاة : كانوا يحملون القرب لنقل المياه من البرك والآبار إلى الحجيج .

---

(1) انظر ص١٠٧ .

(2) كان امير الحج يخرج من سراي الحكم « المشيرية أو العسكرية » على رأس موكب الحج بين ١٥ و ١٧ شوال ويتخذ طريقه : الميدان مجتازاً باب المصلى ثم الميدان الفوقاني إلى باب الله (بوابة مصر) في رتل يمتد نحو ثلاثة كيلومترات متجهاً إلى قرية (مزيريب) ، وبعد خروج موكب الحج ببضعة أيام « من يومين إلى خمسة » تخرج قافلة الحج الشامي من الطريق نفسه – يتلوها قافلة الحج الحلبي ومعهم حدجاج العجم ، حيث يبقى الجميع في (مزيريب) من أربعة إلى خمسة أيام حتى يخرج الموكب جميعه . وكانت رحلة الحج الشامي تستغرق أربعة أشهر « من شوال حتى صفر » .

(محمد كرد علي – خطط الشام – جـ ٥ – ص ١٦٨)

والبرّاكون : هم أصحاب الدواب التي تنقل الحجاج وتكون من البغال والبراذين .

والعَكّامة : وهم أصحاب الجمال والهوادج والمحارات ١ التي نقل الحجاج أيضاً .

والمشاعل ٢ : وهم حملة المشاعل .

وطائفة أصحاب الخيم .

ولكل من هؤلاء رؤساء ومعاونون كثيرون وكلهم كانوا مهيئين لتأمين راحة الحجاج .

فأهل الصالحية كان أكثرهم للسقاية والمشاعل ، وأهل حي الشاغور وقصبة دوما للجمال ، وأهل الصالحية أيضاً للبغال والبراذين (برّاكة) ، والبياطرة منهم أيضاً ، والجنود يخدمون أنفسهم ، ولأمير الحج وأتباعه أشخاص يبلغون المئات لخدمته وخدمة معاونيه .

فالحجاج بعد الانتهاء من مناسك الحج يجتمعون حول المَحْمَل والسنْجَق ويعودون في نفس الموكب الذي ذهبوا به ، فإذا قاربوا الوصول إلى دمشق استعدّت الحكومة والشعب للقائه بنظام منقطع النظير .

ومن المعروف عند الناس قولهم عن زمن مغادرة الحجاز والعودة (يأكلون الحبوب ٣ ويفارقون المحبوب) ، أي في العاشر من شهر محرَّم يأكلون الحبوب بالمدينة ثم يستعدُّون للعودة .

وهناك أمين يدعى (أمين الصَرّ) وهي بعض الهدايا التي كانت

---

(١) انظر ص٤٨ .

(٢) لعله يريد : « المشاعلية » .

(٣) أنواع من الحلوى يطبخ بالحبوب المتنوعة كالحمص والقمح واللوبياء والفاصولياء وغير ذلك بالسكر ويصنع عادة يوم عاشوراء في العاشر من محرم . والمحبوب هو الرسول صلى الله عليه وسلم .

توزّع على عربان بين الحرمين تملّقاً لهم وخوفاً من بطشهم ، وهذا (الصرّ) يحوي مختلف المتاع من أحذية ومحارم ١ وعُقُـل ٢ ،وعباءات، وسرابيل ، وجوارب ٣ ، ومن الغريب أن التوزيع كان يجري بأسلوب لا مثيل له ويكون أثناء سفرهم بين المدينة المنورة ومكة المكرمة ، حيث يتألّب عليهم العربان طالبين حقوقهم ، فيرشقونهم يمنة ويسرة بما تحويه الصرّة بصورة غير منتظمة فيكون بيد أحدهم فردة خف أو حذاء وبيد الشخص الآخر الفردة الأخرى وكذلك الجوارب وأما العباءات فيتشادونها فتتمزق ويستغني كل منهم بما خرج بيده منها ، وهذا بعض سيئات العهد التركي في حالة إكرامهم لسكان البوادي المقفرة ، ثم يرشقونهم بالملبس ٤ والحلوى وقليلاً من الدراهم وكل ذلك لا يوازي الجزء من مجموع ما يبقى لأمير الحج وأتباعه

---

(١) انظر ص ١١٠ .

(٢) مفردها : العقال : « العكال » : ما يعصب به البدو وأهل القرى والفلاحون رؤوسهم فوق « حطة » أي « كوفية » وهي من قطن أو صوف أو حرير مقصبة ، وكان أهل « يبرود » يصنعون « العقل » ويحضرونه للشام ، وهي أصناف : منها جنس عال من الصوف الشال ، والمشهور عند الناس أن أحسن عقل ما يرد من بلدة (حماة) ، ويزعمون أن أهلها هم أول من اصطنعها ، وكان عدد دكاكين هذه الحرفة في سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥م) عشرة دكاكين في دمشق .

(جمال الدين القاسمي – قاموس الصناعات الشامية – جـ٢ – ص ٣١٦)

(٣) مفردها « جراب » وهو كساء الأرجل يغطي القدم حتى منتصف الساق . ومنها الطويل حيث يصل إلى الركبة .

(٤) انظر ص ٤٨ .

فيقتسمونه بينهم . ثم إن هنالك فئة كانوا يسمونها (الجُوخَهْ دار) ١ أي حامل الجوخة وهم يتقدمون الحج بمسيرة ثلاثة أو أربعة مراحل ، مبشّرين بسلامة الحج ونظافته من الوباء والأمراض والمصائب . وعندما يصل (الجوخه دار) إلى دمشق يهرع الناس إلى السفر إلى قرية (مزيريب) أو (غباغب) أو (الكسوة) حاملين مختلف الأطعمة والكسوة لملاقاة حجاجهم من أقارب وأصحاب .

ومن النكات المضحكة أن الملاقي الذي يذهب للقاء صديقه أو قريبه الحاج ، قد يخطىء الطريق أو يضلّ عنه ، فيحضر الحاجي لداره ، وتبقى أفكار الناس مشوشة عن الذاهب إلى لقائه ، وهنا يزغرد النساء على سبيل التفكّه والممازحة فيقلن :

آوهـا	دجاجتنا تقَـاقي	
آوهـا	جوّات الزقاق	
آوهـا	حجّينا وَصَـلْ	
آوهـا	العقبى عند الملاقي	لولولوليش

يقف الحج عند عودته إلى دمشق عند مدينة القدم تجاه بوابة مصر من دمشق ، وتعيّن الحكومة يوماً لاستقباله فيهرع الناس إلى استقبال

(١) جوخدار ، أو جوقه دار : كلمة تركية والمعنى الأصلي لها : فتيان السلاطين أو « القصر السلطاني » ، ثم أصبحت الكلمة تطلق على رسول السلطان أو الوالي ، و (الجوخه دار) هنا : هو الرسول الذي يرسله أمير الحج إلى دمشق ليبشر الناس بعودة الحجاج قبل وصولهم ببضعة أيام ، وقد جرت العادة أن ينفصل (الجوخه دار) عن الحجاج في (تبوك) فيصل إلى دمشق قبل الحجاج بسبعة أيام .

(البديري الحلاق — حوادث دمشق اليومية — المقدمة)

(الحج) أي استقبال موكب الحج مهللين مكبرين مصطفين على جوانب الطرق من بوابة مصر (وهنا مكان يسمّى العسالي) ، من هذا المكان حتى يصل إلى دار الحكومة (سرايْ المُشيرية العَسْكَريّة) (وهي الآن القصر العدلي) .

ويكون الترتيب على الصورة الآتية :

١ – فرسان الجند حملة السيوف مشهورة على أكتافهم ، بصفوف متراصّة .

٢ – صفوف جنود المشاة بالبنادق يتقدّم قائدهم على حصانه ومعهم أفراد الموسيقى العسكرية .

٣ – البَشاوات الملكيون على حصنهم وببذاتهم الرسمية المزركشة بالقصب صفوفاً .

٤ – شيوخ الطرق على خيولهم وأرجلهم مع مريديهم .

٥ – نقيب الأشراف وجماعته من الأشراف ١ على الخيول .

٦ – أمير الحج ومحاط بالأشراف وكبار الموظفين الملكيين والعسكريين .

٧ – المحمل الشريف يتهادى ويتماوج بين الصفوف على جمل مزدان بمختلف أنواع الحلي والزينة .

٨ – السنْجَق الشريف ٢ وحوله الكبراء والعظماء من موظفي الحكومة ووجوه الناس .

---

(١) انظر ص ٢٥ .

(٢) انظر ص ٥٦ . هو العلم النبوي الشريف الذي كان يصاحب موكب الحج إلى الديار المقدسة . (محمد كرد علي – خطط الشام – ج ٥)

٩ – مشايخ الطرق أيضاً يكبّرون .

١٠– جنود المشاة أيضاً .

١١– جنود المدفعية بمدافعهم .

١٢– عربات وناقلات خاصة للجنود .

وعندما يستقبل الناس المَحْمَل الشريف والسنجق الشريف يجأرون بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم ، حتى يصل الموكب إلى دار (آل سعدالدين) فيتناول الجمل اللقم [1] الذي تناول مثله عند الذهاب إلى الحج ، ويداوم الركب على سيره حتى يدخل دار المُشيريّة (السراي العسكرية) ويتفرّق الناس . ومن البديهي أن مدفعية قلعة دمشق ترحّب بقدوم الركب بعشرين طلقة من مدافعها بصورة متقطعة وحتى يصل الركب إلى مقره بالمُشيرية .

استقبال الحجاج من ذويهم :

ومن المتعارف أن يستعد ذوو الحجاج قبل وصولهم فيدعوا الأقارب ، فيذهب قسم منهم للاستقبال من القدم ، ويبقى القسم الآخر في الدار المزدانة بشتى أنواع الزينة ، وأما الذاهبون إلى قرية القدم فيصطحبون معهم (المرفعجية) [2] (وقد مرّ ذكرها ووصفها) ، ويأتون هكذا : يتقدّم الطبالون والمنشدون والحجاج في هوادجهم على

---

(١) انظر ص ٥٦ .

(٢) انظر ص ٧٩ .

الجمال ومعهم أثقالهم أيضاً حتى يوافوا الدار ، فيخرج وجوه الحي وشبابه إلى جانب الدار ويقيمون العراضات ١ والأهازيج وألعاب السيف والترس ٢ ، وتصطف المغنيات المصريات « هؤلاء النسوة المصريات يأتين في كل موسم حج لهذه الغاية » بدفوفهنَّ وغنائهن ، فيعمد أقارب الحاجي وقد تكون امرأته أيضاً قضت فريضة الحج إلى جانبه ، ويدخلون الدار مستقبلين بالزغاريد والأناشيد والصلوات ، فيتقدم الرجال من الرجل ويعانقونه ويمرغون وجوههم بثيابه ويقبّلون يديه اللتين لمستا الكعبة المشرفّة والحجر الأسود وشباك الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، ويقولون له بعد التهليل والتكبير : « حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً وتجارة لن تبور » ويدخل إلى ذويه . وبعد مواصلة الزغاريد والتهليل ساعة يدخل غرفته ،فيترفّع عن طريقه النساء ويدخل الناس للتبرك به وتهنئته ، إذكان يغيب الحاجي غالباً مدة أربعة أشهر ٣

---

(١) انظر ص ٤٤ .

(٢) هي لعبة سيشرحها المؤلف فيما بعد ، ويستعمل (السيف) للهجوم و (الترس) للدفاع .

(٣) كانت الرحلة تستغرق أربعة أشهر وهي تسلك الطريق الآتي والمسمى بالطريق السلطاني للحاج الشامي : دمشق – مزيريب (كما مر ذكره) – المفرق – الزرقاء – البلقاء – القطرانة – الحسا – عنزة – معان – ضهر العقبة – جغيمان – القاع – تبوك – مغائر شعيب – الأخضر – المعظم – دار الحمرا – مدائن صالح – المطران – بير الزمرد – شعيب النعمان – هاديا – الفحلتين – وادي القرى – الجرف – المدينة المنورة – قبور الشهداء – الجديدة – قديد – خالص – عسفان – وادي فاطمة – مكة المكرمة.وكان الحجاج يبقون من ٤ – ٥ أيام في (مزيريب) ، ثم يتألف الركب عسكرياً وعلى رأسه أمير الحج ، وكانت المسافة بين دمشق ومكة المكرمة تقدر بـ (٤٩٠ ساعة) و (٤٠ مرحلة) منها (٩٠) ساعة من (مزيريب) إلى (معان) .

(محمد كرد علي – خطط الشام – جه – ص ١٦٩)

من أربعة شوال إلى نهاية محرم ، ويكون مسمراً بلوافح الشمس والحرّ ، وعليه رائحة الأعشاب البرية يفوح أريجها في ملابسه ، ويبقى يستقبل المهنئين ثلاثة أيام بلياليها ، يقدّم للزائرين تمراً من المدينة وجرعة من ماء زمزم ١ المبارك ، وبعد استراحة عشرين يوماً يفك الأحزمة ويخرج الهدايا فيوزّعها على أصحابه وأقاربه ومحبّيه ، وكثيراً ما تحتوي على الأشياء الآتية (قَنينَة صغيرة من ماء زَمزَم ، مِقدار من التَمر ، مِقدار من الحنّاء ٢ ، سَبحة ٣ ، سواك ، مَروحة ، حصى البان ٤ ، خواتم ، طَاسَة مكّاوِيَة) . وقد يكون بعضها وبأقدار مختلفة على نسبة ما لديه من الهدايا وقلّة أو كثرة محبّيه ، وقد يحتاج إلى بعض الهدايا فلا يكفي ما معه فيضطر إلى ابتياع حوائجه من محل مخصوص يحوي الأشياء المستوردة من الحجاز ، وذلك في محلة سوق العصرونية ففيه كل ما يحتاجه الحاجي في تقديم الهدايا .

هذا وإن الغانيات المغنيات لا يفتأن يغنين ويعزفن ويرقصن ثلاثة أيام ويتناولن في نهايتها مختلف الهدايا من أشياء وملابس ونقود ثم يمضين إلى دار حاجي آخر .

---

(١) بئر في مكة المكرمة في الحرم الشريف قرب الكعبة . احتفرها (اسماعيل) وأمه (هاجر) ثم عدت أياماً وطمت فاكتشف موضعها عبد المطلب جد النبي فأعاد حفرها . كانت معظمة في الجاهلية كما هي اليوم في الإسلام ، يشرب الحجاج ماءها وينقلونه إلى بلادهم تبركاً . يتولى السقاية منها بنو عبد المطلب إلى اليوم .
(اعلام المنجد – ص ٣٣٨)

(٢) انظر ص ٩٢ .

(٣) وتسمى سبحة ومسبحة : للصلاة والتسبيح أو للتسلية والتلهي (عامية) نوع من الكرات الصغيرة زجاجية أو أحجار كريمة مثقوبة في وسطها وتنظم بخيط . عددها : (٣٣) حبة أو (١٠١) . (انظر المنجد)

(٤) انظر ص ١٤٠ .

يلبث الحاجي معتكفاً بضعة أيام ثم يقوم برد الزيارات إلى مستقبليه وزائريه ، فإذا كان ذهب حليقاً إلى الحج فإنه يعف عن لحيته ويصبح ملتحياً ، وإن ذهب بطربوش ١ أو محرمة ٢ وعقال يعود فيعتم ويصبح بعمّة ، ويواظب على عمل الخير والصلاة جماعة بأوقاتها ، والنصح للناس ، والدعاء بالعودة إلى الحج ثانية لنفسه ولمن يقابله ، وبذلك يحبب للناس أداء فريضة الحج .

وكان من المألوف غالباً أن كلّ من حج لا بدّ له من زيارة ثالث الحرمين الشريفين (بيت المقدس) ، ولكنها مع الأيام فترت الهمم عن متابعة ذلك .

. . .

مهرجان الوافدين للاشتراك بالحج الشامي من الأقطار البعيدة :

إذا حلّ شهر رجب بدأ حجاج الأقطار العربية يتهافتون على دمشق من بلاد قصيّة ، وكلما قرب عيد الفطر ازداد عددهم حتى يملؤوا دمشق وفنادقها وبيوتها ، فيؤلفون بذلك موسم ربح لأهالي دمشق ، فمن الشرق يتوافد العراقيون والعجم والأفغان والأكراد والهنود والبخاريون والتركستانيون الصينيون والروسيون ، وجاوة ، وبلاد المغول ، والصين ، يأتون إلى دمشق بلباسهم القومي وغالبهم من المسنين رجالاً ونساءً ، أملاً بأن يموتوا في الديار المقدسة أو على

(١) انظر ص ٣٢ .
(٢) انظر ص ١١٠ .

طريقها ، بنيّة زيارة بيت الله الحرام ، ليغفر الله لهم ما تقدّم من ذنوبهم ويلقوا ربهم بقلب سليم ، فتعجّ دمشق بهم فتراهم في الأزقة والأسواق يتنقلون مشاة وفي العربات لزيارة الأماكن الأثرية المقدسة والأضرحة ، في دمشق وجبل قاسيون (الصالحية) ، ويمكثون كذلك ، يبيعون ويشترون ، ويصرفون ، فإذا حلّ موعد ذهاب موكب الحج ساروا معه على براذين وبغال (البراذين التي مرّ ذكرها) ، أو على الجمال والهوادج مع (العكّامة) وقد مرّ ذكرهم أيضاً . وعند عودتهم يعودون إلى دمشق أيضاً فيبتاعون ويشترون ويسافرون إلى أوطانهم بالسرور والهناء ، فتنشط الحركة والسوق التجارية في دمشق ويكتسب الناس منهم أرباحاً كثيرة ، حتى إن أبناء الشوارع يغنمون موسماً خاصاً بوجود أولئك الحجاج ، حيث يرافقونهم داخل المدينة وخارجها ليهدوهم إلى مكان الزيارات في دمشق وأكنافها وأطرافها .

ولكن هذه المواسم خسرت بعضها دمشق إبان إكمال الخط الحديدي الحجازي ، كما خسرتها نهائياً في مطلع الحرب العامة الأولى عام ١٩١٤ .

وكذلك يتهافت أبناء الشمال من ترك ، وكرد ، ولار ١ ، وطاغستان ٢ ،

---

(١) هم سكان مقاطعة (لارستان) في جنوب إيران ، حكمتها سلالة خاصة كان أول من أسلم من أمرائها : ايراج في القرن الثاني ميلادي . (اعلام المنجد)

(٢) طاغستان (داغستان) – جمهورية في الاتحاد السوفياتي على شاطىء بحر قزوين الغربي ، وطد مسلمة بن عبد الملك أركان الحكم العربي فيها ، سكانها من (الجراكسة) الشراكسة . (اعلام المنجد – ص ٦٠٧)

وشركس [1] ، وكرج [2] ، روس ، وأرناؤوط ، ومختلف الأمم المسلمة ، ويشتركون في موكب الحج من دمشق ، ولا يخفى ما كانت تربح دمشق منهم من الفوائد المادية والأدبية التي لا تقدّر .

. . .

(١) انظر ص ٣٩ .

(٢) جورجيا أو الكرج : من جمهوريات الاتحاد السوفياتي تقع في جنوب غربي البلاد ، شرقي البحر الأسود ، سكانها ٤,٥ مليون نسمة تقريباً ، عاصمتها (تفليس) .
(اعلام المنجد)

الخمسان :

إذا حلّ آذار بدأت الخمسان خلاله ، فأول خميس يدعى (خميس النبات) والثاني (خميسس القطط) ، والثالث (خميس الأموات) يهرع الناس إلى زيارة القبور ، ويتكوّن من ذلك موسم حركة جديدة للبيع والأخذ والعطاء .

. . .

السّبتيّات :

يتخلل موسم البرد وخاصة في نهايته بعض أيام جميلة قبيل استقبال الربيع ويخرج الناس فيها إلى ظاهر المدينة ، والأمكنة المرتفعة لمشاهدة الأعشاب الطبيعية في الجبال والسهول المتروكة ، على أنهم يقسمون الأيام غالباً على المواقع الجميلة حتى يتمكنوا من التمتع بمختلف زخارفها وحللها الطبيعية الجديد [ة] .

فيوم السبت : إلى السبتية (أطلق على نزهة يوم السبت) فيذهب به حيث شاء وغالباً إلى قرية جوبر حيث مجتمع اليهود في كنيسهم .

يوم الأحد : إلى الصوفانية : حيث يشاهدون مرح النصارى

وأعيادهم في الناحية الشمالية الشرقية من خارج دمشق .

يوم الاثنين : إلى سيدي دحية : وهو مكان ضريح الصحابي الجليل (دحية الكلبي) في قرية المزة ، فيشاهدون السهل الفسيح بمروجه .

يوم الثلاثاء : صدر الباز : وهو مرج فسيح على الشاطىء الأيمن من مجرى نهر بردى يمتدّ من قريب مفرق كيوان حتى جامع السلطان سليم ، يجلسون على المرج الأخضر بضع ساعات حسب دفء الطقس فيأكلون وينعمون ويرجعون .

يوم الأربعاء : إلى قرية برزة لزيارة كهف مقام إبراهيم الخليل عليه السلام .

يوم الخميس : العسالي ظاهر دمشق من جهة باب مصر (حي الميدان) ، فيستقبلون السهول الممتدة شرقاً وغرباً حتى منعرج قرية الكسوة .

يوم الجمعة : إلى الصالحية : حيث ينتشرون في سفح جبل قاسيون فيمتعون أبصارهم بمناظر كافة أنحاء الغوطتين ، والنيربين ، ويتسلقون الجبل إلى مكان أثري يعرف باسم (الأربعين) ، يخرجون لزيارته

وفيه مسجد مصلّى ، وآثار يزعمون أنها دماء هابيل ابن سيدنا آدم ، وهنالك صخرة ترشّح من الماء داخل كهف ضيّق ، يزعم قيّمها بأنها تبكي على هابيل ، ثم يعتلون قمة الجبل فيشاهدون آثار (قبة النصر) ، وقد هدمها الأفرنسيون أخيراً ، ويزعمون أنها كانت مرصداً من إحداث نصر بن سيار (ولا يوجد ما يؤيد ذلك) . ثم يعودون فيعكفون على مكان أثري يسمى (الكهف) وفيه مسجد مهدّم وبئر صهريج من ماء المطر وآخر للمهاجرين وقُبّة السيّار ، وليس مراعاة التخصيص التي أوردناها مجبرة للجميع ، إنما يتبع وقد أصبحت الدور اليوم في محاذاته. ثم منه إلى(قبّة السيّار) المشرفة على مضيق الربوة ولاتزال ماثلة إلى يومنا ، ثم يعودون إلى ناحية الكهف فيزورون (نبي الله ذا الكفل عليه السلام) ثم مزار (الجوعية) والكراد (الأيوبية) ، وقد تستغرق هذه الزيارات يومين أو أكثر فيفردون لها أياماً معلومة ، يوماً للأربعين ، وآخر للكهف ، وآخر للأنبياء والأولياء في مقابر الصالحية ، وآخر للمهاجرين وقبّة السيّار ، وليس مراعاة التخصيص التي أوردناها مجبرة للجميع ، إنما يتبع الناس ذهاب الأكثرية من الناس ليستأنسوا من وجود بعضهم ، وليس معنى ذلك عدم جواز من شاء الانحراف بأهله وأقاربه وقصد جهة خلاف ما قصد الناس في ذلك اليوم .

• • •

الباعة والمناداة على الحوائج :

إن لدمشق صبغة خاصة في عرض أصحاب المتاع والأشياء إلى البيع ، فنرى طائفة من الجوّالين لهم أساليب خاصة في عرض ما لديهم ، ومما يسترعي الأنظار إليهم وخاصة الصغار .

فالصنوف تباع في الحوانيت بالأساس ، أما المرتزقة وضعفاء الباعة من الناس فيحملون ما يبيعون على عواتقهم أو رؤوسهم أو على دواب (حمير) أو على عربات صغيرة .

والذي يسترعي الأنظار التكنّي في عرض الحاجة فالغريب لا يفهم ما يباع حتى يرى بعينه الشيء المعروض ، فنرى مثلاً .

بائع الحس ينادي (الله الدايم) بصوت ممتد ومرتفع ، فيعلم الناس ما يبيع إلا الغريب عن دمشق .

ثم بائع (الكَعْـك) يضع الفَـرش على رأسه وعليه الكعك وينادي (الله كريم) ويمدّ صوته ، ومنهم من يتفنن باللفظ فيزيد أو ينقص مثاله : أن واحداً كان يقول : « يا كَرِيمْ ويَـا حَـلِيمْ تازَه سمِيـْد » بصوت ونغم خاص صباح كل يوم في طريقه إلى الصالحية .

ثم بائع البُـرْدُقان [1] ينادي : « طاب أكلُه ياللّي استَوَى » .

---

(١) هو اللفظ العامي لفاكهة « البرتقال » .

وبائع المخلل « حَمضَه طَرْبَش الحواني ، الحامُض يا الحامُض يا الحامض يا » .

واللوز الأخضر (عَقّابيّة) ينادي عليه « العوجة يا طرية ، أول فواكي الشام يا عَوجَه ، قلبلك خيار يا طرية » .

ثم بائع الطَّرْخُونْ ١ يقول : « الخائن يا ، الخائن يا ، ابن الزنا يا خائن ، » ولهذه الكنى حكايات معقولة محببة .

وينادي على الدراقن : « الله يرحم اللي نصب ، نصب ومات » .

وينادي على الحليب (حاليَا هيب) ويمدّها ثم يضغط عليها ويشدّها شدّاً من فمه .

فهذه الكنايات ما كان يعرفها زوار دمشق ولا يفهمون منها الشيء المباع إلا عند رؤيته ، وإن النازل على طريق الصالحية صباحاً في ذلك الحين يسمع شتى الالحان والأنغام من قبل البائعين .

منها أيضاً البوشار فينادي«طيّب سخن بُوشَار ،قبل مايبرد بوشار» والبوشار عبارة عن الذرة الصفراء محمّصة فوق الرمل النظيف ، وعند ملامستها الحرارة تتفسخ ويخرج باطنها الأبيض فيؤلف شكلاً مزهراً جميلاً ، لذيذ الطعم ، يرغبه الصغار والكبار .

ثم إن بائع العنب ينادي : « هدّو خيامه ، يا حينه تعال وَدّعَه » .

(١) نبات : بقلة زراعية معمرة من فصيلة المعمرات الأنبوبية الزهر ، مهدها الأصلي سيبريا ، تزرع في أوربا منذ الأجيال الوسطى ، أوراقها صالحة للتوابل ، يؤكل مع الطعام كالبصل الأخضر . وهو من خصوصيات دمشق ومن بقول المائدة .
(انظر المنجد – طرخ)

ثم التوت ينادي عليه « أطيبْ من الرّطبْ يا ابن الحَطب » .

وهنالك بائع الحِمّص المسلوق ينادي : « بَليلة بَليلة عالسَخْنة عالسخنة » بسرعة وبلهجة غريبة جداً .

فإذا بلغت السنجقدار فترى في مدخل سوق الحميدية بائع الفطاير ينادي : « اكْسِرْ الصَّفْرَة وصلّي على النبي ، فطيرة بقشطة ، فطيرة بلحمة ، فطيرة بجبنة ، بمَتْليك » ، والمَتْليك ينقص قليلاً عن ثلث القرش . في التعامل البلدي ، وهو يحوي خمسة نحاسات ، وكل نحاسة كانت كافية لإرضاء الصغير الذاهب إلى المدرسة ، أمّا الكبار من الطلاب فعلى الأقل كان يأخذ المتليك ، وقلّ من حظي بالمتاليك من الأولاد حين ذهابهم للمدارس .

ثم تسمع من ينادي : « الله يبارِكْلَك يا سيّد محمّد اليوم ، يبارِكْلَك يباركلك » أي يبارك لك ، فتعلم على أنه يبيع إحدى الشرابات بالليمون أو البردقان ١ أو التمر هندي .

ثم تسمع من ينادي : « يا ويزًا » وهذه الكلمة منحوتة من كلمة (عاوز ، يا) وتكون خاصة ببيع منتوجات الخرّاطين من الأدوات الخشبية .

ثم من ينادي : « تعال دُوُءْ الطَعمة وادْعِي لي » (تعال ذوق الطعم وادع لي) فتعلم أنه يبيع ماء الليمون المجمد .

ثم من ينادي « دَفّي بَطْنَك يا بَرْدان بالعَسَل » . فتعلم أنه يبيع الشمندر المسلوق .

---

(١) التسمية العامية لفاكهة البرتقال .

ثم من ينادي : « سَحْلَبْ سِخِنْ » ويمدّ كلمة (سخن)، وهو يبيع مستحلب المحلب والزنجبيل بالنشا .

ثم من ينادي : « يا خنا واطبوخ » ويمدّها ، وهو يبيع المَلْفُوف (1) وينادي : اطبخ .

ثم من ينادي : « لا قشُور ولا بذُور يا وَرْدِي » ويبيع البطيخ الأخضر .

ثم من ينادي : « أحمر وموتّر يا فجل ، عند العَشا تِسْتَفْكِر الفجّال » وهذه ظاهر [ة] يبيع بها الفجل الأحمر الطويل .

ثم من ينادي : « لَلْمُونِه يا عَيّار» فتعلم أنه يبيع البصل .

ثم من ينادي : « حَلّي سُنونَك يا وَلَدْ » ويبيع السكر المعقد ويحمله بيده فيمده ويمتط ويقطع منه للبيع وهو في غاية من الوساخة.

ثم بائع الحلاوة ينادي : « يا حِلوِة والجُوز أَبْيض إنْتِ حِلوة وجُوزِكْ أَبْيَض » .

ومنهم المعتادون على الذهاب إلى الحج في كل سنة فيكررون نداء أهل المدينة على الحلوى المعروفة (بالزلابة) فيقول : « يا عَسل بابْ السلام يا عَسل . يا زلابّة مني ويا عَسَل بَابْ السلام يا عسل . نحن عندنا الزّلابَة وعند النبي الأنوارْ يا عسل . زادَك وزُوّادَك

(1) واحدته ملفوفة : (الكرنب) – يسمى في دمشق أيضاً « يخنة » يؤكل مطبوخاً مع الأرز واللحم والتوابل . (انظر المنجد – ص ٧٢٧)

يابُو شـام على بلاَدك . ياربّي تبلغـّهم السَلام » ، ولكن بألحـــان جميلة مغرية لطيفة جداً ، تستهوي القلوب .

ثم تسمع من ينادي : « بالحديدْ ياقْضَامة بقشر رُمّانْ ياقضامة » ، وهذا يبيع الحمّص المشوي بالملح والرمل ويسمى القضامـــة ، يبيعه بين الحارات مقابل قَنَايِن [1] مكسّرة أو قشر رمّان ، أو قطع حديد وأشباهها ،

ثم من ينادي : « مابَلَـّيتُه وهو طري ، بخمسين الرَطل خيَار » . وهكذا . . . .

* * *

(١) جمع بالعامية لـ « قنينة » وهى معروفة .

المدارس في دمشق :

إذا قيست الحركة العلمية بدمشق قبل الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ بأيامنا هذه ، فلا يمكننا أن نطلق على دمشق إلا اسم قصبة نائية عن العمران ، فالمدارس لا تكاد تكون قائمة إلا بقسط يسير ويسير لحد لا يصلح معه أن يقارن بعظمة المدينة وأهلها وماضيها العلمي العظيم .

فالمعلّمون والمتعلّمون سائرون على نظام الحلقات في بعض المساجد والدور الكبيرة ، يعالجون طرفاً واحداً مما يجب أن يكون لماضي أمة وحاضرها ومستقبلها من النشاط العلمي في مختلف العلوم والفنون .

وإلى جانب تلك الحلقات كانت المدارس القرآنية تعنى بتعليم الكتابة والقراءة والتجويد ، ومبادىء العقائد ولوازم العبادة بشكل بسيط ، بأساليب مرهقة ، مما يبعث النفرة والاشمئزاز في نفوس الأطفال والطلاب .

وسترى من الأمثلة التي سنعرضها بين يديك ما يأخذك به العجب والأسف .

المدارس الحكومية :

لم يكن في دمشق مدارس عليا قبل تأسيس المعهد الطبّي في عهد الوالي (ناظم باشا) الذي هو وحده بدأ فعلاً في النهوض بدمشق ، ولكن لم تطل أيامه رغم تردده مرتين والياً عليها ، كما لم يطل عهد سابقه

مدحة باشا ، الذي بدأ بالإصلاح فعلاً فأسس مدارس دار الصناعة بدمشق ، وإلى ناظم باشا يرجع الفضل في تأسيس المستشفى العام ، وجرّ مياه الفيجة إلى دمشق وتوزيعها في أزقتها ودورها ، وتوطيد نظام الأمن بشكل يحفظ هيبة الحكومة نوعاً ما ، بالنسبة للعهود السابقة كما نقلتها إلينا ذاكرة الشيوخ والعجائز .

وإلى جانب المعهد الطبّي كانت المدارس العسكرية على هذا الترتيب : القسم الرُشدي ، الإعدادي ، الحربي ، وبعد الانتهاء يرسل المجلّون إلى مدرسة الأركان في الآستانة ويوزع الباقون على القطعات .

ثم إلى جانب هذه المدارس مدرسة أخرى ملكية معروفة باسم (مكتب عنبر) ينتهي إليها صفوف طلاب مدارس دمشق الرسمية ، وكانت على سبعة صفوف فإذا انتهى الطالب منها دخل مدرسة الطبّ ، أو ترك الدراسة والتجأ إلى أبواب الحكومة يطلب عملاً .

أما المدارس الابتدائية فكانت منوطة بلجنة تسمى (الجمعية الخيرية) برئاسة العلامة الشيخ طاهر الجزائري والمراجعة إليه في قبول الطلاب في المدارس الأميرية، ولا يوجد من هذه المدارس الرسمية إلاّ واحدة في القيمرية والثانية في قلب المدينة تسمى (الجقمقية) وأخرى في الصالحية ، ومن أنهى دراسته منها انتسب إلى مدرسة (عنبر) الإعدادية فانتظم في سلك طلابها بين المقبولين في الصف الأول .

وما عدا ذلك فليس هنالك مدارس رسمية تشرف عليها وتنفق عليها الحكومة .

ظلّت هذه الحالة إلى ما قبل إعلان الدستور العثماني عام ١٣٢٦ هـ حيث أحدثت مدرسة رسمية ابتدائية أخرى كمدرسة الملك الظاهر التي ما زالت إلى اليوم تحمل هذا الاسم .

وإلى جانب هذه المجموعة من المدارس الحكومية ، كان للأجانب مدارس كثيرة موزّعة في الأحياء المسيحية ، كمدرسة الفرير ، العازارية ، الأليانس ، مدرسة الإنكليز وسواها . تعجّ بالطالبين المسيحيين والمسلمين واليهود ، والأقليّة فيها مسلمة ، وهم من أبناء الثراء واليسر والغنى ، أنسوا فيها نظاماً وعلوماً وتعليماً للغات فطرحوا أولادهم فيها ، فنشأ أكثرهم ملحداً وسهماً نارياً[1] على أمته ودينه، وهذا ما استرعى أنظار بعض أولي الحمية والغيرة الدينية فقاموا بتأسيس المدارس الإسلامية ، منها :

المدرسة العثمانية التي نهض بها الشيخ محمد كامل القصّاب .

والمدرسة التجارية للأستاذ الشيخ مصطفى الطنطاوي .

والمدرسة العلمية الوطنية .

ومدرسة جمعية الإسعاف الخيري الخاصة بأبناء الفقراء والمعدمين .

وراحت هذه المدارس تقاوم الدعايات الأجنبية وتزاحم المدارس الأجنبية فأخذت تغصّ بالنشء المسلم ويكثر المتعلمون .

* * *

(١) إن في كلام المؤلف هذا الكثير من عدم الدقة والموضوعية ، لأنه ليس كل من درس في مدارس أجنبية حكماً « هو سهم ناري على أمته ودينه » .

المدارس القرآنية :

على أن المدارس القرآنية ما كانت لتتقدم خطوة واحدة إلى جانب ذلك النشاط في أنحاء المدينة ، بل ظلّت على سيرها البطيء ، وإليك بعض الأمثلة عن أساليب التدريس فيها :

أولاً : المدارس القرآنية : وهذه على نوعين إما أن يتعهدها [1] شيخ (رجل) أو تتعهدها (امرأة) وتسمى (خجا) [2] ، وكلاهما في السير على نمط واحد ، إنما يقوم الشيخ بتدريس الأطفال في بعض غرف المساجد أو الزوايا ، بينما تقوم الخجا بتدريسهم في دارها .

الوصف : إذا دخلت مدرسة الشيخ تجد الأطفال جالسين على الجلود [3] ، كل يأتي بجلد من داره ليجلس عليه فوق مدَفّف خشبي ، وأمامهم رحلة [4] خشبية طويلة يصطفون على جانبيها متقابلين ، الشيخ في زاوية الغرفة وإلى يمينه واحدة منها ممتدة على طول الجدار ، وإلى يساره مثلها

---

(١) الأصل : « يتعدها » سهو .

(٢) خجا : كلمة تركية بمعنى « معلم » وهي غير شيخ الكتاب . وكانت تطلق على (المعلمات) في المدارس القرآنية في دمشق .

(٣) جلد الغنم أو الماعز ، وهو كثير الاستعمال في الحاجيات الإنسانية فيصنع منه أشياء لها دخل كبير في المرافق العادية لا يمكن الاستغناء عنها ، والتي كان يستعملها الأطفال في الجلوس لدى مدارس الشيوخ هي من جلود الخراف أو الماعز .
(محمد فريد وجدي — كنز العلوم واللغة — ص ٣٢٢)

(٤) كلمة (عامية) بمعنى منصة خشبية مستطيلة طويلة وقصيرة القوائم وهي غير المستعملة حالياً في المدارس .

ممتـــدة على موازاة الجدار الثاني ، وبين الاثنين واحـــدة لايزيد طولها على الذراع موضوعة أمام الشيخ ، يستدعي إليها الطلاب واحداً واحداً ليملي عليه الدرس ، ويصرفه إلى مكانه الاول ليدأب الطفل على تكراره ، وخلال ذلك يستدعي الشيخ غيره ، وهكذا ، ووراء جميع ذلك الطلاب الصغار يجلسون على غير انتظام للتسلية والسماع ، حيث يرسلون إلى الشيخ والخُجا تفادياً من ضجيجهم في الدار ، أمـــا الشيخ فيراقب من زاوية حركات الجميع وهو جالس على (طراحة)١ ومتكأ يعتمد عليه ظهره في منتصف الزاوية ، فإذا مارأى شذوذاًأو ضجيجاً من أحد الصغار ، أو رأى تهاوناً من الدارسين على المنضدة الطويلة صاح بهم ، أو استعان على ذلك بقصبة طويلة تكون إلى جانبه على ارتفاع الحائط ، يضرب بها المشاغبين من الأطفال أو المنصرفين لغير القراء[ة] ممن هم على طول المنضدة .

ثم نجد إلى جانبه حزمة من القضبان وتكون غالباً من شجر السفرجل ، وإلى جانب الحزمة هراوة قصيرة وثخينة بطول متر فيها ثقبان من الوسط بعيدين عن بعضهما بمسافة عشر سانتمترات تصل بينهما قطعة من حبل (المرس) ثابتة على الهراوى وهذه تسمى (الفلقة) يعاقب الشيخ فيها الهاربين ٢ من الكتّاب أو المتخلفين ٢ عن الحضور ، أو من شكا منهم قلة الأدب ـ من أوليائهم ، داخل الدار ، أو من لم يحفظ درسه ، أو من

(١) الطراحة : فراش مربع أو مستطيل تحشى قطناً أو ملابس بالية أو قشاً يجلس عليه ، وتكون بشكل اللحاف ولكنها أصغر منه ، وهي كلمة (عامية) .

(انظر : المنجد – طرح – ص ٤٦٣)

(٢) الأصل : « الهاربون ، المتخلفون » خطأ .

آذى أحد زملائه ، وعندها ينهض الشيخ إلى الوسط فيستدعي اثنين من عرفاء١ كتّابه يمسك كل منهما بناحية منها ، ويأتي بالمذنب المقصر ، فيضع رجليه على الفلقة فيشد الطالبان دورتها بحيث يصبح قدما المذنب مستندين من الكعب على (الفَلَقَة) والحبل مشدود على القدمين من ناحية وجه القدم ، وأخمصهما متجهان ٢ إلى جهة الشيخ ، فيبدأبسوطه على أخمص القدمين ضربات شديدة يتراوح عددها بنسبة الأسباب الداعية لهـــا .

ومن الغريب أن لهف أولياء الأطفال بتعلمّ القرآن الكريمبسرعة ، كان يسوقهم إلى تسليط هذا الشيخ الجاهل على الأطفال ، وكثيراً ماكان يدمي أرجلهم وظهورهم بسوطه ، فيجد على نسبة تلك الشدة الثناء العاطر من أبويهم ، كما كانت هنالك عبارة لازمة يخاطب أولياءالأطفال بها الشيخ قائلين : « لَكَ اللَحم ولنا العظمْ » ، فيزداد نشاط الشيخ ، وينزل بسياطه على أبدانهم ماشاء له جهله وشفيت حماقته .

أما أصول التدريس فقد كان بدائياً إرهاقياً على شكل لايتصور ، فأول مايبدأ الطفل بدراسة كراس مطبوع فيه (الأَلِفْبَاء وأنواعها مشَكّلة وغير مُشكّلة) ويسمى (الصُبَّرة) وفي الصفحة الأولى منها كتب بالخط العريض ، البسملة ، ثم التعوذ ، ثم « ربّ يسر ولاتعسر رب تمم بالخير » ، ثم تبدأ حروف ألِفْباء وهي الحروف الأصلية ، فأول مايباشر الشيخ تلقينه هو المخطوط برأس الصحيفة ويردده على

(١) انظر ما سبق ص ٦٤ .

(٢) الأصل : « متجهين » خطأ .

مسامع الطفل فيضربه ويؤذيه حتى تنطبع صورة الكتابة تصويراً في خيال الطفل وتحفظها ذاكرته لفظاً لافهماً ، ثم يأمره أن يكرر ذلك فتمضي الأيام والأسابيع والشهور والطالب لايزال يعالج « ربّ يَسِّرْ » وكيف يتاح له التيسير على هذا الشكل وشيخه المثل الأعلى في العسر والغباوة ، ويظل كذلك حتى تأتيه عناية الله فيستطيع الطفل أن يميّز بين شكل رسم البسملة ، ورسم شكل « رب يسر » وعندها تفرح الشيخ فينتقل إلى حروف ألفبَاء ، ويبدأ به (ألف ، ب ، ت ، ث) وهكذا ،أيضاً أياماً وشهوراً حتى يتمكن أخيراً (١) ذهنه من توطيد انطباعات الحروف بمختلف أشكالها في ذهنه ويستطيع التمييز بينها .

الأصول — المصيبة العظمى :

وهذا الذي رأيته هو بسيط جداً بالنسبة للدور الثاني الذي يلي الدور الأول السابق ، إذ كان يعدّ من أسباب التيسير على الطالب في إدراك الحروف أن يقدموا إليه واسطة سهلة تعين الطفل على التمييز بين الحروف وهذه الواسطة هي أن يدرك كل حرف ما يكون عليه من النقط ، فإذا سئل عن الألف ، أجاب الطفل :«لا نقطة عليها لا شيء عليها » وإن سئل عن الباء يجيب : « لها واحدة من تحتها » والتاء : « اثنتان من فوقها » والثاء : « ثلاثة من فوقها » وهكذا ، والأغرب من ذلك أن يتلفظها الشيخ عند تلقينها بألفاظ لا تدل على الشيء الذي يراد منها ، فبدلاً من أن يقول للطفل مثلاً « الألف لا شيء عليها » يقول له هكذا :

(١) الأصل : « آخذه » سهو .

« ألفْ لا شنْ عَليها » بهذا اللفظ المغاير للمقصود ، فهنا بينما الطفل يتمكن من إدراك قصد الشيخ من لفظ « لا شِنْ عَليها » تنزل على رأسه الضروب باليد والوخز بالأصابع ورؤوس القضبان ، والضرب على ظهره بها أيضاً ما لا يعلمه إلا الله والطفل الضحية نفسه .

وإن هذه (الألف لا شِنْ عليها) تعدّ كفرض من فروض العبادة ، واجبة في كل صباح ومساء قبل انصراف الأطفال إلى دورهم ، يتلونها مجتمعين والسوط بيد الشيخ المتنقل بينهم مسلطاً على رؤوسهم ، فيبادرون بتلاوتها هكذا : « ألف لا شِنْ عليها » ، (ب) واحدة من تَحتَها . (ت) تنتين من فوقها ، (ث) ثلاثة من فُوقهَا . (ج) واحدةْ من تحتها . (ح) لا شِنْ عليها ، (خ) واحدة من فُوقهَا ، (د) لا شنْ عليها . . » إلخ . . إلى آخر الحروف .

وكلما كثر الصخب والأصوات المرتفعة من الأطفال بقراءتها يتهلل وجه الشيخ وتنبسط أساريره ناظراً من النوافذ إلى المتفرجين على جهوده من الأسواق المجاورة أو المارة .

حتى من كثرة ترددها أدرك العوام القصد من عبارة (لا شِنْ عـليْها) من أنها خالية من كل شيء مجردة تماماً فراحوا يضربون بها الأمثال وقد سمعت كثيراً من يقول : « ذهبَ كل ماليْ وما بقَى عندي شيء أَلِفَ لا شِنْ عليها لا فُوقهَا ولا تَحتْها » ولكن كانوا يلفظونها أكثر خطأ ومغلوطاً بشكل أفظع يلفظونها هكذا : « أَفلَشْنا عليها لا فُوءْها ولا تَحتْها » .

ثم يلي ذلك الدور الثالث وهو دور الحركات الخفيفة مما يقابل

الألف والواو والياء ، والتنوين ، فيبدأ الشيخ بتلقين ذلك هكذا : « ألِفْ نَصبه انصب أَ ، بَ نَصبه بنصّبّا ، تَ نصبه تنصبتّا ، جَ جنصبجا ، حَ حنصبحا ، خَ خنصبخا وهكذا » . . وعند الخفض يقول هذا :«ألف خفضة اخفضِي ، بِ خفضة بخفضِي ، تِ خفضة تخفضِي» ، وهكذا . . . وعند الرفع «ألف رفعة ارفعْ أو ، بُ برفعبُو ، تُ رفعة ترفعتو » . . وهكذا .

حتى إن العوام أخذوا من ذلك أيضاً ما يشبه ضروب الأمثال فإذا أخطأ مخاطبهم عند القصة أو الاقتراح يقولون له حالاً : « تِرْفَعْتُو ، اغطَلتُو » ، تنويهاً بخطئه (1) أو إساءته .

فهذا الأسلوب الحماري الذي كان يسلكه الشيوخ ، هم نشأوا عليه من قبل فظلّوا مثله جامدين لا حقيقة لهم بالحياة ولا معنى .

هذا ما كان يحمل الأطفال على الخوف من الشيخ والدراسة ، فيلجئه إلى الهرب وتمضي عليه السنون وهو يعالج « ألف لا شِنْ عليها » فيخجل من نفسه فيهرب من دمشق إلى بيروت ، وقد أصبحت بيروت مضرب الأمثال ، إذ كان الناس يقولون : « أول سَفَر العِلْق والحمَار إلى بيروت » . فيهرب الأولاد مع القوافل هرباً من الشيوخ ونجاة (2) من (ألف لا شن عليها) وما يعقبها من القضبان والفَلْقَة . . .

وإن أظلم شَيخٍ كان له أعظم اعتبار ، لأنه بنظر أولياء الطفل

(1) في الأصل : « بخطاه » خطأ .

(2) الأصل : « نجاتاً » خطأ .

يعدّ الحريص الأول على تهذيبه وتعليمه والناس مدينون له — أي للشيخ — بأشياء كثيرة ، فهو يقرأ لهم مراسلاتهم ومكاتيبهم ، ويقرأ لهم على موتاهم بالأجرة ويصلّي بهم إماماً ، ويلقن الموتى كلمات مشهورة عند مواراتها التراب ، ويكتب لهم (الحجب) ١ للمحبة والفراق والطلاق وتسهيل المصالح والأمور ، لذلك كانت للشيخ مكانة مرموقة بين أولئك البهائم من الناس .

فإذا أتمّ الطفل (الصُّبّرة) وجب على أهله أن يقدموا للشيخ ثمن طبخة (مُجَدَّرَة) ٢ يطلبها من أهل الطفل بالوقاحة المعروف بها . ه هنا يبدأ بتعليم الطفل (بالجزو) فيأخذ الطفل (جزو عمّ) ويبدأ من الفاتحة على النحو والأسلوب في التعليم السابق في (الصبّرة) و (ربّ يسّر) ، ويتحمل الطفل شتى الآلام ، فإذا وصل إلى سورة (سبّح) ٣

(١) الحجب أو الرقية : وهي القراءة والنفث على المريض أو المصروع ، أو صاحب مشكلة ما ، وتعليق (الحجاب) أو (التميمة) ويقال له : « المكبس » ، وكانت من الحرف المعروفة في دمشق ، يكثر فيها الدجالون والمتكهنون ولهم عجائب في اقتراح الخيوط والحرير والأوعية والحبر ، والإتيان بعصفور أو صرصور ووضعه حياً في قزازة (زجاجة) على حجمه ولحمها وسدها عليه ، وكذلك الكتابة على القدم أو بالدم وغير ذلك . (جمال الدين القاسمي — قاموس الصناعات الشامية — ج٢ — ص ٢٣٣)

(٢) نوع من الطعام الشعبي في دمشق وبعض محافظات القطر السوري ، تطبخ من العدس أو الرز أو الماش والرز ، أو البرغل والعدس . فيكون حب العدس أو حب الماش بارزاً على وجهه كحب الجدري ، وفي جمهورية مصر العربية تسمى « الكشري » . (انظر المنجد — جدر)

(٣) كانت العادة لمشايخ الكتاب في دمشق أن يأخذوا من الأولاد إما : خميسية (أي يتقاضونها يوم الخميس) وهي خمس وعشرين بارة إلى قرش لكل ولد ، ومنهم من يأخذ مشاهرة من ستة قروش فصاعداً ، ولهم مرتبات ، إذا أتم الصبي السور إلى سورة

يقول الشيخ لوليّ الطفل : « وصل ابنك لسورة سبّح ، يعني جيب الجاج ودبّح » فيأتي له والد الطفل بدجاجة وأكثر حلواناً ١ للشيخ ، وهكذا ينتقل بالطفل على هذا الأسلوب العقيم حتى يتمّ سور القرآن بكاملها ويباشر خلفه الختمة كما أوردناها في محلها آنفاً .
وكان الآباء يحرصون على تعلّم سورتي (يس و الرحمن) ليقرأها الطفل عن أرواح موتاهم عند زيارة القبور وبالمواسم ، والطفل يفخر بأنه يستطيع القراءة ، ولا تسأل عن تلك القراءة المهشمة المحطمة كرأس الشيخ الفارغ .

وهذا الحال كان في جميع مدارس الشيوخ إطلاقاً والحجوات ٢ من النساء ، إلاّ أنّ (الحجا) كانت أكثر لطفاً من الشيخ وأقل شراهة وظلماً ، لذلك كان الناس يعمدون إلى (الحجا) بإرسال أطفالهم إناثاً وذكوراً .

وقد تعلّمتُ في بادىء الأمر عند الحجا مع شقيقتي وأخي وكان دارها يعجُّ بالأطفال إناثاً وذكوراً ، فكان زوج الحجا مزارعاً في إحدى جنائن الصالحية لذلك كنّا بسائق المتابعة للأصل نتبعها في الصيف إلى البستان وفي الشتاء إلى دارها .

(سبح) وعند ختمه جزء (عم) ، وكذا إذا وصل إلى سورة (ياسين) ، وعند النصف الثاني ، وفي الختام ، وهذه المرتبات تسمى (حلواناً) يكرم بها الشيخ ، ومن في معيته من عريف كبير أو معين . وعند الختام يعطى من الإكرام : أما ما شرط أولا ، أو ما تسمح به نفس ولي الصبي .

(جمال الدين القاسمي – قاموس الصناعات الشامية ٢/٤٠٨)

(١) مبلغ من المال يمنح هدية ، أو مكافأة ، والمقصود بها شراء (الحلوى) . والكلمة عامية .

(٢) انظر ص : ١٨٦ .

وكان من الحجوات الشهيرات في ذلك العصر أي قبل(٥٥ سنة) من تاريخه ، (الحجا فاطمة البَطَرْني) ، (الحجَا أَمِينَة الكلاّسْ وشقيقتَها فاطِمَة) وقد تقلّبت عندها مع شقيقتي الكبرى .

ومن الشيوخ المشهورين :

الشيخ محمد كُوتو (للأكراد) .

الشيخ عَبْدُه الأصْفَر (لسكان سوق الجمعة بالصالحية) .

الشيخ محمد بندق (لحارة الشركسية) .

الشيخ فارس (لحارة باب السوق) ،.

الشيخ أحمد النابلسي (لحارة الجسر الأبيض) .

الشيخ عبد المجيد السقطي (لحارة أبي جرش) .

الشيخ محمد الطشطي (لحارة الحلاّلات والجبل) وغيرهم .

. . .

المدارس الرسمية :

أما المدارس الرسمية فكانت مدرسة (جامع الجديد) ومركزها محلة الشركسية في الصالحية، وكانت للأكراد وأهل الصالحية جميعهم وحارة المهاجرين حتى جسر الأبيض ، لا يوجد غيرها ، وقد تعلّمت فيها بعد أن تنقلّت من الحجَوات إلى الشيوخ ، منهم الشيخ فارس والشيخ عبدُه الأصْفَر ، والشيخ أحمد النابلسي (رحمهم الله جميعاً) ، ولاقيت بعض ما لاقى غيري المقيم على إرشادهم ، فما كنت أقيم عند

واحد أكثر من أسبوع أو أسابيع حتّى أبادر إلى العصيان عن الذهاب ولولا معرفة والدي البسيطة في النواحي العلمية ، لتفهمت كل ما خفي عني من أعمال أولئك الشيوخ ، ولكان نزل بي مثلما كان ينزل بالباقين ، ولكن المولى تعالى حمانا منهم .

فمدرسة (الجديد) لها أستاذان أحدهما الأستاذ الأول ، والثاني (خُجَـا ثاني) كما يسمونه والأول عجوز جداً من أتراك البوسنة والهرسك ، والثاني من صالحية دمشق ، ويدرب الصغار ، كما يدرب الأول كبار الطلاب ، وكانت على ست مراحل أو صفوف ، فالصف السادس للمبتدئين الأطفال . والخامس لمن يحسنون الإلمام بقليل من القراءة ، والرابع والثالث والثاني والأول ، وهذا أعلى الصفوف منه يتخرج الطالب ويأخذ الشهادة ، ويكفي أن تعلم بأن المطلوب من الناجح في الصف الأخير هو أن يحسن مبادىء القراءة بدون وضع حركات على الحروف ويسمّى (التشكيل) وسنبحث عن التشكيل . ثم الأعمال الأربعة من الحساب ، ثم مبادىء الجغرافيا (العوارض الطبيعية) تعاريفها فقط .وهنا ينبغي أن تقسم ما بين تعاليم الألف إلى تعاليم هذه الأمور البسيطة على ست سنوات حتّى ينال الشهادة بها .. ! !

يدخل الصغير إلى الصف السادس (لأن الترتيب كان معكوساً) ومعه اللوح ١ والقلم فقط فيكتب (الخَجا ثاني) أي المعلّم الثاني ، له عليه هذه العبارة : « الدرس الأول الصورة الأصلية في الحروف » ويكلفه أن يرسم مثلها من أولها إلى آخرها على اللوح حتّى يمتلىء اللوح

---

(١) كانت الألواح المستعملة من نوع الفخار الأسود ، أو الخزف الأبيض ، يكتب عليها بالفحم الأبيض أو الأسود .

فيعرضها على المعلّم فيمحوها ثم يأمره بإعادتها مرات معيّنة ، وهكذا من الصباح إلى المساء ما خلا فترات الفرصة في النهار (فَسَايْدُوس) كما كانوا يسمّونه منحوتاً من كلمة تركية وفارسية (بايْدُوس) (بمعنى إطلاق الرجل أو قضاء الحاجات ، أو حرية الانطلاق والسير) ، وبتوالي الكتابة مع قراءتها أثناء الكتابة تنطبع أشكال كلماتها في ذهن الطالب ، فإذا انتهى من معرفتها وحسن كتابتها بعد مرور شهور طويلة على استمراره ، بدأ يكتب له حروف (ألِفْباء) الأصلية خمسة خمسة ويطلب منه إملاء اللوح منها طول النهار حتّى ينتهي من معرفتها فتنقضي السنة الأولى ويترفّع إلى الثانية أي الصف الخامس ، فيتقن بقية أشكال (ألفباء) كتابة مع بعض التراكيب والعبارة القصيرة ، وتنقضي السنة الثانية ويرفّع للصف الرابع فيمرَّن على كتابة الكلمات المؤلفة من حرفين أحدهما مشدّدٌ أو منوَّن ، ثم على ثلاثة أحرف ويطلب كرّاساً أشبه بكرّاس (الصَّبّرَة) العائد لمدارس الشيوخ ، ويحوي على عدّة صفحات مشحونة بأنواع حروف (ألِفْباء) منصوبة ومخفوضة ومرفوعة « أَ ، إ ، أُ ، آ ، إي ، أو ، بَ ، بِ ، بُ ، با ، بي ، بو ، تَ ، تِ ، تُ ، تا ، تي ، تو » وهكذا إلى آخر ألفباء .

ثم : « أً ، إٍ ، أٌ ، باً ، بٍ ، بٌ ، تاً ، تٍ ، تٌ » ثم : « أبّ ، إبّ ، أُبّ ، أبّاً ، إبٍ ، أُبٌّ » .

ثم كلمات مركبة على حرفين على هذا النحو حتّى تتم سائر الحروف الأصلية والحروف الأولية والوسطى وحروف الآخر ،

ثم يعقب ذلك كلمات مؤلفة من ثلاثة أحرف فأكثر . ويكلف الطالب أن يحفظ ذلك غيباً . ويتخلل ذلك التعليم في المصاحف . وكتابة الوظائف ، وإملاء تلك المحفوظات على الألواح الحجرية الخاصة بالطلاب . وكان محتماً على الطالب أن يستصحب معه لوحاً وقلماً ومبرداً ، والمصحف الشريف فيجعل جميع ذلك في كيس معلق في عنقه يتدلى على خاصرته اليمنى ، وباليد اليسرى (زوّادة) طعام الطالب وهكذا يأتي إلى المدرسة ، فإذا كان [1] وقت الظهر أسرع الآذن ففرش (القلع) [2] من القماش الأبيض على الأرض فيجلس عليه الطلاب ويأكلون فإذا انتهوا رفعه الآذن وضمّ لنفسه فضل الطعام ، وانتهى ، فيدخل الطلاب إلى الجامع ويؤدون فريضة الظهر جماعة ثم يرجعون إلى الدرس .

يمرّ التدريس على هذا الشكل حتى يبلغ الطالب الصف الأعلى الأخير وهو الأول وعندها يبدأ أستاذ الصف الأول بتعليمه مبادىء التجويد حفظاً (استظهاراً) ومبادىء العقائد الدينية ، وبعض دروس الإملاء على اللوح الخشبي ، وبعض مبادىء الجغرافيا على الشكل الآتي :

بعض أمثلة يطلب حفظها من الطلاب على غير فهم ، وهي باللسان التركي ومطلوب حفظه بدون فهم من الطالب :

---

(١) الأصل : « كانت » سهو .

(٢) القلع : الشراع وهو معروف ، نوع من القماش الأبيض السميك والقوي وهو « كالسماط » ، كان يستعمل للجلوس عليه لتناول الطعام ، أو في النزهات (السيران) وغير ذلك .

في التجويد :

س : علم تجويد نه يه ديرلر ؟ [ماذا يعني علم التجويد ؟][1]

ج : . . . .

س : ق قاج قسمدر ؟ [ماهو مقدار القسمة ؟]

ج : . . . .

س : إخفاء وإظهار نه يه ديرلر ؟ [ماذا يعني الإخفاء والإظهار ؟]

ج : . . . .

س : إقلاب نه يه ديرلر ؟ [ماذا يعني الإقلاب ؟]

في الجغرافيا :

س : جغرافيا نه يه ديرلر ؟ [ماذا يعني علم الجغرافيا ؟]

ج : . . . .

ج : أرض قاج قسمدر ؟ [إلى كم قسم تقسم الأرض ؟]

ج : . . . .

س : بر عتيق وبر جديد نه يه ديرلر ؟ [ما هو البر « الأرض » العتيق والبر الجديد ؟]

ج : . . . .

. . .

(1) مابين المعقوفين وضعنا ترجمة بالعربية لهذه الاسئلة .

في العقائـــد :

س : مخاوقاتي يارادان كيمدر ؟ [من الذي خلق المخلوقات]

ج : . . . .

س : بيغمبر مزافندمز حضرتلري كيمدر ؟ [من هو سيدنا النبي]

ج : . . . .

س : قرآن كريمده ذكر اولنان مرسل بيغمبر كرْصَايْسي قاج كيشيدَر ؟ [ما هو عدد الأنبياء المذكورين في القرآن الكريم]

ج : . . . .

س : أركان إسلام قاجدر ؟ [ما هي أركان الإسلام ؟]

ج : . . . .

. .

في الحساب :

س : دجمع نه يه ديرلر ؟ [ماذا يعني الجمع ؟]

ج : . . . .

س : طرح نه يه ديرلر ؟ [ماذا يعني الطرح ؟]

ج : . . . .

س : ضرب نه يه ديرلر ؟ [ماذا يعني الضرب ؟]

ج : . . . .

س : تقسيم نصل أولور ؟ [كيف تكون القسمة ؟]

ج : . . . .

س : ضرب جدولي نه يه ديرلر ؟ [ما هو جدول الضرب ؟]

ج : . . . .

س : بش كره بش [خمسة ضرب خمسة]

ج : . . . .

س : طقوز كره طقوز [تسعة ضرب تسعة]

ج : . . . .

وأما الإملاء فيكلف المعلم طالباً للوقوف على اللوح الخشبي الكبير ويملي عليه بعض العبارات ويصحح له أخطاءها .

وأما القرآن الكريم فيتلو المعلم ما تيسر على مسمع من الطلاب والمصاحف أمامهم يتتبعون قراءته ، ثم يأمر أحدهم فيقرأ مكرراً ما قرأه المعلم .

على مثل هذه الأساليب السخيفة كانوا يدرِّسون الطلاب ، ويبددون أيام السنة فيخرج الطالب كالببغاء مستظهراً كثيراً من القطع بالتركي والعربي وينهي دراسة الست سنوات ولا يستطيع الانفراد بقراءة أو بإملاء بسيطة ، فينال شهادة الابتدائي ويذهب إلى مدرسة (عنبر) الإعدادية ويسجل في الصف الأول منها (وهو صف المبتدئين على عكس ترتيب المدرسة الابتدائية) .

وقلنا بأن الصالحية بسائر أحيائها الكبرى : أكراد ، صوالحة ، مهاجرين ، جسر الأبيض، لم يكن بها غير هذه المدرسة ، ومع ذلك فما كان يزيد طلابها على المائة ، وأنّها خالية من الحجرات ، ولم يكن فيها سوى حجرة وفيها قبران يلتفّ الصغار حول هذين القبرين جلوساً

على أكياس ممزقة أو بسط قديمة لم يبق فيها رمق ، مفروشة على الأرض . والمعلم (الخوجة الثاني) يجلس على كنار ١ الشباك (نافذة كبيرة) يطلّ منها على بقية الصفوف ما خلا الصفّ الأول الأعلى فيراقبه (خوجا أول) أي المعلّم الأول . أما بقية الصفوف فقد كان لهم مقاعد (على الشكل الحالي) يجلسون عليها ، وفي الشتاء مدفأة واحدة أمام الخوجة تكفي لجميع المدرسة .

. . .

مدارس البنات :

أما مدارس البنات فقد كانت في عالم الخيال ، فلم تكن سوى مدرسة واحدة في حارة (المارستان) بدمشق ومنها كان يتخرج الطالبات ، فأسلوب التدريس المشوش باللسان التركي واللسان العربي وما يرافق ذلك من جهالة المعلمين وصعوبة تفهّم الطلاب معاني ما يُملى عليهم كل ذلك كان باعثاً على خوف الطلاب وفرارهم من المدارس ، أو خروجهم منها بشهادة صورية وهم على غير علم أو فهم من كل ما مرّ عليهم من الدروس ، ناهيك عن جهالة المعلمين ، وفرط تعذيبهم الطلاب بالضرب المؤلم ، لأسباب تافهة ، كالتفاتهم يمنة أو يسرة أو ظهور التململ أو التثاؤب ، وأمثال تلك الحالات الطبيعية التي كان الباعث إليها جهل المعلمين وسوء إدارتهم وأساليبهم التدريسية .

---

(١) الكنار : (عامية فارسية) : حاشية الثوب .وهي هنا حاشية أو طرف النافذة. (انظر المحيط كنر)

ولم يكن حظ مدرستيْ دمشق الابتدائيتين الأخريين وحظ طلابهما [1] بأوفر من حظ هذه المدرسة ، اللّهم إلا من ناحية جلوس الطلاب المنظم ووجود بعض معلمين يغارون على الطلاب بسائق العاطفة الدينية فقط ، وقرب تلك المدارس من مفتشي المعارف [2] ودوائر الدولة ، ربّما كانت أرقى قليلاً ، مع وحدة المواد الدراسية في جميعها .

. . .

مدرسة عنبر[3] :

أما مدرسة عنبر فقد كانت ملتقى الثقافات المكتسبة من هذه المدارس بقلب المدينة ، وما يرد إليها من طلاب بقية الأنحاء العربية والتركية كالطلاب القادمين إلى دمشق مع والدهم المنقول إليها بسائق الوظيفة ، لذلك كان التباين في سويّة الطلاب العلمية بارزاً ، وبما أنها كانت الوحيدة في دمشق ، ويتقاطر إليها الطلاب وبينهم الحوراني والحلبي والحمصي والأناضولي والبلقاني والشركسي والكردي والأرناؤوطي ، فكانت صفوف المدرسة غاصّة بالطلاب لذلك كان من الصعب جداً أن يقبل الطالب، بداعي فقدان المحل ، إلا إذا كانت لوالده صلة مع

(١) في الأصل : « طلابهم » سهو .

(٢) (وزارة المعارف) ثم أصبح اسمها « وزارة التربية والتعليم » أما الآن فهي « وزارة التربية » .

(٣) كانت مدرسة حكومية تسمى « مدرسة التجهيز والمعلمين » ، وهي بالأصل دار خاصة في شرقي المدينة لغني يهودي اسمه (عنبر) فوقعت في ملك الحكومة العثمانية لدين كان لها على صاحبها وجعلت مدرسة إعدادية سنة ١٣٠٤ هـ (أما الآن فهي مدرسة حكومية « للفنون النسوية » (محمد كرد علي – خطط الشام – ج٦ – ص ١٠٠)

أحد معلميها كما لو كان والد الطالب سماناً أو قصاباً أو بائع الخضر أو جاراً ، وعند[ها] يستطيع الدخول فيها والانتظام في عداد طلابها بدون مشقّة وعناء طويل .

وفي هذه المدرسة تسعة صفوف وفيها القسم (١) الليلي (داخلي) للطلاب الأغنياء القادمين من أنحاء سورية أو البلاد البعيدة ، أو طبقة الفقراء بعد التحقق من فقرهم ووجود شاغر لهم بين الأسرة في المدرسة .

والأساتذة أتراك على الإطلاق ما خلا معلّم العربي والعلوم الدينية وبعض المعيدين ، فكان هؤلاء من أبناء العرب أو ممن يحسنون التكلم بالعربية العامة ، ومع ذلك فكان تدريس العربي والعلوم الدينية باللغة التركية أيضاً ، فلو أتيح للقارىء أن يرجع بخياله فيرى حلماً جامعاً لحقائق ما كان يجري في هذه المدرسة من أساليب النظام والتعليم ، لأفاق واستيقظ على خوف وارتعاش مطّرحاً العلم والتعلم جانباً وفضّل أن يعيش بقية حياته جاهلاً ، في مثل هذه الصعوبات ، وفي مثل تلك الأساليب الوعرة ، كان الطالب الدمشقي يمشي ويقع ويتحمل أنواع الظلم والإرهاق ويسير بثبات على تضاريسها متذرعاً بالأناة والرجولة والصبر حتى يجتازها وينال شهادتها العلمية ، فيخرج منها بكبرياء وعظمة وتيه ويتهادى مفاخراً بين بقية إخوانه الذين لا يزالون في الدراسة ، ويرفع رأسه عالياً ويشمخ بأنفه عليه ويدعو أهله وعارفيه إلى تقديره واحترامه ، وما كان ذلك إلا نتيجة لما تحمله في سني الدراسة من عناء وألم .

* * *

(١) في الأصل : « قسم » .

المدارس العسكرية :

كان معظم طلاب المدارس العسكرية من أبناء العسكريين في ذلك الحين وبنسبة (٩٠٪) بالماية ، والباقي فممن لهم صلة معرفة مع إدارة المدرسة العسكرية ، فمن أتمّ دراسة (الجقمقية) ١ مثلاً من المدارس الابتدائية المدنية ولوالده اتصال ما يساعده على دخول (المدرسة الرشدية العسكرية) يدخلها بدون عناء يذكر ، وكانت ستة صفوف ، قسم من طلابها داخليون وهؤلاء من كان آباؤهم في الجندية بعيداً عن دمشق في مرتبات وحدة عسكرية بعيدة عن سوريا ، فيأكلون وينامون مع طلاب القسم الإعدادي .

فإذا أتم الطالب الدراسة فيها دخل القسم الإعدادي طالباً داخلياً يدرس ويأكل وينام فيها ، ومدتها ثلاث سنوات ، فإذا أتمها دخل المدرسة الحربية ومدتها ثلاث سنوات أيضاً ، وقد كان لكل مركز جيش مدرسة حربية عسكرية ثم ألغيت ثم عادت ثم ألغيت نهائياً قبيل الحرب العامة ، فإذا أتمّ الطالب الدراسة الإعدادية ذهب إلى الآستانة فدخل في مدرستها الحربية فإن كان من المجلّين ترقى إلى رتبة ملازم ضابط ودخل مدرسة الأركان ومدتها ثلاث سنوات أيضاً .

. . .

المدارس الأهلية :

إن الأوضاع التي ألمعنا إليها في المدارس التركية دعت أرباب

(١) هي المدرسة الجقمقية ، انظرها في الكشاف الملحق بآخر الكتاب .

الغيرة واليسار على تأسيس مدارس أهلية ، ومنها المدرسة [١] العثمانية والمدرسة التجارية ، والعلمية الوطنية ، ومدرسة الإسعاف الخيري .

فهذه المدارس كانت تعنى باللغة العربية وتلقن مبادىء العلوم بلغة البلاد ، لذلك كان طلابها يمتازون على طلاب المدارس الأخرى ، غير أن شهاداتها لم تكن معتبرة من قبل الحكومة المحلية ، وإن اللغة التركية كانت درساً كباقي الدروس ليس له أدنى امتياز فيها ، إلى جانب اللغة الإفرنسية ، فكان الناشىء العربي يتعلم دروسه وينقصه معرفة اللغة التركية معرفة تساعده على تفهم الدروس فيما لو انتقل إلى المدارس الحكومية ، ثم إن المدارس الأهلية كان لها طابع ديني وطابع قومي ، وثالث أخلاقي تمتاز بها على مدارس الحكومة ، فالطابع الديني يفرض على الطالب التمكّن من الدروس الدينية بشكل بارز بالنسبة لذلك الظرف ، كذلك الطابع القومي كان يتجلى في تدريس التاريخ العربي وماضي العرب إلى جانب العلوم العربية فكان الطالب شعلة حماس لقومه وبلده .

دخلتُ هذه المدرسة بعد أن تخليّت عن مدرسة (جامع الجديد) في الصالحية ، ومكثت فيها أربع سنوات ثم رحلت عنها إلى مدرسة (عَنْبَر) المار ذكرها فاستطعت أن أدخل في صفوفها الإعدادية بدون عناء بالنسبة للسويّة العلمية التي كان عليها طلاب مدرسة (عَنْبَر) .

. . .

(١) انظر هذه المدارس في الكشاف الملحق بالكتاب .

المدرسة العثمانية :

وكانت المدرسة العثمانية تبذل غيرة وجهداً في تثقيف الطالب وتختار لمدرستها أجلّ الأساتذة وأفضلهم ، ومع ذلك فما كانت لتتخلص من بعض العيوب والمثالب ، من ذلك أن تدريس الصرف العربي كان يجري على أصول قديم وعقيم ، والذي كان يدرسه مدير المدرسة نفسه الشيخ كامل القصاب ، فكان يكلفنا لحفظ (البناء) بشكل استظهار « اعلم أن أبواب التصريف هي (1) خمسة وثلاثون باباً ستة منها للثلاثي المجرد . . . . . » وهكذا على هذا الشكل إلى نهايته دون فهم ، وكان الذي لا يتقن استظهاره حرفياً معرضاً للخيزرانة المهيأة تحت إبطه وهو يسمع لأفراد الصف واحداً واحداً ، فالطالب كان يقرأ هذا المطلوب وينظر بعين الشيخ كامل التي كان يتطاير منها الشرّ والشرر عابس الوجه ، والعصا تحت إبطه وكتاب الصرف بيده يتتبع ما نقرأ ، فإذا أخطأ أو تلعثم أو توقف قامت الخيزرانة بنشاطها الكامل من الأستاذ الكامل .

ومما يلفت النظر أن الشيخ ما كان يستعمل الضرب لتوجيه الطالب ، إنما كان يستعمله كنتيجة لعراك كان قائماً بينه وبين زوجته أو أحد الناس أو أمر آخر ، فيعود يتمم عراكه مع الطالب المخطىء فينهال عليه حتى يشفي غليله منه ، وكان أحياناً لا يكتفي بضرب الرجلين بدون أُدْم بل يجعل عليها الماء أُدْماً وينزل بكل قواه فيصل أحياناً إلى العشرين ضرباً أو أكثر .

---

(1) الأصل : « هم » خطأ .

وهذا منتهى الهمجية والجهالة التي كانت عليها المدارس الأهلية إلى جانب فوائدها ، فأسلوب التعليم والتوجيه كان مفقوداً تماماً . على أن هذه العقوبات كان يجريها في الفرصة الكبرى ، وعند غياب أكثر الأساتذة المشهورين ، في ذلك الحين ، وربّما كان ذلك خوفاً من تعييبهم على الإفراط بالضرب والتعذيب الذي كان يفرضه على الصغار .

وكانت مدرسته تحوي طائفة ممتازة من الأساتذة : فكان الدكتور شهبندر (١) للخطابة ، والدكتور أسعد الحكيم للتمثيل ، والشهيد الأمير عارف الشهابي للتاريخ العربي ، والشهيد عبد الوهاب الإنكليز[ي] للجغرافيا ، والأستاذ سليم الجندي للنحو ، والشيخ كامل نفسه للصرف ، وخير الدين الزركلي للانشاء ، والشيخ محمد الحلواني للقرآن الكريم ، ورشيد بقدونس للرياضيات ، والملازم أحمد البقاعي للتركي . والملازم بهاء الدين البخاري للتركي أيضاً ، وعلي الجزائري للافرنسي ، ثم استبدل هؤلاء بطائفة من تلاميذ المدرسة نفسها خوفاً من المفتشين الأتراك .

إن الدروس في بادىء الأمر كانت تسير بانتظام ولكنها تدنت فيما بعد فانصرف عنها كثير من االطلاب إلى المدارس الحكومية وكنت ممن انصرف .

ثم إن هنالك مدارس أخرى تأتي بالدرجة الثانية بين المدارس الأهلية كالمدرسة الريحانية ، والمدرسة الأمينية . ومدرسة الحبّالين ، ولكنها لم تكن في ترتيب المدارس الأهلية التي نوهنا بها . وكانت

---

(١) انظر التعريف بهؤلاء الأعلام في الكشاف الملحق بهذا الكتاب .

دونها في التدريس والعناية ، وفوق المدارس القرآنية والحجرات النسائية .

هذا كان شأن المدارس بدمشق وهي اليوم تغص بالمدارس والطلاب ، ففي حي الأكراد من محلة الصالحية ثلاثة مدارس للذكور ومثلها للإناث ،وفي الصالحية (سوق الجمعة والشركسية) أربعة للذكور ومثلها للإناث ، وفي قسم المهاجرين خمسة للذكور ومثلها للإناث ، وهذا عدا عن المدارس الأهلية وبعض الكتاتيب القرآنية التي لاتزال بقية ما منها موجودة تنحل شيئاً فشيئاً سائرة إلى العدم ، بينما كان في عهدنا لايوجد سوى مدرسة واحدة تحوي مئة طالب — واليوم مدارس كثيرة تحوي آلاف الطلاّب والطالبات .

وما يقال عن الصالحية ومدارسها الرسمية الآن يقال عن بقية أنحاء دمشق وقراها ، فضلاً عن المدارس الجامعية الكبرى وفروعها ، ومدارس تعليم الأميين نساءً ورجالاً وأطفالاً ليلاً ، والمدارس الأجنبية الأهلية والتابعة لحكومات أجنبية ، أو عناصر محلية أخرى ، والبعثات العلمية إلى بلاد العلم والثقافة في أوربا وأميركا للدراسة والتخصص بمختلف العلوم والفنون والآداب .

* * *

الثقافة بصورة عامة :

كانت تسوية العلم والثقافة ثابتة على الخط الأول من مدارج الحضارة ، ماخلا العلوم الدينية والعربية فقد كان الاهتمام بها عظيماً لذلك كانت دمشق دوماً المجلية في صنع رجال الدين واللغة ، ففي كل حيّ من أحيائها علماء فقهاء مدرسون ولكن على أصول الوعظ والحلقات كما ذكرنا . وأما القراءة والكتابة فكانت نادرة بين الناس ، فمن كان له مسافراً يراسله ، يأتي بالرسالة ليبحث عمن يقرأها له ، لأن شيوخ المكاتب القرآنية لايحسنون إلا قراءة الأسلوب في كتابة القرآن الكريم أما الكتابة الرسمية فكانوا يجهلونها .

وإن من أستطاع الإفلات من المدارس الحكومية بنصيب قليل من الكتابة والقراءة يذهب فوراً ليكون كاتباً لأحد تجار البزورية (تجار سكاكر ومال قبّان) ، ولاجل أن يظهر نفسه بين الناس أنه كاتب قارىء ، كان يضع القلم على أذنه ويضع الدواة المصنوعة من النحاس وكانت أسطوانة طويلة يحفظ بها الأقلام ، وفي القسم الأعلى منها المحبرة ثابتة في تلك الأسطوانة المعدنية ، فيُدخلها في محزمه (١) من الأمام ، فيبرز أسفلها ويبقى أعلاها وفيه المحبرة ، ويمشي عرضاً في الأسـواق وبين الناس يتباهى بمعرفة الكتابة والقراءة .

ومن النوادر المشهورة لشيوخ المكاتب القرآنية مايروونه عنهم

---

(١) المحزم : ما يشد به وسط الإنسان (المشد) ويسمى أيضاً (الكمر) وهي نسج من الصوف والغزل ذات طاقين طويلين تشد على الخصور ، ولا تزال لباس الوطنيين الذين لم يتأثروا بالألبسة الأجنبية .

(انظر المنجد – حزم) و (محمد كرد علي – خطط الشام – ج٤ – ص ٢٠٣)

من النوادر تندراً فيما كانوا عليه ، بأن امرأة تلقت من زوجهارسالة يقول لها فيها « إنه بخير وأنه جمع كمية من المال وسيحضر إلى دمشق مع إحدى القوافل قريباً » فأخذت الرسالة واتجهت إلى شيخ المكتب الذي يدرس فيه طفلها وقالت له : « دَخيلْتَلْك ياشيخي اقَرألِي شُوفي شُومَافِي هذا المكَتْوب ورَد لي من زوجي » فأخذ الظرف وفتحه وأخرج الكتاب وراح يتأمل به ويتمتم ويهز رأسه ويتعجب ويتأوّه ويتألم ، فوقعت أوضاعه وحركاته من نفس المرأة في مكان الريبة والخوف على زوجها أن يكون مصاباً بما يؤلم ، فقالت له « ياشِيخيْ قوليْ دَخيلْتلْك ، اقرأ ، مابالَكٌ تتحول وتَتَعجبّ هل حصلَ لزوجي عارض ، » فأخذ يتباكى ، وعندها أيقنت أن في الأمر حادثاً مؤلماً فقالت له :

« دخيلتك ياشيخي أريد أن (أولّوِلْ) (تصيح بالولولة على زوجها) فهل أولولَ ؟ » أجابها : « لاحول ولا قوة إلاّ بالله ، وَلْولِيْ ياأختي الله يَعينِكْ . » فأخذت الكتاب ومضت تولول في الأسواق وهي عائدة إلى دارها فاستوقفها الناس وهي في أشد البكاء ، والمكتوب بيدها فأدركوا أن حادثاً بلغها عن عزيز لها ، فتقدم أحدهم وقال لها : « أريني الكتاب » فإذا لاشيء فيه يكدر ، فقال : « ياأختي هل تبكين بسبب المكتوب أم بسبب آخر ؟» ، فقالت : «لاتعلم القراءة؟ إن المكتوب يخبر بوفاة زوجي » . فأقسم لها بالله بأن المكتوب لايحوي شيئاً من هذا ، ثم قرأه لها وأفهمها فكفكفت وعادت إلى الشيخ وبيدها حذاءها لتنال من لحيته قطعاً ترقعه بها وتشفي غليلها من كذبه وتدجيله وجهالته .

ومن الناس من كان ينتقل من قرية لأخرى أو من حيّ إلى حيّ باحثاً عمن يقرأ أو يكتب له رسالة أو سنداً ، وهكذا كانت دمشق غارقة في حمأة الجهالة الجهلاء زمناً غير يسير .

لذلك كان الذي يدخل سراي الحكومة موظفاً فيها كان يتباهى به أهله عند سؤال الناس عن عمله ، فيقولون : « إنه في السراي ، إنه موظف » أو من كان يعود لبلاده من المدرسة الحربية وعلى جانبيه يتنقل السيف الطويل المدلى وعلى أكتافه الشارات المذهبة وعلى أكمامه مثلها ، والناس يهابونه ويفخر به حتى أبناء حيّه ممن لاصلة قرابة بينه وبينهم .

* * *

ذكرنا بالأبحاث السابقة كيف كان أهالي دمشق يقسمون أيام الربيع على أيام الأسابيع ، ويجعلون لكل مكان يوماً معيناً للنزهات ، وهنا نذكر جانباً من وصف تلك النزهات ، على حسب شخصية الناس في ذلك العهد .

أما الشيوخ (أرباب الكسوة والعلمية) ١ فإن مواضع نزهاتهم غير محدودة ، فتراهم دوماً يلتمسون الأمكنة الهادئة من ضوضاء الناس واجتماعاتهم ، وغالباً تبدأ نزهاتهم عقب صلاة الفجر ، فيأخذون سَمَاوَر ٢ الشاي ومتعلقاته وبعض مايصلح للصبوح من جبن وزيتون

---

(١) أرباب الكسوة والعلمية : الكسوة : نوعان : الكسوة العلمية : كان الأتراك قد اصطلحوا على أن أهل العلم وخاصة الموظفين منهم ان يضعوا العمامة البيضاء على الطربوش وأما الأشخاص المتعلمين العلوم الشرعية والذين ليس لهم وظيفة ويعملون بالأعمال الحرة كالتجار مثلا فكانوا يلبسون عمامة تسمى بـ « الأغباني » المطرز على الطربوش الأحمر ، وفي عهد الشيشكلي : ألغى الطربوش الأحمر وبدله بالطاقية البيضاء توضع عليها الشاشة البيضاء بشرط أن يكون حاملها مثقفاً ثقافة دينية بشهادة رسمية .

أما الأشراف : فكانت علامتهم المميزة أنهم يضعون على الطاقية شاشة خضراء اللون على أن وظيفة نقابة الأشراف قد ألغيت بقرار حكومي مؤخراً سنة ١٩٥٢ ، ولم يبق من حاجة للاعتمام بالعمامة الخضراء أو غيرها ، وكان قبل ذلك قد صدر قرار في عهد حسني الزعيم بالغاء الطرق الدينية (سنة ١٩٥٠) مع كسوتها وطقوسها لمخالفتها لأحكام الدين الذي لايفرق بين مسلم ومسلم .

(٢) وعاء من النحاس بيضوي الشكل يوجد فراغ في وسطه لوضع الفحم لغلي الماء كما يوجد في أعلاه مدخنة وفي أسفله صنبور (حنفية) للماء الغالي الذي يضاف إليه الشاي .

وبعض كتب السير أو كتاب فقه ، فإن اختاروا محلاً قريباً من المدينة ، فعلى ضفاف قناة المزة مما يلي بردى يحطون رحالهم ، وترى النشاط بارزاً فيمن يهيء السّمَاوَر ، ويغسل الأقداح ، وآخر يجمع كسارة بعض الأخشاب والأحطاب وآخر يصلي ركعتين نفلاً لله تعالى العظيم ، وآخر يستعد ليصلّي الضحى ، وذاك يردد بعض الأناشيد النبوية ، وآخر مستغرق في مطالعة الكتاب حتى ينتهي طبخ الشاي ويصب بالأقداح وتدور الكؤوس على الأفواه ويبدأ تمزيق الخبز ، وهم أثناء ذلك في كلام وسير متواصلة بحيث يستغرق صبوحهم ساعة رملية (1) كاملة ، وبعد ذلك يصلّون ركعتين شكراً لنعم الله تعالى ، وتبدأ محادثاتهم عن مناظر الوادي والماء والأشجار الملتفة حولهم ، ويدخّن المولعون بالدخان (2) وتمضي على هذا الوضع ساعة تقريباً ، ويعقب ذلك دور القراءة ، فيفتح أحدهم أو رئيسهم الشيخ الأسنّ كتاب الفقه ، أو كتاباً دينياً (3) آخر ، وبعد البسملة والحمدلة والصلوات ، وقراءة الفاتحة إلى أرواح المشايخ والمسلمين يبدأ هكذا : قال المصنف رحمه الله تعالى (ويعني بذلك مصنف الكتاب) ثم يثابر هكذا : « بعد أن بحث أنواع المياه المطهرة فذكر الطاهر بذاته والمطهر . . . . » ويلخص البحث الماضي ، وأكواب الشاي تدور على الأفواه ، ويثابر قائلاً :

---

(1) آلة من الزجاج لقياس الوقت ، تتكون من انتفاخين يتصل أحدهما بالآخر برقبة ضيقة ، ويملأ الانتفاخ العلوي برمل ناعم ، فيمر من خلال الرقبة الضيقة إلى الانتفاخ الآخر ، وعند خلوه تكون قد مرت ساعة . استعملت في العصور القديمة ، لكن تاريخ اختراعها غير معروف ، وكانت معروفة في دمشق . (الموسوعة العربية الميسرة ، ص ٩٤٤) .

(2) انظر ص ٨٦ و ٧٧ .

(3) في الأصل : « كتاب ديني » .

« وهنا المصنف رحمه الله تعالى شرع ببحث فروض الصلاة وشروطها وأركانها وعدد الركعات والنوافل والسنن المؤكدة وغير المؤكدة فقال رحمه الله تعالى بأن الصلوات المفروضة هي . . . . » ويبادر إلى شرح ذلك مقدار ساعة وهنا تبدأ الأسئلة والمناقشة عن دخول الوقت (وقت الصلاة) ومتى يبتدىء وأقوال بعض المجتهدين وينتهي الحديث بقراءة الفاتحة إلى روح المصنف ومشايخهم وللمسلمين ، فيبادرون إلى جمع أشيائهم ويتدرجون (1) نحو المدينة ، وينتهي بذلك السيْران ، ويضرب المثل بهم فيقال: « سيْران المشايخ ثلثاه استنجاء » وإن كان سيرانهم إلى مكان بعيد فيختلف وضعهم بين مايكون الطعام معهم مطبوخاً أو غير مطبوخ ، حيث ينفرد بعضهم ممن يجيدون الطهي والبعض الآخر يتلهى عن الجوع انتظاراً لنضوج الطعام ببعض الأناشيد النبوية مجتمعين ، أو بتبادل أقداح الشاي وبعض النكات المحببة لديهم ، فإذا طعموا قاموا إلى الوضوء والصلاة ، فنام من شاء وانصرف البعض إلى طرح الأحاجي والحزازير (2) والمعمّيات من الأشعار الغريبة والمبادهة بالأبيات المتجانسة ، ويتساءلون عن معانيها ، مثال ذلك :

طَرَقْتُ البابَ حتّى كلَّ متْني
فَلمّا كلَّ مَتْني كلّمتني

فيتعلّمها من لم يسبق له سماعها ، ثم : « زيدٌ كريمٍ » ، ويتساءلون

(1) تدرج : تقدم شيئاً فشيئاً . والمقصود : أنهم يعودون في الطريق التي جاؤوا منها ببطء .

(2) مفردها : الحزورة ، وهي الأحجية ، والكلمة عامية (انظر المنجد) .

عن الخفض بكلمة « كريمٍ » . ثم (واو) كلمة « داود » وقصتها عن عامل مصر ، والإجابة بسرقة (الواو) من اسمه . ثم عن الحكمة في مثال « ضرب زيد عمراً » وأسباب الضربة تلك السرقة التي ارتكبها (عمرو) بأخذ (واو) داود ، وهكذا ثم :

سَلْ مالِسلْمَى بِنَارِ الهَجْرِ تَكْوِيني
وحُبُّها بالحَشَا مِنْ قَبْل تَكْوِيني

وبحث الجناس التام بهذا المعنى ، حتى تقام صلاة العصر فيهرعون للوضوء ويصلّون ، ويعودون للشاي ويتطارحون الأبيات وضرب الأمثال قليلاً ثم يعودون إلى قول (المصنف رحمه الله تعالى) فيقرأون بعضاً من الفقه . ومتى قاربت صلاة المغرب قاموا إلى الصلاة ، وانفلتوا عنها إلى مابقي من الطعام ، فإذا كان الوقت مقمراً جددوا الشاي وشربوا وصلّوا العشاء وعادوا سيراً على الأقدام إلى دمشق ، منشدين الأناشيد النبوية أيضاً ليقطعوا بذلك مشاق الطريق حتى يصلوا المدينة ويتفرقوا على دورهم .

من المشايخ من يقطع المسافات البعيدة قصد النزهة مشياً على الأقدام مفضلين ذلك عن ركوب القطار وهو الواسطة الوحيدة في ذلك العهد ، أو أنهم يركبون الحمير (الركاب البيضاء) ١ المار ذكرها في موضعها ، وهكذا يفعلون .

. . .

(١) انظر ص ٣٥ : وكان من الحمير : الهيلبية والقبرصية والقروية ، والأبيض منها كان يسمى : « البرذون » (نجاة قصاب حسن – مجلة العمران سنة ١٩٦٧ ، ص ٢١٢).

نزهات الشباب وطبقة العوام :

وهؤلاء يبحثون عن مكان فسيح في ضواحي المدينة قبل يوم أو يومين ويخرجون إلى تلك المروج مبكرين ، ومعهم حاجياتهم من طعام وأسباب التسلية ، فيأكلون ويتنعمون ويقيمون الألعاب المختلفة مثلاً (لعبة المقارع) [1] (المخاريق) فيتناول أحدهم المقرعة ويخبىء شيئاً معه ويسأل أحدهم عن مكان الخبيئة ، فيشير إلى أحد إخوانه [2] فإذا لم تكن لديه ضربه السائل بالمِقرعَة وسأل الثاني والثالث وهكذا حتى يعلم مكانها ، ربما قال المسؤول : إن الخبيئة عندك فإن كان كذلك تسلم المسؤول المقرعة وعاد فخبأ [ها] وبادر السؤال على النحو المذكور ، فإذا ملّوا منها اصطفوا حلقة كبرى جالسين القرفصاء ، وأخذ أحدهم بقجة [3] صغيرة أو شيئاً مثلها ودار حول الحلقة فوضعها خلف أحدهم ، فإذا انتبه هذا قام مسرعاً خلفه بها ووضعها خلسة وراء غيره ، فإذا انتبه الثالث لها فعل كالثاني ، وإلا إذا أدركه الثاني على هذه الصورة قبل الانتباه وجب أن يعلـــو ظهره حول هذه الحلقـــة .

ثم ألعاب أخرى كلعبة الأسير مثلاً ، ينقسمون إلى طائفتين متقابلتين على مسافة تختلف بالنسبة لسعة المساحة أو المرج ، فيتقدم أحدهم طالباً البراز بين الصفين فينزل إليه من الطائفة الثانية أحدهم ، ويتقدم إليه فإذا استطاع لمسه أخذه أسيراً ، وأوقفه إلى جانب فئته حتى

---

(١) مفردها : المقرعة : وهي السوط وكل ما قرعت به « وكانت تستعمل في دمشق مقارع قماشية » (انظر المنجد).

(٢) الأصل : « إخوانها » سهو .

(٣) انظر ص ٩٤ .

يسرع إليه أحد جماعته خلسة. فإذا لامسه فكّه وعاد به إلى جماعته. وهـــــكذا .

ثمّ لعبة القفز . فيتقـــدم أحدهم ويقفز ثلاث قفزات متتالية من مبدا معيّن . ويقفزه الباقون فيزيد به القافز الأول حتى يصبح في حالة لايستطيع أحدهم في دوره اجتيازها. وعندها يركع في مكان معين من المبدإ ويقفزون فوقه معتمدين بأكفهم على ظهره ، ويضعون في الشوط الثاني طاقية أو محرمة ١ على ظهر الراكع ، فإذا سقطت أثناء القفز ركع المسبب لسقوطها محل الراكع الأول ، وهكذا ... فإذا أمسى المساء جمعوا متاعهم وجاؤا إلى أحدهممن خفيفي الدم ٢ المضحكين ، فجعلوا على رأسه إكليلاً من الزهور كالعروس وإلى جانبه آخر كالعريس ، وراحوا يتظاهرون بالأهازيج حتى يصلوا المدينة ، وهنا إما أن يتفرقوا إلى دورهم أو أنهم أجمعوا سابقاً واتفقوا على أن ينزلوا بدار أحدهم حتى الانتهاء من السيران. فيواصلون سيران النهار بسهر الليـــل وبقيمون شتى الألعاب والأهازيج و**الدبكات** ٣ والرقص والنكات المستملحة حتى مطلع الفجر .

---

(١) وهي المنديل المعروف .

(٢) تطلق على الأشخاص المرحين محبي النكتة والسرور ، وهي (عامية) يقابلها « ثقيل الدم » أي الفظ المتجهم ..

(٣) مفردها : الدبكة : وهي نوع من الرقص الشعبي . ويختلف بين كل محافظة وأخرى ، في القطر ، إذ إن لكل منها طابعاً خاصاً يتلاءم والمؤثرات الاقتصادية والاجتماعية والطبيعية في المنطقة .

فمن الألعاب التي يقومون بها داخل الدار بعد عودتهم :

لعبة الخاتم : يمسك أحدهم الخاتم ويقلبه على ظاهر كفه فإن دخل في خنصره كان وزيراً ، وإن دخل في سبابته كان ملكاً ، فيحمل الوزير المقْرَعَة ، ويسير اللعب بالتتالي على أفراد تلك الحلقة يتناوبون الخاتم فمن سقط الخاتم عن يده ، بادر الوزير سائلاً الملك قائلا : « حرامي مامنه » وهذا اللفظ الغريب يريدون به السؤال من الملك عن مقدار مايستحق من العقوبة ، فيأمر الملك بالعفو عنه أو بضربه مقرعة أو اثنتين أو أكثر ويصفها للوزير (١) : « ضروب خفيفة أو بعضها خفيف وبعضها شديد ، أو ضروب شديدة قاعداً أو قائماً » ، ويحصل اللغط بينهم إذا أصابت المقرعة اليد أو لم تصبها فيضحكون ويتدافعون ضاحكين مسرورين .

ثم ينتقلون منها الى الاحاجي (حزازير) ، فيقول أحدهم مثلاً : «سِكّينة ذَهبية وراء الحائط مرمية لاصاغَها صائغٌ ولاسَرقَتهاحرَامية» فيتفكر الجميع بحلّ هذا اللغز ، فإذا صعب عليهم سألوا السائل: «هل هذا من المأكول أم من المنظور .» فيسّهل عليهم فيقول : «منظور» حتى يعرفوا اللغز ، فاذا لم يعرفوه ضرب بالمقرعة الحاضرين ضرباًضرباً وشرح لهم اللغز قائلاً : « إنها الشمس » .

ومن الحزازير المألوفة هي هذه : « طاسِهْ (٢) طَنْطَاسه بالبَحرَة غطّاسِه ، داخلها لؤلؤ ، وخارجها نحاسه . » يقصد منها « الرمانة » .

ثم « أربعة عَبيد راكبينْ قضيبْ كنْلما لاح الهوى لعبوا سوا » (باذنجان) .

---

(١) في الأصل : « يوصفها » .

(٢) وعاء لشرب الماء .

ثم « أحمر مطه بوسطك حطه (١) واصبر شوية يقطر ميه » ، (فوطة الحمام) .

ثم « بيت مسكر (٢) ماله باب . داخله أربعة شباب » (الجوزة)

ثم « قبة خضراء وداخلها عبيد ، والقفل بيد الله ، والمفتاح حديد » (بطيخة)

ثم « أحمر أصفر ماهو حرير ، محزم بخصره ماهو أمير ، كلمك بالتركي جعلك تبكي » (الزنبور) .

ثم « أصغر منك أركع أمك » (مكنسة) .

ثم « شيء ماتقدر تنام حتى تخرج رأسه » (دقر الباب) . وهلمجرا..

ثم من الألعاب الأخرى أيضاً في السمر .

لعبة الحج :

وهي أنهم يعمدون إلى أحد البلداء من بينهم ويكلفونه أن يحج ، وكيفية الحج هي أن يتقدم أحد الأقوياء منهم فيجعل ذلك الشخص على ظهره ويربط رجليه من الأمام كما يربط يديه من أمام صدر الرجل المركوب ، وبعد أن يربط ويلتصق به تماماً ، يمسك بكلتا يديه حذاء ، ويجلس الجميع بأطراف الغرفة فيبادر واحداً واحداً بالسؤال قائلاً :

السائـــل : أنا ذاهب إلى الحج هل تريدون توصيتي بشيء ؟

---

(١) حطه : كلمة عامية بمعنى « ضعه » .

(٢) مسكر : كلمة عامية بمعنى « مغلق » .

المسؤول : نعم طاسة مكّاوية ، وأرجوك أن لاتنسى .

السائـــل : أنا كيف أنسى وعقلي براسي (وهنا يوجّه الحذاء إلى رأس الراكب) .

ويكرر قائلاً عقلي براسي براسي براسي ،وليس عقلي في ظهري(وهنا يوجه الحذاء على كفل الراكب أيضاً)، وهكذا إلى أن تنتهي الحلقة ويكون الراكب قد استوفي نصيبه من ضربات الحذاء على رأسه و كفله وظهره.

ومن الألعاب أيضاً لعبة (عروستك) : فينفرد أحدهم إلى جانب ويتفق الجميع خفية على شيء معين بينهم، وعندما يعود يسألونه واحداً واحداً مُلْغِزين عن الشيء المقرر بينهم حتى يدركه ويعرفه تماماً ، فمثلاً لو كان المقرر بينهم المقصّ ، فيسأله أحدهم قائلاً : « عروستك بتقطع وبتلحُش » ، فيقول بدوره مثلاً : « سكين » يقولون له : « لا » يسأله الثانية ويقرب للفهم : « عروستك لها نابان طويلان » أو « عروستَك أذناها مُلتَصقَتان بفكيها » أو « عروستك صلبة مثل الحديد . » أو « عروستك لسانها بشطابين » ، فإذا عرفها قام مقام المسؤول الشخص الذي أوضح له فعرف ، وهكذا . . . . . ثم يقوم فيرقصون الدبكة ويغنون حتى الصباح . . .

وإذا اقترن سيرانهم بالمبيت خارج دمشق أشركوا بسمرهم بعض البســطاء من المزارعــين ، ويقضون ليلهم على ممازحــتهم حتى الصباح .

وأما الأولاد فيقومون بالسيران مجتمعين مع مدارسهم ويقومون بمثل هذه الألعاب أو مايقرب منها حتى المساء فيعودون إلى منازلهم ،

ويكون أساتيذهم ومعلّموهم في مراقبتهم أثناء السيران ، كل ذلك في أيام الربيع الجميلة .

* * *

فتح الطاقة :

ثم من المواسم التي كان يخرج الناس إليها ، هي أيام قطع نهري (يزيد) و (تورا) وتحويلهما الى نهر بردى ليستطيع المزارعون تنظيفها وكريها من الأوساخ والأوحال ، فيجتمع المزارعون ويفتحون السدود ليتحول الماء الى بردى ،ويبدأ صائدو الاسماك بوضع شراكهم لالتقاطها، فيخرج الناس لمشاهدة ذلك ومعهم طعامهم ، فيتوزعون في حدائق النيرب المجاور للسدود ، ويشاهدون تلك الأعمال وتعرف عند الناس بتعبير (فتح الطاقة) وتكون في فصل الربيع أيضاً .

* * *

الأمثال ـــ ضرب الامثال :

كثيراً مايشتغل الناس في السيران مع بقية الألعاب التي أوردنا بعضها، بضروب الأمثال ، فيجلسون حلقة كبيرة ويبادرون بالترتيب لذكر المثل . ومن تلكأ عن الجواب ضربوه بالمقرعة . .

ومن الأمثال العامية المشهورة في ذلك العهد هي :

حلّاق فتح ، بأقرع استَفْتح ١ .

ثم : أقرع ولحيته طويلة شيء يغطي شي .

(١) يضرب هذا المثل : لمن عثر حظه في الحياة .

ثم : لـبْـَاس ماعـِنـْدُه ودِ كته بأربعة عشر ١

ثم : ماأضرط من الحبر إلاَّ الوَرق .

ثم : طول عمرك يازبيبة فيك هذه العودة ٢ .

ثم : أصبح مثل قمع المنجـّد كـَنـَارْ بدون سفل ٣ .

ثم : أفلـَشـْنـَا عليها لافوقها ولاتحتها . ويعني ألف لاشن عليها ، كما ورد ذكرها في بحث المدارس القرآنية .

ثم : هـَللي بـَدُو ياكل هـَوى بيحمل معلقة ٤ .

ثم : قبل أن تحوّر سـَقـْفهُ خـُذْ لأرضه حـَصيرة ٥ .

ثم : قبل ماتأكل رز وباذنجان غطـّي ظهرك ياعريان ٦ .

ثم : الدبـّانة ماهـِي نجسة ولكن تغلظ النفس ٧ .

---

(١) لباس : سروال . والدكة : شريط من قماش يتخذ لربط السروال كالزنار .
يضرب هذا المثل : للدلالة على زيادة الكبرياء والغرور وعدم تقدير المرء لوضعه المادي والاجتماعي .

(٢) يضرب هذا المثل : لمن لا يصلح أوضاعه ، كما أنه لا يمكنه التخلص من عيوبه .

(٣) يضرب هذا المثل : لمن لا يحفظ سراً .

(٤) هللي : كلمة عامية بمعنى الذي . يضرب هذا المثل : لمن يرغب الحصول على شيء ما عليه أن يؤمنه بنفسه .

(٥) حور المنزل : بيضه بواسطة الحوار « الكلس » .
يضرب هذا المثل : لمن يفضل المهم على الأهم .

(٦) يضرب هذا المثل للإنسان الذي يهتم بالمظاهر الخارجية ، وينصرف عن الأمور الجوهرية .

(٧) يضرب هذا المثل : لمن يستثقل ظله من الحاضرين لدى الآخرين .

ثم : أسْلم الظهر وماتالعَصْر مادري به محمدّ ولاعاد اعترف به عيسى ١ (عليهما الصلاة والسلام) .

ثم : أصبح مثل فقراء اليهود لادين ولادنيا .

ثم : كل عنزة معلّقة من كرعوبها ٢ .

ثم : بيت كبير وحيطانهُ خضر وداخله شي يقصف العمر ٣ .

ثم : الصيت صيت وُزَرْ والعيشة عيشة نَوَر ٤ .

ثم : مثل الحيّة يقرص ويخبي رأسه ٥ .

---

(١) دري : كلمة عامية فصيحتها «درَى» .

يضرب هذا المثل للإنسان المتذبذب ، من فقد دينه ودنياه نتيجة فعله هذا .

(٢) الكرعوب : كلمة عامية بمعنى الكراع . وهو من البقر والغنم بمنزلة الوظيف من الفرس . وهو مستدق من الساق (مذكر ومؤنث) .

وقيل : هو من الدواب ما دون الكعب ، ومن الإنسان : ما دون الركبة من مقدم الساق . أو هو : الطرف من كل شيء .

معناه : أن كل إنسان مأخوذ بذنبه .

ويضرب هذا المثل : عندما يؤخذ المذنب بحق لا ظلم فيه .

(٣) يقصف : قصف : قصفاً الشيء: كسره . وقصف الشيء انكسر .

يضرب هذا المثل : لصعوبة العيش في مكان ما رغم أنه يبدو على مظاهره الخارجية الوجاهة والسعادة .

(٤) والنور : الواحد منهم : نوري : جيل من الناس معروف دأبهم الترحال والتطواف من مكان إلى آخر يوجدون في آسيا وأوربا وافريقيا وأميركا .

يضرب هذا المثل : لمن لا تنطبق سمعته مع حقيقته .

(٥) يضرب هذا المثل : لمن يعمل في الظلام والخفاء .

ثم : مثل البَزّاق يُقْرِف ويقرّف ١ .

ثم : مثل الشمع يحترق ليضيء على غيره .

ثم : أقاربنا مثل المزاريب خَيْرَاتها إلى برّا ٢ .

ثم : أهلك لاتقربهم يقرصلك عَقْرَبهم ٣ .

ثم : عَرَايا ومكتكتين وبالزّلوط قائمين اشتروا دفّاً بأربعين كلّ ما جاعوا نقّروا ٤ .

ثم : صغير وفعله كبير .

ثم : لايقَرْقِـعْ بالدسّت إلا الذي أوشم من العظام ٥ .

---

(١) البزاق : حيوان من فصيلة الرخويات البرية ، منه نوع يعيش في صدفة يتغذى بالنباتات ، ونوع يعيش في المجاري والأماكن القذرة . ومنه أنواع أخرى .

القرف : تقزز النفس ونفورها من شيء قذر أو عمل سيىء (عامية) .

يضرب هذا المثل : لمن يأتي عملا مقرفاً ، وسبب ذلك هو فاعل الفعل والعمل الناتج عن ذلك .

(٢) برّا : أي إلى الخارج .

يضرب هذا المثل : لمن لا يعمل خيراً مع أهله وإنما مع الغرباء عنه .

(٣) يضرب هذا المثل : لعدم الدخول مع الأقارب في منافع ومشاكل كي لا تتحول القرابة إلى عداوة .

(٤) يضرب هذا المثل : لمن لا يملك شروى نقير ، ومع ذلك فهو لا يبالي ، تراه في سرور وفرح دائمين .

(٥) أوشم إيشاماً المكان : بدا نبته .

يضرب هذا المثل : للناس الذين تختلف مكانتهم في المجتمع بين رفعة وضعة ، أو على الجماعة المنحطة اجتماعياً وأخلاقياً .

ثم : طبل يجمعهم وعـصاية تفرقهم ١ .

ثم : يفتي على إبرة ويبلع مسلة ٢ .

ثم : ماغاظك إلا الذي بلغك٣ .

ثم : كل ديك على مزبلته صياح ٤ .

ثم : كل الديوك صاحت مابقي إلاّأبو قنبر ٥ .

ثم : هذا الطين ليس من هذا العجين .

ثم : عند ضيق النفس خذها لطرف الفخة .

ثم : هللي بتشتغل فيه السمرا لايكفيها خطوط وحمرة ٦.

ثم : على طول فراشك مد رجليك ٧ .

ثم : نفسه مثل المقبرة لاترد ميتاً ٨ .

ثم : خل الزيت بأكواره إلى ميعاد أسعاره ٩ .

---

(١) يضرب هذا المثل : لأولئك الذين لاقضية لهم وهم الفضوليون والطفيليون والذين لا مواقف ثابتة لهم .

(٢) المسلة : جمع مسلات ومسال : الإبرة الكبيرة تخاط بها العدول ونحوها .
يضرب هذا المثل : لمن لا أخلاق له في معاملته مع الآخرين .

(٣) يضرب هذا المثل : على الذي ينقل إليك خبر السوء .

(٤) يضرب هذا المثل : بأن كل إنسان قوي بأهله وبلدته .

(٥) يضرب هذا المثل : لمن لا خير منه ويمل لكثرة هذره ، وعدم وجوده وقت الضيق .

(٦) خطوط وحمرة : المساحيق التي تستعملها المرأة في تجميل وجهها .
يضرب هذا المثل : للعامل الذي يعمل بأجر لا يتناسب مع العمل المبذول .

(٧) يضرب هذا المثل : لمن لا يعرف حدود إمكاناته المادية والاجتماعية .

(٨) يضرب هذا المثل : لمن خبث سلوكه مع الناس ، حيث إنه يأخذ كل شيء مهما صغر وحقر .

(٩) أكواره : مفردها : الكوارة : وعاء من طين يدخر فيه الطحين والحنطة ونحوهما
يضرب هذا المثل : لا ستعمال الكلا م والفعل المناسبين في الزمان والمكان المناسبين .

ثم : شو أطيب من العسل خَل ّ بَلا ّش ْ ١ .

ثم : طب الطنجرة على تمّها خدوج طالعة لأمّها ٢ .

ثم : شهاب الدين أضرط من أخيه .

ثم : اذا كان القمح ليس لك لاتحضر كياله ، تغبرّ دقنك وتتعب بشياله ٣ .

ثم : المصفاية لايعوقها بخش بين أبخاشها ٤ .

ثم : طحّان لايغبر على كلاّس ٥ .

ثم : الدبّان يعرف وجه اللبان ٦ .

ثم : أعمى ويلعب بالغرّة ٧ .

---

(١) بلا ش : بدون ثمن (عامية) .

يضرب هذا المثل : لمن يفضل أن يحصل على شيء تافه مجاناً عوضاً عن شيء آخر ذي قيمة ولكن بثمن (يستعمل للبخلاء) .

(٢) تمها : فمها (عامية) .

خدوج : اسم علم مؤنث أصلها (خديجة) .

يضرب هذا المثل لمعنى : أن البنت سر أمها ، كما أن الصبي سر أبيه . .

(٣) يضرب هذا المثل : لمن يتدخل بما لا يعنيه فيسمع ما لا يرضيه .

(٤) البخش : الثقب (عامية) .

يضرب هذا المثل : لمن كثرت عيوبه وأفعاله السيئة والمشينة . أو لمن كثرت مصائبه فلا يهتم بالمزيد منها (أنا الغريق فما خوفي من البلل) .

(٥) يضرب هذا المثل : لمن يتساويان في السوء ، سواء في السلوك أو الخلق .

(٦) الدبان : الذباب وهي حشرة معروفة .

اللبان : بائع اللبن .

يضرب هذا المثل : لمن يعرف طريقه إلى مصلحته الشخصية .

(٧) يضرب هذا المثل : لمن لا يقدر قيمة ونتيجة عمله . أي لمن يستهون الأمور الهامة . رغم عجزه وضعفه .

ثم : ياإيط يا أَبَل .

ثم : كل عود فيه دخان .

ثم : كل قمحة مسَوِّسة لها كَيّال أعْوَر .

ثم : اللحام إذا ماغشّ اللحم تَطْلق زوجته ١ .

ثم : هي ليلة يامكاري .

ثم : كل الكلاب أحسن من حَمّور ٢

ثم : ياماشي على رجليك مابتعرف شو مقّدر عليك ٣ .

ثم : كَلّمُه بوشّه ولاتغشّه ٤ .

ثم : نصحتك ماانتصحت وطبعك على الردى غالب ، ودنب الكلب أعوّج ولو حطوّه بألف قالب ٥ .

ثم : حط أصبعك بعينك مثل ماتوجعك توجع غيرك ٦ .

ثم : لاكنت بأولته ولا كنت بآخرته ٧ .

---

(١) اللحام : بائع اللحم (الجزار) .

يضرب هذا المثل : لمن تعود على شيء ولا يمكنه التخلص منه .

(٢) يضرب هذا المثل : للمفاضلة بين اثنين أو أكثر رغم العناية والرعاية الزائدة التي تبذل نحو المتخلف (حمور) .

(٣) يضرب هذا المثل : لإقناع الناس بأن المقدّر سيقع حتماً .

(٤) بوشه : بوجهه (عامية) .

يضرب هذا المثل : للصراحة والصدق في الكلام والمعاملة .

(٥) يضرب هذا المثل : لمن شب على شيء شاب ومات عليه من عادات وخلق .

(٦) حط : بمعنى ضع .

ويضرب هذا المثل : لمعاملة الناس كما تحب أن يعاملوك .

(٧) يضرب هذا المثل : لمن يتهرب من المسؤولية .

ثم : شيء مامنه ودخانه يعمي .

ثم : الخير خيره والصّيت لغيره ١ .

ثم : لاتعوّد شحاد على باب دارك .

ثم : اللي ذاق زادك كلمّا شافَك يتلمظ ٢

ثم : التَلْمْ الأعوج من التور الكبير ٣ .

ثم : امرأة ربّت عجل ماحرث ٤.

ثم : بقيتْ لامطلقة ولامعَلقة .

ثم : القَرْعَة تفاخر بشعر بنت خالتها ٥ .

ثم : مقَصّر وفصّه حامي .

ثم : اللي يخفف رأسه تتعب رجليه٦ .

ثم : اللي يصبر يأكل طيّب٧ .

---

(١) الصيت : السمعة .

يضرب هذا المثل : لمن يفعل خيراً ولكنه لا يتبجح به .

(٢) اللي : الذي (عامية) .

شافك : رآك (عامية)

يضرب هذا المثل : للدلالة على الكرم وحسن الضيافة ، وتداعي الأفكار الحسنة لذلك .

(٣) التلم : الثلم : الخط الذي يخط بواسطة المحراث . التور : الثور .

يضرب هذا المثل : للدلالة على أن خطأ الكبير هو الأهم في إنجاز عمل ما .

(٤) يضرب هذا المثل : لمن لا خير فيه لأن المربية امرأة .

(٥) يضرب هذا المثل : لمن يفاخر بفضائل أقاربه .

(٦) يضرب هذا المثل : لمن يستعجل الأمور ولا يعطيها حقها من الدراسة والتدقيق .

(٧) يضرب هذا المثل : لمن يعطي الأمور حقها من الدراسة والتدقيق وهو نقيض المثل السابق .

ثم : الفَرَج بتم الدَرَجْ ١ .

ثم : الله ما بيخلي حمل بارك ٢ .

ثم : هللي بيعرف كثير بيغلط كثير .

ثم : مابيدخل الدرهم الزغل إلا على الصيرفي الذكي ٣

ثم : اعمل الخير وارميه في البحر إن ماصادفه السَمَك يصادفه رب السمك . . .

وأمثال ذلك كثير ، ومنها الجميل جداً ، إلا أن ألفاظه بذيئة فضربنا عنها صفحاً ، كل ذلك يجري خلال حفلات السمر عند النساء والرجال والأولاد على حد سواء .

. . .

طعام السيران :

أما طعام السيران فبالدرجة الأولى (المجَدّرة) برغل وعدس وبصل وزيت ويسمونها (مجدّرة الراهب) ،والمخلل والبصل الأخضر ، ثم

---

(١) يضرب هذا المثل : لاقتراب تيسر حل القضية الصعبة .

(٢) يخلي : يترك (عامية) .

يضرب هذا المثل : لمعنى : أن الله سبحانه وتعالى هو المسؤول عن كل شيء ويحل كافة المشاكل كبيرها وصغيرها.

(٣) الزغل : المزيف .

يضرب هذا المثل : لمن يخطىء رغم مهارته وذكائه .

الجبن التازج والطرخون ، ثم الرز بالفول ، ثم كشكشة زرقاء ١ ، وكشكة خضراء ، كشكة متبلة بالجوز ، والنعناع ، والبصل الأخضر وأنواع المخللات والزيتون بأنواعه .

. . .

طعام السمر :

أما طعام السمر ويكون السمر في ليالي الشتاء الطويلة فيكون غالباً (العوّامة) ٢ ،ويتشارط لاعبو الورق (اسكمبيل) ٣ على قسم منهـا

---

(١) الكشكة (الكشكية) : طعام يعمل من الكشك (بفتح الكاف والعامة تكسر كافه) يعمل من جريش الحنطة واللبن والحليب ويترك أياماً حتى يختمر فيكون منه ذرور يعمل كالحساء ويطبخ باللحم أو بالزيت وقالوا فيه :

الكشك شيء خبيث محـرك للسـواكن
الأصـل در وبر نعم الجـدود ولكن

ويصنع منها أصناف من المقبلات . (محمد كرد علي – خطط الشام – ج ٤ – ص ١٥٩)

(٢) هي ما صنعت من عجين متخمر يكون مائعاً لا متجمداً كعجين الخبز ، وتقطع من ذلك العجين قطع صغيرة بواسطة ملعقة من خشب صغيرة معدة لذلك ، ويقلونها بمقلاة كبيرة ، ثم يضعون بها سمناً أو سيرجاً أو زيتاً مغلياً على النار حتى إذا امتلأت المقلاة تحرك حتى تنضج وتحمر ثم ترفع وتوضع في إناء كبيرمملوء قطراً مائعاً وتغطى حتى تمتلىء قطراً وتؤكل ، ومن العوائد في دمشق المتوارثة اتخاذ العوامة طعاماً لليلة الثالثة من ليالي المأتم ، وكذا الليلة الأربعين ، ولليلة ختام السنة .

(جمال الدين القاسمي – قاموس الصناعات الشامية – ج ٢ – ص ٣٢٤).

(٣) نوع من لعب الورق (كوتشينة) المعروفة حيث يستبعد من اللعب الورقات : ٤ ، ٥ ، ٦ ،وتعتبر ٢أو٣ انتاية(أنثى)، والأكبر تأكل ويأخذ صاحبها اللعب، كما أن متابعة اللون ليس إجبارياً ، واللون الغالب هو لون الورقة المكشوفة .

يقدمها المغلوب للغالب ، ويشترك الجميع إما مع المغلوب أو الغالب ،

أو القطايف المغطسة ١ وتحشى بالجوز أو اللوز أو القشطة وتقلى بالزيت أو السمن وتغطس بالقطر ، .

ثم القطايف العصفيري بالقشطة (قشدة) .

ثم الحليب الصافي ، ويسمى (ألماسيّة)٢ ، وإذا كان فيه (أرز) فيسمى رز بحليب ويتركونه قليلاً على الجمر بوعاء نحاس حتى يجف ويسمى عند ذلك (حليب مرقّد) .

هذه يتناولونها بنهاية السهرة قبل انفضاضهم الى دورهم ،ويضاف إلى ذلك بعض الأشربة بالبردقان أو الليمون نيئة أو مطبوخة .

وكان من المشهورين بصنع العوامة رجل يدعى (أحمد) بسوق الدرويشية لذلك يهزجون وينوهون باسمه في حفلات السمر فيقولون :

عوّامة بالقَطر محْشيّة فستق

مَرْشوشَةِ بالعِطْر

---

(١) القطائف : هي ما عجن من الطحين الخالص ، وأبقي مائعاً حتى يختمر جيداً فيسكب على صينية من نحاس موضوعة على نار لينة ، حتى ينضج ، فيقلع من تلك الصينية ، ويصب غيره ، وهو نوعان : منه الكبير المعروف بـ « المطبق » وقرصه كبير مستدير ، ومنه ما يعرف بـ « العصافيري » وقرصه صغير بقدر الريال ، والمطبق يحشى بالفستق المدقوق المضاف إليه السكر مع ماء الزهر ، أو بالقشطة ويقلى بالسمن ، وبعد قليه يغرق بقطر السكر ويؤكل . أما العصافيري يصف في صحن صفوفاً بعضها فوق بعض ، ويوضع فوق كل واحدة ملؤها من القشطة وكلما ختم صف على الصحن ، يوضع فوقه صحن آخر حتى يمتلىء الصحن على شكل مخروطي ويعقد له من قطر السكر ويؤكل به .

(جمال الدين القاسمي – قاموس الصناعات الشامية – ج ٢ – ص ٣٥٨)

(٢) هي ما كانت من الحليب والسكر والنشا . (المصدر السابق – ص٤٧٥)

بياعْها أحمد
بسوق الدرويشية .
ياأيها الإخوان :
كبْتلْ لي دَعْبِلْ لي
طعمَيْني قطايفوخشاف برمّان
واسرع لي من المحلي
بالوظة بماء البردقان .
رُوح يامسكين
انا بنتي مضبوطة
بخمسين جنيه ماأعطيتها .
أعطيتها للْحلِواني
ضِحكِتْ ضِحكة لطيفة .
يامن يعرفها فين ؟
أيها الإخوان :
القط الأسود
وجعْته ُ عينُه
والقط الأحمر
ماسأل عنه .
ولاقال له سَلامْتَك
ياشاطِر الشّطر
حَلي ّ سنُونَك
كسِّر السّكّر

بدّك عَرُوسه

من بنات بكَّر

بدّك جميلة

من محاسنها

والدق الأزرق

في خناصرها

بسّي نَوّي

زوج حمام أخضر

بسّي نَوّي

سيد نوي له .

ثم : أما القطايف العصافيري

بقبة بيضاء

بها انشرح صدري

ياأيها الأخوان :

كبت لي دعبل لي . . . الخ .

ثم : يارب ارحم عبدك

ونجيّه من كل بَلّيه . .

تجعل قبره سَنْبُوسِك

وحيطانه لَبَنيه :

حصان أشقر

من دبس جديد

وسَرْجُه كِبه نيّه

قميصه من رز دفين

والكفن مهلبية . . . الخ . . .

وأمثال تلك الأهازيج بأنغام خاصة ، يتناشدونها في نهاية السمر عند تناول الحلويات .

وهذا كله يجري في ليالي الشتاء الطويلة ، وكان الناس غالباً يجتمعون جماعات في دور أحدهم حسب ترتيب الحِرَف بأبناء الحِرَف ، أو حسن المعرفة والقرابة أو الصداقة ، أو من كانت دورهم قريبة من بعضهم ويكون ترتيب تلك الحفلات أو السهرات على الشكل الآتي :

عندما يدخل فصل الشتاء يجتمع من يودّ الاشتراك من الأصدقاء بحفلات السمر في دار أحدهم ، ويقصّون ورقاً على عدد المجتمعين ، ويكتب في كل ورقة اليوم المعيّن للسهر مع نوع طعام الحلو الذي سيكون ، وتوضع الأوراق في كيس ويمدّ كل يده فيسحب واحدة فيجد مكتوباً فيها مثلاً : « يوم الخميس في ١٥ كانون الثاني والطعام كنافة مدلوقة » ، فيسجل اسمه عليها ويحفظه الجميع ، فيمدّ كل واحد منهم بالترتيب ويستخرج ورقة بيضاء ويكون ساحبها ملزماً بإعداد أسباب السمر لتلك الليلة مع طعام الحلويات فيها ، وهكذا حتى ينتهي الجميع ، ويحفظ كلٌّ دوره ويستعدّ له ، ويهيء أنواع المسليات والألعاب والمهرجين والمغنين وآلات الطرب حسب ميول جماعته ، ويقتلون ليالي الشتاء على هذا الشكل حتى نهاية الفصل .

. . .

ليالي النساء :

النساء يجتمعن في الدار التي يجتمع فيها رجالهن وأزواجهن في ناحية عزلاء بعيدة عن محل الرجال ، ويقمن بدورهن بمختلف الألعاب والمسليات حتى ساعة انفضاض حفلة الرجال .

ومن ألعابهن آنذاك : أن تنفرد واحدة من بينهنّ فتلبس الملاءة وتجعلها بدلاً من تثبيتها على رأسها على راحتي يديها الاثنتين إلى الأعلى فتصبح طويلة بشكل منكر وتضع المنديل فوقها كالمألوف ، وتدخل فجأة على الحاضرات فيرتعشن منها بادىء الأمر ثم تطرح عليهن أسئلة واحدة بعد أخرى هكذا :

— ما اسمك أنتِ ؟

— فلانـــة .

— ماذا تريدين أن يكون لك ؟

(مثلاً تقول) ولد .

فتجيبها :

تطالبين بالولد وأبوكِ شيخ البلد .

ثم تنحني فوقها وتنطحها برأسها بهذا الطول ، وبراحتيها المستعارتين بدلاً من رأسها فيضحك الجميع ، ثم تنتقل للثانية وتطلب منها سؤالاً آخر تقول لها مثلاً :

— ماذا تحبين من الأطعمة ؟

فتقول تلك المرأة : أحب الملفوف .

فتجيبها : تحبّين الملفوف وإلاّ الذي يلفّ يا خبيثة ؟

ثم تنطحها ، وهكذا تخترع أجوبة ملائمة مضحكة حتى يتم الجميع ثم تقول :

إنني ذاهبة إلى الحج من يرافقني ؟

فتنبري لها إحداهن وتقول : أنا معك .

فإذا كانت الطالبة عجوزاً ، أجابتها :

نعم إذ أخذتك أجعلك بدلاً من المَحْرَم لأنك مثل الرجال عجوز مكرعبة .

وتندّر عليها من الكلمات الكثيرة فلا تنفك عنها إلاّ والجميع متهالكات من الضحك على ما يبدر منها من الأسئلة والأجوبة المضحكة .

* * *

الملاهي

كره كوز ١

من الرجال من لا يشترك بأمثال هذه الاجتماعات لأسباب شتى ، إما لفقرهم أو لعدم ميلهم بالطبع إلى الاجتماع ، فيفضلّون الذهاب إلى الملاهي حيث يتسلّون مع زملاء آخرين بألعاب (الضومنة) ٢

---

(١) كلمة تركية تعني « أبو العيون السود » وتكتب « قره كوز » وهي : خيال الظل ، وقد انتقل الاسم إلى البلاد العربية ، عندما خضعت للحكم العثماني ، وصار يستعمل أحياناً بدل الاسم العربي ، وتأثر (قره كوز) عند الأتراك بالمداحين والتمثيليات الشعبية الإيطالية ، ولعل الأتراك الفاتحين ، احتفظوا بالممثلين البيزنطيين ، ويروي المؤرخ ابن اياس : أن السلطان سليم الأول عندما فتح مصر سنة ١٦١٧أعجب بخيال الظل حتى أنه طلب إلى المخرج أن يذهب إلى استانبول لكي يراه أولاده ، والراجح أن الـ (قره كوز) التركي تأثر بخيال الظل في مصر ، بينما لم يتأثر خيال الظل في مصر بالـ (قره كوز) التركي .

(الموسوعة العربية الموسعة — ص ١٣٧٢)

(٢) الضومنة : لعبة يلعبها شخصان أو ثلاثة أو أربعة بأحجار نصفها الخارجي من الخشب ويكون عادة خشب الأبنوس ونصفها الداخلي من العاج أو العظم عددها ٢٨ حجراً . والقسم الداخلي مقسوم إلى قسمين بخط أسود ، وكل قسم عليه نقاط من واحد إلى ستة ، وبعضها ليس عليه أي نقطة . يضع اللاعبون وجه الأحجار الداخلي على الطاولة المعدة للعب ، ثم يتقاسمون الأحجار دون معرفة ما تحتويه من أرقام ، ويبدأ أحدهم اللعب بوضع حجر الطاولة يكون وجهه المرقم إلى أعلى ، ثم على اللاعبين كل بدوره أن يضع إلى جانبه حجراً من عنده تماثل أرقامه أرقام الحجر الموضوع ، ومن ينهي أحجاره قبل غيره يعتبر رابحاً .

(الموسوعة العربية الميسرة .— ص : ١٩٤٥)

و (الطــاولة) ١ و (الورق) ٢ و (الشطرنج)٣ إلى ساعــة متأخرة من الليل .

ومنهم غالباً طبقة الشباب وبعض الشيوخ يذهبون إلى (كره كوز) (قره كوز) (خيال الظل) فيحضرون حفلات (كره كوز) إلى نهاية الليل ، وهي عبارة عن سينما بلدي ، يجلس اللاعب خلف ستارة وأمامه منضدة (وتسمى ستارته خيْمة كره كوز) ويضرب المثل بوهنها لأنها تربط عادة بالخيطان ، فيقــال : « فلان عامل بيت مثل خيمة (كره كوز) » يجلس الملاعب خلف المنضدة وبيده عدة

(١) تسمى طاولة النرد « الزهر » لعبة حظ ومهارة يلعبها شخصان على قطعتين من الخشب مستطيلتين لها جوانب ومشدودتين إحداهما إلى الإخرى بمفصلتين بحيث يمكن قلب إحداهما على الأخرى ، ويقسم كل طرف من أطراف هاتين القطعتين إلى ست خانات أو بيوت ولكل لاعب خمس عشرة قطعة مستديرة تسمى أحجاراً ،يرتبها حسب نظام اللعبة من مكان إلى آخر حسب الأرقام التي تظهر على النرد بعد إلقائه . واللعبة قديمة جداً وقد وجدت طاولة مع النرد والأحجار في حفريات (بابل) . كما عرفها الإغريق والرومان ، وانتشرت انتشاراً كبيراً في أوربا في القرن العاشر ، ولا تزال تمارس بكثرة في بلاد الشرق الأوسط . (الموسوعة العربية الميسرة – ص ١١٤٨)

(٢) لعبة معروفة ومتنوعة الأشكال .

(٣) لعبة قديمة يلعبها شخصان على رقعة مربعة ذات لونين مختلفين أحدهما فاتح والآخر غامق وتوضع الرقعة بشكل يجعل اللون الفاتح على يمين اللاعب ، ولكل لاعب ست عشرة قطعة يلعب بها ، ثمانية منها صغيرة تسمى « بيادق » أي « عساكر » والثمانية الأخرى مختلفة وهي « الشاه » أي « الملك » و«الوزير» و « رخان » و « طابتان » و « فرسان » و « فيلان » .

أصل اللعبة هندي – انتقلت إلى فارس ومنها إلى بلاد الشرق جميعاً ، وأغلب الظن أن العرب نقلوها إلى الأندلس ومنها انتقلت إلى أوربا .

(المصدر السابق ص ١٠٨٤)

قضبان رفيعة وطويلة، ينتهي رأس كل قضيب بقطعة من الكارتون [1]
الملّون بشكل رجل ولباس وهندام خاص له مفاصل ليديه ورجليه ،
أو بشكل امرأة أو طفل ، وأمام الملاعب بعض الشموع مرصوفة إلى
جانب بعض ، فإذا مدّ القضبان المنتهية بأشكال الأشخاص والدمى
المذكورة ، أنشأت خيالاً على الستارة بالشكل المثبت على رأس القضيب .

ومن أسماء تلك الدمى الشهيرة (كره كوز ، عِواظ ، مدَلّل ،
ضَابْطِيّة ، لصّ ، امرأة ، أولاد .) .

فإذا أراد اللعب يبدأ أولاً بأنغام خاصة والسامعون كلهم في المقهى
ينظرون ويسمعون وهو وخيمته إلى زاوية من جوانب باحة الملهى
أو المقهى ، ينظرون إلى الخيالات المرتسمة على الستائر ، وبعد الغناء
يقصّ قصة ويبرز الأشخاص كأنما هم يتكلمون وينتقلون ، فهو بذلك
أشبه بالسينما الناطقة ، ومن براعة الملاعب مهارته في تغيير لهجاته
وصوته على حسب القصة التي تدور بين أشخاصها ، فيبرز (كره كوز)
متكلماً عنه ، ويخاطب (عِواظ) ويخاطب أشخاصاً خيالية كثيرة
ببراعة ممتازة بينما هو يشتغل وحده بمفرده ويحرك الدمى بمهارة فائقة ،
فيكون من نتيجة تلك الخيالات القصصية بعض المواعظ والحكم ،
كما يكون بعض الألفاظ البذيئة والشتائم، والناس ينظرون ويضحكون ،
فكان لكل حيّ مقهى خاص لألعاب (كره كوز) ويتهافت عليه
الأطفال بكثرة ، حتى أصبح (كره كوز) بؤرة لفساد الأطفال
فأمرت الحكومة المحلية بإلغائه ، وبدأ يظهر خفيةً إلى أن كانت السينما

(١) كلمة أجنبية بمعنى الورق السميك المقوى .

والملاهي الأخرى ، فانحلّ نهائياً بسببها ولم يعد له سوى الذكر ومضرب الأمثال .

وهو الذي يضرب الشاعر المثل فيها عن الحياة والمساعي ثم العجز والعدم وتقلّبات الدهر بقوله :

رأيتُ خَيالَ الظِّلِّ أعظَمَ عِبْرَة
لِمَنْ كان في عِلْمِ الحَقَائِقِ راقِي
شُخُوصٌ وأشْبَاحٌ تَمُرُّ وتَنْقَضي
وتَفْنَى جَميعاً والمُحرِّكُ باقي

ثم من الملاهي ما بقي أثراً خالداً عن المرحوم (أبو خليل القباني) [1] الممثل المشهور والمنشد الأشهر ، وما كان يقيم من الحفلات العظيمة التمثيلية الرائعة ذات العبر والمواعظ ، كرواية الانتقام ، وناكر الجميل وغيرها . . حتى أخرجته الحكومة بدسائس وجوه دمشق خوفاً على أبنائهم من المرد وبناتهم ، فنقل إلى مصر وانتقل معه فنه وبراعته ،

(١) هو أحمد بن محمد آغا آقبيق (أبو خليل الدمشقي القباني) ١٨٣٣ – ١٩٠٣ أول من دعم صناعة التمثيل بروايات عربية في سورية ومصر خاصة وأدخل فيها رقص السماح على ضروب الموشحات وأوزانها ، هاجر إلى القاهرة سنة ١٨٨٣ ، وأقام فيها سبعة عشر عاماً ترك خلالها ثروة فنية من الموشحات والروايات التمثيلية التي قام بتأليفها وتلحين أغانيها . وأول رواية غنائية له بمصر كانت على مسرح (دار الأوبرا) سنة ١٨٨٤ وهي رواية الحاكم بأمر الله ، وانشد الموشح المشهور من نغم (الحجاز) على ميزان (الشنبر) :

برزت شمس الكمال من سنا ذات الخمار

هاجر إلى الآستانة ، وإلى أمريكا ، عاد إلى دمشق حيث كتب مذكراته توفي ودفن فيها ، من تلاميذه : الشيخ درويش الحريري ، وكامل الخلعي .

(أدهم آل جندي – أعلام الأدب والفن – جا – ص٢٤٩)

فكان الناس دوماً يذكرون (القوميضة) يقولون كنـــا نذهب على (القوميضة) ، وهذه محرفة من كلمة (قوميدية) ١ الإفرنجية ، معناها المزاح والسماح .

فكان لدمشق ثلاثة مسارح كبرى يجتمع الناس فيها إلى المغنيات والمطربين والمغنين، أحدها : القوتلي ٢، الثاني : زهرة دمشق ٣، الثالث: حديقة الأمة ٤ ، ثم حديقة مسمار ٥ وظلت كذلك إلى ما بعد الحرب

---

(١) هي الكوميديا : غير عربية ، وهي مسرحية ذات طابع خفيف تكتب بقصد التسلية . (الموسوعة العربية الميسرة — ص ١٥١٦)

(٢) مسرح القوتلي : هدم وقام مكانه مطعم (الأدلبي والعربي) وفندق وعيادات أطباء الآن في ساحة الشهداء ، ويعود تاريخ تأسيسه إلى سبعين عاماً تقريباً من الآن ، وكان يغني فيه (الشيخ سلامة حجازي) والشيخ (الصفتي) وهما مطربان كبيران معروفان .

(٣) مسرح زهرة دمشق : يقوم مكانه الآن مركز انطلاق السيارات الصغيرة إلى حلب وحماة (أرسان) في ساحة الشهداء ، ويعود تاريخ تأسيسه إلى مائة عام من الآن ، توقف العمل فيه منذ ثلاثين عاماً تقريباً ،وكان يغني فيه المطرب « زكي مراد » وهو مطرب دمشقي .

(٤) حديقة الأمة : لم تكن مسرحاً دائمياً وإنما حديقة تعمل صيفاً فقط ، وهي غرب مجلس الشعب الآن « حديقة العائلات » ، ويقام فيها الرقص والغناء من قبل بعض الفنانين أمثال : المطربة ماري جبران ، والمطربة خيرية السقا ، والراقصة بديعة مصابني . توقف العمل في هذه الحديقة منذ العام ١٩٢٥ اثر نشوب الثورة السورية الكبرى ضد المستعمرين الإفرنسيين .

(٥) حديقة مسمار : وهي مسرح دائم ، كان مديره المرحوم « أبو عمر الأوبجي » مكانه مقابل مؤسسة كهرباء المنطقة الجنوبية الآن «مقهى الكمال الصيفي» . بدأ العمل في هذا المسرح في العام ١٩٢٠ واستمر حتى العام ١٩٤٠ ، وكان يعمل فيه كبار المطربين أمثال : المطرب الكبير الشيخ « الصفتي » حيث كان يحضر حفلاته بعض الوزراء مثل : جلال زهدي وزير المالية ، وشاكر الحنبلي ، وكان المرحوم الشيخ « الصفتي » يعمل في هذا المسرح شهراً واحداً ثم يسافر إلى حمص وحلب مع جوقته لإحياء حفلات فنية فيها =

العالمية الأولى بقليل ، ثم انعدمت واستبدلت بقصور عالية فخمة متعددة مرتبة على أصول المسارح الغربية يشاهدون الروايات الخيالية الناطقة (سينما ناطق) وقد كان يقوم بهذه الأدوار نفسها شخص واحد وهو (كره كوز) ويعدّ الجد الأعلى لها .

* * *

= وبعد وفاته أصبح ضارب الرق (عوض الزورداوي) رئيساً للجوقة وهومطرب أيضاً ، وكان في الجوقة عازف الكمان المشهور المرحوم « محمود حسن » .

ملاحظة : المعلومات عن المسارح أخذت عن الأستاذ أدهم آل جندي بتاريخ ١٨/٥/٧٥ بدمشق .

التفاخر بين رجال الأحياء

من العادات السائدة في ذلك الحين قاعدة التفاخر بين الأحياء ، فكان لكل حيّ هيئة وجوه ، يعدون عيون الحي وكرامه ، فإذا قدموا إلى زيارة بعض رجال الأحياء الآخر[ين] استقبلوا من قبل وجوهه بعزّ وإكرام وألفاظ خاصة تنمُّ عن الكرم والتواضع مع العزّة والإباء ، وينادي بعضهم بعضاً بالكنى (أبو فاضل ، أبو حاتِم أبو صيّاح ، أبو غانِم ، أبو ساطُور ، أبو فَهْد ، أبو فارِس ، أبو رِياح ، أبو عَجاج ، أبو حَرْب ، أبو كاعُود ، أبو كاسِم — قاسم — ، أبو سَعِيد . . .) وأمثال ذلك من الألقاب المتناسبة مع مواهب صاحب الكنية ، فإن كان نشيطاً خفيف الحركة سمّي (أبو رِياح) ، وإن كان كثير الجولات في المعارك مثلاً يسمى (أبو عَجاج) ، وإن كان خفيفاً فاتكاً يسمى (أبو فهد) وإن كان ثقيلاً رازناً مغواراً يسمى (أبو فارس) وإن كان جهير الصوت مرعباً يسمى (أبو صيّاح) ، وإن كان بارعاً بضرب السيف أو القامة ١ يسمى (أبو ساطور) ، وإن كان قوي البنية هادئاً ذا رأي صائب يسمى (أبو كاسم) ، وإن كان كريماً مفرطاً يسمى (أبو حاتِم) ، وإن كان محظوظاً موفقاً يسمى (أبو سعيد) ، وإن كان من طبعه استطلاع الأخبار هنا وهناك سمّوه (أبو كاعُود) . وهكذا . . .

(١) نوع من السكاكين الغليظة والطويلة لها مقبض حديد أو خشب وذات حد واحد فقط .

وكان كل حيّ يتفاخر برجاله الأشدّاء والعقلاء والكرماء ، ويحصل بسبب ذلك بعض النكرزات ١ والتجافي بين الأحياء ، وتنتج بعض المصادمات تتداخل فيها وجوه الأحياء الأخرى وتصلح ذات بينهم .

وكان لابدّ للطفل أن يتعلّم الضرب بالمِقْلاع وهو عبارة [عن] غزل مضفور بطول ذراعين أو أكثر قليلاً له في وسطه اتساع منسوج بشكل كف اليد وسعتها ، يوضع فيها الحجر ويصوّبه إلى(ناحية) ليعتاد على المشاركة بالمعركة عند وقوعها مع حيّ آخر .

فإذا شبّ بدأ يتعلّم (لعب الحَكَم) وهو عبارة عن طارتين ٢ من الجلد محشوتين قطناً أو صوفاً لها وجه الترس وخلفها ممسك من جنسها تمسك باليد اليسرى ، وتكون في اليمنى خيزرانة أو قضيب سفرجل ، فيحمل كل منهما على الآخر ويتقي (بالحكم) من أن تصيب جسمه الضربات الموجهة إليه . فإذا أتقن اللعب انتقل إلى التمرن على السيف والترس ، ثم على القوس والنبل ويسمّونه (قَوْس نَشّاب) .

. . .

لعبة الحكم

كيفية البدء بلعبة الحكم

يقف اللاعبان مقابل بعضهما بمسافة ثلاثة أمتار بنصف اتجاه إلى اليمين ، ثم يتقدّمان ويتصافحان ، ويقبل كل منهما أنامل الآخر

(١) مفردها : نكرزة وهي المضايقة والإثارة ، غير عربية .

(٢) مفردها : طارة ، عامية ولعلها محرفة عن كلمة « إطار » وهي ها هنا تعني القرص .

مجتمعين ورأساهما إلى بعضهما ، ثم يفترقان إلى تلك المسافة ، فينفرد كل منهما باللعب منفرداً ترويضاً وتمريناً للأعصاب والأعضاء قبل البدء بالمبارزة ، فترى الخيزرانة تدور بيد كل منهما إلى سائر أطرافه ضارباً بها جسمه ، متلقياً الضربة بيده اليسرى إلى الأمام والخلف والأعلى ، مقدار عشر دقائق ، وبعد [أ ن] تبتدىء المباراة يتقدم كل منهما من خصمه خطوة بحيث تتلامس الخيزرانتان ببعضهما ، ويشدها كل منهما ضارباً بها على الحكم القابض عليه باليد اليسرى مسرعاً إلى مكانه ، فيمدّ أحدهما اليد حاملة الحكم إلى خصمه فيضرب خصمه عليها ثلاثة ضربات مختلفات كما يحركها ذاك بيده، ثم يباشر الآخر مثل عمل الأول ، ويتخلل ذلك التناوب أن يمدّ احدهما الخيزرانة على رأس خصمه فيتلقاها بالحكم ، فيحمل عليه الآخر ويحاول ضرب خاصرته ، فيثني ذلك يده ويتلقى الضربة بالحكم ، ثم يشتد اللعب والسرعة فيهاجم أحدهما الآخر ، ويقابله ذاك بهجوم مقابل والخيزرانات من الطرفين تقع على ما بأيديهما من الحكم ، ثم يشتد إلى أن يتغلّب الواحد فيكيل زميله عدة ضربات سريعة مختلفة الاتجاه نحو الجسم ، وينطبق الخصمان على بعضهما فيتقدم شيخ الحلقة اللاعب الرئيسي لهذه اللعبة ويفصل بينهما ، وقد يتخلل اللاعبين لاعب ثالث بينهما يحمل بكل يد من يديه خيزرانة ويقاوم بها خصميه ويهجم عليه كلٌ من من جهته ، فيقابلهما تارة لهذا وتارة لذاك فيحتدم البراز فيفصل الشيخ بينهمـــا .

ومن الجميل في هذه اللعبة أيضاً أن الرئيس عندما يبرز اثنان إلى اللعب يتقدّم بتسليم الشخصين الحكم ليقبلاه ، وهم جميعاً يقولون : « اللّهم ارضَ عن سيّدنا عليّ » لشهرته كرّم الله وجهه بضرب السيف .

ولعبة السيف تكون عادة على نفس الشكل بالحكم ، إنما يكون خطرها كثيراً لذلك لا يتقدّم إليها إلاّ من كان ماهراً بالحكم .

. . .

المصارعة :

من أسباب التسلية أيضاً لشباب الأحياء ألعاب (المصارعة) حيث يجلس المتصارعان في باحة المقهى على مشهد من المجتمعين ، وقبل المبادرة بالصراع ينزعان ملابسهما ويبقيان بسروالهما الداخلي ، فيتقدم منهما شيخ الحرفة ويسلّم كلاً منهما سروالاً من الجلد واسعاً وله ساقان قصيران يربطان تحت الركبة وفوق عضلة الساق ، وبعد ذلك يتقدّم كل من المتصارعين إلى أكبر الحاضرين سناً يجلس بين يديه ، ويقبّـل يده فيدعو له بدوره ويطوف على الحاضرين من السابقين الشيوخ في هذه المهنة ، وبعد أن تجري هذه المراسم من قبل المتصارعين يقفان في المنتصف متصافحين بأيديهما ويقبلان ظاهر يديهما ، وينفلتا[ن] عن بعضهما بسرعة كل إلى جهة صائحاً « يَحْ » وهذه كلمة مشهورة لديهم محرّفة عن كلمة «يا حفيظ» فيرخمانها ويقتصران على الحرف الأول من الكلمتين ويلفظانها هكذا « يَحْ » ، ويبدأ كل منهما بحركات بهلوانية ويتقدمان شيئاً فشيئاً من بعضهما قافزين مقابل بعضهما مستندين على الركبة قابضين راحتي أيديهما أيضاً ، وكل منهما يتمتم بدعاء ويقبّـل أظافر يديه الإبهام والسبابة ، ويقفزان ، منفردين ، مبتعدين يظهر كل

منهما خفـّته ورشاقته ، ثم يتقدم كل منهما بخطوات وئيدة نحو الآخر ، ويبدأ العراك بينهما تارة واقفين وطوراً راكعين وكل منهما يحاول أن يقلب الآخر على ظهره حتى تمس كتفاه الأرض فإن توفـّق فاز على زميله ، وإن لم يتوفق حاول أن يرفعه في الهواء ، وإحدى هاتين الحركتين تؤمن الظفر لفاعلها .

* * *

قبــاضاي

ثم من العادات المألوفة بين الأحياء إذا دعت الحاجة إلى مرور (عراضة) تظاهرة محلية لسبب ما ، أن يقف الرئيس ويقدّم تحية طيّبة لوجوه الحيّ وشبابه وخاصة طائفة (الزكرتية) الشجعان في الحيّ (القبضايات) ، والقباضاي كلمة تركية أصلها (قباداي) ومعناها الخال الغليظ .

الزكرتية ١ شجعان الحي :

إن لطبقة القباضايات في الحي مكانة مرموقة من أفراد حيّهم وبقية الأحياء ، وتكون هذه الطبقة على اتصال دائم مع بقية زملائها

---

(١) كلمة تركية وهم : طبقة الشجعان في الأحياء الذين تجلت فيهم عادات الفروسية من شهامة ونجدة للضعيف وصدق في القول وبسالة في مواجهة الصعاب ، وكل حي فيه عدد من هؤلاء ، ولعل اسمهم آت من عصابة يضعونها على رؤوسهم وتميزهم . والزكرتي ليس من زعران الحي ، على العكس هو صاحب مهنة يعتاش منها وينفق على عياله ويعطي منها للفقير وهو صاحب دين ونخوة ومروءة ونجدة ، وهو فوق ذلك يحترم الحياة الإنسانية فإذا حدث أن ضرب رجلا عند الضرورة القصوى – والسلاح المألوف هو الخنجر – فإنه « يعلم عليه » كما يفعل المتبارزون بالسيف في المباريات الرياضية ، والزكرتي لديه إيمان قوي بأن النفس محرم قتلها إلا بالحق ، فإذا ثارت منه ضربة قاتلة لم ينج من خجله مدى الحياة ، فوق المسؤولية والعقوبة .

ولم يكن الزكرتية أفراداً ، ولكنهم كانوا عادة تنتقل بالتقاليد ومثلا كل شاب يطمح إلى أن يكون مثله ، وعلى رغم أن السياسة أفسدت الكثيرين من الزكرتية في الأحياء حين حولتهم إلى مرتزقة ، فإن الكثيرين لا يزالون في دمشق يمثلون هذه الشهامة الشعبية الأصيلة .

(مجلة العمران – عدد خاص عن مدينة دمشق سنة ١٩٦٧ – ص٢٢٠)

من مختلف الأحياء ، يخرجون إلى النزهات معاً ويسمرون معاً ، ولهم عادات وتقاليد خاصة بهم أثناء السيران والسمر ، ومجالسهم مشحونة بالرسميات (أتاكيت) ١ ، وكل منهم مهما كانت صداقته صميمية مع الآخر لا بد وأن يراقب حركاته وسكناته أثناء سلامه وحال جلوسه وقيامه وكلامه خوفاً من أن يصدر عنه ما يمسّ بكرامته ومكانته ، فإذا قدّم أحدهم لآخر شيئاً كفنجان قهوة أو سُكَّرَة ، أو كأس لا بدّ وأن يقرن ذلك بعبارة : (تْفَضَّلْ خَالْ) واضعاً اليد الأخرى على صدره ، فيجيب ذلك على هذه العبارة قائلاً : « أيْ والله خَال ، من كَفّْ لا يِعْدَمْ » ، فيجيبه الآخر قائلاً : « لاخٍ لا يِفْقَد » ، وكل منهما يتابع بعينيه حركات الآخر خوفاً من أن تكون هنالك بادرة سخرية أو مزاح أو نظرة شزر ، فإذا تمّ شرب الكأس أو الفنْجان لا يجوز له أن يضعه على الأرض بل لا بدّ من تسليمه إلى يد الساقي ، ويكون من المضيفين غالباً ، ويُلحق ذلك بعبارة : « انشاء اللهْ بحياتَكْ أخي » ويضغط على كلمة (أخي) ويمدّها ، فيجيبه الآخر : « هَنَا وَعَوَافي يا طَيِّبْ » .

ثم من عاداتهم التزام الصمت مطلقاً عند حضورهم أو حضور أحدهم بين طائفة من غير زملائهم الزكرْتية ، فتراهم لا يتكلمون ولا يضحكون ولا يتحركون ولا يتململون حتى تنتهي الجلسة فيودّعهم بكلماته الثقيلة وصوته المصطنع العريض ويمضي لشأنه ، ويعدّون ذلك

(١) كلمة أجنبية تنسب إلى شبه جزيرة « أتيك **Attique** » في جنوب شرق اليونان ، كانت عاصمتها أثينا ، امتاز أهلها بسلامة الذوق وطلاوة اللغة .

(أعلام المنجد — ص ٢٢)

من أسباب الكرامة والوقار ودواعي الهيبة والرزانة ، فإذا انطلق أحدهم بالكلام واشترك بأحاديث القوم صاح به زميله من الزكرتية قائلاً : « ارْزِينْ وْلاهْ ، ارْزِينْ ، اتْقَال ، العَالَمْ عَمَّا تزيْنَكْ » ، ويقصد من ذلك تنبيهه إلى التزام الصمت والرزانة ، وأن يكون ثقيلاً بمجلسه لأن العالم يزنونه ، فتهبط قيمته وتتضاءل منزلته .

ثم من عادة هؤلاء الزكرتية أن يتكلموا بالأحرف بملء أشداقهم وحلوقهم وبشكل مفخّم ، ويمدّون بعض الكلمات ثم ينتهبونها بسرعة عند نهايتها .

وإذا سار بالطريق وضع معطفه على كتفيه وراح يتهادى ويتمايل على رؤوس أصابعه بالحذاء الأحمر فيخرج للحذاء صوت موزون، فيترنح وينظر بجميع جسمه إذا التفت يمنة أو يسرة ، وإذا اقتضى أن يلتفت إلى الوراء فيدور نصف دورة على مقدّم حذائه ، ويده اليمنى يصلح بها شاربيه والأخرى وراء ظهره ، والشال (١) المخرّم بارز فوق سرواله الكبير تتراء[ى] من أعلاه قبضة الخنجر ، فيطيل النظر بكل من يمرّ من الرجال فيرد عليهم السلام بقوله : « عَـلِيك السّلامْ أخي » ويمدّها ، ثم يشفع ذلك بقوله : « ورَحْمة اللهِ وبركاته » فيخفف الضغط على حرفي التاء في كلمتي « رحمة الله وبركاتُه » ويشدّهما شدّاً ، ثم يشفع ذلك بقوله : « تْفَدّلْ أَخِيْ » أي « تفضل أخي» « الله يْدِيْمْ عِزّكْ يا تَيّبْ » أي يا طيّب ، فينعّم الطاء والتاء والدال والضاد بسائر ألفاظه ويسحَقها سحقاً .

---

(١) انظر ص ٢٦ .

وإذا مرَّ به أحد زملائه المضارعين لكفاءته المسلكية مدَّ يده اليمنى إلى حذاء كتفه الأيسر ثم جذبها بسرعة إلى رأس كتفه الأيمن وهو يقول أثناء ذلك : « مرحبا خال ، أهلين بعرشك » .

وإذا مرّ أمام دار أحد زملائه فلاتسمح له كبرياؤه أن يطرق الباب أو يضرب على حلقة الباب ، بل يقف بعيداً عن الدار خطوات ويرفع رأسه الى الأعلى منادياً : « أبو كعّودّ » بالمد والتشديد ، فيسمع ذلك صاحبه ويجيبه حالاً ، عند المقابلة يقول : « أهلين أهلين بربك أبو رياح ، شرّف أخي ، خلّينا نكسبك ياطيب » فيجاوب : «الله يديم عزّك ياحنوني » ثم يتكلمان بأمورهما الخاصة .

كل هذه المراسم وأشباهها مما نذكره في مختلف أبحاثنا السابقة عند الانظمة العرفية بين الأحياء ما كان إلا نتيجة لفساد الادارة واضطراب حبل الأمن وإهمال الحكومة والقضاء ، وضياع هيبة السلطة الحاكمة ، وضعف العلم والعلماء ، وفقدان المدارس .

وقد لمع بين الزكرتية رجال ملؤوا بأعمالهم وشجاعتهم أسماع الناس حتى خارج المدينة . كما أن رجال الأمن كانوا يتهيبون مقابلاتهم ، وكانوا في كل عهد أصحاب الكلمة النافذة في سائر أمور الحي ، أذكر منهم :

أبو جرَش ١ — صالحية

فارس أبو أسعد الشيخ داود : وفاته منذ ١٣٠ سنة ٢

(١) اسم الحي .
(٢) تاريخ وفاتهم تقريبي حسب تعريف بعض الشيوخ وهو العدد الوسطي بين =

السّيرَوان (محمد بن سليم ألفا) : وفـاته منذ ١٢٠ سنة

عباس العـــــلاف ١ : وفاته منذ ١٤٠ سنة

حمزة أبو علي بَرْبُور : وفاته منذ ٨٠ سنة

عمر الدّشّيش : وفاته منذ ٧٠ سنة

أبو عبد الله المبرقـع : وفاته منذ ٧٠ سنة

عمر الدكاك : وفاته منذ ٦٠ سنة

محمد طره بين : وفاته منذ ٥٠ سنة

حسن المسالحي : . . . .

= ما علقبأفكار المسؤولين . (المؤلف)

ومن المفيد أن نذكر أن المؤلف ولد سنة ١٨٩٨ وتوفي سنة ١٩٥٩ . ويرجح أنه وضع كتابه هذا في الأربعينات من القرن العشرينوعلى هذا يمكن التعيين التقريبي لوفيات هؤلاء الرجال .

(١) وقد قتل في إحدى المعارك الدائرة بين بعض رجال أحياء دمشق غيلة وهو أقدم زكرتية الصالحية وأبو جرش . (المؤلف) .

جديع النوري	: وفاته منذ ٥٥ سنة
الفحل	: وفاته منذ ٦٠ سنة
ديب ابراهيمات	: وفاته منذ ٥٠ سنة
سعيد الأحلس	: وفاته منذ ٥٠ سنة
حسن الببو	: وفاته منذ ٤٠ سنة
قاسم هدلا	: وفاته منذ ٣٥ سنة
الدالي علي	: وفاته منذ ٥٠ سنة
الدالي بلطة	: وفاته منذ ٥٠ سنة
أحمد البلح	: وفاته منذ ٥٠ سنة

. . .

شاغور :

حرحش	: وفاته منذ ٤٥ سنة
طالب حسنين	: وفاته منذ ٤٠ سنة
العرايشي	: وفاته منذ ٦٠ سنة

. . .

صالحية ـ السكة

أبو أحمد أبو وُش مخبّص	: وفاته منذ ٥٠ سنة
سعيد العبد	: وفاته منذ ٤٥ سنة
كَبْكب	: وفاته منذ ٦٠ سنة

حسن دياب : وفاته منذ ٦٠ سنة
عمر عنتر : وفاته منذ ٧٠ سنة
عبد الحميد سعيد : وفاته منذ ٦٠ سنة
الشريباتي : وفاته منذ ٦٠ سنة
أبو حسين التخين : وفاته منذ ٥٧ سنة
مجْدُو الكردي : وفاته منذ ٥٥ سنة

. . .

سوقساروجة والعقيبة

أبو ضاهر الفحام : وفاته منذ ٥٠ سنة
شكيم : وفاته منذ ٥٠ سنة
حسن حَسُو : وفاته منذ ٤٥ سنة
أبو فياض البغل : وفاته منذ ٤٠ سنة
أبو فياض كرم : وفاته منذ ٤٥ سنة
أبو سعيد الأسطة : وفاته منذ ٥٠ سنة

. . .

باب السريجة

اسماعيل دياب : وفاته منذ ٥٠ سنة
راعي البلها : وفاته منذ ٥٠ سنة
أبو حاتم البقاعي : وفاته منذ ٦٥ سنة

. . .

قنوات

شيخ مصطفى الحلاق : وفاته منذ ٥٠ سنة

. . .

ثم أبو حاتم الهرايسي – من حارة السكة بالصالحية .

أبو سعيد الأسطة ١ ،أبو كاسم المكاوي – من العمارة وسوقساروجة

● ● ●

(١) كرر المؤلف ذكر اسم هذا الشخص ولعله سهو . انظر في قائمة (سوقساروجه والعقيبة) .

وصف الادارة الحكومية

لم يكن للإدارة الحكومية تأثير يذكر في ضبط الأمن ، فكانأكثر المخافر يوصدون مخافرهم ١ بعد الغروب وتبقى كذلك الى الصباح . وكانت قوى الأمن تعرف باسم (الضابطية) ، وكان هؤلاء مضرب الامثال بقلة المروءة والجبن ، فكان يقال للرجل الجبان قليل المروءة : « يـلْعَنْ نامُوسَكْ نَاموس ضَابطَية » وهذا المثل كان على ألسنة الجميع ، ومن هنا تدرك مبلغ الإهانة والصغار والتحقير في أنظار الناس، والأسباب أن هؤلاء يحافظون فقط على مركز مخافرهم وأنفسهم ، واذا دعاهم داعٍ مستغيثاً بهم تلكؤوا،واذا صحبوه جبنوا،وإن تداخلواارتشوا من خصمه ، وأفلتوه وهكذا .

حكاية :

وإليكم حكاية عن أفراد الضابطة ٢ وقوى الأمن آنذاك ، وكان يقوم بتمثيلها (كره كوز) على خيمته ويعرضها على الأسماع والأنظار ومنها تدرك مدى الحقارة اللاحقة برجال الأمن ، ومبلغ قيمتهم بنظر الناس .

الحكاية : قيل إن (كره كوز) كان من أفراد الضابطة في مخفره ، فجاءه يوماً أحد المستغيثين يدعوه بلهف لمرافقته الى داره حيث يعبث بها

---

(١) كذا الأصل ، والمخافر مفردها مخفر ، وهو مكان فيه قوى الشرطة أو الجنود للمحافظة على الأمن الداخلي أو على حدود البلاد . (المنجد — خفر)

(٢) هكذا جاءت في الأصل والأصح : « الضابطية » ، الواحد : « ضابطي » وهم جند الوالي يستخدمون لجمع الأموال ، والمحافظة على الأمن ، وإحضار المجرمين وغيرهم إلى باب الحكومة . (انظر المنجد)

أحد اللصوص فكانت بين المشتكي و (كركوز) الضابطة المحاورة الآتية :

المشتكي : دَخْلَكْ بِعَرْضَك ياكره كوز جئت إلى داري فوجدت فيها لصاً أرجوك أدركني قبل أن يسرق ويهرب . .

كره كوز : ها ؟ حرامي (لص) طيب طيب اصبر شوية (وأخذ يرتب هندامه ويلبس سلاحه) .

المشتكي : دَخيلَك ياسِيدي الضَابْطية استعْجل شْوَيّة قَبْلْ مايسرق ويهرَب .

كره كوز : (يتشاغل بترتيب شاربيه على المرآة) أي فْهْمنا ، اصْبُر ،شَوْية ، شُو بِّدك يَاني يَعْني اروح مهرْكَل ؟

المشتكي : ياسيدي دَخيلَك أولادْي الصغار وعيالي بالبيت عما يْوَلْوِلُو من خَوْفهم . .

كره كوز : وَليشْ ماسَكّروا (١) بابْ البيت عليهم ؟

المشتكي : ياسَيْدي قَفَزْ الحرامي إلى البيت من فوق الحائطْ ؛

كره كوز : ماهُوِ حَمَرَنْتَك ياحمار ، ليشْ خَلّيتْحيطَك وَاطِي ؟

المشتكي : ياسيدي دَخيلَك استعجل .

---

(١) كلمة عامية بمعنى « أغلقوا » .

كره كوز : من غير حيَوْنَه عمّا رَكّزْ شواربي شُويّه ،وليش خايفْ أنتْ ؟

المشتكي : ياسيد[ي] كيف بَدّي ماخافْ ، الأَولاَد ماتوامن رعْبهم، وأنا رجل عاطلْ اليَدين ضَعيفْ لاأستطيع القبضْ على اللص .

كره كوز : شُو عرّفَكْ هَلاَّ [1] أولادك يكونوا دَخلوا شي غرفة وسَكَرُوا عليهم الباب ، طَوّلْ بَالَكْ نِتْفه صَغيرة ، ياللاَ خلَصّنَا .

المشتكي : الله يطوّل عمركْ اركضْ معي لنلحقه .

كره كوز : (يستوقف صاحب الدار) هلأَّ أنتْ متأَكْدَّ بأنه الحرامي دَخَلْ بيتكم .

المشتكي : نعم سيدي عّما يْكَسِّرْ الصناديق ، دخيلكْ اسْتَعْجل (يمشيان إلى الدار ، فيتوقف كره كوز ويسأل أيضاً ؟) .

كره كوز : وَلَكْ يَارجل لايكون عما تَكْذبْ عليّ ، أو أن الحرَامي دَخْل بيتْ جيرانك مادخل بيتك ؟

المشتكي : ياسِيدي والله دَخَلْ على بيِتْنا والآنْ هو في البيت ، هَا ، وصلنا هذا هو الدار . (كره كوز يتقدم بهدوء إلى باب الدار ويضرب بأصابعه على الباب دقّات خفيفة ثم يلتفت إلى الرجل قائلاً) .

كره كوز : أنت كذاب هذا البيت فاضي ومافي حَدَا ، وعَذّبْتني وَجْبتَني من غير فائدة (ثم همّ بالرجوع) .

---

(١) كلمة عامية بمعنى « الآن » .

المشتكي : (وكاد يتمزق) دَخْلَك وين رَايح والله الحرامي جوّات[1] البيت .

كره كوز : إيْه ياحمار ماشِفْتْني دَقّيتْ البابْ ماحَدَا ردّ علينا.

المشتكي : ياسيدي دَخْيلك أنت دقّيت الباب شوية شوية ، أنا جنبك ، ماسمعت الدقة ، دخيلك دق قوي .

كره كوز (مستعجباً) : ها ، ماشاءالله ، دق قوي ، وبَرْكِيْ كان الحَرَامي جوّات الدار .

المشتكي : دخيلك لَكَانْ أنا مِنْ شَانْ إيْشْ جبْتَكْ [2] .

كره كوز : إيه طَيّبْ أنت ادخلْ واقبْضَ على الحَرامي ، واربطه ، ثم نادي لي . أنا أجيْ وأسحبه الى المخفر .

المشتكي : ياسيدي لو اغْضِر [3] أربطه ماكنْتَ نَدَهْتْلّك [4] أنت زلمة [5] حكومة .

(وفي أثناء هذه المحاورة خرج اللص من الدار صارخاً وعلى ظهره المتاع فضرط كره كوز وهرب قائلاً لصاحب الدار (ولك الحقني قبلماينزل الأواعي عن ظهره ويجي يخبطنا . . .)

فهذه القصة المصطنعة كان يقوم بتمثيلها كره كوز في الملاهي ،

(١) عامية بمعنى « داخل أو ضمن البيت » .
(٢) كلمة عامية بمعنى « لماذا أتيت بك إذن » .
(٣) كلمة عامية محرفة عن « أقدر » .
(٤) كلمة عامية محرفة عن « ناديت لك » أو « استدعيتك » .
(٥) بمعنى (رجل) .

وهي صورة حقيقية مصغرة تفصح عن وصف حقيقي لرجال الأمن في ذلك العهد . ثم إن هؤلاء الضابطية ماكانوا ليجسروا على دخول حي (أبو جرش) بالصالحية ، وحي العقيبة أو سوقساروجة لاليلاً ولانهاراً لعلمهم بأن واحداً من الزكرتية يكفي لتحطيمهم بالعصا ، وكان كل (زكرتي) يحمل عصا طويلة تسمى (عصا الشوم) أي الشؤم ، لأنها معدة للمصاعب والأوقات المشؤومة يفرج بها الكروب ، ثم الخنجر ، وقليلاً من كان يحمل على جنبه (مسدساً) وكان محشواً من البارود والخردق[1] ويسمى آنئذ (طَبَنْجة) يوضع ضمن غلاف من جلد واسع الفم ليسهل انتشاله واستعماله ، وكان غالباً يحمل اثنين من هذا النوع ويسمى (زوج طَبَنْجاتْ) ، أو كان يحمل بندقية قصيرة سبطانها[2] وفمها أشبه بالبوق (بُورزَان) وتسمى (قَرَهْ بيْنا) وهذه حشوها بارود وخردق ، وتستعمل في الأسفار خارج المدينة ، وكذلك تستعمل بندقية حشوها بارود ورصاص[3] ، تملأ من فمها ، ومنها جنس أكمل بالنسبة لذلك العهد ، وهي ما كان لها خرطوش[4] ملفوف باليد من الورق بشكل محكم ومفتولة الورقة من أسفل الخَرْطُوشَة حتى لا يضيع البارود . يضعون برأس الورقة قطعة من الرصاص أكبر من حبّة البندقة ،

---

(١) كرات رصاصية ملساء صغيرة الحجم توضع في (الخرطوش) مع البارود الناعم كل منها يتناثر باتجاه ما عند الانفجار ويؤدي للجروح حسب المدى الذي تدخل فيه ، وله عيارات مختلفة .

(٢) السبطانة : أو الماسورة : هي القسم الهام من البندقية وهي من المعدن المحلزن أو الأملس من الداخل يعطي المقذوف التسارع والقدرة على الخرق والمدى .

(٣) قطع رصاصية مخروطة الشكل تقريباً ، تستعمل كرأس المقذوف في الأسلحة النارية .

(٤) وهو المعروف الآن (بالقذيفة) أو « الرصاصة » أو « الفشك » . والكلمة غير عربية .

ووراءها يضعون البارود ويلفُّون شيئاً فشيئاً حتى تأخذ شكلها ويتركون لها زيادة من الورق يفتلونها خوفاً من سقوط البارود منها ، فإذا أرادوا استعمالها قطعوا الزيادة من الورق ، وأدخلوها في البندقية للسرعة ثم وضعوا الكبسول ١ على (فالة) ٢ تحت ديك ٣ الزند ، ويطلقونها . (وعندي لا يزال من هذا الخرطوش والبندقية محفوظة من عهد جدي) ، وعلاوة على ذلك كانوا يتسلحون أيضاً بالسيوف ، والسيوف القصيرة (قَـامـَة) ، وهذا كل ما لديهم من سلاح في ذلك العهد .

بينما رجال الأمن بأيديهم بنادق من نوع (المارتين) خـَرطُـوشها غليظ ورصاصها أسود وتسمى (أم ضرب) لأنها لاتأخذ إلاضرباً ٤ واحداً من الخرطوش ، فكان لها من جانب الحاضن ٥ حديدة طويلة إذا شُدَّت ، انفرج من الجانب الآخر عن طريق توضع الخـَرْطـُوشة فيها ، ثم تطبق تلك الحديدة ، فينثلم الغطاء فوق الخرطوش ويشد الزند فتنفجر .

---

(١) وهي الصاعق ، الذي ينفجر لا حتوائه على مواد سريعة الا شتعال ، وينقل النار إلى الخرطوشة التي يشتعل بارودها .

(٢) نتوء بارز في البارودة أو البندقية في الأعلى أمام المغلاق توضع عليها الكبسولة التي تنفجر عند الضغط على الزناد « ديك الزند » .

(٣) الزناد : أو « الديك » هو الجزء الذي بالضغط عليه تتحرر الإبرة في البارودة وتطلق رأس الكبسولة أو « الصاعق » التي تنفجر وتشعل البارود في الخرطوشة .

(٤) أي قذيفة .

(٥) الحاضن والحواشي : أحد الأقسام الرئيسية في البندقية ، وهو القسم الذي تحضن أو تقبض يد الرامي على البندقية أثناء الرمي .

من الحوادث أيضاً :

ما صادف لأحد سكان الصالحية وكان قد أعجز الحكومة فاضطر رجال المخافر أن يتنادوا زهاء العشرين رجلاً ويتوجهوا [1] لداره ليلاً ، وكانوا استطاعوا بواسطة أحد أعداء الرجل أن يتلقوا خبراً عنه بأنه في دار شقيقته (حارة الجبل) ، مع خليلة له يتعاطى السكر ، فباغتوا الرجل في الدار ، واستطاعوا أن يقبضوا عليه وهو في حالة الإغماء من شدّة السكر ، وتوجهوا به إلى قلب المدينة خوفاً أن يفزع إليه أحد إخوانه فيما لو أبقوه في مخفر الصالحية ، على أن لذلك الرجل شقيقة مشهورة بالشجاعة والقوة ، وضعت لثاماً على وجهها وأخذت (عصا الشوم) الشهيرة ، وبينما هم نازلون بأخيها عن طريق محلة العفيف كانت سبقتهم عن طريق طلعة الشركسية ووقفت في الجسر الأبيض تنتظر وصولهم ، وهو معهم على عراك شديد ، فلما بلغوا ساحة جسر الأبيض صاحت بهم وانهالت على رؤوسهم بالعصا فتفرقوا واستخلصت أخاها ، وعادت به ، فأقسم بأنه سوف لا يتناول العَرَق بعد ذلك اليوم ، خوفاً على شرفه من أن يقوى عليه أفراد الضابطية .

حادثة أخرى :

كان أبو سعيد الأسطة من المشهور لهم بالرجولة وهو من حيّ العمارة ، بسبب ما أرسلت الحكومة بطلبه قوة كبيرة فاستطاعت

(١) في الأصل : « بتوجهون » .

أن تقبض عليه في مدخل جادة المناخ مما يلي الحدادين وسوق النحاسين ، فأخذ يقاومهم ويتألبوا عليه ثم يقاومهم من الصباح إلى ما بعد الظهر حتى استطاعوا أن يصلوا به إلى المخفر بالمرجة ، والمسافة لا تزيد على ثلاثماية متر ، فكانت النجدات تتوالى عليه من الضابطية حتى استطاعوا إيصاله إلى المخفر ، بعد معركة دامت ثماني ساعات من أيام الصيف .

حادثة أخرى :

كان بين أبناء سوقساروجة وبين الصالحية عداوة قديمة امتدت زمناً طويلاً ، لذلك كان أبناء الصالحية إذا نزلوا صباحاً إلى أعمالهم في دمشق نزلوا جماعات جماعات خوفاً من تسلط أبناء العقيبة وسوقساروجة عليهم في الطريق ، وصادف أن وقع نفور بين الأكراد وأهالي الصالحية ، فأرغم الصوالحة الأكراد بأن لا يمرّوا من الصالحية عند نزولهم إلى دمشق بل يمروا من طريق (الميسات وعين الكرش) ، وبما أن هذا الطريق مسكن لأشقياء سوقساروجة والعقيبة ، فقد تحالف الأكراد وهؤلاء على أهل الصالحية بسبب منعهم من المرور في حي أبي جرش من الصالحية ، وأخذوا يترقبون مرور أحد من الصالحية فيعتدون عليه أمام زقاق الحياة (اليوم) ومحلة الشهداء ، فحصلت بذلك وقائع كبيرة ، إذ اتفق أهالي أبي جرش على مناوشة أولئك ليلاً ونهاراً وأوقعوا بهم مرات عديدة وحملوا على الأكراد وهمّوا بإخراجهم من الصالحية لولا تدخلّ جد (محمود باشا بوظو) مع الشيخ أسعد رئيس وجوه حي الصالحية. فصادف آنذاك أن زكرتية الصالحية إذا كانوا في دمشق

لا يخرجون إلى الصالحية عن الطريق المألوف ، بل كانوا يتحدوّن أولاد سوقساروجة والأكراد ويخرجون عن طريق عين الكرش ، حتى ييئس الأكراد وتخلّوا عن هذه الطريق ، وراحوا ينزلون إلى دمشق عن طريق (جسر النحاس الدحديلة « الدحداح ») إلى دمشق ، فصادف أن وقع نفور بين الأرناؤوط وبين أهل الصالحية ، وكان الأرناؤوط يسكنون حي سوقساروجة وأكثر الشقاوة التي كانت تقع بين أبناء هذا الحي كان يقوم بدورها الأرناؤوط من سكان الحي نفسه ، وسبب النفور كانت مصالحتهم مع الأكراد ، وبينما [كان] بعض زكرتية الصالحية مساء خارجاً من حي سوقساروجة إلى طريق الصالحية ، وكان قد تجاوز مدخل حارة الورد النافذ إلى طريق عين الكرش متوجهاً نحو بوابة الصالحية ، ناداه أحد أبناء حي سوقساروجة قائلاً : « عباسْ أبُو عَبْدُو » ، فوقف وسلّم عليه ودار بينهما الحديث التالي :

— لقد أحسنت جداً يا أبو عبدو بخروجك عن طريق البوابة .

أبو عبدو : ولماذا ؟

— لأن أولاد سوقساروجة والأرناؤوط علموا بأنك في دمشق ، وأنك ستخرج من طريق عين الكرش فذهبوا وهم يكمنون الآن عند العين (١) .

أبو عبدو : أتمزح ؟

(١) أي عين الكرش .

ـ كلا والله إنما أقول لك الواقع وأحببت أن أطلعك على نواياهم .

(وهنا شبت نار النخوة برأسه وكان معتداً بنفسه ، لم يكن معه من السلاح إلا الخنجر) .

أبو عبدو : إذن سأعدل عن طريق البوابة [1] وأسلك طريق عين الكرش لَشُوفْ هَالْكلاَبْ شُو بيقْدُرُوا يَعمْلُوا .

ـ لا يا أبو عبدو . .

أصرَّ وخرج،ولما بلغ جانب العين تنادوا عليه من أعلى دكوك [2] البستان ، وصاح بهم وحصلت معركة قتل اثنين من الأرناؤوط وثلاثة من حي سوقساروجة ، وُطرح في الأرض ومزّقوه بخناجرهم وحرابهم .

هذا هو رئيس زكرتية حي الصالحية (عبّاس العلاّف أبو عبدو) وهو جدّي أي جدّ والدي ، وكان أسنّ أبناء حيّه ، وبقية الزكرتية بالنسبة إليه كأولاده أو تلاميذه ، وقد تجاوز الثمانين من العمر ، وهو عباس بن خليل العلاف .

ثم أعقبه ابنه (عبدو) من بعده ولكنه كان زير نساء ، كما كانت تحدثنا جدتي ، وأدركناها وقد تجاوزت المائة من عمرها .

وأعقب (عبدو) ثلاثة أولاد (محمد وسليم وأحمد) ، فخلف

---

(١) المقصود بوابة الصالحية .

(٢) مفردها دك وهو جدار من تراب تحوط به الحدائق والبساتين .

(محمد كرد علي – غوطة دمشق – ص ٤٥)

(محمد) جدّه بالشقاوة ، وأما سليم وهو والدي فإنه بعد سنين قضاها في لبنان وبعلبك هرباً من وجه الحكومة ، عاد وتعلّم الفراء ١ وهو في الخمسين من عمره وحج وتاب ، وأما الثالث أحمد فقد كان درويشاً مجذوباً أرسله المختار بدلاً عن بعض أولاد الأثرياء إلى حرب الروس (قفقاس) ٢ ولم يعد .

---

(١) انظر ص ١٧ ، ولنا كلمة عن صناعة الفراء في دمشق .

الفراء : وهو من يتجر بالفرو ويتقن خياطته ولصقه ببعضه ، ونظراً لشدة البرد في دمشق شتاء تروج هذه الصناعة ، وكان لمن يعمل في هذه المهنة محل مخصوص بدمشق يعرف بـ (خان الفرو) وهو ضمن سوق الحرير ، وكان يسافر أصحاب هذه الصنعة في أواخر الشتاء للبلاد التي يوجد فيها أصناف الفرو ، ثم يجمعون منه قطعاً صغيرة من جلود إلى ما يناسب ألوانها وأجناسها ويخيطون بعضها على بعض ، حتى يكتمل من ذلك قطعة كبيرة تبلغ ذراعاً ونصف ذراع طولا ، بعرض ذراع وربع ، ويطلق على هذه القطعة اسم (شقة) يوفقون من كل صنف طبقات كثيرة ، كل شقتين متقاربتين في اللون والطول والعرض ، يلصقونهما مع بعضهما ، فيدخل الجلد ويبقى الفرو للخارج ، ويجعلون له برواز من القماش يخيطونه على أطرافها حينئذ يعرف بـ « البدن » وأحد وجهه أحسن من الثاني ، حيث يوضع على أطراف الفروة من الظاهر وما كان أدنى يوضع داخل الفروة قبل الظهر . والفرو أصناف متعددة منه المعروف في دمشق : (السمور) و (الألما) و (السمور الأحمر) و (السحاب) و (القاف) و (الأبيض) و (السلوا) .

ولقد كان هناك أيضاً (الفرواتي) ، وهو من يصنع جلود الغنم فراء ، ويصنعها كما مر سابقاً . ولفراء جلد الغنم صنفان : صنف منها شعره صغير جداً وهو المعروف بجلد الخاروف الذي يذبح صغيراً قبل بلوغه العشرة أيام من ولادته ، بشرط أن يكون أسود لا بياض فيه وهذا مرغوب وثمنه أغلى . والصنف الثاني : ما كان شعره طويلا ، من أي شكل كان ، أسود أو أحمر أو أبيض وهذا لا يعتني بلبسه إلا أهل القرى والعرب .

(جمال الدين القاسمي – قاموس الصناعات الشامية – جـ٢ – ص٣٣٩)

(٢) حرب القفقاس « حرب القريم » أو « القرم » : في سنة ١٨٥٤ – ١٨٥٦ . =

حادثة أيضاً :

دِيبْ ابْرَاهِيمْاتْ : من أشقياء (زكرتية) أبو جرش بالصالحية أيضاً كان خفيفاً رشيقاً، يقفز عن السطوح والجدران بشكل بهلواني (١) ، غريب له وقائع مع أولاد حيّ الخراب وباب السريجة ، وقد قبضت

= حدثت في عام ١٢٦٨ هـ : حدثت في القدس وبيت لحم أمور تألفت منها الأسباب لنشوب الحرب العظمى بين الدولة العثمانية وروسيا وهي الحرب المعروفة بحرب « القريم » . وذلك لاختلافات قديمة بين الروم واللاتين بسبب كنيسة القيامة وكنيسة المهد في بيت لحم ، ادعت كل من الطائفتين حق الرياسة والتقدم على الأخرى باستلام مفاتيحها ، وكانت روسيا قد طمعت في الشرق وقامت تطالب بحماية الروم الأرثوذكس أبناء مذهبها كما ادعت فرنسا حق المطالبة بحماية موارنة لبنان والطوائف البابوية منذ منتصف القرن الثامن عشر ، وحاولت الدولة العثمانية أن تغفل عن مطالبة قيصر روسيا فاتخذ ذلك حجة وقام يريد انفاذ وصية بطرس الأكبر القاضية بافتتاح الأرض العثمانية والاستيلاء على الآستانة .

هجم الأسطول الروسي في البحر الأسود على الأسطول العثماني وحطمه ، وانتصر الروس وكادوا يبلغون الآستانة ، فأرسلت انكلترة وفرنسا جيشاً وأساطيل إلى أرجاء البحر الأسود ، وقاتلت الروس وانتصرت عليهم في (سواستبول) وكذلك أرسلت سردينيا فرقاً من الجند الإيطالي ، دفع الدول إلى ذلك أمر غير حب المحافظة على الدولة العثمانية ، وهو الخوف من خروج روسيا إلى البحر المتوسط وبخروجها خطر على أوربا بل خطر على بريطانيا العظمى وطريق هندها ، وبعد حرب ثلاث سنين ١٨٥٤ — ١٨٥٦ ظفرت الدولة الروسية على مطالبها وامتيازاتها ، وعقدت معاهدة من شروطها : ضمان استقلال المملكة العثمانية وسلامتها ، والحظر على أية دولة التدخل في شؤونها ومساواة النصارى مع المسلمين في الحقوق .

(محمد كرد علي — خطط الشام — ج ٣ — ص ٧٧ . سليمان موسى — الحركة العربية ص ٢٠)

(١) بهلوان : الذي يمشي على الحبل ، وهي لعبة خطرة وصعبة تعتمد على الخفة والرشاقة واللياقة البدنية الجيدة ، ومنها : بهلواني : تطلق على خفيف الحركة ذو اللياقة البدنية العالية . (انظر المنجد — بهل)

عليه الحكومة وأودعته سجن القلعة فاحتال على نائب القلعة (جاويش) ١ وأعطاه دراهم ليغلي له الشاي ويأتي به إليه ، فلما فتح باب السجن الحديد وأدخل إليه الشاي مع قدح كبير ، ملأ القدح وانهال به على وجه (الشاويش) وأعقبه ببقية الإناء الساخن على وجهه ورأسه وفرّ على سطوح القلعة ، واستطاع أن يبقى إلى الليل ثم من جهة ما استطاع الهرب ، وأخيراً قتل على يد أبناء حيّه في المحل المعروف باسم (السهم الأعلى) من الجسر الأبيض (مقابل دار راشِد باشا مَرْدَمْ بك في يومنا هذا) . ولقد حاولت الحكومة القبض على (ديبْ ابراهيمَـاتْ) أكثر من ماية مرة فكان يوقع برجالها ويفلت كالسهم من أيديهم ، وقد حماه أخيراً بَـاشة المَغاربَة (علي باشا ابن الأمير عبد القادر) وأدخله بوجهه ٢ وتشفّع به لدى الوالي ، ولكنه قتل كما ذكرنا على يد أبناء حيّه .

حادث آخر أعجب من الجميع :

(السَّيْرَوانْ) ، وكان معاصراً آخر أيام (عباس علاف) ، وما أن بلغه مصرع (عباس)حتى أنكر كل أصحابه في سائر أحياء دمشق وأعلن العداء للجميع ، ومما يروى عنه أنه أول ما بدأ به أن خرج من حيّه أبي جرش بالصالحية وتوجه شرقاً إلى حيّ الأكراد فأوقع

(١) كلمة تركية وهي رتبة عسكرية بمعنى « رقيب » من رتبة صف الضباط و هو قائد « منكة » أي ثمانية أشخاص ، وكان هناك : جاويش أول وثاني وثالث .

(٢) مصطلح عامي معروف معناه أجاره وحماه، وهذه عادة عربية قديمة. ومن العادات أيضاً ربط المخطىء « المجرم » والدخول به إلى صاحب السلطة حيث يقوم بفك وثاقه بيديه وهذا يعني العفو عن جريمته مهما كانت .

به ، وثابر على طريق الأكراد عين الكرش حتى بلغ سوقساروجة فأوقع بهم وحرق عريشة المقهى (إن عريشة المقهى كانت في كل حيّ ندوة المجتمعين من زكرتية الحيّ ويستظلُّون بها في أيام الصيف وهي عبارة عن أغصان أشجار على عدة عُمد يستظلون بها من الشمس) . وتوجّه إلى جهة العقيْبة فطرق الباب على أحد زكرتيتها المشهورين من (آل الفيصل) وكان صديقاً حميماً له ، فلما علم بأنه ليس في داره قال لزوجته : سلّمي على (. . . . . .) (لم أذكر اسمه) وقولي له أخوك (السيروان) ولكن اليوم ما بقي أخوة بينك وبينه ، وذهب إلى عريشة الحي فأحرقها ، فتسلم طريق العمارة — والخراب — وباب الجابية — وباب السريجة وهــو يعمل بكل واحدة فيهــا حريقاً وخرج عن طريق كفرسوسة الى المزة إلى الصالحية ، كل ذلك ولم يجسر أحد على الصمود في وجهه أو مقابلته .

هذا هو (السيروان) المشهور الذي كان حديث القوم في دمشق وخارجها ، ولما وصل إلى الصالحية ، جاء إلى دار (عباس العلاف) ونادى ابنه (عبدو) وكان فتى في مقتبل العمر ، فقال له : « يا ابني سلّم على أمّك وقول لها ، إن عمّي السيروان ما وجد في أحياء دمشق واحداً خارج داره ، وأنه سينتقم لعباس مدى الحياة » .

ومن أخباره أنه بلغه بأن المختار سجل اسمه في سجل (النصيرية) نصيرية الصالحية ، فجاء إلى المختار وهو في عريشة الحيّ بين وجوه الحيّ وناداه فأسرع المختار إليه فقبض على يد المختار وسحب به إلى حارة (المسكي) مما يلي الجبل ، وذاك يصيح ويستغيث وأخيراً أقسم له بأن الخبر مغلوط ولم يسجله بين طائفة النصيرية ، فضربه بخنجره

فانحرف المختار عن الضرب وهو يصيح فدخل الخنجر بين شقي أحجار الحائط فلما سحبه بقيت قبضة الخنجر فقط بيده وعفا عنه .

وهذه من روايات المرحوم الشيخ أحمد النابلسي إمام الحي (وقد توفي منذ سنتين) .

هذه أمثلة عن بعض أعمال زكرتية الأحياء وجميعهم بالشجاعة والبأس متقاربون في سائر الأحياء ، ولهم جميعاً قصص يطول شرحها وتستغرق مجلدات ، أتيت بها تدليلاً على ضعف قوى الأمن وفساد الإدارة المحلية بعهد الأتراك في ذلك الحين .

ويقال بأن هذه الطبقة كانت على قسمين :

أحدهما الزكرتية : وهؤلاء أهل شهامة ومروءة ووجاهة وشجاعة ، يكرهون المنكرات ويحاربونها ، ويحفظون الناس من السوء .

والقسم الآخر الأشقياء : وهؤلاء كانوا يرتكبون كل ما تقوى عليه أيديهم .

فالسَّيْرَوان ، وعَبّاسْ العلاّف ، وأبو حَمْزة بَرْبُورْ بعدهما ، كانوا من أهل المروءات يحاربون كل فاحشة ، ولهم وقائع غريبة تحتاج إلى دراسة خاصة وكتاب خاص ، وكذلك بقية الأحياء كآل الفيصل [1] بالعقَيْبة وأبو سَعِيد الأسْطَة بالعَمارَة وكلهم أهل شهامة ومروءات .

أما الدّالي بَلْطَة ، وديب ابراهيمات ، وأبو وَجه مخَبّصْ

(١) إحدى العائلات المعروفة في حي العقيبة بدمشق .

أحمد ، وأبو حاتم الهرايسي ، وطالِبْ حَسنين . فكانوا من القسم الثاني لا يترفعون عن الهوى والمنكرات ولا يحسبون للمروءات أدنى حساب . ومع ذلك فقد كانوا على غاية من الاحتشام فإذا أراد أحدهم أن يتعاطى المسكر ، أو يرتكب الفاحشة فيذهب إلى ظاهر دمشق في البساتين وبين الغيض ١ والأشجار ، أو في كهوف الجبال يسكر ويقامر ، ويرتكب الفحش ويفعل ما يشاء بعيداً عن الدور والبيوت والأحياء .

أما أحمد أبو وُشّ مخبَبّصْ : فقد كان يحمي الحواكير كلها ويحرسها ويأخذ من أصحابها ما شاء مقابل حمايته لها .

أما أبو حاتم الهرايسي : فقد كان يربط الطريق على أهالي الوادي فيختبىء في شجرة دلب كانت أمام (حديقة الأمة اليوم) فيرد أهالي الوادي بأحمالهم قبل الفجر فينزل إليهم ويتقاضى عن كل حمل من مختلف الفواكه شيئاً معيناً من الدراهم ، حتى إذا بزغت الشمس تنتهي مهمته فيذهب إلى داره في الصالحية ، وقد عمر طويلاً هذا الرجل وتوفي خلال عام ١٩٣٣ للميلاد .

* * *

(١) مفردها غيضة ، وهي مجتمع الشجر في مغيض ماء (المحيط) .

التعامل ، أنواع العملة ، الدراهم

كانت المعاملة بالدراهم على شكل مشوش ١ ، فأكثر الدراهم الأجنبية كانت تغزو البلاد الشرقية ومن ضمنها دمشق .

فكانت الليرة الذهبية ٢ : عثمانية ، إنكليزية ، إفرنسية ، وكانت مستعملة بكثرة ، وأما الروسية والألمانية والإيطالية والنمسوية فقد كانت نادرة ، وأقدم الليرات العثمانية ما كان ضربها في عهد السلطان (محمود الثاني) ولا يزال منها بقية ، وفي الدرجة الثانية ، من أيام عبد المجيد ، أو عبد العزيز ، ومراد ، أو عبد الحميد ، والأكثر شيوعاً في عصرنا هي المضروبة قبيل الحرب العامة وأثناءها ، بعهد السلطان رشاد .

* * *

---

(١) كان للنقد في العهد العثماني سعران ، سعر ميري ويسمى (صاغ) أي سليم أو صحيح ، وسعر سوقي ويسمى بالعامية (شورك) وهو (جرك) أي معطوب وغير سليم ويسمى دارجاً أو مغشوشاً ، والأول هو سعر الخزينة .

(محمد عزة دروزة – نشأة الحركة العربية الثورية – ص ٢١٠)

(٢) كانت تعادل مئة قرش صاغ ، ولكنها كانت مئة وثلاثين أو أقل أو أكثر قليلا في السوق ، والقرش الصاغ يزيد بهذه النسبة عن السعر السوقي ، وكان القرش أربعين (بارة) والبارة بمعنى الجزء في الفارسية ، وكانت العملات ذهبية وفضية ونحاسية ، ثم ألغيت النحاسية وصار بدلها عملة من النيكل ، وكان هناك نصف ليرة وربع ليرة ذهبية كما كان قطع بليرتين وتسمى مجوزاً وقطع بخمسين وتسمى (مخمسة) ، وكانت العملة الذهبية والإفرنسية والإنكليزية رائجة في التعامل ، وقيمة الأولى أقل من العثمانية بمعدل ١٠ إلى ١٢٪ وقيمة الثانية أكثر بمعدل (٣ إلى ٥٪) ، وكان هناك عملة تسمى (الغازي) ولكنها لم تعد تضرب .

(المصدر السابق – ص ٢١٠)

المجيـــدي [١]

قطعة كبيرة من الفضة مستديرة ، ومن اسمها يعلم بأن مبدأ ضربها في عهد السلطان عبد المجيد ، وقيمتـــه الصحيحة (١٩) قرشاً وكسور قليلة والتعامل بين الناس (٢٣,٧٥) قرشاً ثم اعتبر (٢٥) . بينما الليرة العثمانية كانت (١٣٠,٧٥) قرشاً أو ماية قرش صحيحة [٢] ، والإفرنسية (١١٤) قرشاً وصحيحها أقل من ذلك ، والإنكليزية أكثر من العثمانية صرفاً وتعاملاً .

كان من العملة القديمة : أبو شوشة (نمساوي) ثم (فناس) [٣] ، وهذا لم ندركه في عهدنا ، ولم يقع نظرنا عليه .

ثم إن المجيدي الواحد يتكسر مجزّءاً إلى أربعة أقسام يقال لكل واحد منها (ربع مجيدي) ، كما يتكسر المجيدي إلى عشر (بَشالِكْ) قيمة كل (بِشْلِكْ) [٤] ثلاثة قروش وثلاث نحاسات حمراء صغيرة ، والبشلك يقسم أيضاً إلى عشرة « مَتالِيك » .

وكل قرش ثلاثة (متاليك) و (نحاسَةْ) واحدة، وكل (مَتْليك) [٥] خمس نحاسات .

---

(١) وكانت قيمة (المجيدي) متعادلة مع تعادل الأصل في الخزينة أو السوق ، ففي الخزينة كان يعادل (عشرين قرشاً) وفي السوق بـ (خمسة وعشرين قرشاً) أو أقل قليلا في بعض المدن ، وضربت مؤخراً عملة فضية بقروش وقرشين ، وكانت تسمى (براغيث) مفردها «برغوث» .

(٢) و (٣) و (٤) و (٥) وكان هناك عملة فضية نحاسية مزيجة تسمى (الوزري) وقيمتها بقيمة ربع المجيدي ، وكان لها نصف وربع ، ولم يعد يضرب من هذه العملة ،=

ويوجد قطع أخرى نحاسية هي (أم الخمسة) أي (نحاستان) باعتبار كل (نحاسة) تحوي (بارْتينْ ونصف) فصارت تسمى (أم الخَمْسة) .

وكل (متليك) و (ثلاث نحاسات) تسمى (قمْري) وهو (نصف القرش) .

ثم من العملة الفضية أيضاً (الزهْراوي) وكان مقعراً كالطاسة ، ويزيد عن مجموع (بشلكين) قليلاً .

ثم (أبو الميّة) وهو (قرشان ونصف) ثم قطعة تسمى (أبو الخَمْسين) فضية وهي أربعة (مَتَاليك) .

ومن الألفاظ المتعارفة قولهم : « ثلاثين مصْريّة» (أي مَتْايكان وأم الخمسة) » أو قولهم : « ستين مصرية » ، وهو قرش ونصف .

فلما كانت الحرب العالمية الأولى ألغيت القطع النحاسية وانقسم (المَتْليك) إلى قطعتين مستعملتين لكل منهما (نصفْ مَتْليكْ) ، واختفى (البشلِك) ثم بعدها اختفى (أبو الميّة وأبو الخمسين) ،

=وصارت تثقب وتوضع في سلاسل لتكون حلقة في عصائب الفلاحات التي كانت تسمى (صمادة) .

وكان هنالك عملة فضية – نحاسية أخرى تسمى (بشلك) أي ذات الخمس وكان نحاسها هو الغالب بينما كانت فضة (الوزري) هي الغالبة ، وكانت قيمة (البشلك) بقيمة نصف الوزري ، وكان لها نصف أيضاً .

– أما (المتليك) (تعني المعدن) وكانت قيمته ربع قرش صاغ ، وثلث قرش سوقي ، وكان له نصف .

(محمد عزة دروزة – نشأة الحركة العربية الثورية – ص ٢١١)

وبقي المجيدي وأقسامه ، أما (الزهراوي) فقد انقطع التعامل به قبل الحرب العالمية الأولى .

كما انقطع قبل ذلك بكثير التعامل بالنحاسات العجمية [1] والقطع الأجنبية كاملة ، وقد كانت من القطع المستعملة أيضاً قطع نحاسية من تونس ، كذلك بطل استعمالها قبل ذلك بكثير .

• • •

(1) وهي أبو شوشة (نمساوي) و (فناس) قطع نقدية نحاسية قديمة ذكرت سابقاً ، ومنها أيضاً « القبق » وكان بقيمة القرش وهو اسم لكلمة روسية .
(محمد عزة دروزة – نشأة الحركة العربية الثورية – ص ٢١٠)

الأسعـــــار

كانت أسعار الحاجيات ضئيلة جداً ، ومتناسبة مع أجرة العامل اليومية ، فكان العامل يتقاضى مياومته ثلاثة قروش [1] فيأخذ رطلاً من الخبز بأربعة (متاليك) ووقيتين لحمة [2] بأربعة (متاليك) ، وقليل من الخضرة فيطبخ بها ويبقى معه زيادة فيأكلها يومين ، فيوفر أجرة اليوم الثاني ، وكان الظرف من الدبس بخمسةعشر قرشاً يحوي علىعشرين رطلاً [3] من

(١) كل قرش يعادل (ثلاثة متاليك ونحاسة) ، أو (أربعون بارة) ، وكان يمكن أن يشترى بالبارة إضمامتان من البقدونس ، أو صحن من اللبن ، أو قطعة جبن أو رغيف خبز .

(٢) الأوقية جزء من الكيلو غرام تعادل خمسه أو (٢٠٠ غرام) .

(٣) الرطل : « اثنتا عشرة أوقية » ، وكان مقداره في دمشق (اقتين) أو «عشرة أوقيات » أي ما يعادل الآن كيلو غرامين ونصف الكيلو غرام تقريباً .

ولمعرفة قيمة هذه الأسعار نبين فيما يلي مقادير المرتبات لبعض موظفي الدولة في آخر ما قبل الدستور سنة ١٩٠٨ :

للوزراء ٧٥ — ١٠٠ ليرة عثمانية

للولاة بين ٥٠ — ٧٥ ليرة سورية

للمتصرفين بين ٣٠ — ٤٥ ليرة عثمانية (محافظ)

للقائمقامين بين ١٥ — ٢٥ ليرة عثمانية (الآن مديرو المناطق)

لمديري النواحي بين ٧ — ١٠ ليرة عثمانية

للمحاسب وهو رئيس الدائرة المالية في اللواء بين ١٥ — ٢٠ ليرة عثمانية

ومدير المالية وهو رئيس الدائرة المالية في القضاء بين ٧ — ١٠ ليرة عثمانية

ومدير البريد والبرق بين ٦ — ٩ ليرة عثمانية .

ويقاس على هذا من في مقام هؤلاء من رؤساء في الولاية والألوية والأقضية والعاصمة والجيش ، وكانت مرتبات الموظفين من غير الرؤساء تتراوح بين : ١٠٠ قرش و ٥٠٠ قرش أي بين ليرة وخمس ليرات عثمانية وأحياناً كانت تقل عن ليرة .

(محمد عزة دروزة — نشأة الحركة العربية الثورية — ص ٢١٠)

الدبس أوأقل قليلاً ، وكان رطل السمن بعشرين قرشاً أو مجيدي ، أما الخضرة فبالمتليك الواحد يأخذ حاجته من الخضرة بأنواعها ، والفواكه كذلك ، فكان الفقير يستطيع أن يعيش عيشة هنيئة والخيرات كثيرة وأرباب اليسار من الكرماء أكثر .

لذلك كان العيش سهلاً ، والناس في جهالة لايعرفون مما يدور في الخارج من الشؤون السياسية شيئاً ، وهذا مما دعا هم إلى إغتنام الأيام والأوقات وقتلها بالسهرات والسمر والسيارين (النزهات) .

* *

الصحافـــــة

إن الصحافة هي الرابطة الأولى للأفكار بين كل مجتمع ومجتمع آخر في البلدان السائرة ورجالها أمناء على إبلاغ الحوادث صحيحة سليمة ، ثم من وظائقها تذكير رؤساء الدولة ورجالها بواجبات الإصلاح الضروري والواسطة الوحيدة بين أماني الناس وبغيتهم وبين الدولة ، ومن وظائفها تمهيد السبل لرجال السلطة بطرق توجيهية حكيمة ليطلعوا رعاياهم بشكل ناعم لايوثر عليهم تأثيراً يدعو الى النفور .

ثم اخراج بعض المواضيع المفيدة من ماضي المجتمع ،حيث يستخلصون المواضيع البراقة من الماضي القومي اللامع فينشرونه على الناس ، ويذكرون اصلاحات الحكومة وأياديها لعمران البلد ، كما يذيعون اعلاناتها ، ، أوامرها ونواهيها ، قوانينها ونظمها ، كل ذلك كان عن طريق الصحافة بمنتهى الدقة والأمانة والحصافة .

إلا أن الدولة العثمانية لم تكن راغبة بمثل هذه الوسائط التي تفتق الأذهان وتنير العقول ، وتتمنى أن يبقى الشعب غارقاً في بحر الجهالة ، تائهاً في مجاهل الغباوة والبساطة .

وقد حدثني أحد القواد يوماً إذ كنا في الجيش قائلاً : « لقد كنا في اليمن إذ أعلن الدستور والناس يتصافحون مهنئين ، وكنا معشر الضباط نشترك بالتهنئة قائلين (دستور ، دستور ، دستور) ١ ثم

(١) (الدستور) كلمة فارسية معربة : تطلق على جميع القواعد الرئيسية التي تبين شكل الدولة ونظام الحكم فيها وحقوق الأفراد والجماعات ، وتستعمل كلمة (القانون الأساسي) بدلا منها ، وإن كانت كلمة دستور صارت أكثر شيوعاً . =

قال : واقسم بالله العظيم أننا كنا نردد كلمة الدستور مبتهجين ونحن غير عالمين أو عارفين شيئاً عن معاني كلمة الدستور » .

فإذا كان الضابط خريج المدرسة الحربية على هذه الدرجة من البساطة والبعد عن مدارك الحياة الحرة ، فما قولك في طبقة الباعة والتجار والعمال وكلهم جهلاء وفي كل شيء حتى في القراءة البسيطة والكتابة البسيطة.

لذلك لم يكن في دمشق صحافة تلاقي استعداداً لها ولغاياتها ، ولا تشجيعاً لا من الحكومة ولا من الناس ، ومع ذلك فقد كان في دمشق بعض جرائد هزلية مثلاً : (جريدة حط بالخرج) ١، (ضاعت الطاسة) ٢ ، (الحمارة) ، (أبو نواس) . وهذه الجرائد كانت تسير في ركاب الحكومة وتغمز أحياناً من طرف خفي عن بعض أفراد الحكومة في توانيها عن الاصلاح ، ولكن ما كان ليفهمها أحد لا من الحكومة ولا من

= ولقد أعلن الدستور في العهد العثماني الأخير مرتين في زمن السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩١ هـ - ١٨٧٤ م) و (١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م)

والمقصود بعبارة إعلان الدستور هنا وفي الصفحات السابقة هو الإعلان الثاني في سنة ١٩٠٨ م . وينعت الأتراك العهد الدستوري بنعت « مشروطية » وهي كلمة عربية ، والظاهر أرادوا بذلك أن الحكم يجب أن يكون مشروطاً برقابة الأمة أو مقيداً غير مطلق وغير فردي وغير استبدادي . .

(محمد عزة دروزة - نشأة الحركة العربية الثورية - ص ٥٦)

(١) حط بالخرج : تستعمل للدلالة على اللامبالاة وعدم الاهتمام وهي جملة عامية أي : « ضع همومك وكل أمورك جانباً ولا تهتم بها أو العمل من أجلها » .

(٢) ضاعت الطاسة : الطاسة : هي الوعاء الذي يستخدم في الحمام لصب الماء على المستحم ، وهذه العبارة تستعمل للدلالة على « الفوضى وضياع الأمور » وجاءت من : « ضياع الطاسة في الحمام حيث يحاول كل من المستحمين البحث عنها لصب الماء على جسمه لإزالة الصابون والبرودة » . . .

الشعب إلا النادر ، وكانت معرضة للتعطيل كما كان أصحابها معرضين للعقوبات ، وكانت هنالك جريدة سياسية تعرف بجريدة (المقتبس) لمؤسسها الفاضل العلامة (محمد كرد علي) ، وكانت أكثر مواضيعها علمية أدبية أخلاقية ، فاذا استغرقت بالمواضيع العمرانية بشكل يغمز جانب الحكومة بادرها رجال السلطة بالتهديد والوعيد ، أما الابحاث السياسية فكان مجالها ضيقاً جداً وبأسلوب ناعم لايبالي به رجال العهد ولايتفهمه أكثر القراء على ندرتهم ، وقد انقطعت حيناً وعادت وأخرج صاحبها مجلة بالاسم نفسه ، وسعى جهده مع طائفة من ذوي الأفكار النيرة (المخلصين منهم) لطرق أبواب اجتماعية أخرى فيها ، ولكن الاستعداد في الأمة لم يكن كافياً لتقبل وتفهم ماكانوا يسطرون .

وقد أسس الشهيد شكري العسلي جريدة (القَبَس) فأغلقتها الحكومة.

فكان الشعب الدمشقي منصرفاً بكليته إلى أعماله على مناهجه الموروثة في المهن والحرف قدماً على قدم ، ولايدري ولا يشعر بكل مايدور حوله إلا عند وقوع حرب بين دولة وأخرى يبقى متلهفاً ليرى لمن يكون الظفر وعلى من تكون الغلبة ، أو اذا وقعت الدولة العثمانية بمحنة مصطنعة وأكثر المحن التي كانت تغوص بها كانت مدبر[ة] مبيّتة سلفاً بين بعض رجالها وسياسيي الأجانب فعندما اجتزأت منها النمسا ولايتي (البوسنة والهرسك) قامت تتظاهر بالقوة والغضب وتثير الحماس بين شعوبها ، فتثور تلك الشعوب ثم تعود إلى رقادها وهدوئها في بضع ساعات من يوم واحد ، وكذلك عند حادثة (كريد) و (طرابلس الغرب) ،

ولكن لما وقعت الحرب العالمية ، عقب حرب البلقان ١ وانتظم أكثر الأهالي في الجندية الالزامية ، أخذت الأذهان بطبيعة الحال تتفتق منذ بدأت حروب البلقان وضاعت (ادرنة) و (سلانيك) و (قوصوه) و (مُنَاسْتِر) و (يَانيه) و (شقودْرَة) وبعض الجزر ، تلك الولايات الغنية برجالها ومواردها . وقد سبق ذلك قيام حركات داخليةبتحريض بعض الدول وفي مقدمتهم انكلتره ، كفتنة (الكــرك) ٢ و (جبل الدروز) أولاً وثانياً .

---

(١) في ٨ تشرين أول ١٩١٢ أعلنت دول البلقان الأربع (بلغاريا ، اليونان ، الصرب ، الجبل الأسود) الحرب على الدولة العثمانية ، ودخل العثمانيون الحرب دون استعداد لها ، أحرز البلقانيون انتصاراً حاسماً في فترة وجيزة حيث بلغوا ضواحي استانبول ، واستولوا على (سلانيك) وحاصروا (ادرنة) ، فاضطرت الحكومة العثمانية (الصدر الأعظم كامل باشا) لتوقيع الهدنة في ٣ كانون أول سنة ١٩١٢ . ولما عاد أنور باشا من طرابلس الغرب بعد أن قاد المقاومة ضد الطليان ، استؤنفت الحرب بسرعة وسقطت (ادرنة) وقلاع أخرى . ولكن خلاف دول البلقان المتحالفة فيما بينها وحربها مع بعضها ، حيث استغل الأتراك ذلك واستعادوا (ادرنة) . وكانت النتيجة النهائية لحرب البلقان ضياع جميع أراضي الدولة العثمانية في أوربا .

(سلمان موسى – الحركة العربية – ص ٢٩)

(٢) في العام ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) اعتدى بعض دروز جبل العرب على زعيم عرب (المعجل) مع سبعين رجلا من أصحابه في النقرة من حوران فقتل هذا الأخير مع أعوانه السبعين وبالمقابل قام عرب المعجل بالاعتداء على قافلة درزية وقتلوا رجلا من أكابر بيوتهم قرب (براق) .

– أما فتنة الكرك فصادف أن قطعت مرتبات بني صخر والخرسان وغيرهم من أهل الوبر فقام الذين حرموا من رواتبهم السنوية وهي أربعة آلاف ليرة في السنة بالسطو على بعض محطات سكة حديد الحجاز على طول أكثر من مائتي كيلو متر ،ونهبوا قطاراً بحمولته، وقام الكركيون باديهم وحاضرهم وأطالوا يد الاعتداء على التجار والموظفين والحامية وقتلوا=

ثم قيام بعض رجالات البلاد بتأليف بعض الجمعيات الخيرية ، وبعض التكتلات الخفيفة السياسية خفية ، وأخذت الألسنة تلوك أموراً لم يسبق أن طرقت آذانها ، وذلك بسبب بعض النشرات المغفلة التي كانت تنادي العرب كما سيأتي ذكره .

* * *

=(١٥٠) إنساناً منهم ، ولو لم يلجأ أكثرهم إلى قلعة الكرك لهلك ، كما وحرقت الأماكن الأميرية كلها ونهبت خزانة الحكومة ودور الموظفين وأحرق قسم منها .

(محمد كرد علي – خطط الشام – ج ٣ – ص ١١٠)

الأحزاب السياسية

لم تكن في ذلك العهد أحزاب سياسية بالمعنى المعروف في عصرنا من برامج واهداف وترتيب ومعارضة وسوى ذلك من الأعمال التنظيمية، فكان السلطان العثماني هو الرأس الأعلى ، وسائر طبقات الشعوب على اختلاف مللها ونحلها مرتبطة به ، لأن الخروج على آرائه ولو في سبيل الاصلاح يعد جريمة ينال مقترفها أقصى حدود العقوبة ، وأقلها النفي الأبدي .

وأمور السلطان مرتبة بأيدي السفراء خارجاً وشيوخ دار السعادة داخلاً وبعض المتنفذات من نساء العائلة المالكة أحياناً ، ولما ساءت الأوضاع داخلاً وخارجاً سافر بعض مفكري الأتراك ممن تأثروا بمبادىء (مدحة باشا) ونزحوا الى أوروبا وأسسوا حزب (ثرون ترك) (تركيا الفتاة) وهو حزب الاتحاد والترقي فيما بعد ، ولما تم خلع السلطان عبد الحميد ساد هذا الحزب البلاد بعد ويلات وخسائر فأضاع قسماً كبيراً من الأراضي العثمانية ، وكان آخرها ضياعاً الممالك العثمانية في أوربا ، ومازالت البلاد تسير نحو الانحلال حتى دالت دولة العثمانيين نهائياً ، وقامت على أنقاضها دولة الاتراك الكماليين ١ في الأناضول ، وجزء صغير من أوروبا تنتهي وراء (أدرنة) .

(١) نسبة الى : مصطفى كمال أتاتورك : ١٨٨١ – ١٩٣٨ : قائد تركي ولد في سلانيك ، زعيم الحزب الوطني ومؤسس الجمهورية التركية وأول رئيس لها سنة ١٩٢٣ أجرى إصلاحات عظيمة من أعمقها تأثيراً في الحقل الديني والاجتماعي والثقافي استعمال الأبجدية اللاتينية عوض العربية في الكتابة التركية وعلمنة الدولة ، لقب بـ (أتاترك) أي أبو الأتراك .

(اعلام المنجد – الموسوعة العربية الميسرة)

ان الحرب البلقانية أدت الى تفكير أوربا بضرورة القضاء على تلك الدولة نهائياً واقتسامها ، تنفيذاً لخططها السابقة قبل ذلك بزمن بعيد ، وكان زعماء العرب وأبناؤهم في المعاهد الأجنبية يسمعون ذلك من أساتذتهم ، ويرون ميول كبار الساسة في العالم المتمدن ميالين إلى القضاء على العثمانيين الأمر الذي أهاب بالعرب لأن ينتفضوا قليلاً ويبادروا إلى مايدرأ الأخطار عنهم قبل استفحالها وإدخالها في البرامج الاستعمارية .

* * *

القضية العربيـة

لم تكن القضية العربية وليدة الأحداث الأخيرة في تركيا بل كانت فكرة قديمة تنتقل مع الأجيـــال من عصر إلى عصر ، وكان ظهورهـــا واختفاؤها على نسبة الظروف والأحداث التي تنتاب العرب ويشاطرون الدولة في آلامها ، فكانت القضية العربية مجرد فكرة يرثها الأبناء عن الآباء والاجداد ، فما كانت لتقوى على السطو والتمرد على الأفكار الاسلامية المرتبطة بالخليفة العثماني ، خوفاً على الاسلام والمسلمين من الانحلال والوقوع في أيدي أعدائهم من الأمم النصرانية القوية .

فكان كل عربي مهما سمت وتدنت منزلته ومكانته الاجتماعية حريصاً على عروبته ، وإلى جانب ذللك وعلى قدر ثقافته كان حريصاً على أن يكون في ظلال الهلال العثماني [1] الممثل لكافة الشعوب الاسلامية ، والذي بعهدة واحترام وحماية الخليفة التركي .

إلا أن هذا الاعتقاد السائد في أكثر الطبقات لم يحل دون تفكير بعض مفكري العرب في سائر اقطارهم من السعي إلى إحياء مجد العرب وبعث دولتهم ورفعها إلى المستوى اللائق بتاريخ أمجادها وحضارتها ، وكان أكثر ما يسبب هيجان الشعور العربي بين آونة وأخرى ما كانت تقوم

(١) الهلال العثماني كان رمزاً للدولة العثمانية وكان السلطان فيها يمثل خليفة المسلمين ، كما أن السفاح جمال باشا عندما نفذ أحكام الإعدام بأحرار العرب في ١٩١٦ كانت التهم الرئيسية الموجهة إليهم هي محاولة الانفصال عن الهلال العثماني الممثل للرابطة الإسلامية وشعوبها حتى ان بعض المفكرين والأحرار العرب لم يفكروا بهذا الانفصال ومنهم مثلا (جمعية اللامركزية) التي كانت تسعى للإصلاح تحت راية الدولة العثمانية .

(أدهم الجندي – شهداء الحرب العالمية الكبرى)

به الدولة من حروب اليمن ونصب العداء إلى أمراء الجزيرة الآخرين ، لاسيما تجاهل حقوق العرب . بل تجاهلها حقوقها نفسها كدولة بالنسبة لسائر شعوب الجزيرة العربية وشيوخها ، فكان ضعف الدولة يضطرها إلى ممالأة الانكليز وبسط نفوذهم في سواحل الجزيرة وأواسطها .وهي تتغاضى عن كل ماكانيجري هنالك غير حاسبة للمستقبل أي حساب ،أو كأنما كانت تنظر إلى الأطراف النائيةوسكانها من أرض الجزيرة نظرةارتياب كأنهم ليسوا شعوبها ولاتابعين لها ، وان ضعف رجالها وسوء إدارتهم أفسحت مجالاً عظيماً لدعايات الأجانب (الانكليز) وتثبيت أقدامهم في (عدن) و (سلطنات لحج) ومحمياتها و (حضر موت) و (عمان) و (الاحساء) و (البحرين) وأراضي نجد ، فكأنها اعترفت ضمناً أن أولئك الشعوب من حق الانكليز النظر الى مقدراتهم وحمايتهم والتوغل في أراضيهم والتبسط في فرض نفوذهم عليهم ، وكثيراًماكان أولئك الشعوب يطلبون الى الدولة بأن تجري في بلادهم اختيارالمبعوثين (نواب) عن بلادهم فما كانت تراعي طلباتهم ولاتكترث بهم ، وماذلك إلا خوفاً من تكاثر النواب العرب في مجلس النواب العثماني وتكوين جبهة قوية من العرب يخُشى عليها وعلى سلامتها من تكتلهم وكثرتهم . فكانت تسعى جهدها للإقلال من مبعوثي العرب واختيارهم على صورة الانتقاء دون انتخاب من بلاد الشام والعراق وليبيا ، فهذا الضعف في الاتراك والنوازل التي توالت عليهم واضاعة أقطار كبرى من جسم الدولة ، وفساد إدارتهم وسوء نواياهم وقصر باعهم في السياسةالعليا ، والجهر بالعداء للعرب ، كل ذلك كان سبباً حقيقياً لإيقاظ الشعور العربي ، والسعي إلى التكتل وحماية الأقطار العربية من أن تتدهور مع الدولة إلى الخراب و الاضمحلال .

كيف نشأت :

لقد كتب كثير من المؤرخين في تآليفهم ومذكراتهم عن القضية العربية وكيف نشأت ، فكان كل منهم يرجع إلى ماسمع عمن رأى أوسمع فيتناقلون أحاديث شتى أكثرها بعيد عن الحقائق ، والحق معهم في جميع ذلك، لأن الفكرة كانت تجول في الأفكار افراداً وجماعات لايستطيعون التظاهر بها ، والتكتم كان شديداً خوفاً من بطش الاتراك من جهة ، وعدم اعتياد الناس على المجاهرة بالأفكار في ظل الحكومة الاستبدادية، وفقدان الاستعداد ووسائل العمل، كل ذلك كان يجعلهم على غير استعداد للمجاهرة بشيء من أفكارهم ، كما أنهم ماكانوا يدرون عن بعضهم ويخفون بينهم مايفضون به في خلواتهم لمن اعتمدوا على كتمانهم وجاروهم في أفكارهم .

وقد رأيت بأن الكتب التي ذكرت نهضة العرب وثورتهم قد أوردت بأنهم — أي العرب— بدأوا فيقضيتهم حوالي عام ١٩١٣ بينما الفكرة كما ذكرت قديمة ، واذا كانوا يريدون بذلك تعيين تأسيس الاحزب فهذا خطأ أيضاً ، إنما بدأ العرب في مؤتمرهم الأول وهو الأخير أيضاً في عام ١٩١٣ عقب حرب (البلقان) في (سان جرمن) ١ بباريز في القاعة الجغرافية على يد أصحاب الفكرة هناك من الشبان أصحاب الفكرة والطلاب العرب،وكتبوا الىالجمعية اللامركزية٢بمصرفأوفدت إليهم بعض

(١) أحد الأحياء المشهورة في العاصمة الفرنسية باريز ينسب إلى القديس (سان جرمن)

(٢) حزب (جمعية) اللا مركزية : تشكلت في مصر في كانون الأول (١٩١٢) أثناء الحرب البلقانية الأولى ، من قبل القوميين العرب وكان اسمها : حزب اللا مركزية الإدارية العثمانية ، وكانت على اتصال وثيق بالحزب التركي « الاتحاد والترقي» ومنهاجه مطابق له =

رجالها ، وتقاطر رجال العرب من سائر الاقطار والمهاجر ونجحوا في مؤتمرهم نجاحاً باهراً .

إن إعلان الحرية في الدولة العثمانية عقب الانقلاب العثماني[1] عام ١٣٢٦ وماعقب ذلك من جيش الحركة من الروملي ، قد أفسح المجال إلى العرب بفتح النوادي في الآستانة وبلاد الشام ، وقام رجال الإصلاح في بلاد الشام كما قام رجال السياسة العرب في الآستانة بتوسيع أعمالهم والسير على حذر بنشر الفكرة بين العرب ، ثم بين الطلاب ، وإنني لأذكر اجتماعاً عقد خلال عام (١٩٠٨) في دارنا ، وكان المرحوم (رشيد بقدونس) هو الداعي لهذا الاجتماع الذي حضره لفيف من إخوانه الضباط وبعض المدنيين ، واذكر من الضباط : بهاء الدين البخاري ، وأحمد البقاعي ، وعلي أفندي ، وأربعة آخرين لم يقع نظري عليهم منذ

=إلى حد كبير ، بلغ عدد أعضائه ١٠ آلاف شخص ، وكانت له فروع في جميع المدن السورية والفلسطينية تقريباً وفي أرجاء كثيرة من العراق ، وترأست الحزب لجنة مركزية مؤلفة من عشرين عضواً وهيئة تنفيذية مكونة من ستة أعضاء ، وكان رفيق العظم رئيس الحزب ، والشيخ عبد الحميد الزهراوي نائب الرئيس وهما من تلاميذ (الكواكبي) ، أقاموا اتصالات ونشاطات واسعة وخاصة مع المنتدى الأدبي وغيره من المنظمات الوطنية .

(لوتيسكي – تاريخ الأقطار العربية الحديث – ص٤٠٧)

(١) انقلاب ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨م) تم باتحاد الفيلقين الأول والثاني في (الروم ايلي) وتبعهما الفيلق الرابع في (كردستان) وذلك بالاتحاد مع عصابات البلغار ونادي الضابطان « نيازي بك » و « أنور بك » بالدستور أو يزحفان على دار الملك ، فلم يسع السلطان (عبد الحميد الثاني) إلا أن يعيد العمل بالقانون الأساسي الذي كان قد أوقفه منذ إحدى وثلاثين سنة ، فصدرت الإرادة بوضعه موضع العمل صبيحة يوم الجمعة ٢٥ جمادى الآخرة ١٣٢٦هـ سنة ١٩٠٨ م .

(محمد كرد علي – خطط الشام – ص ١١٦) .

انفضاض الاجتماع ، وكان بين المدنيين عبد المسيح أنطاكي من القطر المصري (صاحب جريدة العمران آنئذٍ) وثلاثة أو أربعة بعمائم بيضاء سمعت باسم أحدهم : عبد الحميد الزهراوي ، كما سمعت باسم واحد من آل الكردعلي ، وكنت إذ ذاك في العاشرة من عمري ١ وأقوم بخدمتهم ، ولاأعرف عنهم شيئاً إلا ماعلق بذهني من بعض الأسماء أو الأشخاص من الذين تتلمذت عليهم فيما بعد ورأيتهم على اتصال مع خالي المرحوم رشيد بقدونس ، لاسيما عندما كنت في المدرسة العثمانية وكانوا من أساتذتها ذلك عام ١٩٠٩ .

وقد توالت الاجتماعات إلا أنني كنت أرى الوجوه تتبدل غالباً ، وكانوا يجتمعون في قرية المزة أحياناً ، وكنت أعرف ذلك من إبطاء خالي عن الحضور إلى الدار .

ثم بعد أن اختمرت الأفكار وأخذوا يطبعون المناشير ، وكنت أوزعها هنا وهناك على جهات يحددونها ، دون أن اعلم اسماء أصحابها ،لاسيما عندما سافر خالي من دمشق بسبب حرب البَلْقَان (وكان من الضباط) واشترك في معارك (يانية) ووقع أسيراً في بلاد اليونان (أسبارطة)كانت ترد إلى اسم والدي ظروف كبيرة ولانعلم مصدرها، انما أفتحها فأجد العناوين على الظروف فأوزعها على تلك العناوين ، كما كان يوجد مع الظروف طائفة من المناشير كتب بالقلم الأحمر عليها : « واجبة التوزيع في الاحياء في الخفاء والكتمان » . فكنت أوزعها أيضاً ، والسبب في ارسالها إلى اسم والدي كان ايهاماً لدوائر البريد من الشبهات فوالدي يحترف صنعة

(١) هذا يؤكد أن تاريخ ميلاد المؤلف هو ١٨٩٨ هـ سنة .

التنجيد ١ في سوق الجمعة ومكانه معروف ، وإنه بالنسبة للأفكار المعلمة النيرة يعد أمياً منصرفاً لحرفته ، يخيط اللحف والفرش والوسائد وجهازات العرائس ، فلا يمكن أن يظن به أنه سياسي أو يشترك بأعمال عامة ، فكان الوسيلة الوحيدة لإيصال الظروف والرسالات البريدية المختومة إلى يدي ، وأنا أعمل بها حسب تعليمات مرسليها وأنا لاأعرف من هم على وجه الدقة .

وإني لاأزال أحفظ في ذاكرتي بعض ماكان يُنشر على الناس في ذلك الحين منها :

أبناء يَعْرُب أينَ مجدُ جُدُودِكم
وجُحُودِكُم لِعَلائِهِمْ آثَامُ

أبناءَ يَعْرُب أينَ كلُّ حقوقِكُم
أَوَ تَخْضَعُونَ وفوقَها الأقدامُ

أبناءُ يَعْرُبَ أين دورُ مُلوكِكم
ومَقرُّها بَغْدادُكم والشامُ

ما جاءَ في إحدى وَصَايا المُصطفى
أَنَّ الخلائِفَ بَعْدَهُ أعْجَامُ

(١) نلاحظ سابقاً أن المؤلف قد ذكر أن والده : « بعد سنين قضاها في لبنان وبعلبك هرباً من وجه الحكومة ، عاد وتعلم (الفراء) وهو في الخمسين من عمره » . بينما يقول هنا : ان واالده كان يحترف صنعة (التنجيد) .

ومنهـــا :

أتنقِـمون من العُرْبِ ابتـــدارهم
حقاً لَهُـمْ من يَدَيْكُم كانَ مُغْتَصباً

أَوْدَى العراقُ وَقَدْ باتَ الحجازُ عَلى
شَفا الضَّياعِ فَهَلْ من مُسْلِمٍ غَضِبا

ويترك الخَيل تجري في أعنتهـــــا
قُبَّ البُطُونِ عليهَا النّقْعُ قَدْ رَكِبا

وَسَوْفَ أَبْعَثُها إن طالَ بي زَمَني
شَعْواءَ لا يابِساً تُبْقي ولا رَطِبَا

بيعَتْ بأسواق أوربّا بلادهُـــم
بَيْعَ المَتاعِ وما لم يُشترى وُهِبـــا

أَلَيْسَ فيكُمْ وأَنْتُم ويحَكُم كُثُرٌ
أَخو طِمَاحٍ يَقُودُ الجحفَلَ اللّجِبا

والله لولا شُؤونٌ ثَمَّ تُقْعِدُني
لكُنْتُ أولَ مَنْ في قَوْسِهَا ضَرَبا

وهي قصيدة طويلة، وهذه من أواسط وأواخر أبياتها . لقد أنسيتها .

ومنها : « يا أبناء يعر ب » (معنى كلماتها) ، أن جاويد سيصل إلى بـــلادكم وعليـــكم أن تستقبلوه بالدينـاميت ١ والرصاص

(١) نوع من المتفجرات يصنع من « النتروجلسرين » وهي مادة مسامية ، وتنطلق الشحنة باستعمال مفرقع ، اكتشفه (الفريد نوبل) سنة ١٨٦٦ وهو معروف .
(الموسوعة العربية الميسرة ص ٨٣٩) .

الدُمْدُم ١ . وأن جاويد هذا كان من أقطاب الدولة العثمانية وعيون حزب الاتحاد .

ثم إن الدولة العثمانية راحت تؤسس في البلدان فروعاً لجمعية الاتحاد والترقي ، وتعمل على حمل الناس للانخراط فيها فكان حظ دمشق أيضاً كغيرها إذ افتتحوا فيها نادياً بعنوان : (شَـامْ إتِحادْ وتَـرَقّي جمْعِيتْنْك قلُوبِـيْ) أي نادي جمعية الاتحاد والترقي بدمشق ، وكان قريباً من المرجة ومدخل جادة السنجقدار .

كنا في المدرسة العثمانية (وقد مرّ ذكرها في بحث مدارس دمشق) عندما أعلن خلع السلطان عبد الحميد ، وكان أساتذة المدرسة الذين عددتهم في البحث المنوه به ، يبذلون الجهود الجبارة في تلقين الطلاب المبادىء القومية ، في أساليب مختلفة فالمرحوم الشهيد الأمير عارف الشهابي كان يلقن الطلاب تاريخ العرب بأسلوب عاطفي مؤثر جداً ، وكنّا نلتهب وطنية من تلك الحوادث التي يمليها علينا بأسلوبه الرقيق وبعباراته الجميلة مشفوعة بدموعه وعبراته ، وكان الدكتور أسعد الحكيم يعيد ذكريات الأندلس ومآسيها برواياته وتلقينها للطلاب ، ولم يسبق أن رأى مثل تلك الروايات ولا شاهدها أحد من أبناء دمشق بعد المرحوم (أبو خليل القباني) ، لذلك كان يُدعى إلى مشاهدتها أولياء الطلاب ووجوه دمشق ، فيلتهبون حماسة ويخرجون برأسمال وطني كان كافياً لتحريك شعورهم العربي من سهاده ، حتى إن طائفة من العلماء – بإشارة من والي دمشق – جاؤوا لينتقدوا سير المدرسة ويحتجوا على

---

(١) نوع من طلقات البنادق تنسب إلى « دومدوم » وهي بلدة في جنوب غرب البنغال بالهند ، سميت باسمها لأنها استخدمت فيها لأول مرة ، منع استخدام هذه الطلقات قانوناً سنة ١٨٩٩ . (المصدر السابق – ص ٨٢١) .

إقامة تلك الحفلات بداعي أنها مما يستنكره الدين الإسلامي ، لا سيما وقد حرّفوا نشيداً كان يتلى أثناء الرواية ، وبينما النشيد يقول :

« ان ذكر الماضي فرض جاء في القرآن » .

فقد حرفوها هكذا :

« إنما التمثيل فرض جاء في القرآن » .

وهكذا كانوا يسارعون إلى إحباط كل مسعى من شأنه نشر الثقافة العربية وأمجاد العرب بين الطلاب . حتى إن مدير المعارف العام التركي باغت المدرسة إبان حفلة فيها ، فجعلوا له مكاناً يراقب الحفلة ، وخطب بين يديه صغار الطلاب خطباً مختلفة باللغة التركية والعربية والإفرنسية ، كما ارتجل المرحوم الشهيد الأمير عارف الشهابي خطاباً باللغة التركية ، مما حمل الزائر على الاطمئنان لسير المدرسة .

وأذكر أنه دخل الصفوف ومرّ بصفّنا فوجّه سؤالاً إلى أحد الطلاب ويسمّى شفيق الخياط (الآن الدكتور شفيق الخياط) عن مصر ولمن تتبع في إدارتها ، فأجاب الطالب فوراً : « إنها تابعة إلى انكلترا » فصحح الوضع الأستاذ بأن وجه سؤالاً آخر آنياً إلى أحد الطلاب ويسمّى فارس صالحاني (الآن فارس بركات) ، سائلاً عن ارتباط مصر بالدولة ، ولما أجاب هذا الطالب بأنها تحت السيادة العثمانية ، افترّ ثغره عن ابتسامة السرور ، ثم استدرك فقال : « إنشاء الله ستعود إدارتها إلينا في المستقبل » ثم مضى إلى شأنه مودّعاً بالحفاوة والتكريم .

إن للمدارس الأهلية — وفي مقدمتها المدرسة العثمانية وما بذله أساتذتها — فضلاً كبيراً على إحياء شعور أبناء العرب ويقظتهم ،

فكانوا مثالاً رائعاً لأبناء النشء العربي المطلع على وضع بني قومه ، والفارق بين ماضيه وحاضره ، لذلك كانت عداوة الأتراك ملء القلوب ما كانت تخفى ، لا سيما وأن اختلاط هؤلاء الطلاب بذويهم أو بأمثالهم من الأطفال سبب سراية تلك المبادىء عنهم إلى غيرهم عن قصد وعن غير قصد .

كان في الدولة العثمانية حزب يناوىء حزب الاتحاد والترقي ، ويدعى (حزب الحرية والائتلاف) ١ وهو حزب تركي أيضاً ، إنما كان يقيم بين أعضائه الكثير من رجال العرب وسراتهم ٢ ، ولكنه كان ضعيفاً لم يستطع الحياة طويلاً أمام قوة حزب الاتحاد والترقي .

أما الأحزاب العربية ، فكان حزب الإصلاح ، واللجنة العليا للجمعية اللامركزية بمصر ، والمنتدى الأدبي بالآستانة .

ثم تعددت الأحزاب بعد ذلك العهد ، ونشأ بعض أحزاب كانت تعمل في الخفاء مثل (حزب العهد العربي) وكان من العسكريين ،

---

(١) حزب (جمعية) الحرية والائتلاف : بعد أن استتب الأمر للاتحاديين (حزب الاتحاد والترقي) ، أماطوا اللثام عن حقيقة نواياهم وأهدافهم فجعلوا خطتهم تركية بحتة ، فانفصل عنها حينئذ كل أحرار العرب ، وبعض الأتراك الغيورين على مصلحة وطنهم ، فأنشأ أحرار الأتراك جمعية (الحرية والائتلاف) التي كانت غاياتها منح الولايات العثمانية استقلالا إدارياً ، وإدارة شؤون المملكة على أساس اللامركزية وقامت هذه الجمعية بمظاهرة ثورية في الآستانة اسفرت عن سقوط وزارة الاتحاديين وحل مجلس المبعوثين ، وتعيين وزارة ائتلافية برئاسة مختار باشا ، ثم برئاسة كامل باشا .

(انظر أدهم آل جندي – شهداء الحرب العالمية الأولى ص ١٢ . لوتسكي – تاريخ الأقطار العربية الحديث ص ٤٠٧) .

(٢) الأصل : « سراتها » .

و (حزب قحطان) ، و (الإخاء العربي)،و(العروة الوثقى) ، وغيرهم وكلهم مذكورون ومشهورون في كتب التواريخ الحديثة ، وإنّما علاقتنا بدمشق قبل تاريخ ١٩١٠ فقط لذلك فإننا نقتصر عما كان يجري بعد هذا التاريخ ، ومع ذلك فلا بأس من أن نورد هنا بعض الأحزاب المشهورة ، وتأسيسها ومؤسسيها وأسماء التابعين لها والشهداء من القافلة الأولى والثانية :

اسم الحزب	أعضاؤه	عام تأسيسه
١ ــ جمعية النهضة اللبنانية من المسيحيين		١٩٠٥
٢ ــ الإخاء العربي ١	شَفيقْ المُؤيّد	١٩٠٧
	نَدْرَه مَطْران	
	عبد الكَريم خَليلْ	
	جَميل الحُسَيْني	
	عَبْد الوَهّابْ الإنْكليزي	
	حَقّي العَظم	

(١) هي أول جمعية عربية تأسست في الأستانة بعد اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ وأنشأت نادياً لها ،ومؤسسوها هم عدد من كبار موظفي العرب في العهد الحميدي ، خافوا على مناصبهم في الدور الجديد فاستعانوا ببعض الشبان العرب المتحمسين وأسسوا هذه الجمعية للدفاع عن مناصبهم ، وجاء في نص المادة الأولى من قانونها الأساسي ما يلي :

(أما مقصد جمعية الإخاء العربي العثماني فهو معاونة جمعية الاتحاد والترقي في سبيل المحافظة على احكام القانون الأساسي (الدستور) وجمع كلمة الملل العثمانية المختلفة بدون تفريق في الجنس والمذهب وتمكين الرابطة الجامعة بينهم وذلك لأجل خدمة الدولة العثمانية وإصلاح الشؤون المختلة ثم السعي لاعلاء شأن الأمة العربية ...) .

(امين سعيد ــ الثورة العربية الكبرى ــ المجلدة الأولى ــ ص ٧) .

اسم الحزب	اعضاؤه	عام تأسيسه
	عبد الحميد زهراوي	
	رِضا الصُلْح	
	حسيْن حيْدَر	
	الشيخ رَشيْد رِضا	
	رَفيقْ العَظمْ	
	عَبدِ الغَني العَريسي	
	عَبد الرَّحْمَن شَهبَنْدَر	
٣ ــ المنتدى الأدبي [٢]	عاصِم بَسيسُو	١٩٠٩
	الأمير عارِف الشِهابي	
	محمود المَحْمَصاني	
	عبد الرحمَن الشهبندر	
	عبد الكريم الخَليل	
	رَفيق رِزقْ سَلُّوم	
	سَيْف الدين الخَطيب	
	عبد الحميد الزهراوي	

(١) المنتدى الأدبي جاء بعد أن حلت جمعية الإخاء العربي التي لم تعمر طويلا لأسباب كثيرة ، انشىء المنتدى الأدبي سنة ١٩٠٩ : ومؤسسوه : عبد الكريم الخليل ويوسف سليمان حيدر وسيف الدين الخطيب ، وغيرهم ، وأهدافه أن يكون داراً لهم يجتمعون فيها وتلقى المحاضرات وتنشأ مكتبة ويأوي إليه من لا تساعده حالته المالية من الطلاب العرب على المبيت في الفنادق والدور ، اغلقته الحكومة سنة ١٩١٥ ، أدى خدمات عديدة للعرب ، وكان له شأو كبير في السياسة لم تبلغه جمعية من الجمعيات ، وكان مقره في « بارماق قبو » في الاستانة .

(أمين سعيد – الثورة العربية الكبرى – المجلدة الاولى ص ٧)

اسم الحزب	أعضاؤه	عام تأسيسه
	يوسف مخيْبر	
	سلَيمان حيدر	
	جَميل الحُسيني	
	الشيخ رَشيْد رِضا	
	شَفِيق المؤيد	
	رِضا الصُلْح	
	حقي العظم	
	رَفِيق العظم	
	حسين حَيدر	
	طالِب النقيب	
	عزيز علي المصري	
	عِزّة الجندي	
	نَدْرَة المُطْران	
	نَخْلَة مُطْران	
	رُشْدي الشّمْعَة	
	دكتور حسَنْ حيدر	
	سَليمْ الجزائري	
	عزَة الأعظمي	
٤ ـ الجمعية القحطانية[1]	خَليل حَمادة	١٩١٠

(١) انشئت هذه الجمعية في الآستانة في أواخر عام ١٩٠٩ ، وبين الباحثين خلاف حول مؤسسها فيقول بعضهم انه عبد الكريم الخليل ، ويقول آخرون انه خليل باشا حمادة أسسها=

اسم الحزب	أعضاؤه	عام تأسيسه
	عبد الحميد الزهراوي	
	عزيز علي المصري	
	سليم الجزائري	
	حقي العظم	
	حسن حمادة	
	عزة الجندي	
	أمين قزماني	
	شكري العسلي	
٥ ـ العهد ١	مقدم ـ عزيز علي المصري	١٩١٣

=عندما كان وزيراً للأوقاف بالاتفاق مع الشيخ الزهراوي ... وهي سرية وطنية غايتها بث المبادىء الصحيحة بين أبناء الأمة وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف ، وكانت الإشارة الرمزية بين أعضاء الجمعية هي أن يضغط المسلم على أحد أصابع يد المسلم ثم يضع الشاهدة الوسطى على الذراع الأيسر ويخفي بقية الاصابع ويهجي كلمة « هلال » عند المحادثة فإذا قال الأول هاء قال الثاني لام ثم يقول الأول فاء فيقول الثاني لام . انتشرت هذه الجمعية بين شباب العرب وضباطهم في الجيش العثماني وكثر عدد الداخلين فيها وكان لكل واحد منهم أن يدخل عضواً بدون استئذان المركز العام . وقد عاشت حتى الحرب العظمى .

(أمين سعيد ـ الثورة العربية الكبرى ـ المجلدة الأولى ـ ص ١٠) .

(١) انشأ هذه الجمعية في الآستانة البكباشي عزيز علي المصري يوم ٢٨ اكتوبر (تشرين أول) سنة ١٩١٣ بعد ما ضم إليه نخبة من ضباط العرب في الجيش العثماني ، وقد أقسم اعضاؤها على أن لايبوحوا بشيء عنها وأن يعملوا لإدراك أغراضها ، غايتها السعي للاستقلال الداخلي لبلاد العرب على أن تظل متحدة مع حكومة الآستانة ، ترى الجمعية ضرورة بقاء الخلافة الاسلامية وديعة مقدسة بأيدي آل عثمان ، و « كانت الجمعية تعتقد أن الآستانة رأس الشرق وان الشرق لا يعيش اذا اقتطعتها دولة أجنبية فهي تعنى (الجمعية) عناية خاصة بالدفاع عنها وتعمل للمحافظة على سلامتها ، ولما كان الاتراك يؤلفون منذ ستمائة سنة المخافر الأمامية للشرق أمام=

اسم الحزب	أعضاؤه	عام تأسيسه
	مقدم — سَليم الجزائري	
	رئيس — يحيى كاظم أبو الشرف عابدين	
	مقدم — أمين لُطْفي	
	مقدم — رَشيدْ بَقْدونس	
	مقدم — مصطفى وصفي	
	رئيس — شَريْفْ الحجار	
	دكتور عسكري — عبد القادر زهرا	
	مقدم — عارِفْ التّوامْ	
	رئيس — سَعيد العاصْ	

(وكنت من شبانها العاملين ثم تسجلت عضواً عاملاً رسمياً) .

٦ ـ الجمعية الثورية[1] : هي من رجال حزب العهد ومن : فؤاد الخطيب

=الغرب فعلى العرب أن يعملوا للحصول على ما يؤهلهم لأن يكونوا القوى الاحتياطية الصالحة لهذه المخافر ... ولكن الحكومة الاتحادية العثمانية قررت ضرب هذه الجمعية . ففي ٢٤ يناير (كانون الثاني) سنة ١٩١٤ ، أقصي الضباط أعضاء هذه الجمعية وعددهم : (٣١٥ ضابطاً) ، واصدرت أيضاً في ٩ فبراير (شباط) أمراً باحالة مؤسسها (عزيز علي المصري) إلى المحكمة العسكرية بتهمة سوء التصرف بمبلغ من المال ...

(أمين سعيد — الثورة العربية الكبرى — المجلدة الأولى — ص ٤٧) .

(١) وضع اسم هذه الجمعية عزيز علي المصري وحقي العظم والشيخ فؤاد الخطيب والضباط الفارون إلى مصر ، وقد نشط عزيز علي المصري لاحداثها بعد القبض عليه وصدور العفو عنه في الآستانة وعودته إلى مصر ، وكانت هذه الجمعية تسير وتسعى وراء المقاصد العربية ضمن برنامج الجمعية اللامركزية .

(أدهم آل جندي — شهداء الحرب العالمية الكبرى — ص ١٦) .

اسم الحزب	أعضاؤه		عام تأسيسه
٧ – النهضة اللبنانية ١	دعيبس المُرّ	– بيروت	
	خليل زَيْنَيّة	– بيروت	
	يوسف الغَلبُوني	– بيروت	
	اسكندر عَمُّون	– مصر	
	داوُد عَمُّون	– مصر	
	شُكْري غَانِم	– باريز	
	خيْر الله خير الله	– باريز	
	جريْعاتي		
	زوُيْن الخُوري		
	نَعُوم مكَرْزِل	– اميركا	
	سَعيد عقل		
	رزق الله أرقَش		
	اسكنْدر الخوري		
	بترو بَاولي		

(١) جمعية النهضة اللبنانية : أسست في لبنان ، وهي أقدم الجمعيات العربية المؤسسة اشترك في تأليفها فريق من أسرة الخازن وخليل وزينية وغيرهم ، ولها فروع في مصر وباريز وكان رئيس شعبة مصر هو : اسكندر عمون وانتسب إليها قسم كبير من اللبنانيين المقيمين في مصر ، وكان شكري غانم رئيس الشعبة في باريز ، ورئيس شعبة اميركا نعوم مكرزل صاحب جريدة الهدى في نيويورك ، وقد اتهم الأتراك أفراد هذه الجمعية بأن نزعتهم لبنانية – فرنسية .

(ادهم آل جندي – شهداء الحرب العالمية الكبرى – ص ١٦)

اسم الحزب	اعضاؤه	عام تأسيسه
٨ ـ حزب الإصلاح المسيحي[١]	ميشيل التويني	
	يوسف الهـاني	
	بترو طرادْ	
	أيوبْ ثابت	
	رزق الله أرْقَش	
	خليل زَيْنيّة .	
٩ ـ اللامركزية[٢]	الشيخ رَشيد رضا	
	عبدالحميد الزَهْرَاوي	
	رفيق العظم	

(١) حزب الاصلاح المسيحي (الجمعية الاصلاحية) . وكان من أبرز أعضائها ميشيل التويني ، يوسف الهاني ، بترو طراد ، أيوب ثابت ، رزق الله أرقش ، وخليل زينية وهم الموقعون على اللائحة الاصلاحية المعروفة التي وجدت لدى قنصل فرنسا العام ، فسببت بطش الأتراك في نفر كريم من اللبنانيين .

(أدهم آل جندي ـ شهداء الحرب العالمية الكبرى ـ ص ١٦) .

(٢) حزب اللامركزية « حزب اللامركزية الادارية العثماني » ، سنة ١٩١٢ ـ ١٩١٣ مهد الوضع السياسي الدولي السبيل للقوميين العرب ، فانتفاضة اليمن والبانيا وفشل الأتراك في حربهم ضد ايطاليا (١٩١١ ـ ١٩١٢) وتحالف دول البلقان (١٩١٢ ـ ١٩١٣) كل هذه العوامل أدت إلى تقويض دعائم الامبراطورية العثمانية وإلى تحرير الشعوب اليونانية والسلافية في البلقان من النير التركي ، وإن جميع هذه الأحداث من فشل الأتراك العسكري وتحرير الشعوب البلقانية ومجيء حزب « الحرية والائتلاف » إلى السلطة بالإضافة إلى ضغط الدول المعنية ، مهدت السبيل إلى نهوض الحركة الوطنية في الأقطار العربية خلال الأعوام ١٩١٢ ـ ١٩١٣ ، وفي كانون أول سنة ١٩١٢ (في غضون الحرب البلقانية) الأولى ألف القوميون العرب في القاهرة حزب (اللامركزية الإدارية العثمانية) وكان على اتصال وثيق بالحزب=

اسم الحزب	أعضاؤه	عام تأسيسه
	حقّي العَظِم	
	داوُد بَرَكات	
	اسكنْدَر عَمُّون	
	شفيق بك المُؤيد	
	علي أرْمَنازي	فرع حماة
	خالد درويش البَرازي	فرع حماة
	قَسْطَنْدِي يَنِي	فرع حمص
	صالح حيدر	فرع بعلبك
	سليم أحْمَد عبد الهَادي	جنين
	نايِفْ تِللُو	البقاع
١٠ – اللامركزية ببيروت	محمُود المَحْمَصاني	
	فَرْتُور القاضي	
	مصطفى سِمَيْسمة	
	عبد القادر الخرسا	

=التركي « الحرية والائتلاف » ومنهاجه مطابق له إلى حد كبير ، وبلغ عدد أعضاء حزب اللامركزية (عشرة آلاف شخص) وكانت له فروع في جميع المدن السورية والفلسطينية تقريباً وفي أرجاء كثيرة من العراق ، وترأست الحزب لجنة مركزية مؤلفة من عشرين عضواً وهيئة تنفيذية مكونة من ستة أعضاء ، وكان رفيق العظم رئيس الحزب ، والشيخ عبد الحميد الزهراوي نائب الرئيس وهما من تلاميذ الكواكبي وقام الحزب بنشاطات عارمة ، واتصالات مع « المنتدى الأدبي » والمنظمات العربية الوطنية . وكان برنامجه مؤلفاً من ثلاث وثلاثين مادة .

(لوتسكي – تاريخ الأقطار العربية الحديث – ص ٤٠٧) .

اسم الحزب	أعضاؤه	عام تأسيسه

١١ ـ جمعية تنشيط العرب المسلمين في باريز ١

توفيق الناطُور
محمّد المَحْمصاني
عَوْني عَبْدِ الهادي
تَوفيقْ القَـائِـد

(١) ربما كان المقصود من جمعية تنشيط العرب المسلمين في باريز هي « جمعية العربية الفتاة » . ولا بد من بعض الشرح عنها :

تأسست في باريز سنة ١٩١١ من قبل ثلاثة من الطلاب العرب الذين قصدوها بعدما أتموا دراستهم في الآستانة وهم : الدكتور أحمد قدري وعوني عبد الهادي ورستم حيدر ثم انضم إليهم رفيق التميمي ومحمد المحمصاني وعبد الغني العريسي وجميل مردم بك ، وقد اكتفوا باطلاق (الفتاة) عليها في أول الأمر لئلا يلفتوا النظر وأرادوا أن تكون للعرب بمثابة جمعية الاتحاد والترقي للترك .

وكان من خططها الداخلية أن لا يعرف الداخل فيها سوى الذي أدخله ، وكانت تتألف من ثلاث هيئات : الهيئة الإدارية وقوامها ستة أعضاء وتدير شؤون الجمعية ، والهيئة العاملة ، والهيئة الثالثة تضم الداخلين حديثاً .

وكان شعار الجمعية : بعث الشعب العربي والمطالبة باستقلال الأقطار العربية ، والكفاح من أجل تحرير العرب من السيطرة التركية أو من أي طغيان أجنبي آخر ، وكان للجمعية كلمة رمزية اصطلحت عليها للمكاتبات والاتصال وهي : « بزغ فجر وطنك مت لعضد شخص أحي ثقة ظذ » ، انتقل مركز هذه الجمعية إلى سورية بعد عودة مؤسسيها إلى بلادهم سنة١٩١٢ واتخذت بيروت مقراً رئيسياً لها .

استشهد الكثير من أعضائها في سنوات الحرب العالمية الأولى على أيدي الجلادين الأتراك ودخل فيها بعد اعلان الحرب ، فيصل بن الحسين ، وعلي رضا باشا الركابي .

(أمين سعيد – الثورة العربية الكبرى – المجلدة الاولى – ص ٩، لوتسكي – تاريخ الأقطار العربية الحديث – ص ٤٠٤) .

عبدِ الغَنِي العَريسي
رَفِيق رزق سلّوم
سيف الدين الخطيب
نَدْرَة مَطْران
جميل معروف
شارْل دَبّاس
شكري غانم
جميل مَرْدَم بك

* * *

بعض الاناشيد الوطنية المشهورة في ذلك العهد

١ —

إلى الحربِ إلى الحربِ
هلمّوا يا بني العُرْبِ
فهذي تُرْبَةُ الأجداد
تُناديكُم إلى الحربِ
هلمّوا وانبذوا الأحقاد
وموتوا في الوغى أمجاد

× × ×

٢ —

نحن جند الله شبّان البلادِ
نكرهُ الذلّ ونأبَى الاضطهاد
يا بني عمي ويا أُسْدَ الشّرى
قام سوقُ الحربِ في كل الورى
فارفعوا الأعلام وامشوا للجهاد
حيث أعدانا تَمادوا في الغرور
فارفعوا الأعلام وامشُوا كي نَرى
سيفكم يلعبُ ما بينَ النحور

× × ×

— ٣ —

شبّوا على الخصمِ اللدود

نار الوغى ذات الوقـود

قوموا إلى الموت الزؤام

وامشوا له مشي الأسـود

يا أيهـا العُرب الكرام

إلى متى أنتم نيـــام

× × ×

وهناك أناشيد مدرسية خاصة :

أَلبست الأوطانَ ثوْبَ الأحزان

يا زمـانَ التيهِ شر الأزمـــانِ

يا شعب الإسلامِ التركي والعربِ

لا تنس ملكاً زالَ عنكَ في الغربِ

ألبس الإسلام ثوب الرهبـــانِ

فابكوا يا إسلام أرض الإسبانِ

وهناك بعض مقطوعات كانت تنشر وتلحّن خفية :

كفى بَنِـي العُرْبِ ذلاً أن نكون لمن

كانوا عبيداً لنا جُنداً وأعوانا

مقطوعة المنتدى الأدبي : وهي وصف آثار الاندلس :

بقايا قصورٍ من طلولٍ مشيدة
بها سمح الدهر الخؤون فأبقاها
إلى السيف تنعو ١ أمــة عربيــة
تعالى بها في سلـّمِ العلمِ مرقاها

ثم مقطوعة أخرى :

قالتِ الأسْدُ لأبنــــا يعربِ
وحـِّدُوا الأيدي جميعاً في يـدِ
ثم سيروا للعلى في حــــــربِ
إن تموتـُوا اليوم تحيوا في غدِ

هذا بعض مابقي عالقاً بالذهن منذ عهد الصبا والدراسةالبدائيةفي ذلك العهد بين نشيد وأقوال مأثورة عن بعض الجماعات ، وأما أكثر الأناشيد الأخرى في المدارس وخارجها فلاتتعدى المدائح النبوية،أو ماينم عن الترحيب بالزائرين لتلك المدارس .

* * *

بعض الأغاني الشعبية التي لا أزال أذكرها
في ذلك العهد . مرتبة حسب القديم

١ —

هي بَرْدُو بَرْدُو بَرْدُو   لاوي راسُه مِنْ بَرْدُو
كشّفْتِيــــني غَطيّــــني   دَنّقْتيني حُو بَرْدو

* * *

يــا حَبيبي يــا نــا يِــــمْ   فَتّحْ وَرْدْ الجَنَايِـــنْ
صار لي سِنْتِينَ صــــايمْ   عَلى بُوسِه١ من خدّو

* * *

ياحَبيبي شُوفْ كيفْـَـكْ   والليّــلة أنا ضِيفْــكْ
زَيْمتّي تَحْت لحيفْـَــــك   لأَرْجيك٢ على كل شي وحدو
ياحَبيبي شُو بِتريـــــــد   بيني وبينكْ مافي بْعيـد
صبّ العَرَقْ هاتْ نْبيـــد   والمَازَة وَرِدْ خَـدّو

* * *

٢ —

هي زَيْنُو زَيْنو زَيْنُـــــو   مابَالْ خزَامَك عَيْنــو

---

(١) بوسة كلمة عامية بمعنى (قبلة) .
(٢) لارجيك كلمة عامية بمعنى (سأريك)

دَخيلْكْ دَخيل عيونِك دِلّيني على البيت فينْو[1]

* * *

٣ —

يا نَخلتينْ بالعَلالي يا بَلَحْهُم دَوا

دوا لَلْعين

وإنْ كان قَصْدَكْ بالغِرَّه أنا مالي رايحه بَرَّهْ

لَنَيْمَكْ على السرّة وعَلّمكْ شغْل الهَوَى

يانور العين

وان كانْ قَصْدَك بِنْهُودي قمْ هاتْ الدّرْبكة والعُودي

لَنَيْمَكْ عَلَى زْنُودي وعلّمكْ شغْلْ الهوى

ياعين ياعين

وان كانْ قَصْدَكْ بجْسمي قمْ هاتْ لي بَدْله على كَسمي

لَنَيْمَك على جِسْمي وعلّمك لعْبْ الهَوَى

يانور العين

* * *

٤ —

بالأمانْ يايمّا على المصريّه بِستان وجْنينه وَنَبْعةْ مَيّا

صابر ولو جارْ الزمانْ عَلَيّ

على إيشْ[2] تضربني وأنا إسمي حَمَاتَك

الجيران ضجّوا من ضَربْ عَصَاتَكْ

---

(١) فينو : كلمة عامية بمعنى « أين » .

(٢) على إيش : كلمة عامية بمعنى « لماذا » ؟ .

صابر ولو جار الزمان ع ـَليَّ
على إيش تضربني وأنا إسمي فِلّـــــه
وان كان يا حبّي قَصْدَك تِتْسَلّى
خلّ الجنيه مصري وَخُشْ الناموسيّـــا
على إيشْ تِضْرِبْني وأنا إسمي لُولُـو
خَيّـلك ضَرَبْني يُوْ[1] سَلامَةْ طولُـه
أنا أحبك إيش ما قالوا يقولوا
أنا احبك يا عزيز عَيــنيَّ

* * *

٥ —

هَيْهَـات يا بو الزِلُـوفْ عيــني يا مُولَيّـــا
الله أكـــبر عـــلى مِنْ زَغْزَغ النِّيّـــه
يشرب حصانك هَنَـا ولــو عَكّر الميّـــهْ

— يا شُوفِه شِفْتها وتْقلِيْ سَمَكْ بِنّي
ومفرّعَــه باللَيْــلك ما تختِشِي [2] مِنّــي
قُومُوا قولــوا لأبوهــا الشـــايبـة البنّي
حبْلِتْ وجابِتْ صَبي وقالت أنا بنيّـــا

— يا شُوْفِه [3] شِفْتهــا وتقلِي عــلى الصّاجِــهْ

---

(١) يو : كلمة عامية تستعمل للتعجب بمعنى « آه » .
(٢) تختشي : كلمة عامية بمعنى « تستحي » .
(٣) شوفة : كلمة عامية بمعنى « منظر » أو « رؤية » .

ومَدْكُوكه على الصَدرْ خرْفان وَنْعاجــــه
لا تاخد إلا السـمرْ والبيْضْ غنّــاجــه
سَمْرَة تْشيْل الحِمـلْ قَنْطـــار وشويّــا

* * *

يا شُوفـــه شـفتها طالعـــه على الوَادي
وتِعِد نْجُوم السّــمَا ازواج وأفــــراد
يا ربّ يْغيبْ القمَـــر لاقْضِي أنا مْــرادي
إهْجُـمْ عَلَى بيتْكمْ آخـــد البْنَيّــا

* * *

منْ هُونْ لابواب الدرِ منْ هُونْ لابْواب الدّيــرِ
والسِرّ اللّي بينْنـــا وشُوْ وصّلُوا لَلْغيــر
وان كان ما في وَرَقْ لاكتب على جنْاح الطير
وان كان شَحّ الحِبـــرْ ابْكـــوا يا عينيّــا

* * *

زوالِفْ يابو الزّلُــوف سَمْــرَة يا يا عيني
ما احلَى رْكُوب الجَمَل لــو قادتُه بْنَيّـــا
لا تقربي لَلْغِمِــــرْ تَحْتِ الغمِـرْ حيّـا

* * *

زوالف يا بو الــزلوف سَمْــرَة يــا عيــنيَ
ضَرْب الخَنَـاجرْ وَلاَ حِكمْ النَـدِلْ فيّــا

يشربْ حصانَك هنا من دموعْ عينيّا

* * *

وتقولي ياعَمْ وتقول ياعَمْ
يافمك خاتم ذهبْ سبحان من لموْ
من ياخذ محبوبتي يابدمّي يابدمُّه
أنا بظهر الحصانْ بيدي تاتاريّا

* * *

وتقولّي ماجابتْ[1] وتقولوا ماجابتْ
جابت اثنى عشر صبي والشمسْ ما غابتْ
راحتْ زارتْ النبيّ حجّتْ وما تابتْ
كشفتْ على صدرها وقالت أنا بنيّا

* * *

وتقولّي منْ متْلي وتقولّي منْ متْلي
بستان أبويا حمَلْ ياصاحبي هاتْ لي
طلبتْ منها الوصال بجفونها ومدّتْ لي
وقالتْ لي وصالك على روحي وعينيّا

* * *

لاشوفها تكشكش حجلْ من وادي لوادي
وتقولْ يامرحبا نسّمْ هوا بلادي
ياربّي يطوف النهر ويتحمّل الوادي

(١) جابت : بمعنى « ولدت » .

لاعمل زندي جسر وانقذ البنيا

* * *

وتقولي هدولي وتقولي هدولي
أربع طيور الحمام ع البرج هدولي
لولا خوفي من هلك[1] والحكم والدوله
لاهجم على بيتكم واخذ البنيا

ملحوظة :

لقد تغنت البلاد الشامية على اختلاف اللهجات في تلحين هذه الأغنية والزيادة في أقوالها وكلماتها ، فأصبحت مشاعاً بين أهل الهوى ، يلحنها ويضع[2] في كلماتها العشاق والمتغزلون ماشاؤوا أو ماشاءت لهم أهواؤهم وأصبحت بالتفنن كأغنية الميجانا والعتابا .

٦ — * * *

الميجانا ياميجانا يا ميجانا
لاتنزعلي وحياة عينيك جيت أنا
أوف ...
صدرك عمارة والحجر صدري أنا
صدرك عمارة والحجر صدري أنا

* * *

(١) هلك : حذف الألف من أول الكلمة لضرورة النغم وأصلها « أهلك » .
(٢) الأصل : « يوضع » سهو .

رِدُّوا مَعَانا لَنِسَلّي بعْضِنَـــا
رِدّوا مَعَانا لَنِسَلّي بَعْضِنَا
زَحْلِه بَلَدْنا والعَرَقْ مشْروبِنـــا
هَلّ الهِلاَلْ وشَافِتُه [1] كل الدُنا

* * *

يا ميجانا يا ميجـــانا يا ميجـــانا
زهر القـــرنفل يا ربيع بـــلادنـــا
أهلاً وسهلاً فيك يابن بْـــلادِنا

ملحوظة :

إن هذه الأغنية تكون وصفاتها غالباً إنشائية مشفوعة بمـــوال من « العتابا » ، فمثلا بعد أن يقال :

صدرك عمارة والحجر بنياننا صدرك عمارة والحجر بنياننا

يبدأ العتابة فيقول :

صدرك عمارة والحجـــر بنيت على اللي كان في الحبا
واليوم بانِتْ ويا سَعْد من حظي ببنت
ويا تعس من قضّى عمره بأرمله

وبانتهاء الموال يبدأ الميجانا .

وهذه أيضاً تفنن الناس بها حتى يومنا هذا .

* * *

(١) شافته : كلمة عامية بمعنى « رأته » .

— ٧

بَرْهُــومْ يا بَرْهُــومْ	يــا بُــو الجَـــــديْلِـه
بْعَيْنَكْ تِغْمِزْني يابَرْهُوم	بيْدكَ تُوميْ لي (١)

* * *

بَرهــوم على السطــوح	والشَعَرْ بيلـــوحْ
والقلب مَجْروحْ	يا مَـامَـا جَرْح السكّينه

* * *

بَرْهُومْ مِنْ عِنّـــا	والشعـــر مْحنّـــا
واطْلُب واتمنّــى	يا بَرهـــوم تلقى الغنيمـــه

ملحوظة :

كان النساء يبكين عند التغني بهذه الأغنية ، وان تلحينها حزين جداً ينم عما في ألفاظها وكلماتها من معان رقيقة ، ولهم في هذه الأغنية، قصة خلاصتها : أن امرأة كانت تتعشق فتى اسمه (ابراهيم (فعلم بذلك إخوتها فقتلوه ، وكان لهذا الفتى أخت فريدة ليس لها أحد سواه ،

---

(١) في منطقة اللاذقية أغنية تشابه هذه وتقول كلماتها :

ع الاسمـر اللون	ع الاسمراني
طبلـين ينحقـوا	بعزا الاسمـيراني
أمّــوا دبحينـــوا	واختـوا الحزناني

والنساء يبكين عند سماع هذه الاغنية الحزينة جدا .

فكانت تجتمع إلى العاشقة ، وتندبه معها بالألحان الرقيقة الجارحة .
ولها وصفات كثيرة تعدّ وضعها معه، منذ أول معرفتها به إلى حين كشف أمراهماوالقضاء عليه .

* * *

— ٨

عاليا ديلْ يَاديلْ يادِيـــل   يابو العـْبيِـــــديــــه
يا حـــورْ مامـّيـــــاَك   نَسْمِــه شَمــاليّـــــه

* * *

لاْطلَعَ لرَاسْ الجَبَـــلْ   واشْرِف عَلىَ الوادي
واقولْ يا مَــرْحَبَـــا   نَسّمْ هَوَا بْلاَدِيْ
يارب يغيب القمـــــر   لاْقضِـــــي انا مـرادي

* * *

لاطْلَعْ لَراسْ الجَبَـــلْ   واشْرِف عَلىَ الغُــوطَــه
يارَبْ نَسْمةْ هــــوَا   تِكْشِف لِكْ الفُــوطَه
ويبّــين باشِةْ حـــلَب   حُولُــه الأفنــــديِّه

* * *

يارَايحـــين لحَلَـــــبْ   حبِىّ مَعَكُم رَاح
يامْشَيِّلـــين العِنَــبْ   فوقْ العِنَب تِفـّــاحْ
كِلْ مِنْ حَبِيبُـه عنـده   وأنـــا حبيبي راحْ
يامِنْ يجيبْ الحَبيـــبْ   ياخُـد ألْف وميّـــه

ملحوظة :

إن أوصاف أغنية (أبو الزلوف) تتمشى مع هذه الأغنية جنباً إلى جنب مع اختلاف في اللحن .

* * *

٩ —

غزالي يابُو العِبَـــــا ياهَوى يا مْعَـــذّبـــا
طَلَبْتْ منّـي المَجيـدي ومنّيْن اجيْب المَجيـدي
عَلىَ جِسرْ الحَـديـدي ولّـف حَبيبِ الصِّبـــا

وهذه وصفاتها كثيرة يتصرف بكلماتها المغنون حسب أوضاعهم كما يشاؤون ، لذلك فقد كانت كلماتها الأصلية مشبوهة .

* * *

١٠ —

على دَلْعُونا عـــلى دَلْعُـــونا
هـوَى الشّمـالي غَيّرْ اللُّـــونا
هوى الشمالي غَيّر لي حـــاليْ
حِبّي جَفَاني امبَـارِحْ واليـوما

* * *

على دلعونا لِيْشْ دَاّعْتِيــــني
اعْرفْتيِني شَايِبْ ليشْ أخَذْتِيني

لاكتِبْ كِتَابكْ عَلَى وَرَقْ تيــــني
واجْعَلْ طَلاقِكْ بِذْرِ الزَّيتُــــونا

* * *

شوفات بحظّى ببنتْ النِّــــصراني
قَطْعِتْ صَلاتي وديني وإيمـــاني
ياما يايمّا اعطيني حِصَــــاني
عَسْكَرْ جديده يارب العُـــونا

* * *

شوفات بحظّى ببنْتِ اليَهــــودي
قَطْعِتْ صَلاتي وديني ومَعْبــودي
يمّا يايمّا اعطيني فُــــرودي
عَسْكَرْ جْديده يارَبّ العُـــونا

* * *

لاصْبُغ اسْناني مِنْ لُونْ النيـــلي
وابكي عَليهُم طول السِّنــين
وان كان ياحِبي مارَاحْ تجيــــني
لاشْلَح ثيابي واطْلَع مَجْنُــونا

وهذه أيضاً كان يتصرف فيها الناس كل حسب مشيئته وهواه إلا أنهم كانوا يحافظون على اللحن الأصلي .

* * *

— ١١

سلم عليهم يانسيم إن شفتهم قَبِلَ أياديهم وبُوس لي خدهم
لهم كلام لا الناس يشبه حَكْيِهم

. . .

آه أنا سيدي أنا روحي أنــــا
اترُكْ هَوى العزّال وسايرْني أنــا
آه ياأنا شــرّف حبيبي لعِنْــدِنَا
آه اترك هوى العزّال وسايرني أنــا

وهذه يتصرفون بكلماتها وألحانها ، فلم يكن لها وزن أو لحن أو كلمات أصلية معروفة . . . الخ .

. . .

أغنية ١

آه ياأنا شرّف حبيبي لعِنْــدِنــا
شَرطْ المَحَبَةّ ياجَمْيل أنتِ وْأنــا
سَلّمِْ عليهم يانسيم إن شفتهــم
قبل أياديهم وبوُس لي خــدّهم
لهم كلام لا الناس يشبه حكيهــم

. . .

(١) كتبت هذه الاغنية بدون رقم على ظهر الصفحة رقم (٦٥) في الاصل .

١٢ -

دومَك دومَك دومَك دُومْ يامَامَا

خلّـــي الحِـلوه تِشْبَع نـــوم[1]

ياطيري ياللي طاير طاير عـلى باب الله

أمانة بصدرَكْ ياطير سَـلّم على عبد الله

. . .

يـــادُوم يـادُوم يـــــادُوم

خلّي الحِلْوه تِشْبَـع نـــوم

وعَـــدْتِيـني ومَا جيـــــتي

وكُل يُوم بتْقُـــولي اليُـــوم

* * *

١٣ -

ياحْنَيّنه ياحْنَيّنه يـــــاحْنَيّـــنه

ليت نُومِك للضُحى صِحّه وهَنَـا

واقفة على الباب تنادي يـــا فــــرج

لابْسِـه القفطـان على المُودّه[2] دَرَجْ

يلْبَق[3] للحِلوة عِلّيه ودَرَجْ

سكّــره ومفتـــاح والحارس أنـــا

. . .

---

(١) الأصل : «نعوم» ولعله سهو .

(٢) كلمة أجنبية تعريبها « الزي » .

(٣) يلبق : يليق « يلائم » .

واقفه على البابْ تنْادي خَالتي
واقْعَه بالعِشِق شُوفوا حـالَتي
قومُوا نصْف الليل شُوفُو فـرْشِتي
خاليه من الحب وحْدي نـائمـه

. . .

واقفة على الباب تنادي يـالَطيـف
مالِي مَجْنونـِه ولاَ عَقْلي خفيف
بالله ياحْبابي طَعْمُوني رَغيـف
ورَغيف المَحْبوبْ عيَّشْني سنـه

* * *

الأغاني الراقصة :

وهذه أيضاً يتصرفون بكلماتها وألحانها :

١٤ —

طَالْعَه مِنْ بِيتْ أَبُوهـا فايْته[1] بِيتْ الجـيران
لابْسـِه الأحْمَرَ على الأخْضَر والغـرّه تضربْ سَلام

. . .

قِلتْ لها ياحِلْوهارْويـني وعَلَى شَعْرِك فَرْجيـني
قالتْ رُوحْ يامَسْكيـني ياشَعْري حَرِيـرْ ياسَلاَمْ

* * *

(١) كلمة عامية بمعنى « دخل » .

١٥ —

يـــانَايما يـــانـــايمـــــــا ليتْ العَـــوافي دَايمـــــا
يـــا نايمـــا وامْـــرَحْرحه والخَصِـــر زَيّ المَرْوحـــه

. . .

يانَـــايمـــا يـــنَـــا يمـــا ليت العَـــــوافي دَايمَـــا
يـــا نَـــايمـــا وامرْشْرشِه ومْكَحَلِـــهِ ومْنَقَشِـــه

. . .

يـــانَـــيما يـــنَايمـــــــا ليتْ العَـــــوافي دَايمـــا
يـــانَايمـــه نومْ الهـــــني والدقّ عَلَىَ المَبْسَمْ حِلِيْ

وهذه الأغنية خاصة بحالة الرقص .

. . .

١٦ —

جانِم[1] يـــالاَ لاَ لـــــــــلي أمَـــــانْ جَانمْ ياليـــل
صـــادَفْني حبيـــــــــبي وعَزَمْـــــني عَلىَ البيـــت

. . .

جانم يالاَ لاَ لـَــــــــلي أمـــــانْ جَانم ياليل
طلب أوَل بُـــــوسِـــــه طقْطَقْ خشب البيــــت

. . .

(1) جاءت في الاصل « خانم » وصححناها ب « جانم » وهي كلمة تركية بمعنى : صديق أو حبيب . وهذه الكلمة شائعة معروفة في الاغاني .

جـاتم يـــالاَ لاَ لَـــلي	أمـــانْ جَـــانم ياليـــل
طلب ثـــاني بـــوســـــه	مـــالْ الحيـــط عَلى ّالحيط

. . .

جـــانم يـــالاَ لاَ لَـــلي	أمَـــان جانمْ يـــاليـــل
طلب ثالث بـــــوســـــه	هربت منـــــه اتجنيّـــت

وهذه خاصة بالرقص ولها وصفات كثيرة .

. . .

١٧ —

ياحَـــلالي يـــا مَـــالِي	يارَبْعي ياماَ جرى لِيْ
حِطْ البُرغل فوق الـــرز	يطْلَـــــع مَنْسَف ملاليْ

. . .

يَاحَـــلالي يـــا مَـــالي	يارَبْعي يــمَا جرى لِي
ياحلالي مـــــن حَـــــلاَ	وعيونـــــه سود مكحّلا

الخ . . وهذه للرقص أيضاً .

. . .

١٨ —

رَحْنا لَنْـــديْر الميّــــــا	لاقينَا الميّــــــا مَحْميَا
حاميها أبـــو عَبْـــــــدُو	بسْيُوفُه هــــالمَجْليّـــا

. . .

رِحْنا لَنْــدِيرْ المَيّـــا   لاقينا المَيّــا مَحْميّــا
حاميها أبــو سَعيـــــدْ   بِسْيُوفُه هَالمَجايــــا

. . .

رحنا لَنْديرْ المَيّــــا   لاقينَا الميّـا مَحْميــــا
حامِيها صَاحِب الــــدّار   بِسْيُوفُه هــالمجْليــا

وهــذة للرقص يوصف بها رجال العائلتين المجتمعتين بالأفراح أو السمر .

* * *

١٨ —

ياجْرَادْ جَاكْ السَّمَرْمَــرْ   ياجْرَادْ جَاكْ السَّمَرْمَــرْ

وهــذه للرقص ليس لها سوى هذه الكلمات غير أنها تختلف من حيث أوضاع الراقصة فقط ، وهي تقفز على قدميها وعلى بطنهاوظهرها وجوانبها ١ ، ويرددها الحاضرون بين التصفيق بالأكف .

* * *

١٩ —

دِكّي دِكّي يالله الحَــالْ   دِكّي دِكّي ولَكْ دِكّي ياالله

وهــذه للرقص في مكان معين تحرك الراقصة أعضاءها على انفراد ، وقدماها ثابتتان في محل معين لاتتزحزح ، فتارة جسمها للأمام وطوراً للخلف مقدار ربع ساعة حتى تنتفش شعورها وتختل ثيابها . وليس لها سوى الكلمات المذكورة التي ترددها الحاضرات .

* * *

(١) وردت في الأصل « أجابها » زلة قلم .

— ٢٠

شاءِرْ شاءِرْ ياعَلِي — لحم البقر يا علي
لحم البقر يا علي — طَرْبُوش علي يا علي
جاكيت علي يا علي — متيان علي يا علي
مَحْزم علي [ياعلي] — سروال علي ياعلي

ملحوظة :

هذه للرقص الخاص بالرجال، وكلما قيل له عن نوع من لباسه أثناء الرقص كان يخلعه حالاً حتى يبقى متعرياً من كافة الملابس، فيقومون إليه ليجبروه على خلع سرواله ويضحكوا ويعلو ضجيجهم بالقهقهات .

* * *

٢١ — اغنية عادية :

رَايح فِينْ يا مْسَلّيني — يالْلي جَرَحت القَلبْداويني
امْلي المدام ياجميل واسقيني — ياكِثْرةْ شوقي عَليكْياحَرَام

* * *

رَايحْ فِينْ ياجاي من أيسن — يالْلِي غَمَزْني برِمْشِالعينْ
والقَلبْ مايهْوىَ شَكْلين — إلاّ واحِدة عَلَى مايدُامْ

* * *

شِقّ الجَبَلْواقْشَعْ شُو فيه — لاقِيتْ حَبيبي نَايمْ فِيه
رأيت العَرَق مكلّله — والشهد من فمه يطفيه

* * *

ابن الزنى اصحَ تْجَـافيـه يمْشي مَعَكْ بالخـلاف
أنا الذي من شوقي فيـــه امشي على شوكـه حـافي

* * *

انا المسافرْ خـاطـرْكم خليت محْبُوبتي بوْداعتْكم
ايشْ ماطَلبتْ بالله اعطوْها ولمـا نجي نْحاسبْكُم
الـــخ . .

* * *

— ٢٢

قدّكْ الميّاسْ ياعُمْـــري وغصينْ البانْ كمْ يسْري
وانتَ أحْلى النّاسْ بنَظري جَلّ منْ سوّاك ياعُمري

* * *

والله ماليِ مْحَـــاكيتُه قبل مايصفّي لي نيتُـــه
وليْ سنتين مْعَــاديتــه فكوّني واكسبُوا أجري

* * *

لا تْشُوفُوني بــالحَـالِه أوَاعي العزّ منْشَـالـه
فليْ فَرْوة ولي شَالِـــه أبويا وارثْ عن جـدي
الـــخ . . .

* * *

— ٢٣

ياابتَاع النّعنَـــــاعْ يامنْعنْــع يامنْعنْــع
ياابتَـاعْ النعنَـــاعْ يـا شيخْ أحْمَــدْ

* * *

— ٢٣

عَمّي يا عَلي يابْتاعْ الزَيت
دَقْنَكْ مَعَكْ والله يا لِبيت

* * *

عمّي عَلي يابْتاع الزّيتْ
كدى ١ ياولد وانا كِده حبّيْت

وهذه تستعمل للرقص ويتصرفون بكلام فيها من عندياتهم .

* * *

— ٢٤

بابَاتي يا الهِنْدِيّه كَتّرْ كتّرْ كتّرْ كترّخرْجيّا
بابَاتي يا الهِنْديّه بالله بالله بالله خرجيّا

وهذه للرقص كلماتها محدودة .

* * *

— ٢٥

سُوْسَحْني هَوَى الشّباكْ أخذ عقلي هوى الشباك
سُوسَحْني هوى الشباك

* * *

والله لابيعْ الشَالِه وستين سِنه على الشَانه

(١) هكذا جاءت في الأصل والأصح « كده » وهي كلمة عامية مصرية بمعنى « هكذا » .

واشْتِري لِلحِلْوة تِنْبـاكْ   سُوسَحْني هوى الشبـاك

* * *

والله لابيعْ المَحْـزَمْ   وستِينْ سِنِه على المحزَمْ
واشْتِري للحِلوةِ كنْيـاكْ   سُوسَحْني هَوَى الشّبـاكْ

* * *

والله لابيع اغْـرَاضِي   وستين سِنِه على اغْراضي
واهرُبْ أنا وايـاكِ   سُوسَحْني هَوَى الشباكْ

وهذه للرقص بين النساء فقط .

* * *

— ٢٦

لازمْ اكِشُّه هَالعَصْفـور   واخربْ لُه عِشُّه هالعَصْفُور
عصفوري طَارْ وعـلّى   نَزَلْ لَبيتْ المُـلاّ
لاقَى عَجُوزْ تتْفَـلّى   وشِعْرتْها تحمِيّ التنوّر
لازم أكشـهُ هـالعصفـور

وهذه للرقص بين النساء فقط .

* * *

— ٢٧

يابُورْدانه يـا بُـوردَانـَه   عتب علَيّ راح وخـلاّنـا

* * *

يالابْسِه توب حـقّ الله   ياشالحـه توب حق الله

وكل الناس عبيـــد الله وانا عَبْدَكْ يـامولانا

. . .الـخ . .

وهذه للرقص .

* * *

٢٨ —

ثوبي عنــدِك مالِكْ شِــــي

وبعيــني شوفْتــوُ مــالِكْ شِــــي

* * *

غطـايْ عِنْـدِكْ مــالِكْ شِــي

وبعيــني شوفتــو مــالِك شــي

وهذه للرقص الخفيف السريع أيضاً حيث تعدّ كل ملابسها .

* * *

٢٩ —

راحَه احَوّر راحَه احَوّر اتْخَطْبِتْ بنْتي اتْخَطْبت بنْتي

راحه احِوّر راحَه احـوّر كَتَبُوا كْتَابها كَتَبوا كتابها

راحه احوّر راحَـه احـوّر دَخْلِت بِنْتي دَخْلت بِنْتي

للرقص الخفيف ويتصرفون بكلمات شتّى فيها ضمن حدود العرس والخطبة .

* * *

٣٠ —

مايلَه عـلى الغُصُـنْ عيـني سَمْرَه سابيتينا

يحرقْ قلْيبُه الهَـوى يَمَّا ايش عمل فينــا

* * *

سمّوكِ ماانصفوا عيني سمّوك عِرْق الآس
أصيلِه بين الشجـر مَشْكُوله ١ فوق الراسْ

* * *

الرَّمْلْ مايِنْعِجـنْ عيني والشوكْ مايِنْداسْ
والسـر ما ينعطـى إلاّ لاناس ونـاسْ
... الخ . للرقص الثقيل .

* * *

— ٣١

بالي مَعَكْ بالي بالي بـالي يابو الجبين عالي عالي عالي
وحياة سواد عَيْناكْ ياحبيبي غيرك ما يحلا لي

* * *

يابائعـة المشمـشْ ياحبيبي وايش حَمّلكْ مشمش ياعيني
جاء البوليس يكَمُشْ ياحبيبي على الحبس آه آه وَدّاني ٢

* * *

يابائعـة النرجسْ ، ياحبيبي وايش حمّلك نرجسْ ياعيني
جاء البوليس يكبـس ياحبيبي على الحبس آه آه ودّاني

---

(١) مشكولة : كلمة عامية بمعنى « تزين » .
(٢) وداني : كلمة عامية بمعنى « أخذني » .

للرقص الوسط ويعدّدون لها أوضاعاً كثيرة أيضاً ويتصرفون ويتغنون بألفاظها وكلماتها .

* * *

٣٢ —

ياحكيم	النصـــراني	خصـــرك	لـــوى
وان كنت تفهم بالمعنى		اوصـــف	دوا
مدّتْ يدي على العِنقْ		سيـــدي	العنِـــقْ
نـتَرْ يدي وقال لـي		مالـــك	دوا
مدّت يديّ على النهودْ		سيـــدي	النهـــود
نـتَرْ يدي وقال لي		لِسّـــا	ماستـوا ١
مدّت يـدي على البطن		سيـــدي	البطـــن
رجفتْ يدي وقالتْ لي		اصْـحَ	الهَـــوَى

الخ . . .وهكذا يرددون سائر الاعضاء حتى يصلوا الى العضو المقصود (!) وعندها تقول (ملنا سوى) .

* * *

٣٣ —

بـالله	اعـــذرونـيْ	يـــاهْـل	الهـوَى
تحت الدوالي	الـــدوالي	نلعـــب	ســوى

* * *

(١) استوا : كلمة عامية بمعنى « نضج » .

يـايامـُو راسي بيـــوجعني هايْ ليْش يمّا ليْش ؟ [1]
بدّي حكيم ينفعـــني هـاي ليْش يمّا لِيش ؟

للرقص الخفيف .

* * *

٣٤ —

يايامـُو ضَاع مـَنـْديلي بحـــوش الـــرسّـــامْ
أخذه مـِني ّ العَـــرْبيـلي بحـــوشْ الـرَسّـــامْ
يايمّا دَخْلِكْ منديـلي بحــــوش الـرّسّامْ

للرقص الخفيف .

* * *

مدّت يدي على خِصْرِي انحَلّ احْزامي عَنْ خصري
وجاء الحِلـُو لَقَصْري وقالْ لي ياالله لَنْنَـــامْ
يايمّـــا ضاع منــــديــلي بحـــوش الـــــرسّـام

ولها وصفات بهذا المعنى يرددونها بالنسبة لحالة الغرام مع محبوبها ويتصرفون بكلماتها ، وكلما قالت الراقصة : « يايمّا ضَاع منديلي » يردون عليها بقولهم : « بحوش الرسّام » .

* * *

٣٥ —

مـَرْمـَرْ زماني يازماني مـَرْمـَرْ الله بَلاني بْهوَاكْ ياأسمرْ
يارَايحه عـَلىَ الحـَمّام خديني معـــــــــــاك
لاحـْمِـلْ لِـكْ البقجه وامشيِ وراكِ

(١) ليش يما ليش : كلمة عامية بمعنى « لماذا يا أمي » .

وان كان ابوك مـاعطاني يـّـــاكِ
لاعْمِلْ عَمَايِلْ ما عملْهَـا عنتر

* * *

شرّف حبيبي ونـاولني وَرده
وقال لي ياحِلْوِهْ تَعِيْ عالمخـدّه

قالت له حبي لِسّاني بـالعـدة
ألّلي ١ مستعجل اخذوني عالعَسكَرْ

وهذه يتصرفون بها كثيراً مع المحافظة على لحنهـا .

* * *

٣٦ —

هَيّـر هَيّـاره عيـني هَـتّيرْ
دايِرْ بـالحَـارَه ولَـد صْغَـيّرْ
وجئـت لبـوسه لُـونـه تغـيرّ

* * *

دَايِرْ واخْـدِينه الله يْعِينُـه
قتـلْ محبينُـهْ ساري عَسْكَر (سر عسكر)

* * *

داير بِعْبَابه رَاحُو احبابُه
قتـل أصحَـابه سـاري عسـكر

(١) ألّلي : كلمة عامية بمعنى « قال لي » .

وهذه يعددون لها كلمات كثيرة وتشير إلى ظلامة الطفل الذي قتل أحبابه رئيس العساكر .

* * *

٣٧ —

على الفَــــنّ الفــــنّ الفنانه	على الفن الفن الفنّانــه
كأنها وَرْدِة دَبْــــلاَنــه	على الفن الفن الفنّــانِه
كأنها زهـــرة دبـــلانـه	على الفنّ الفن الفنّــانه
كأنها عجــوز ورْمـــانــه	على الفن الفن الفَنّــانه
كأنها صّبيــه خَرْمــانــه	على الفن الفن الفنـانِـه
كأنها دايخـــه وسكــرانـه	على الفن الفن الفنّــانه
كأنها حفْاض البَلاّنـِــــه	على الفن الفن الفنّـانــه

للرقص الخفيف ، والتي توصف تنوّع التشبيه والبقية يرددون (الفنّانـه) وعندما تنتهي الى الوصفة الأخيرة يتضاحكون جميعاً وتنتهي من الرقص .

* * *

٣٨ —

عـالحَمّوم عـالحَمُّوم	نُومـه تحت العريشـــه
عـالحَمُّوم عـالحَمُّوم	نومه تحت الزيتــونــه
عالحمّوم عـالحمّـوم	نومه برّات الأُوَطْـه ١
ياعريسْ اتركْ النّومْ	عروستك صارلها كم يوم

(١) برات الأوطة : برات : خارج وهي (عامية)
الأوطه : كلمة تركية بمعنى « غرفة » .

عالحمُّوم عـا لحمـُّومْ	انتِ شبّ ياعيبْ الشوم
عالحمـُّـوم عـا لحمـُّوم	وعيونك مـَلاَنهِ نُـــوم

هذه الاغنية تنشدها النساء في آخر الليل من ليلة العرس ، إذا قصّر العريس عن القيام بواجبه ، ثم اتخذوها كضرب مثل لكل من يحاول اجراء عمل ما ثم يخفق في عمله ولايتوفّق .

* * *

٣٩ —

هالرِيحان	يا حنيّن أمـة	هالريحان
هالرِيحان	اشمـّه واضمـّه	هالريحان
هالريحان	لسوالِفْ أمـّه	هالريحان
هالرِيحان	مـَحْطوط بكمـّه	هالريحان
هالرِيحان	بفرِّحْ أمـّه	هالريحان
هالرِيحان	من ايْدُه لَتمـُّه	هالريحان
هالرِيحان	متل أبوه وعمـّه	هالريحان

ويعنون بذلك مقدرته على أداء الواجب هذه كان النساء يقلنها ويتصرَّفن بألفاظها عند دخول العريس إلى غرفة العروس للخلوة .

* * *

٤٠ —

يا هـْوِيْدَلَك يا هويدلي	عالشّـام لَحَوِّل وانـْزَلي

يا وَيْلي وَيْلي من الزبيب　　أكْلي وشربي من الزبيب
الله يخونك يا نَصِيْب　　حرَمْتني شُوفِةْ هَلِيْ

* * *

يا ويلي ويلي مَنّها　　أكثر بَلاي مِنّها
ضحكِتْ وبَيّنْ سِنّها　　أمّ العيُون الدبّلي
يا هويدلك يا هويدلي　　نارك ولا جنّة هَلِي [1] ..

الخ . . . . وهذه كأمثالها بالتصرف بالكلام ، وهي لسان حال الزوجة التي لا وفاق مع زوجها ومترددة بينه وبين أهلها .

* * *

٤١ —

عالكَنّه　　عالكَنّه　　أنا وأمّك ما اقْعد
عالكَنّه　　عالكَنّه　　يحرق أبوها شو مصنّة [2]

* * *

عالكَنّه　　عالكَنّه　　أمّك بَالِتْ بالكانون
عالكَنّه　　عالكَنّه　　طلْعِتْ حيّه بسبع قرون

(١) كلمة عامية بمعنى « أهلي » .

(٢) مصنة : بمعنى ذات رائحة كريهة نتيجة لعدم النظافة .

عالكَنّــة عالكَنّــة انشالله مَـا تْفوتْ ١ الجنة

. . . الخ . . وهذه يتصرفون بها .

* * *

٤٢ —

هَــلا بالـوَرِدْ يـَا يمّـا هـَلا بــا

يا وَرْدْ الشّـــامْ يا مْسَـلّي الغَـــرابا

* * *

وإنْ جئـــتِ الليلـــة لتْسَـــليني

تَعـِيْ وَحْــدِكْ لا تجيبي حَـــدَابا

وان جئـــــتِ وجِبْتِ حدا معاكِ

لَهِـدّ الـــــدار واجْعَـلْهـــا خرَابا

وهذه تحرّفت في عصرنا فصارت تنشد هكذا :

سكابا يا دموع العين سكابا .

* * *

[اغاني] مصر الجديدة :

رِمّانَك يا حبيبي

دعاني غرامي تفضل مثل

لِيمُوني عالّـليموني

يا تمر مالَـكْ نوى

(١) تفوت : كلمة عامية بمعنى « تدخل » .

ليّـا وليّـا

خرنب أخضر

عالصَّالِحيِّه

شْكُوكِيّه شكُوكِيّه

لوبيّة لولِيِّه

يا طالعة عالقصرْ العـَالي

يا حالي عالبدوِيّه

طـَاعْمـَاني القـَراصِيَّه

أنا المتيّـم يا قـَمر

عالْمـَاني عالْمـَاني [1]

* * *

(١) لقد جاء في الأصل عناوين هذه الأغنيات فقط دون أن يكتب المؤلف عنها شيئاً أو يأتي بأمثلة منها .

سمر الاطفال

من عادة العجائز في الدار أن تجمع حولها صغار الدار بعد المغرب ، وبعد أن يلتفّوا حولها تبدأ بمباسطتهم وتروي لهم النكات الجميلة والقصص الصغيرة على لسان الحيوانات ، ويبقى أولئك مصغين لحديثها فيملّون ويتثاءبون ، فمن نام منهم أضجعوه على سريره ، والعجوز تتخذ هذه التدابير للحؤول دون صياحهم وضجيجهم ، وفي ذلك منافع شتى .

فمما تفعله العجوز أن تأمرهم بعد أن يصطفوا حولها حلقة إلى جانب المنقل أو المدفأة بأن يمدّوا أيديهم الصغيرة إليها على سوية واحدة، بأن يجعلوا أكفهم متجهة نحو الأرض ، فتبدأ بقرص أيديهم بصورة خفيفة ، وهي تقول هكذا :

« طِيمْشِه مْنِيمْشِه . حَبّة الدّغِيمْشِه . بعْتَتْني سِتّي عِيْشِة . لاشْتِري بَصل . وَقَعْ الكُوز انْكَسَرْ . حَلْفِتْ معلمتي لتعلقني بالشجرْ . والشجر ينقّطْ فلُوسْ . خَبّي يدّك يا مليحه يا عَروس » .

وتقول ذلك وهي تمرّ باصبعيها على ظهور أيديهم متنقلة حتى إذا بلغت كلمة : « خبّي يدِك » تأمرهم أن يخفوا أيديهم خلف ظهورهم ثم تخاطبهم واحداً واحداً قائلة : « شمميني عجينك » فيمدّ الطفل

يده فتشمها وتقول : «أوخْ عِطر وياسمين» ، ثم تقول لهم :

خَالْتي خالتي ،

فيجيبها أحدهم قائلاً : نعم خالتي

تقول :

عيريني منْخُلك

فيقول :

انْكَسَرْ .

تقول :

عيريني شَقْفَاتُه

يقول :

طحنتها .

فتقول :

عيريني طحيناتهم

فيقول :

عجنتهم .

فتقول :

عيريني عجيناتهم

فيقول :

خَبَزْتهم .

فتقول :

عيريني خبزاتهم ،

فيقول :

أكَلْتهُم ، أنا رغيف وابن السلطان رغيف ، وحَطّيتْ رَغيف بالطَاقة . جاءت خالتي السّراقَة ، سرقتها وطلْعِت تركض . وبْقيِت أركض وراءها. حتى وقْعِت على قفاها . وصارت تمر وحنّا . انشا الله ما تَدْخُل الجنّة .

فتعلّمهم هذه العبارات التي دارت بينها وبينهم .

ثم تقول :

ابن السلطان مات .

يقولون لها :

نعم .

فتسأل :

بأيْش غسّلوه ؟

يقولون :

ببُول أمه .

فتقول :

بأيش كفّنوه ؟

يقولون :

بشاش أبوه .

فتقول :

أين دفنوه ؟

فيقولون :

تحت تلك الزعرورة .

فتقول :

شو حطُّوا تحت راسه ؟

يقولون :

صِرْماية أبوه .

وعند ذلك يشبكون خناصر أيديهم ببعضها ويقولون معها جميعاً هكذا :

يا حوينتك [1] يا زعرورة .

ويكررونها . ثم تصيح العجوز بسرعة :

فِلْتِتْ .

وتسحب يدها فيتضاحكون .

ثم تحزرهم الحزازير (أحاجي) وقد مرَّت في أبحاث سابقة .
ثم تحكي لهم حكاية قصيرة. وأشهر قصصها حكاية : (الديك والدجاجة) وما جرى لهما بالنزهة بعد أن دعوا معهما العصفور ، والقاق [2] ، والستيتية [3] ، وأخذوا غذاءهم (العلاق) [4] ، وكيف جاءهم الثعلب وحاول ابتلاعهم فهربوا منه .

---

(١) يا حوينتك : كلمة عامية من « الحين » و « المحنة » أي الهلاك ويقصدون بها « يا للخسارة » .

(٢) القاق أو الغراب ، ويطلق عليه (القاق) لصوته ، وهو طائر أسود يتشاءمون به ، من فصيلة الغرابيات ورتبة الجواثم ، له جناحان عريضان ومنقار طويل وقوي ، يتغذى على الأخص بالحيوانات الصغيرة مثل الجرذان والفئران والزواحف ، ومنه أنواع : الغراب الأسود ، والأبقع ، والزاغ . (المنجد — ص ٥٤٧) .

(٣) الستيتية : بعامية الدمشقيين اليمامة وهي طائر معروف .

(٤) نوع من الدود الأرضي يستوطن المياه العذبة بالمناطق الدافئة وبعضها بحري يمتص الدماء .

(الموسوعة العربية الميسرة ص ١٢٢٥) .

ثم من الحكايات القصيرة قولها لهم :

« كانت الفويرة . راحت على النهيرة . كَنّسِت ورشّتْ . لقيت فلّيس . اشترت به دبّيس . حطّته بالطاقة . جاءت السرّاقة . سرقت الصحن . وأكلت الدبسات . وبَالِت بالصحن . ووضعت الديك بالسقف . والدبابيس بالحائط . فجاءت الفويرة . لتأكل من الصحن . تلوَّثت يدها ، مَسْحِتها بالحائط . شَكّها الدبوس . نظرت إلى السقف . زرّق الديك بعينها . فجلست على الأرض . ودخل الوتد في ظهرها ، ثم راحت إلى القاضي . وشكت له قائلة :

١ — هي : يا قاضي يا قاضي . كانت الفويرة .

٢ — هو : دفئتِ .

٣ — هي : راحت إلى النهيرة .

٤ — هو : تنزّهتِ

٥ — هي : كَنّسِتْ وَرَشّتْ .

٦ — هو : تنَشّطتِ .

٧ — هي : لاقت فلّيس .

٨ — هو : تدرهَمْتِ .

٩ — هي : اشتَرَتْ دبّيس .

١٠ — هو : تَموّنتِ .

١١ — هي : حطّيت الدبس بالطاقة ، جاءت السرّاقة . سرقتهم وبالت بالصحن ، ووضعت الدبابيس بالحائط والديك بالسقف ، والوتد بالأرض ، فحبّيت الأكل من الدبس تلَوَّثت يدي .

١٢ – هو : تحنّيتِ .

١٣ – هي : مَسَحْتْ يدي بالدبابيس . شكتني الدبابيس .

١٤ – هو : تنقّشْتِ .

١٥ – هي : نَظرْت إلى السقف . بال الديك بعيني .

١٦ – هو : تْكَحّلْتِ .

١٧ – هي : قَعْدت بالأرض . دخل الوتد ببطني .

١٨ – هو : تزوّجت .

١٩ – هي : لولا حكمك وقضاك لحطّ طبّيز تك بخراك .

وتكبس على رأس أحد الأطفال بيدها ، فيتضاحكون . ثم تقول لهم :

يا ستّي عَرْجَه عَرْجه
يا مفتاح السّاكرْجه
خبّيته وراء الصندوق
جاء خالي سَرَقُه
ألبسني من حَلَقُه
حَلَقُه شاكي باكي
[حلقه] طيّر عقلي
يا بنت المُلوكِ
جايين يخطبوكِ

على درب مدينـــــــه
لا كعكــه ولا تينـــــه
كعــك الشــام غـــالي
تِسْــلَم دَقِــن خـــالي
خـــالي بالبرّيـــه
عمّـــا يقــلي تمــريّـــه
قلت لــه : طعميــــــني
قـــال : عنــد عَشيّـــه
جئت عنـــد عَشيّـــه
ضربــني بالتـــاتاريـــه

فيتضاحكون للهجتها وتصنيعها الكلام وهي تحملق بهم . ثم تقول لهم ، بعد أن تأخذ كفّ أحدهم إلى يدها وتلامسها وتقول :

« يا باح يا باح . يا عرق التفاح . يا يَدين سعيد . البيض الظراف (١). جاء العصفور ليتوضأ . وجد ابْريق فضة » .

ثم تزمّ أصابعهم وتقول : « هذه كَشِّتُه . وهذه دبحته . وهذه نَتَفْته . وهذه شويته . وهذه أكلته . وقالت له : دبّ الليلة دبّ الليلة . أين ينام . بحضن خالد الريّان » . تقول ذلك وتشير بكفها على يده حتى تصل إلى صدره وتكركره (٢) قائلة : « بحضن خالد الريّان » فيتضاحكون .

• • •

(١) كذا في الأصل ، والمعروف أن النساء يقلن في مثل هذا المقام : « الملاح » وهي خير من « الظراف » للسجع .

(٢) كركر كركرة الشيء : أعاده مرة بعدأخرى، كركر الرجل: ضحك . (ومن أجل اضحاك الطفل تدغدغه بحركات خفيفة في احدى خاصرتيه بأطراف أصابعها فيضحك) . (انظر المنجد : كركر) .

تهليل الأطفال

إذا امتنع الطفل الصغير في السنة الأولى أو الثانية من عمره عن النوم تبدأ أمه فتترنم له بصوت شجيّ ناعم لينام ويسمى هذا : (التهليل) ، فمن الأقوال التي يهللن بها لأولادهن : « أولله » وتمد اللام « يا ابْني » وتمدّها أيضاً :

أنت تنام وعين الله ما نامت

وعمرها شدّة يا بْني على مخلوق ما دامت

وتمدها بصوت ناعم ، ثم تقول :

أولله ، أنتِ تْنَام وعيني تسهر الليلة

نام يا ابني بالهَنَا وسرور .

(وتمدّها) ثم :

اولله يا اللّيـه ستي زينب ورِقيه

ورِقْية نزلت على الشام راحت تنادي الشيخ رسلان

شيخ رسلان يا حامي الشام يا سَاكِن البريّه

. . .

اولله حَدبو نَدبو قطّ صغير قَطَشُوا دَنَبُو

طلع الفار من الأوكار صاح الديك وغَالَبُه

وتمدّ هذه الكلمات أيضاً .

* * *

ثم :

نـــام يا ابني نـــام لادْبَـح لك طير الحمام
يا طير الحمام لا تخاف اكذب على ابني حتى ينام

* * *

ثم :

نام يا ابني بالصلاة على النبي
يا سامعين الصوت على النبي صلّوا
لولا محمد مابني جامع ولامنبر ولاصلوا
من هيبتك يارسول الله المشركون ولّوا

ثم تقول : « او لله او لله » وهذه مفخّمة والثانية ناعمة جداً ، فيغلب النوم على الطفل وينام . فإذا جلس الطفل بعد النوم وضعته على ركبتها وصارت تقول له :

اكبيْبـه اكبيْبه والحنّـا ووريبه
والخاروف محنّـا يلعب بالعتيبـــه

ثم تقول :

هايْ كرمشت هـايْ هـايْ
إيش طبختِ هـايْ هـايْ
لـوز وسكر هـايْ هـاي
هـات لابني هـي هَـــي

وتهزّ ركبتها ، فإذا أرادت أن ينام تهلل له هكذا :

اولله يا أولـلاني راح الحجّ وخلاّني

راح الحاج على بلاده   يا ربّي لا تنساني
من كرمك ومن جودك   ومن فضلك الاحساني

وتقول ذلك وهو على ركبتها تداعبه .

ثم إذا مسحت وجه الطفل وضعت بين حاجبيه وفوق أنفه نقطة مستديرة زرقاء تسمى (دقّة) ١ ، ثم تغني له هكذا :

من اين أجيْبوا   من اين أجيبو
من اين أجيبو   الأسمر أبو دقّـه

وتضغط على كلمة (دقة) ثم تشدّها بسرعة . ثم تقول :

لِبْسِت   هَوَابي   شَلْحِتْ   هوابي
بَعتِت   ورابي   والله من حقّـه

. . .

ثم :

لِبْسِت   الزيْتي   شَلْحِتْ   الزيتي
جـاءت   لبيتي   والله من حقـه

وهكذا تداعب صغيرها .

. . .

---

(١) نوع من الوشم ولكن بدون استعمال الابرة والنيلج ، وانما تصنع نقطة (دقة) بواسطة الكحل ، وهذه الـ (دقه) نوع من النقط يكون لونها : أزرق أو أسود أو كحلي ...

الموالد في المآذن

إذا كان لإحدى العائلات غائب ، أو كان لأحد مريض ، أو كانت امرأة حبلى ، ينذرون قراءة مولد بالمئذنة مقابل أجرة طفيفة ، بِشْلِك ١ أو نصف بشلك ، وأحياناً أكثر من مولد واحد لغاية واحدة ، فيصعد المؤذنون بعد صلاة المغرب إلى المئذنة ويتلون الأذكار ، وإن قلتها وكثرتها منوطة بمقدار الأجرة التي أخذوها من صاحب النذر.

فأول ما يبدأ أحد المؤذنين بالاستعاذة بصوت عالٍ ، ثم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيقول بصوت عريض : « إن الله وملائكته يصلُّون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلُّوا عليه صلوا عليه وسلِّموا تسليما». فيبدأ الجميع بالصلوات معاً وبعبارات مألوفة ، مقدار خمس دقائق ثم يقول أحدهم : « طه يا حبيبي » فيردد الجميع معه : « سلام عليك سلام عليك » ثم يقول : « يامِسْكِي وَطِيبِي » فيرددون : « سلام عليك سلام عليك» ثم : «أحمد يا محمد » « سلام عليك سلام عليك »« من زارك يسعد » «سلام عليكْ سلام عليكْ »«سمّاك الاله »«سلام عليك سلام عليك» ثم يقولون معاً : « سلام عليك » ويمدونها .

ثم ينفرد أحدهم ويقول : « الحمد لله رب العالمين ، لمن كان هذا

(١) عملة تركية فضية – نحاسية و (بشلك) تعني : ذات الخمس ، وكان نحاسها هو الغالب ، وكانت قيمة الـ « بشلك » بقيمة نصف (الوزري) وكان لها نصف بشلك .
(محمد عزة دروزة – نشأة الحركة العربية الثورية – ص ٢١١) .

المولد بسببه الحمد لله على السلامة » ويمدّونها ، فيعرف الناس أن صاحب المولد هو من الغيّاب . وان قال : « الحمد لله على الخلاص » فيعلم الناس أنها نفساء وضعت حملها بالسلامة ، وإن قال : « الحمد لله على العافية » فيعلم الناس انه لمريض .

وفي شهر رمضان المبارك كما مرّ بحثه يقومون بحفلات الوداع بالمآذن أيضاً كما يقومون بالتمجيد والتسابيح بالصلوات ليلاً وبين المغرب والعشاء من ليلتي الاثنين والجمعة ويسمونه (تذكير) ؛ وهو مفيد يذكّر الناس بواجباتهم الدينية على الدوام ، كما يستأنس القلقون أو المتأرقون أو المرضى بتلك التسابيح والأصوات الجميلة ، فيسرون عن أنفسهم ويتناسون آلامهم ومصائبهم ، كما تهون على المصابين بأموالهم مصائبهم ويرجعون إلى الله عن ذنوبهم ويستغفرون .

* * *

أيام الجـدب

كان الناس يخشون أيام الجدب والسنين الماحلة من فرط الغلاء ، بسبب فقدان الوسائط السريعة التي يمكن بها جلب الأرزاق وتدارك الحاجيات الضرورية ، زد على ذلك ضآلة الدخل في طبقة العمال ، فإذا زاد رطل الخبز بارة ١ واحدة ، أو خمسة دراهم ضجوا وتعالت أصواتهم بالدعاء والاستمطار والاستغاثة .

فكان الناس يتشاءمون بطائر يدعى (القطا) إذا وجدوه في ربوع دمشق أو محلقاً في سمائها ، فيكون نذير الغلاء لعلمهم أن هذا الطائر إنما يعيش في السهول والأراضي البعلية ، ومجيئه إلى الاقطار المتوفرة فيها المياه والجداول دليل على قلة الامطار في محيطه ومكان سكناه ، وبما أن معظم الغلال ٢ تأتي من تلك السهول ، فيكون معنى تركه موطنه يبوسة الزرع فيها ، لذلك اذا رأى الناس (القطا) تشاءموا . ومن أمثالهم (سنة القَطَا بتبْيع الغَطَـا) أي يضطر الناس لعرض متاعهم وفرش بيوتهم لتدارك القوت .

وهذا لايخفى على تجار الحبـوب والدقيق ، الذين يعمدون حالاً الى تخبئة مالديهم واحتكارها ليبيعوها بالأثمان العالية ، لاسيما إذا قلّ الغيث

---

(١) انظر ص ٢٧٢ .

(٢) الأصل : « الأغلال » خطأ .

بشكل خلاف المألوف من أيام السنة(أواخر الخريف وأوائل الشتاء).
ومن الامثال المعروفة بأن خازن القمح أو الطحين إذا سمع صوت الأمطار ليلاً غُمي عليه فأرسل ابنته الى باحة الدار لتكشف في حال المطر . ويسألها : « كيف وجدت المطر زخ والا رَخّ » فإن قالت « زخّ » استبشر ، لأن سرعة المطر تدل على عدم استدامة هطولها ، وإن قالت له : « رَخّ » فيقول لها « لابشّرك الله بخير » لأن هطولها (رخّ) يستديم فتشرب تربة الأرض ويأخذ الزرع كفايته .

فيسرع الناس أيام الجدب إلى البطاطا ليستعيضوا عن الخبز بها ، ومن أقوالهم : « آهْ ياسَنة البَلاَطَه ، حاجِتْنا للبَطَاطه ، لما تَنْزِلْ الى بطنيْ ، تَعْملْ بقَلْبي شَمَاطهْ ، تَعْمِل قَلْبي مثل البَلاَطَةْ »

فالناس إذن كانوا يخشون ورود القطا إليهم ، وطائر (أبو سعد) ١ مثله أيضاً ، كما كانوا يخشون كثرة (الدبابير)٢ – زنبور – على كروم العنب ويقولون من أمثالهم : « سَنَة العَصْفورْ ولاَ سَنَةْ الدّبورْ » .

إذا لم يعقب الإمساك عن الغيث هطول بعض الامطار ، عمد الناس إلى الدعاء بالمساجد والدور وخارج البلد ، فأخرجوا طلاب المدارس الى المساجد يرافقهم الشيوخ المسنون ، ويهللون ويستغيثون والدموع

(١) طائر من فصيلة « اللقلق » طويل الرجلين ، ضخم المنقار ، طويل الجناحين ، ريش ذيله طويل ، يسميه العامة (حج لقلق) أو (مالك الحزين) .

(الموسوعة العربية الميسرة ص ١٢٢٥) .

(٢) مفردها : دبور . وهي حشرة لونها كستنائي إلى حمرة ، والوجه أصفر والأجنحة كستنائيةمشوبة بصفرة والحافة الخلفية لحلقات البطن لونها أصفر ،وهي شرسة لدغها شديد الألم، تأكل العسل والنحل ...

(المصدر السابق ص ٧٨٤) .

ملء العيون ، وعبرات الشيوخ على وجوههم تتصبب وهم ينادون : « يامغيث أغثْنا » وكذا يخرجون الحيوانات الى ظاهر دمشق ويستغيثون والأطفال على أيديهم نساء ورجالاً ، فاذا استجاب المولى تعالى وترفق فضلاً وكرماً أغاثهم بمطر مدرار ، وعندها يتباشر الناس وتنبسط أساريرهم ، ويغتم المحتكرون ويشتمون ويسبون ، فيبادر الغلمان بالشوارع ويجتمعون ويعمدون الى أحدهم فيجردونه من الثياب ويلطخونه بالدبس ويلصقون به القطن ويحيطون به ويتظاهرون بالشوارع صائحين : «السّنه بيضَه يابيضَه » ويكررونها ، وكان من الخزّانين المحتكرين في ذلك العهد شخصان أحدهما يدعى : (قدّاح) والثاني : (الشوا) ، فيبادر أحد الغلمان بوصف العبارات السخرية فيردد أقواله سائر الغلمان من ذلك قولهم :

قَمْحَة وشعيرة وزيوانه . . . ١ بدّقن الخزّانه

ويرددونها بالشوارع والازقة ثم يقول :

خزّانْ القَمْح شُو ذَنْبُه هيْكْ ٢ أمَرْ لُه ربّه
ضَرْبِه تِنْزل عَلَى قَلْبهْ على بُكْرَه ويصبح بالجبانه

* * *

قَمحه وشعيره وزيوانه . . . ١ بِدّقْن الخزانه

ينفرد ويصيح أحدهم ويردد الباقون أقواله . . . وهكذا . . ومنها :

صاحْ الديك على المصْطَاح . . . ١ بدقن القداح (محتكر)

---

(١) كلمة نابية .

(٢) كلمة عامية بمعنى « هكذا » .

صاح الديك وتلـــوّى . . . [1] بدقن الشوّا (محتكر أيضاً)

يطوف الغلمان هكذا على الحوانيت في الاسواق وعلى الدور في الازقة فيعطيهم [2] الناس دراهم أو حلوى أو غيرها .

وكل ذلك يجري وهم جميعاً يسيرون تحت حبال الغيث ولايسترهم إلاثيابهم من الصباح الى المساء ثلاثة أيام سوياً .

* * *

---

(١) كلمة نابية

(٢) الأصل : « يعطونهم » خطأ .

التندر على بعض شهور السنة

يتندر العجائز على شهور السنة بأقوال مختلفة شتى منها قولهن : « مابين تشرين وتشرين صيف تاني » .

ومنها : « عجوز اشتهت بشْباطْ أَخْلاط ١ وبتشرين حُصْرم » . وذلك لاستحالة الطلب كما تشتهي .

ومنها : « لبن آذار محرّم على الكفار » باعتبار وجود الصوم الكبير عند المسيحيين فلا يأكلون الروح وماخرج منها : اللحم والألبان والبيض ، فيكثر ذلك ويصبح رخيصاً . .

ومنها : إن أحد الازواج تزوج بامرأة فولّدت له بعد ثلاثة أشهر طفلاً ، فسألها عن السبب قائلاً : « لم يمض على زفافنا سوى ثلاثة أشهر فما السبب في هذا الوضع ؟ ! » فقالت الزوجة : « كلاّ إن حسابنا مضبوط ألم نتزوج بكانون ثاني » فيقول : « نعم ، كانون ثاني ، وشباط ، وهذا آذار انتهى حديثاً والمجموع ثلاثة أشهر » فتقول له : « إنك مخطىء ، اسمع فأنا اعـدّ لك هذه الاشهر : كانون ، وكُن ، وكَنْدَرَة ، وشباط وبَاطْ ، وبيْطَرة ، وآذار ، وذارْ ، وَذْرذَرة ، وهذا الشهر عَشْرَة » فيطمئن ذلك الأبله وتنجح فيه حيلتها .

---

(١) أخلاط : صنف من التفاح لا يمكن نضجه في شهر شباط ويستحيل وجوده في ذلك الشهر ، وهذا الصنف من التفاح ينسب إلى (خلاط) ، وهي بلدة في (أرمينيا) ذات البساتين الكثيرة ، وتفاحها يضرب المثل به في الجودة والكثرة والرخص .

(ياقوت – معجم البلدان – ١ / ٣٥٨) .

ثم ان العجائز إذا دخل شهر شباط اشتدّ عليهن البرد فإذا بلغ الخامس والعشرين منه ، قالت العجائز : « الحمد لله ذهب شباط . ودَحَشْنَا في استُه مخباط[1] » فيسمع شباط ويتأثر من قولهن فيعمد إلى أخيه (آذار) ويقول له : « آذار ياحنوني . والعجائز عيّروني . ثلاثة منك واربعة مني . لحلي فصوص العجائز تغني » . ثم يقول : « تعيرني العجائز وأنا شباط . وا لله لأحملهن على وقد الدولاب والمخباط » .

وهذه يسمونها[2] المستقرضات (برد العجوز المعروف) المشهور فتثور ثائرة شباط وتحصل الزوابع والثلوج ، ولكن العجائز لاتهتم به بل تقول : « هذا شَباط يشبَطْ ويلبّطْ ورَوائح الصّيف فيه » ولايكترثن به .

ومن أقوالهن : « خَبّي فَحمَاتك الكبَار لِعَمّكْ آذار ، أبو الزَعَازع والأمْطَارْ ، ثلاثْ تَلْجات كبارْ . ماعَدا الصغار » .

* * *

(١) المخباط : جمعه مخابيط : وهو ما يخبط به ، وهو قطعة خشبية مستطيلة أو بيضوية الشكل متوسطة الطول له مقبض متصل به . يستعمل المخباط في غسل الملابس أو سواها . (انظر المنجد) .

(٢) الأصل « يسمونه » سهو .

الأطعمـــــة

كان فقدان وسائط النقل السريعة تضطر اهالي دمشق أن يقسموا مالديهم من المحاصيل على أشهر السنة ، فما كان ينتج من المحاصيل في فصول الربيع والصيف والخريف يدخر لفصل الشتاء . فكانوا يجففون من الخضر : البامية ، الباذنجان ، البندورة ، البقلاء (الحمقاء) والفاصوليا ، واللوبيا ، والكوسا ، وورق الدوالي ، ويحفظونها إلى الشتاء . ليطبخوها مع السمن واللحم أو بعض أنواع الزيوت والدهن والشحوم ، لأن فصل الشتاء لاينتج لهم إلا (الملفوف) اليَخْنه ، زهر القرنبيط ، السلق ، الشمندر —وهذا حلواهم الطبيعي— ، والسبانخ ، لذلك كانوا يستعينون بالخضرة المجففة منذ زمنها .

ففي آذار ونيسان يكثر (الرز بالفول ، ارز) ، والمقلي بالزيت ، والفولية ، والمفرّكة بالفول والبيض مع اللحم أو السمن أو الزيت .

وأيام الباذنجان والبندورة والكوسا في الصيف يطبخون الباذنجان مقلي ومفسّخ ١ ، أو باذنجان محشي ، أو يحشون الباذنجان بالبرغل والزيت والبصل المفروم ٢ ويسمونه (يَلاَنجي طُولمَهْ) المحشي الكذاب ،

(١) يقطع الباذنجان إلى قطع متناسبة ثم يوضع عليها اللبن والثوم وهو طعام يحضر صيفاً في دمشق .

(٢) « يلانجي ضولمة » أي المحشي الكذاب ، وسمي بذلك لأن الباذنجان يحشى بالبرغل عوضاً عن الرز وكذلك الزيت عوضاً عن السمن والبصل المفروم الناعم عوضاً عن اللحم .

والبرغل هو : جريش الحنطة بعد أن تسلق وتعرض للشمس .

ويحشون الكوسا بالارز واللحم ، ويطهى بمرق البندورة ، أو اللبن ويسمونه (الشَيخْ المَغشي) ، أو كوسا باللبن ،أماالشيخالمغشي ، فهو مقابل (إمَامْ بايِلْدِيْ) التركية ، على أن الاتراك لايطبخون (امامبايلديْ) باللبن المرّوب (الرائب) بل بالزيت مقابل ماكانوا يسمونه عندنا (يَلاَنجيْ) ثم يطبخون ورق الدوالي في أول طلوعه (ويسمونه يبرق) يحُشى بالأرز واللحم،ويوضع تحته كوارع ١ وفوقه قطعة دهنمن(إلية) الخروف ، وربما حشوه برغلاً بالزيت والبصل ويدعونه أيضاً (امام بايْلدي) ففي أيام الفول الاخضر يزداد النشاط به عند القرويين واهالي دمشق فيأكلونه يومياً ، وكذلك الباذنجان فإنه يصلح لكل شيء يعملونه مقلياً ثم يجوفونه ويضعون في تجويفه اللحم المفروم والمقلي بالبصل ويسمونه (منزّلة بالأسود) ، ويجعلون البندورة على هذا الشكل ويسمونها(منزّلة أحمر) وتوضع الى جانب الأرز ، وكذلك الفاصوليا واللوبيا والباميا تطهى باللحم والسمن ، والبوراني٢ بالبقلة ، والبوراني بالسبانخ ، والبوراني بالملوخية والكرّات ، وجميع ذلك مطبوخاً بالسمن واللحم ، وهنالك نوع من البندورة يكون بشكل كرة ويسمى (نفاشا) يطبخ كالكوسا أيضاً ثم يفرم الباذنجان أو البندورة أوالكرنب ويطبخ مع البرغل ويسمى (يَهوْدي مُسَافر) (مِسْلمْ هرْبَان) و (شلْبَاطُو) ، والكرنب يطبخ مع الارز ويسمى (شَلباطو برز) والملفوف يحشى كالكوسا أيضاً ، ومثله السلق ، وورق الشمندر .

---

(١) قوائم الخراف .

(٢) البوراني (البورانية) طعام ينسب إلى (بوران) زوجة الخليفة المأمون العباسي (٨٠٧ - ٨٨٤ م) .

(الموسوعة العربية الميسرة ص ٤٢٧) .

وفي أيام الشتاء يكثر طهي الكشك [1] في القرى ، ففي صباح كل يوم (الكَشك الساخن) بالعدس أو بدون عدس ، أو بمفروم الكرنب أو اللفت ، والشوربا [2] بالعدس ، أو الكشك التغميس ، وفي دمشق : مرق الحمُّص (التسقية) وتكون بالحمص الناعم المزيج مع الطحينة واللبن تفرش على سطح الثريد ، وتكون بالزيت والقِلِيْ ، وهي أكثر استعمالاً ، وتكون مزيجاً [3] من الزيت والقلي فيصبح مرقها أبيض ، وإلى جانب ذلك أنواع الفجل والبصل والمخللات : اللفت ، ، الفجل ، الفليفلة ، القثاء ، الخيار ، الملفوف ، وغير ذلك من البقول المخللة .

ووقت الظهر يكثر البرغل المفلفل [4] واذا وضع معه العدس يسمى (المُجَدَّرة) ، وأحياناً يوضع العدس مع الارز وتسمى (مُجَدَّرة بالأَرز) ، ثم إن للفتوش (فَتُوش) مكاناً ممتازاً ، فهو عبارة عن فتيت

(١) طعام يدخل في طبخه اللبن والقمح المجفف صيفاً . وهو مادة غذائية جافة تصنع من البرغل والحليب ، حيث يؤتى بالقدر المطلوب من الحليب ويوضع في خابية من فخار مقدار ثمانية أيام أو أكثر فيختمر ويتحمض فيها ، فإذا تم ذلك يؤتى بقدر معلوم من البرغل المطحون ويغسل بالماء ويترك ريثما يختمر أيضاً ويصبح طرياً فيخلط بالحليب في الخابية نفسها ويترك هكذا نحو عشرة أيام ليختمر جيداً وفي ختام هذه المدة يخرجونه من الخابية ويفركون هذا الخليط بأيديهم فيصبح مثل العجين وينشرونه في الشمس فيجف فيفركونه مرة ثانية إلى أن يصير كالدقيق فيدخرونه إلى الشتاء ويطبخونه مع القاورما فيكون كحساء لابأس به . انظر ص ٢٢٦ .

(أحمد وصفي زكريا – الريف السوري – ٢ / ٢٨٧) .

(٢) تطبخ بالعدس المجروش وهي حساء معروف .

(٣) الأصل : « مزيج » خطأ .

(٤) نوع من البرغل يوضع عليه الفلفل أو (العصفر) ويعطيه اللون الأصفر والأخير نوع من التوابل .

من الخبز الجاف ويخلط بمخروط الخيار[١] أو البقلاء ، أو القثاء ،أومفروم من البصل ، ومسحوق النعناع الجاف،ويُتَبَّل[٢] بالخل والزيت ويوضع بعض حبّات الزيتون ويؤكل ، وأحياناً يستبدل عن الخيار والبقلة ، بفرم (الخس) أيام الخس ، ويتبل بنفس الشكل ، وهو من المقبلات في رمضان وغيره .

والشوربا بالعدس المجروش ، والشوربَا بالقمح ، والشوربا بالارز مع اللحم أو السمن أو البصل المخروط المقلي كلها أنواع مستعملة على حدة (حساء) أو قبل تناول الاطعمة ، وشوربة الخضر ، مع الحساء الممتازةوالمزيجة بمسحوق الكروش[٣]والطحينة[٤] واللبن ومرقاللحم والسمن من أعاجيب الذوق واللذة التي يتمتع بها الآكلون .

أما الملوخيّة فقد كانت مكروهة لسوء طهيها ، ومالها من الريق الثقيل أشبه (بزيت الخروع) ولكن أهل دمشق استطاعوا عدم تقليد المصريين في طهيها فأخرجوا أريالها[٥] وقلوها بالسمن وطبخوها باللحم فكانت ممتازة في مقدمة الأطعمة .

وكان هنالك أنواع مستعملة مثلاً : بَابَا غَنّوج ، سَليحبه ، قَبَاقْ بَاصْدِيْ ، مَخْلوطة ، فقد أصبح استعمال هذه الانواع نادراً .

---

(١) بعد أن يقطع الخيار إلى قطع متوسطة الحجم مخروطية الشكل .

(٢) يخلط بالخل والزيت .

(٣) هكذا جاءت في الأصل ولم نهتد لتركيب هذا المسحوق ، وطريقة استعماله ، وربما كان المؤلف يقصد شيئاً آخر .

(٤) هي طحين السمسم بداخله زيت السمسم ويصبح قوامه كالعسل .

(٥) وهي العروق التي تسبب اللزوجة الزائدة في نبات الملوخية .

فالأول عبارة عن باذنجان مشوي مقشر مسحوق ومخلوط بالزيت والحمض والطحينة . والثاني : قطع من العجين المطبوخ مع العدس باللحم. والثالث : يقطين (قرع) مخرّط [1] بالمرق واللحم والسمن . والرابع : (فول وحمص وعدس) مزيج مطبوخ باللحم . ومثال ذلك (كشك طَطَناج) وقد بطل أيضاً وهو عبارة عن كشك وعجين وبصل مقلي ولحم وزهر القرنبيط والعدس .

أما (حرّاقْ الإصْبَعَة) فلا يزال سائداً والنساء يفرحن به لأنه يجمع بينهن وبين صديقاتهن لاحتياجه إلى أيد كثيرة عاملة ، ويصنع من قطع العجين والحمض والزيت وزهرة مقلية[2] أو كوسا مخرّط وهو نفس (كشك بطَطَناج) إلا أنه لايوجد فيه (كشك) .

* * *

---

(١) طريقة صنعه : يقطع اليقطين (القرع) ويقلى بالسمن مع عصير (ماء البندورة) وتؤكل هذه المرَق مع الرز ، وهي لذيذة .

(٢) هي زهر (القرنبيط) من خضار الشتاء في دمشق ، تؤكل بعد أن تقلى بالزيت ولها طرق تحضير اخرى ايضا .

الحلويات

الشمندر ، الجزر ، البردقان ١ ، العجوة(التمر)، الموز ، والحبيصة بالدبس أو بالسكر ، والهيلطية ٢ ، والحبوب ، والرز بحليب ، والألماسيه٣ والرز بالحلو ٤ ، والزردة ٥، والسنبوسك ٦ بالعجين أو الورق (خبز رقيق) والقطايف العَصَفيري ٧ ، والمطبّقات ٨ ، والحلاوات بأنواعها والكنافة (البصمة ، المبرومة ، المدلوقة) محشية وغير محشية،والوريبات٩

---

(١) أي البرتقال .

(٢) نوع من الحلوى تصنع من الحليب والنشا فقط ، وبعد أن تصب في الأواني وتبرد يوضع لها قطر السكر على قدر كفايتها .

(٣) وهي ما كانت من الحليب والسكر والنشا وانظر ص٢٢٧ .

(٤) يصنع من غلي الحليب على النار ثم يوضع الأرز المغسول عليه مع السكر ، ثم يصب في صحون صغيرة .

(٥) وهي ما طبخت بالحليب والسكر والرز المطحون .

(٦) السنبوسك : عجين يحكم عجنه بالأدهان كالسمن ، ويحشى بالجوز والسكر قد نعمت قطعه وموه ، وبزر ، ويطوى عليه ويقلى في الدهن أو يخبز بالفرن .

(٧) انظر ص ١٣٤ .

(٨) نوع من القطائف انظر ص ٢٢٧ .

(٩) الوريبات : كل شيء من الحلويات يعمل بشكل صغير .

والبورك ١ ، والبقلاوة ٢ ، والكول واشكور ٣ ، والنهش ٤ . والكلاج ٥ ، والأصابيع ٦ ، وغيرها .

ويستعمل القرويون حلواهم غالباً السنبوسك بالعجين لإمكان صنعه في دورهم ، كذلك بعض أحياء دمشق المتوسطة أو الفقيرة ، ويستعملون شتاء أيضاً التين اليابس ، والزبيب ، والجوز ، وغير ذلك .

أما الحبيصة بالدبس أو بالسكر ، فقد أفل نجمها كما انتهت أيام المطبقات بالدبس والهيلطية ، فلم يعد أحد يكترث بها .

---

(١) البورك أو (بريكات) : تصنع كما في السنبوسك ، إلا أنه يحشى باللوز والفستق مع السكر .

(٢) البقلاوة : رقاق العجين من خالص ناعم الطحين ، يصنع كالورق في رقته ويمد مدوراً على مقدار الصينية بواسطة آلة تسمى « النشابة » ويصف فيها طبقاً فوق طبق ، ويرش بين كل ورقتين من السمن الخالص بمقشة مخصوصة ، ويجعل في وسط ذلك حشواً ، أو يضع فوق الحشو ثلاث ورقات أو أكثر أو أقل ، وبينها رشاش السمن ، كما فعل في الأولى ، ثم يقطع مربعاً بالسكين على شكل مخصوص ، وتخبز وترش عليها من القطر العاقد وإذا كان الحشو فستقاً فتسمى (بقلاوة) .

(انظر قاموس الصناعات الشامية — ج١ — ج٢) .

(٣) نفس ما ذكر في صنع (البقلاوة) من رقائق العجين .

(٤) انظر ص ٧٠ .

(٥) من الورق المصنوع من النشا ، يوضع على طبق كرغيف الخبز ، ثم يلف ويحشى بالفستق والجوز أو القشطة ويوضع في القطر العاقد « السكر المذاب في الماء » ثم يؤكل .

(٦) رقاق العجين التي تستعمل في صنع (البقلاوة) من غير تقطيع ، ومنها ما يلف طولا ويحشى ، من تلك الملفوفة الطوال ما يحشى لحماً مفروماً مع اللوز والفستق والصنوبر ، وما يحشى جبناً ، ذلك الملفوف يسمى (الأصابيع) أو (الكراريس) .

(انظر : محمد سعيد القاسمي — جمال القاسمي — قاموس الصناعات الشامية — ج١ و ج٢).

هذا وان الفواكه بأنواعها هي القائمة مكان الحلوى في فصول الربيع والصيف والخريف والشتاء ، .

فالمشمش :

منه : المشمش الكلابي ، وبزره مرّ ، وهو أنواع لاتحصى ، ومنه يصنع (قمر الدين) ١ والنقوع ٢ المفيد للمصابين بالحمى والسخونة الشديدة ثم المشمش البلدي ، والوَزَري ، والسَنْدَياني ، والعجمي ، والحموي والبكّير واللقّيس (المتأخر) ، والعَرْبيني واللوزي ،والشَحْمي والتدمري وغيره ٣ .

---

(١) أشهرهما يصنع في الغوطة والمرج ، يلزم من أربعة إلى أربعة أرطال ونصف من المشمش للحصول على رطل قمرالدين ، وهو يصنع من المشمش الكلابي ، حيث يسحق المشمش بالأيدي في غربال موضوع فوق بناء يسمى (تيغاراً) مفروشة أرضه بالاسمنت ثم يغترف العصير بكيلة من خشب ويفرش بمهارة على لوح خشب بعد أن يطلى اللوح بقليل من الزيت وبعدها يوضع اللوح في الشمس يوماً ونصف اليوم فيجف العصير ويصير شرائح وزن كل منها رطل تقريباً وهي (لفات) قمرالدين . ويستعمل (قمرالدين) كشراب لذيذ معروف .
(محمد كرد علي ، خطط الشام ج١ – ص ١٨٩) .

(٢) وهي ثمار المشمش المجففة وتسمى بالعربية (المغلق) تصنع من المشمش البلدي وذلك بأن يوضع المشمش في الشمس على مسطاح من القش مدة أربعة أيام ثم تكبس الثمار بين الكفين وتترك يومين آخرين ، ثم ترقق أطرافها بالأصابع وتترك يومين أو أكثر فتجف ، ويلزم خمسة أرطال من المشمش للحصول على رطل من النقوع .
(المصدر السابق – ص ١٨٩) .

(٣) أنواع من المشمش : وأهمها ما يلي :

الحموي : ثمرة متوسطة الحجم صفراء ذهبية لامعة تذوب في الفم وتهضم بسهولة وداخلها بزرة حلوة ، وهي أجمل ثمار المشمش منظراً وأكثرها طعماً وأعطرها رائحة وأغلاها ثمناً ، تؤكل رخصة ولا يصنع منها (قمرالدين) =

البلدي ، والدَرْشَاوي ، والسكري ،والسَكَارْجي ١ ، والحامض والملاطي ، والشتوي٢ ، وأنواع التفاح تزيد على العشرين نوعاً .

= البلدي : ثماره كبيرة ضاربة إلى الحمرة ضمنها بزرة حلوة وتجيء في اللذة بعد الحموي ، تؤكل رخصة ويصنع منها ألذ المفلقات « النقوع » .

السندياني : يشبه الحموي بشكل ثماره وشتان بين الثمرتين في اللذة ، لأن السندياني هو تقليد الحموي كما يقول الدمشقيون . وهو سباق في النضوج .

ونسبة البلدي (الوزري) كنسبة السندياني إلى الحموي و (الوزري) كالبلدي يتخذ للأكل .

العجمي : ثماره كبيرة جميلة المنظر صفراء إلى خضرة لبها قاس وطعمها سكري لكنه مجرد عن طعم المشمش الخصوصي ، بل هو يشبه طعم الدراق .

اللوزي : ثمره شبيه بثمرة الحموي ولعلهما صنف واحد ، أما الشحمي : ذو الخد الأبيض والخد الأحمر يستعمل للمربى . هناك نوع يسمى الكلابي : ثماره أصغر الثمار حجماً وأردؤها طعماً وهي صفراء إلى حمرة،بزورها مرة ، وهذا الصنف أشهر الأصنافِ في الغوطتين إذ تبلغ نسبته نحو ٧٠٪من مجموع شجر المشمش، ومنه يصنع قمرالدين المشهور .

أما باقي الأنواع :تنسب إلى بعض المدن المشهورة بزراعة المشمش .

محمد كرد علي . خطط الشام جـ١ ص١٨٠

(١) التفاح السكارجي : ينضج في أوائل تموز ، ويمتاز بامكانية نقله إلى أماكن بعيدة يزرع في غوطة دمشق .

(٢) التفاح الشتوي : سمي بذلك لأن نضجه يتأخر حتى الخريف ويمتاز بسهولة حفظه حتى فصل الشتاء .

وهناك سبعة آلاف وخمسمائة صنف من التفاح في العالم خمسون صنفاً فقط منها لها أهمية تجارية .

(د.صفوح خير – غوطة دمشق –ص ٤٩٢) .

التوت :

الشامي ويصنع منه الشراب (1) المفيد ، ويخلط بالنشاء ويخزن في الدور يصنع منه شربات بغير أوانه ، والتوت الحلبي الأبيض ، والتوت الفضي ، والدغمشي ، والعجمي ، والمصري ، وغيره .

العنب :

المسْكاوي ، بيض الحمام ، البلدي ، الزيني (2) ، العرَ ْعُوري ، الأبيض ، الأحمر (3) ، الأسود ، الحلواني ، البيتموني وغيره .

الجانرك :

السكري ، التفاحي ، والعجمي ، والحامض ، والقيسري ،

(1) التوت الشامي : وهو أفضل أنواع التوت ، ولا يكاد يخلو منه بستان في أراضي الصالحية الشرقية ، وهو يباع إلى أهالي دمشق الذي يصنعون منه شراباً لذيذاً ، وطريقة صنعه هي عصر التوت في مصفاة حتى ينزل العصير من المصفاة إلى الوعاء الذي تحتها نقياً ، ويضاف إلى كل أوقية من العصير أوقية من السكر ، ويغطى ويترك على ما هو عليه ليلة كاملة ، ثم يصب في قناني حيث تسد سداً جيداً محكماً ، ويستعمل حينما تمس الحاجة إليه .

(جمال الدين القاسمي — قاموس الصناعات الشامية ٢ / ٢٥٤).

(2) العنب الزيني : يعتبر أفخر الأصناف كلها ، تشتهر بزراعته قرية داريا منذ زمن بعيد كما تختص بزراعة صنف جيد آخر يدعى « الحلواني » .

(3) العنب الأحمر : تشتهر به قرية دوما الذي ينسب إليها ، وهو أقل جودة من الأصناف الأخرى ، ويستعمل قسم كبير منه في صنع الدبس والزبيب والخمور بسبب ارتفاع نسبة المادة السكرية في عصيره .

(د. صفوح خير — غوطة دمشق — ٤٨٥) .

والإجاصي . والأسود . والقراصيّة ،و الحبلاسي ١ ، وغير ذلك .

ثم البطيـخ :

بأنواعه : الأخضر والأصفر والرقي وغيره .

ثم في أوائل الشتاء يرد البردقان ولكن بصورة ضئيلة لضعف الوسائط ، كذلك اليوسف أفندي ، والمغربي ٢ والموز ، والكستنا ، والخرمه سي ٣ (طرابْزون خَرْمه سي) وتعريبها (تمر طرابزون) ، وجوز الهند ، وقصب السكر .

هذه مجمل ما يكون من الفواكه والخضر المتنوعة المستعملة في فصول السنة ، وتكون بكثرة في دور الأغنياء ، أما الفقراء فلهم البطيخ الأخضر والأصفر ، والخيار ، والعنب ، وقصب المصّ ٤ ، والشوندر ،

---

(١) الجانرك « الخوخ » : جميع اصنافها محلية قديمة ، ولم تدخلها أية أصناف أجنبية وأنواعه تنضج في النصف الأول من شهر تموز . (والحبلاس) أو (الحمبلاسي) نوع صغير ينسب إلى (حب الآس) وهي ثمار الريحان (الآس) المعروفة .

(د. صفوح خير – غوطة دمشقص ٤٩٢) .

(٢) المغربي : صنف من البرتقال حلو الطعم .

(٣) أي تمر (طرابزون) وهي (مدينة تركية) ويسميها العامة : (داربزين خرمه سي) وهي تحريف لكلمة « طرابزون خرمه سي » .

(مجلة العمران – عدد خاص عن مدينة دمشق – سنة ١٩٦٧) .

(٤) قصب السكر (قصب المص) : نبات معمر من الفصيلة النجيلية ، يزرع لاستخراج السكر من عصير السيقان ، دخلت زراعته القطر السوري سنة ٦٨٠ م ، يزرع في الساحل ونباته ذو ساق طويلة ٢ – ٤,٥ م قطرها ٢,٥ – ٥ سم لونها بني غامق ، وهي مقسمة الى سلاميات ، يزرع لإنتاج السكر ، ولصناعة العسل ، وللمص .

(الموسوعة العربية الميسرة – ص ١٣٨٣)

والحَبِيصَة ، والسنبوسك ١ ، والمشمش الكلابي وأمثال ذلك مما كان رخيصاً .

ومما يلفت النظر في مطلع الربيع أن ينزل القرويون إلى المدينة صائحين : « حُور سنين يا نفل » ويبيعون نوعاً من تفاح الأرض بقدر البندقة محاط بنسيج من القشر وله ذنب أخضر كذنب الثوم ، ويسمى « حور سنين » فيتباشر الناس بذهاب البرد واعتدال الطقس ٢ ، ويخلعون الخلع على أول بائع يسمعونه ينادي به المشترين .

بما أن شجر اللوز بدمشق يماشي أواخر الشتاء ويزهر ، فيؤتى بثمره باكراً ويسمى (عَقّابيّة) أو (عُوجَا) ، وهو جنسان أحدهما صغير والثاني كبير بحجم الخيارة الصغيرة ويسمى (عوجه) فينادي عليه الناس هكذا : « أوّلْ فَواكي الشّامْ يا عُوجَا طَرِيّه ، قَلْبِكْ خيار » .

أما فواكه الشتاء البلدية : فالصبّارة ٣ والحبلاس (حب الآس)

---

(١) انظر ص ٣٥٨ .

(٢) في الأصل « التقس » زلة قلم .

(٣) الصبارة « الصبر » نوع من أنواع الفاكهة الموجودة في دمشق ، وتسمى في الكتب القديمة (تين الجبل) ، ينمو شجرها في الصالحية والمزة ، الثمرة كالكرة إلا أنها مستطيلة ذات شوك كثير تبلغ في شهر حزيران ، وكان تباع الواحدة الكبيرة الحجم بخمس بارات . . . وهي لذيذة الطعم ، لا يمل الإنسان من أكلها أبداً ، خصوصاً وقت الصباح وهي باردة .

(جمال الدين القاسمي – قاموس الصناعات الشامية – جـ٢ – ص ٢٦٦)

ولكن قلّما يقدم عليه الناس ، وكذلك (الزعبوب) ١ وهو خاص بالأطفال يفرحون به ، وهو نوعان (أصفر وأحمر) .

ثم يأتي بشكل نادر من الفواكه : المشمش الهندي ، والكَرَز (في أيامه) وتوت فريز ٢ الذي يخرج من عشب وليس من الشجر وهو نادر الاستعمال .

عندما يذهب أرباب المصالح إلى أعمالهم صباحاً باكراً والطلاب إلى مدارسهم يصادفون على الطرق باعة السحلب بالحليب ، أو الألماسية ٣ ، أو الشمندر ، والبليلة ٤ ، والبوشار ٥ ، والكعك بالدبس ٦ حيث يوضع على هذا الأخير قليل من السمسم والزعتر ٧ ، كما يوضع على السَحْلَب قليل من مسحوق الزنجبيل ، وذلك بقصد التدفئة .

---

(١) وهو (الزعرور) ثماره كروية الشكل حمراء صغيرة الحجم وهي معروفة .

(٢) ثماره حمراء تشبه (التوت) ولكن طعمها حامض لذيذ .

(٣) انظر ص ٣٥٨ .

(٤) حب (الحمص) المسلوق ، يضاف إليه الملح والكمون الناعم .

(٥) وهي حب الذرة الصفراء ، تنقع بالماء حتى تلين ثم توضع في المحمص ، ثم يرشون عليها الرمل الناعم ، وتحرك بمقشة فينفش ، انظر ص ١٧٥ .
(جمال الدين القاسمي – قاموس الصناعات الشامية – ج٢ – ص ٣٥٧)

(٦) وهو كالكعك العادي ولكنه أكبر حجماً وأقل ثخانة وأكثر ليونة يوضع عليه الدبس ، والسمسم والزعتر .

(٧) نوع من التوابل تستعمل كمنبه وهو نبات عطري يزرع في غوطة دمشق
(محمد فريد وجدي – كنز العلوم واللغة – ص ٦٢٣)

والناس يستعملون الشاي في دورهم وأكثره الأحمر ، وأما الأخضر فيستعمل صيفاً ليقتل الظمأ ، ويستعمل من قبل المشايخ غالباً .

يدخن الناس النارجيل (أراكيل) في المقاهي ويشربون القهوة السادة (المرّة) ، ويدخنون بالأراجيل أو النارجيل (التنباك) ١ العجمي واللاذقاني .

وأصحاب السجاير يشربون (دخان العربي) و (حسن كيف) ٢ وأما الأنواع الممتازة (كالبِرِنْجي) و (الايكنجي) والباكيتات ٣ الأخرى فيستعملها أرباب اليسار .

* * *

---

(١) نوع من التبغ يستعمل في النارجيلة . وهو أجناس أجوده القادم من جهة العجم .

(٢) دخان (حسن كيف) يعتقد أن أصل هذا الصنف من قرية (حصن كيفا) الواقعة على نهر دجلة ، شرقي مدينة ديار بكر ، وتختص بانتاجه كفرسوسة ، ويمتاز عن غيره من التبغ الذي يستعمل في المضغة والنشوق لوفرة مادة النيكوتين فيه ، كما يستعمل للنشوق (العطوس) وقد يضاف إليه تبغ التدخين ليزيد من شدته وتأثيره .

ويمكن أن نميز نوعين من تبغ (حسن كيف) الأول وهو القديم (البلدي) والثاني وهو (العينتابي) الذي أدخل منذ نصف قرن تقريباً إلى هذه المنطقة ، ويمتاز البلدي بارتفاعه والعينتابي بضخامته .

(د. صفوح خير – غوطة دمشق ص ٤٤١)

(٣) والسجاير تصنع من التبغ المفروم (التتن) وهو أصناف : منه المعروف بدمشق بـ « البلدي » أو « الدخان العربي » ، وكان يزرع في قرى دمشق ، ومنه « الشبعاوي » و « الكوراني » و « الكفرسوساني » و « الحسن كيف » وهو الأدنى ، أما الأنواع الأخرى فهو من بلاد العجم وأفضله البرنجي : تركية بمعنى نوع أول . الايكنجي : تركية بمعنى نوع ثاني .

(انظر محمد سعيد القاسمي – وجمال الدين القاسمي – قاموس الصناعات الشامية –)

إن من الأطعمة الشتوية المشهورة : الكبّة (برغل ولحم مسحوق معاً) ويحشى بالشحم أو الجوز ، فإن كان الحشو شحماً يشوى ، وإن كان جوزاً أو لحماً يقلى ، ويكون مبسطاً أقراصاً أو على شكل أسطوانة أو كرة ، ويطبخ باللبن الرايب ويسمى (اللبَنية) .

كما يقطع العجين ويحشى بالبصل واللحم ، بشكل (أذن الإنسان) ويسمى (شِشبَرَكْ) أي (شيش بورك) ومعناها (البُرك المنَفّخ) ، والأتراك يسمونه الدمّل (شيش) أيضاً وكل شيء منتفخ يسمونه (شيش) من مصدر (شيْشْمَكْ) الانتفاخ ، وكذلك الثآليل تسمى عندهم (شيش) والسفود (يسمى شيش) أيضاً .

ثم يكثر السمك المقلي والسلطات (١) بالخل ، ولا يستعمل اللبن معه ، ويقتصر على الليمون الحامض أو الخل ، ولا يعرف أهل دمشق نوعاً من السمك الا المقلي فقط : الأسود ، البنّي ، وسمك الأنهار الشامية .

أكلة الزيت :

عند أهل الشام أكلة الزيت تحوي : كُبّة مقلية ، باذنجان مقلي ، بطاطا مقلية ، سَلَطَه بخلّ وخيار أو خس ، مفسخ ، وسمك ، ولا يدخلون اللبن في السلطات إلا عند عدم وجود السمك ، بل يجعلونها بالحوامض الأخرى .

ثم إنهم يستعملون (الكشك) مع الجوز والبصل والزيت ويسمونها

---

(١) مفردها « سلطة » خليط الخيار والبندورة (الطماطم) والنعنع والزيت والخل أو الليمون الحامض .

(كِشْكِهْ خضرا) ويستعملونها في النزهات مع المجَدَّرَة وبقية الحوامض والمخللات .

إن النساء مغرمات بتناول الطعام في الحمام ، يجتمعن في يوم معيّن ، القريبات منهنّ ويأخذن طعامهن إلى الحمام ، ولا بدّ أن يرافق ذلك (الكرنْب) في الشتاء ، أو البردقان أو سواه ويبتهجن بذلك كثيراً .

* * *

توثيق الأيمـــان

كان الناس يؤيدون كلامهم حيال مخاطبيهم بشتى الأيمان ، ويضيفون إلى ذلك ذكر أحد الأنبياء والأولياء المعروفين لديهم .

فمثلاً كان أهل دوما وبعض أحياء دمشق المتطرفة مغرمين بحلف (الطلاق) ، وهذه عادة جارية عند أهالي دوما إلى الآن لدى كل حدث أو حديث ، فيقولون: « عليّ بالطلاء » أي (عليه الطلاق) ما ذهب أو ما حضر أو حضر أو أكل أو باع ، يدور على لسانهم هذا اليمين كالكلام العادي ؛ ومن النكات المشهورة ما يرويها بعضهم عنهم : أن أحد القضاة وكّل أحدهم أن يعلن بالمئذنة على الناس بأن كلّ من حلف بالطلاق يحبس ويغرّم ، فخرج المنادي إلى المئذنة وصاح قائلاً : « يا أهالي دوما ، بأمر مولانا ، عليّ بالطلاء ما عـمّا اكذب ، بأنه من حلف بالطلاء ، عليّ الطلاء بدُّو يحبسه ، سمعتم ، علي بالطلاء عمّا إخبركم أمر مولانا » .

وأما أحياء دمشق وقسم الغوغاء منهم فيحلفون الطلاق أيضاً وهم غير متزوجين ، لأن ذلك سهل على ألسنتهم ، ومنهم من يحرِّفها ويقول : « عليّ الطـّرشـَاء ، أو عليّ الطـّربوش » ومنهم من يقول : « بحظّي بشبابي أو بحظّي بحجـّتي » (إن كان حاجّاً) أو يقول : « علي الطلاق من ذراعي » (إن كان من طبقة القبضايات) .

وكذلك يحلفون بالأولياء كلٌّ حسب ما في حيّهم من الأولياء المشهورين ، فأهل حيّ الشاغور يحلفون (بالسروجي) وأهل باب شرقي (بالشيخ رسلان) وأهل الصالحية (بالشيخ محيي الدين بن عربي) أو (بالشيخ عبد الغني النابلسي) ، أو (بالنبي ذو الكفل) أو (بعرودك) ، ويضيفون إلى اسم الوليّ بعض أعماله ، فيقولون : « وحياة السروجي بطّاح الجمل » ؛ و « حياة الشيخ محيي الدين ابن العرَب » ، وهكذا القرى يوثقون أيمانهم بإضافة من في حيّهم من الأنبياء أو الأولياء مع الحلف .

* * *

تعابير التفكير والاستراحة أثناء الكلام

كان أهـــل دمشق أثناء مخاطبتهم يأتون خلال كلماتهم ببعض الألفاظ أو العبارات ، يستعينون بها في التفكير أثناء الحديث . مثلاً يقول أحدهم : « إنني كلّمت فلاناً ــ اللهم صلي على سيّدنا ونبينا محمد ــ بأن يأتي للصلح بينهم ــ فَهْمَان سِيْدِي ــ ولما حضرنا إلى دارهم قال لنا ــ ياسمأنتِ ــ أي (ياسيدي من أنت أو الذي أنت) بأنه ماحضر معهم ــ فَهْمَان أخي ــ فأنا تركتهم وذهبت ــ بقاسيدي ــ أنا شو طالع بيدي ، يِصْطفْلو ١ منهم لِبعضهم ، لكن شُوفْ ــ يرْحَم أَبوك ــ أنت لاتتوان عنهم هَدُول٢ ــ بقا سيدي ــ حَواوين٣ بعدين ٤ بفَطْسوا بعضهم٥ لأنهم ــ بعيد عنك ــ حَمير مابيفهموا ، أنا تعَاجْت وإياهم ــ الله وكيلك ــ كومة٦ مرّات ماشفت٧ ــ يشهد الله ــ واحدْ منهم فَهمان ، بَقَا أخي أنت ونظريتك ــ الله يحفَظك ــ هَلِّي بتّشوفوا انتْ مناسب ــ ياسْمأنت ــ ساويه٨ أنا لالي رايح ولا لي جايه ، يضربو ــ بعيد عَنّك ــ هَدُول

(١) كلمة عامية بمعنى « هم أحرار بما يرغبون عمله » ، أو « ليعملوا ما يريدون » .

(٢) هدول : كلمة عامية بمعنى « هؤلاء » .

(٣) حواوين : بمعنى « حيوانات » .

(٤) بعدين : بعد ذلك « بعدئذ » .

(٥) يفطسوا : « أي يهلكوا » أو « يقضي بعضهم على الآخر » .

(٦) كومة : مرات كثيرة .

(٧) ما شفت : ما رأيت ، لم أر .

(٨) ساويه : افعله « عمل ما تريد » .

بعَزى هَدَ ُول١ ، لانه كما عرضت لَك ْأخي هَدَ ُول ـ أنت أكبر قدر ـ حوَاو ْين ، أنا اعلَم بأنه كان لهم جار يهودي ـ تكبر عن طاريه ـ (أي عن ذكره) ، عذبو عذاب الحرمية من شان ْ مَسْأَلة بسيطة حتى راح واحد منهم نصراني ـ الله يكبِرْ مَك ـ لُه ْ شويّة واجهيه عليهم وكان زنكيّن ٢ يدينهم مَصاري ٣ سمعوا منه وبعدين ٤ ـ بقا سيدي ـ تصالحوا . بقا أخي يصطفلوا ، خاطرك أخي ، ٥ مع السلامة عيني ، لاتنس هَا ، شو قلت لك ؟ لاتنسى » .

* * *

تعابير التفكير عند النساء :

مثلاً : « والله يَاجَارتي امبَارح كنت عندَها تضْربلَها بهالوش ما ... ٦ بثا شفتها كانت عَمّاتقلي بيتنجان ـ ماينقلالك غالي ـ وقالت لي تعالي عاونيني بالكبة ـ وماتشوفي مصيبة ـ وبعد ماحمينا الزيت ـ مايْنحمى لك قَلْب عَلىَ غَالي ـ حَطّتْ الكبة وقامت فارت بالزيت ـ مايفور قَلْبك على غالي ـ قمْت قلت لها وَليك ْ تضْربي شو أنت عفشة ماعندك زنس الطّهَارة (جنس الطهارة) ، والله مِثْل اليَهود ـ تكبْري عن طاريهُن ـ

(١) يضربوا هدول بعزى هدول : « أي فليذهب الى الجحيم هؤلاء وهؤلاء » .

(٢) زنكين (زنكيل) : بمعنى غني أو ثري .

(٣) مصاري : من مصرية ، أي دراهم أو نقود ، وتستعمل منذ احتلال محمد علي باشا لسوريا .

(٤) بعدين : بعد ذلك .

(٥) خاطرك خي : تستعمل أثناء الوداع لفترة قصيرة أوطويلة .

(٦) كلمة نابية .

الحمار بيتعلم– أنتِ أكبر أدر–(قدر) وهيّ مابتتعلم –بئَا ياستّي– هَيْ حكايتّي محّها (معها) ، وكل يوم بْتجي بتَستْعير من عندي الحلة – ماتشوفي شحّار على غالي – لقيتها مْشَحّرة وشّها وقفاها وأيديها سود – مايسوَدّ لك قلب على أحد – مثل العَطّاب (الحرقة المحروقة) ، أنا قلت لها وَلك يابِنْتي انزلي لعند أهلك وامبَارح نِزْلت – ماتشوفي نزلة بَرديّ– ولحَدْ هـلاً مارجْعت لبيت جوزها، تِمّحِقْ مابقيت لاروح ولاأجي » .

وأمثال ذلك كثير .

* * *

ألعاب الأولاد

[الطِّمِّيمِه] ..

يجتمع الأولاد قرب المساء ضمن حدود بيوتهم القريبة ويلعبون (طِمّيمِه) يضع أحدهم وجهه الى الحائط ويمضي الآخرون ليختبئوا، فيرجع يفتش عنهم فيهربون الى مكان وقوفهم ، ومن لم يصل لذلك المكان وقبض عليه فانه يطمّ وجهه بالحائط .

* * *

الدّحَل :

أو يلعبون الدّحَل(كرة من الزجاج فيها خيوط زجاجيةملونة) ومعهم كعاب ١ من عظم الكواريع يصفّونها خلف بعضها على الأرض بمسافة متر بين كل منها ، ويعينون محلاً لدفع الدّحل فمن أصاب شيئاً من الكعاب ملكه لنفسه ، ومن أصاب دحل الآخر ملك كعبين ، ويتبادلون البدء باللعب الأول الثاني الثالث ويسمى الأخير (الطشّي)،ويعود يصبح الأول ، وهكذا .

* * *

---

(١) عظم أرجل (أقدام) الخروف « أي كعب القدم » .

شاك العجم :

ومنهم من يضع النحاسة ١ الحمراء محل الكعب ، وما أصاب منها يصبح له ، ويسمى الكعب الواحد (ديكه) والكعب الصغير (أمينـــه) ويعرفونها بالاحمر أو الأخضر ، ومنهم من يلعب (شاك العجم) ، وهذه محرفة عن كلمة (شاه العجم)٢ ، ولكنهم يلفظونها هكذا (شاك العجم) ، فيقف اثنان أو ثلاثة كل بيده (كَعْب) ويلقون ذلك على لأرض ، فمن وقفت (ديكته) له الحق أن يضرب بها كعاب بقية اللاعبين ، فان كانوا ثلاثة ووقفت اثنتان فالنائمة على ظهرها هي التي تضرب كعاب الآخرين ، ولأجل الضرب يخصصون كعباً كبيراً مجوفاً مصبوباً فيه الرصاص ليكون ثقيلاً .

* * *

ثم هناك لعبة الخطّة :

وهي تتألف من اثنين فأكثر من اللاعبين ، يضع كل منهم كعباً على الأرض بشكل صف ، ثم يعينون موضعاً لضربها بالكعب المرّصّص ، كما يعينون مسافة اذا تجاوزتها المضروبة كسبها الضارب أو كسب بدلاً عنها نحاسة ، أو متليكاً ١ من العملة التي ذكرناها في موضعها .

* * *

---

(١) انظر ص ٢٦٩ .

(٢) شاه العجم : كلمة فارسية بمعنى « ملك العجم » ، ومصدر هذه اللعبة فارسي .

ثم لعبة العنطوز :

ولعبة العَنْطُوزْ يجلس القرفصاء اثنان أو أكثر ويجعلون حلقة بجلوسهم ، ويختارون كعبين صغار (ديكتين) أو كعبين كبار مرصَّصين وبعد المقارعة على البدء باللعب يأخذ الأول الكعبين ويجعل ظهرهما لبعضهما بكفه ويلقيهما الى الارض ، وقبل الإلقاء يقول لمخاطبه « اضرب » أي عيّنِ المقدار ، فيقول الآخر « بقرش أو بمتليك » فيطرح الأول الكعبين من يده ، فإن جاءا واقفين كسب الرهان ، وإن كان احدهما واقفاً والثاني نائماً فنصف الرهان ، وهنا لديهم تعبير آخر وهو كلمات (إيط ، أبل ، بطن ، ظهر) والإيط : أن يكون الكعب واقفاً على جانبه وسطحه الجانبي الأملس إلى الأسفل مرتكزا على الارض ، والأبَل بالعكس والبطن إذا كان ظهر الكعب الأملس إلى الأعلى ، والظهر بالعكس . فتسمع منهما كلمات الشتائم متبادلة : وهذا يقول : « ولَكْ إيْط » ، الثاني يقول ولك أخو الشَرْتنه أبل » « ليْكْ أخو المَ . . . أنا عما قُلَّكْ إيط » « لا أنتْ نكَشْتها بايديكْ .. عيْدهاعيِدْهالَنْشوفْ » ، واللعب إما عن كعاب أوعن دراهم .

* * *

لعبة طرّة ونقش :

(طغراء ونقش) : هذه تكون عادة ببعض الدراهم المتليك ، أو النحاسة ولها عادة وجهان : أحدهما فيه صورة « الطغراء السلطانية»

ويسمونها (طرّة) والوجه الثاني فيها نقش « عزّ نصره ضرب في القسطنطينية » ويسمونه (النقش) . فيضع النُحاسة أو المتليك على أظفر إبهامه ويقذفه عالياً ويلتقطه ويضعه على الأرض وراحة يده فوقه . ثم يسأل هكذا « طرّة ولاّ نَقْش ؟ » فيقول « طرّة أو نقش » فإن علم أخذها وأصبحت له ، ويصبح هو السائل ، وهكذا . . . الخ . .

* * *

لعبة الدوش :

يشترك بهذه اللعبة اثنان فأكثر ، وينتقي كل لاعب حجراً بالشكل الذي يختاره على أن لايزيد حجمه عن حجم (جوزة الهند) ويسمى (الدُّوْش) ، ثم يختارون حجراً بشكل مخروط لايزيد حجمه على (الكمثرى) وبشلكها ويسمونه (النَقْرَة) فيختارون لها موقعاً بارزاً على الأرض ويركزونها على أوسع قاعدة فيها بحيث يكون أرفع رأس في جوانبها متجهاً إلى الأعلى ، ثم يحددون لأنفسهم مسافة لاتقل عادةعن عشرة أمتار يلقون منها بالترتيب مابأيديهم على (النّقْرَة) ، فمن أصابها يبدأ بقياس مدى مسافة انفصالها عن مكانها بواسطة قدميه ، فمن بلغ مائة قدم من مجموع الضربات كان له الحق أن يركب ظهر من يليه باللعب بمقدار هذه المسافة ذهاباً وإياباً ، ثم يجدد لعبه مع بقية إخوانه وهكذا ... الخ . . وتسمى هذه لعبة (الدُّوْش) .

* * *

لعبة العرج :

ويسميها الاتراك («يك» أياق») أي الرِّجل الواحدة، يعيّن محل خاص للوقوف ، فيبدأ الواقف قفزاته على رجل واحدة وراء بقية اللاعبين ، فإذا مست رجله الاخرى الارض انهالوا عليه بالضرب حتى يسرع بالهزيمة الى موضعه ، فيكفون عنه . وإذا مسّ هو أحد إخوانه أثناء قفزه المنتظم على رجل واحدة انهال الجميع بالضرب على ذلك الملموس. وهكذا . . . الخ . .

* * *

لعبة الحجر والمقرعة :

ينتخب اثنان من اللاعبين ، وتربط أعينهما بحيث لايريان أحداً ، فيعطى أحدهما المقرعة ١ والثاني حجرين صغيرين ، فيبدأ حامل الحجرين بالتصفيق بهما ويلحق الآخر حامل المقرعة مكان الصوت وينهال عليه بالمقْرَعة ، فيختفي منحازاً إلى ناحية ، ويصفق بالحجرين فيتبعه لمدة معينة يتضاحكون جميعاً على أوضاعهما أثناء الهرب والضرب ثم يبدلان بغيرهما وهكذا . . الخ . .

* * *

لعبة كرة اليد (الطّابة) :

يجتمع اللاعبون ويقتسمون أنفسهم على طائفتين ، ثم يلقون الطابة

(١) انظر ص ٢١٢ .

إلى الأعلى فيتهافتون عليها فتقع بيد أحد أفراد الجانبين ويبتدىء اللعب فيتناوشونها بين أفراد طائفتهم، وأثناء ذلك يهجم أفرادالفريق الآخر ليتناولوهامن الفضاء أثناء القائها ، فإن استطاع أحدهم أخذهاانهال على من بجانبه من الخصوم ضرباً بيده وألقى الطابة لغيره من أفرادطائفته وهكذا . . . الخ . . .

. . .

لعبة القاق :

يستند أحد الأولاد بأسفل ظهره على الحائط ، فيعلو ظهره أحد رفقائه بعد المقارعة بين اللاعبين ، ثم ينفرد أحدهم لمسافة لايسمع منها كلامهم ، فيتفقون بينهم على ثلاثة أنواع من الأطعمة ، ويبادر الراكب سائلاً رفيقهم المنعزل عنهم : « ياقاق آ » فيجاوبه « نعم يَاقَاقْ » يسأله « شُو تأكل » يجيب : « مِنْ اللّي عِنْدك » فيقول : « عندي كذا» ويذكر الاطعمة الثلاثة التي لديه ، فإن عرف النوع المتفق عليه يصبح راكباً ، وإن مرّ اسم الطعام عنه ولم يعرفه يصبح مركوباً مثال : يتفقون على (لحم ، أرز ، برغل) ويقررون كلمة (لحم) ، وعند السؤال يقول« عندي لحم »فاذا قال ذاك: « نعم آكل » فيكون قد حزر وعرف ويصبح راكباً ، وإن قال « لاآكل » ومرّ عنها السائل لغيرها يُعدّ مركوباً وهكذا . . . الخ . .

. . .

لعبة من ساقك :

ينقسم اللاعبون الى قسمين ، فيقف القسم الواحد صفاً متراصّاً واضعاً كل منهم راحتي يديه خلف رأسه ، ثم يقف الثاني خلف الصف الأول ، فيتقدم أحد أفراد الصف الثاني ويدفع أحد أفراد الصف الأول فيمشيان بضـع خطوات فيسأل أحـد أفراد الصف الثـاني اللاعب المساق إلى الأمام قائلاً : « مَنْ سَاقَكْ ياحْمَاري ؟ » فإن عرف ،ركبه إلى مكانه الأول في الصف الأول ، وتبادل القسمان اللعب ،وإن لم يعرف فيركبه السائق ويعود به الى مكانه ، ثم تعاد العملية من قبل آخر لتسيير شخص آخر وهكذا . . الخ . .

* * *

لعبة نوم اسكندرية :

يجتمع اللاعبون ويتقارعون على من يركع ليقفز فوقه إخوانه ، وعندما يركع أحدهم يوضع على ظهره طاقية أوطربوش أو شيء آخر ، فيباشرون القفز من فوقه ، فمن سقطت الطاقية أثناء قفزه ركع محله وهكذا ، وإذا لم تقع مع أحد منهم تضاف طاقية أخرى فوق الأولى . حتى تقع وإذا لم تقع تزاد الاشياء على ظهر الراكع حتى تقع واحدة منها أو بعضها أو جميعها أثناء القفز ، والرئيس الذي يبادر القفز قبل إخوانه ، يقول كلمة عند كل قفزة ويرددها اخوانه ، والكلمات هي : « يامَا احْلَى نُوم اسكندرية ، ياعيون الغزّالة ، ماقَتَلْني إلاّ ابن عمي . جَرّدني السِّيفين مِنّي . تحت أطباق المدينه .ملبّسه وحزينه » . .

ولابد من سقوط الاشياء قبل الانتهاء من هذه الكلمات . . الخ ..

* * *

لعبة البيـل :

يجتمع اللاعبون ويتقارعون على من يمثل (البيل) . وعند تعيينه يقف في زاوية من الجدار ، ويبتعد عن إخوانه ، فيهجم عليهم بخطوات سريعة موزونة وهو يردد كلمة (بيل بيل بيل بيل) فيتراكضون منه متوجهين إلى تلك الزاوية فمن نجا منه سلم ، ومن لمسه بيده صار مقامه لاجراء وظيفة (البيل) وهكذا . . . الخ . . .

* * *

مشاهير أهل الحرف ١ :

* * *

(١)آخر ما جاء فيالأصلوقد أثبت المؤلف هذا العنوان مع عناوين أخرى فيالفهرس وهي « مشاهير أهل الحرف ، التنجيد ، أعلام المهن والصناعات ، أعلام علماء الدين » ويبدو أنالمؤلف لم يوفق إلى استيفاء كل ما كان عازماً على تناولهبالبحث .

الكشافات والفهارس

فهرس عناوين الابحاث

(١) سقط هذا العنوان سهوا من متن الكتاب .

(١) هذه عناوين اثبتها المؤلف في فهرسه ولم يتكلم عليها في كتابه .
انظر التعليق رقم (١) ص : ٣٨١ .

كشاف الاماكـــن

للسلام على الخلفاء الأمويين ، كما سمي باب الشريف .

(المصدر السابق ص ١٨٦) .

باب سريجة (بدمشق) : ١٢ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٥٠ ، ٢٦٣ .

باب شرقي : ٩ ، ١٠ ، ١٣ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٣٧ .

سمي بذلك لأنه شرق البلد وكان له ثلاثة أبواب باب كبير في الوسط وبابان صغيران على جانبيه ، سد منها الكبير والباب الصغير الذي من قبلته وبقي الصغير الشمالي ، وهو مبني في أوائل القرن الثالث للميلاد دخل منه خالد بن الوليد عنوة أثناء فتح دمشق .

(المصدر السابق ص ١٨٥) .

باب الصغير : ٩ ، ١٦ .

أحد أبواب دمشق القديمة ، وكان يسمى الباب القبلي ، سمي بذلك لأنه كان أصغرها حين بنيت وهو الآن باب الشاغور ، وهو روماني قديم ، نزل عليه يزيد بن أبي سفيان في حصار دمشق ، ودخل منه تيمورلنك سنة ٨٠٣ هـ .

باب العمارة : ١٩ .

باب الفراديس : ٩ .

باب القوافين : ١٣ .

أحد أبواب الجامع الأموي وهو القبلي ويعرف بباب الزيادة وكان يسمى باب الساعات ثم انتقل هذا الاسم إلى باب جيرون لأن الساعات نقلت إليه ويسمى الآن باب القوافين .

(الجامع الأموي – علي الطنطاوي)

باب الكلاسة : ١٩ .

هو باب محدث إلى مدرسة الكلاسة من أبواب الجامع الأموي ، وما تزال الكلاسة تحمل نفس الاسم حتى الآن وهو شرق الجامع الأموي .

(الجامع الأموي - علي الطنطاوي ص ١٨) .

باب كيسان : ٩ .

باب المصلى : ٩ ، ١٤ ، ١٦ .

أحد الأحياء الرئيسية في دمشق قديماً يقع في تقاطع شوارع ابن عساكر – المجتهد – الميدان – الزاهرة . ويحمل الآن اسم ساحة باب مصلى . (مخطط مدينة دمشق) .

باب المناخ : ١٠ .

كان يسمى باب الفرج في الجهة الشمالية من دمشق بين العصرونية والمناخلية وكان يدعى أيضاً باب البوابجية . أحدثه نور الدين الشهيد وسماه باب الفرج لما وجد الناس به من الفرج . جدد في أيام سيف الدين أبي

سمي بالجديد عندما جدده سليمان بن حسين العقري التاجر سنة ٧٩٠ هـ وكان قبلا تربة ولا يزال هذا الجامع يحتفظ بشكله القديم وكان الجامع مدرسة تحمل نفس الاسم، وهو ما يزال عامراً في الجزء الشمالي من الصالحية .

(القلائد الجوهرية ج ١ ص ٦٠)

جامع درويش باشا : ١٦ .

جامع دير الحنابلة : ٦٦ .

ينسب إلى أبي عمر الكبير الحنبلي الزاهد المعروف بابن قدامة المقدسي وهو الذي نسبت إليه الصالحية أيضاً لنزوله بمسجد أبي صالح بظاهر باب شرقي وبني هذا المسجد سة ٥٩٨ هـ ويقال له جامع المظفري لأن الملك المظفر كوكبوري بن زين الدين علي كجك صاحب إربل أرسل مالا جزيلا لتتميمه فكمل وأرسل ألف دينار ليساق بها إليه الماء من قرية برزة فلم يمكنه من ذلك الملك المعظم صاحب دمشق واعتذر بأن هذا فرش قبور كثيرة للمسلمين وصنع له بئر وبغل يدور ووقف عليه وقفاً لذلك (ولا يزال قائماً في سفح جبلقاسيون) .

(الدارس في تاريخ المدارس — النعيمي ج ٢ ص ٤٣٥) .

جامع السباهية : ١٢٥ .

جامع سراي المشيرية : ١٥ .

جامع السلطان سليم : ١٧٣ .

جامع سنان باشا : ١٦

جامع السنجقدار : ٥٦ .

جامع سيدي خليل : ١٤ .

في جهة تسمى الآن بشارع النصر كان مسجداً قديماً وكان فيه مجاورون أتراك باعتبار أن مؤسسه تركي وهدمه جمال باشا السفاح وأضافه إلى شارعه وبقي منه الآن مسجد صغير بجادة السنجقدار باسم جامع سيدي خليل .

جامع العسالي : ٥٦ .

جاوة : ١٦٩ .

الجبل الأسود (مقاطعة يوغوسلافية) : ٢٧٩ .

جبل الدروز (جبل العرب) : ٢٧٧ .

جبل عرفات : ٥٨ .

جبل قاسيون (قاسيون) : ٧ ، ٨ ، ٥٨ ، ١٧٠ ، ١٧٣ .

قال سبط الجوزي : « قاسيون جبل شمالي دمشق ترتاح النفس إلى المقام به ومن سكنه لا يطيب له سكنى غيره غالباً . واختلفوا لأي معنى سمي بذلك فقيل لأنه قسى فلم تنبت فيه الأشجار أو قسى على الكفار فلم يقدروا أن يأخذوا منه الأصنام » .

(القلائد الجوهرية — ابن طولون : ص ٤٢) .

الجديدة : ١٦٧ .

الجرف : ٦٧ .

الجزماتية : ٢١ .

الجسر الأبيض : ٢١ ، ١٩٠ ، ١٩٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٤ .

أحد شوارع دمشق في الشمالي منها **يحمل اسم الجسر الابيض على نهر ثورى وهو أحد اجزاء حي الصالحية .**

جسر النحاس : ٢٦٠ .

وهو شرقي الركنية في الصالحية ينسب إلى الشيخ عماد الدين عبد الله بن الحسين ابن النحاس حيث أنشأ جامع النحاس أيضاً في سنة أربع وخمسين وستمائة هجرية . وكان ابن النحاس من خيار الناس وله أيضاً تربة باسمه وحمام .

(الدارس ، للنعيمي : ج ٢ ص ٤٤١)

جسرين : ١٢٥ .

جغيمان : ١٦٧ .

جنين : ٢٩٨ .

جوبر : ١٠ ، ٣٥ ، ١٧٢ .

قيل إن اسمها من الفارسية من (جويبار) وهي مسيل النهر العظيم ، وهي من قرى الغوطة الشرقية الكبيرة والثانية بعدد النفوس بعد دومة وداريا . شرق دمشق بـ / ٢ كم / تسقى من نهر ثورا يعمل أهلها بالصناعة أولا والزراعة ثانياً . في تاريخ ابن عساكر أنه في أرض جوبر قرية تدعى طرميس كانت قائمة في القرن الرابع الهجري اندثرت وبقي اسم جسرها محرفاً من طاء إلى تاء فيقال : ترميس .

(غوطة دمشق — كرد علي ص ٢١ ، الريف السوري — وصفي زكريا ٢/٩٥) .

جورجيا (الكرج) : ١٧١ .

جوزة الحدباء : ١٨ ، ٢٠ .

الجوعية (مغارة) : ١٧٤ .

هذه المغارة الجوعية في أعلى مقبرة الحميسيات يصعد إليها من الطريق الذي حذاء قبة ابن سلامة الرقي وهي معروفة مشهورة ويذكرون أنه لجأ إليها أربعون نبياً خوفاً من الكفار ولم يكن معهم إلا رغيف واحد فلم يزل كل واحد منهم يؤثر رفيقه عليه حتى ماتوا جميعاً من الجوع وفي الأزمنة الأخيرة كانت ملجأ للأشقياء واللصوص حتى وجد فها شخص مقتول فاهتم لذلك أهل الصالحية وقام الشيخ محمد التكريتي المتوفى سنة ١٣١٣ هـ فسد بابها وبقي مسدوداً إلى الآن .

(القلائد الجوهرية — تعليق محمد أحمد دهمان ص ٤١) .

* * *

حي سوق ساروجة : ١٢ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ .

سوقساروجة – أو صاروجا – وصاروجا هو الأمير صارم الدين صاروجا المظفري أحد الأمراء الناصرية ، وكان أميراً بصفد ثم بدمشق ، وكان خير الطباع سليم الصدر وهو من أنصار الأمير تنكز ، اعتقل لما قضي على تنكز فكحل وعمي ومات أواخر سنة ٧٤٣ هـ وهو الذي أنشأ سويقة صاروجا فنسبت هذه المحلة إليه . وهذا الحي من أحياء دمشق القديمة شمال القلعة في الطرف الشمالي للمدينة القديمة يحمل نفس الاسم حتى الآن .

(إعلام الورى – لابن طولون ص ٦١ . مخطط دمشق في العهد المملوكي – للريحاوي) .

حي السهم الأعلى : ٢٦٤ .

شمال شرقي الجسر الأبيض في حي الصالحية .

(مخطط دهمان الملحق بكتاب المروج السندسية) .

حي السويقة : ٢١ .

حي الشاغور : ١٦ ، ٢١ ، ١٢١ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ٢٤٩ ، ٣٧٠ .

أحد أحياء دمشق القديمة خارج السور القديم في القسم الجنوبي منها كان يحمل اسم محلة الشاغور ، ما يزال بنفس الاسم .

(مخطط دمشق – للريحاوي) .

حي الشركسية : ١٩٠ .

أحد أحياء دمشق خارج السور في القسم الشمالي الغربي من المدينة قرب سفح الجبل .

حي الشهداء : ٢٠ ، ٢٥٩ .

كان قديماً قرية تدعى أرزة ، نزلها العرب منذ الفتح الإسلامي ثم اضمحل أمرها في منتصف القرن العاشر الهجري ثم عاد إليها العمران منذ مطلع القرن العشرين ، وكانت أرزة تعد من الأماكن المقدسة ، والشهداء هم ثلاثة أخوة من الصحابة قتلوا في فتح دمشق ودفنوا ثمة وإنه عمر عندهم مسجداً .

(القلائد الجوهرية – ابن طولون ص ١٨) .

حي شويكة : ٢١ .

حي الشيخ مجاهد : ٢٠ .

حي الصالحية : ١٠ ، ١٢ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣٥ ، ٤٩ ، ٥٨ ، ٦٦ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٦٢ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٨ ،

١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٧٠ .

في سبب تسميتها بالصالحية اختلف في ذلك فقيل لكونها في سفح جبل قاسيون وهو جبل معروف بجبل الصالحين ، وقيل إلى الصالحين لصلاح من كان ابتداء وضعها ، وقيل بأن الذين وضعوها كانوا بمسجد أبي صالح فنسبت إليه . اعلم أن الصالحية إسلامية محدثة في آخر القرن الخمسمائة ٥٥١ هـ وكان سبب وضعها مهاجرة أولاد قدامة المقادسة رضي الله عنهم من تلك البلاد إلى دمشق من جور الفرنج — الصليبيين — .

(القلائد الجوهرية — ابن طولون ج ١ ص ٢٥ و ٢٦) .

ويقول الشيخ محمد أحمد دهمان في مقدمته لتحقيق كتاب (القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية) لمؤلفه محمد بن طولون الصالحي الدمشقي المتوفى في سنة ٩٥٣ هـ المذكور أعلاه ما يلي فيما يتعلق ببناء الصالحية : بعد أن استقبلت دمشق السلطان محمود بن زنكي الشهير بنور الدين الشهيد كان ذلك طليعة ومقدمة لدولة قوية تشمل البلاد الشامية والمصرية ، وكان أن رجعت دمشق تؤسس خارج سورها أرباضاً وأحياء جديدة مكان الأحياء المندثرة فتأسس حي العقيبة مكان الأوزاع ورجعت بيت لهيا وسطر العرب ومقرى والنيرب والربوة ثم تأسست الصالحية التي يحق لنا أن نسميها دمشق الجديدة . وفي سنة ٥٥١ هـ وصلت أول قافلة من لاجئي فلسطين إلى دمشق يرأسها كبير قرية جماعيل الشيخ أحمد بن قدامة المقدسي ثم تتابعت الهجرة بعد ذلك فكان المهاجرون يعدون بالمئات وكان نزولهم وهم عدد غير قليل بمسجد موقعه غير صحي فسبب تفشي الأمراض بينهم وموت عدد كبير منهم ، فتطلبوا لهم مكاناً فسيحاً صحياً فوقع اختيارهم على سفح جبل قاسيون على مقربة من نهر يزيد فبنوا لهم داراً تحوي عدداً كبيراً من الحجرات دعيت بدير الحنابلة . ثم شرعوا في بناء أول مدرسة في الجبل وهي المعروفة بالعمرية ، وتتابع البناء حولها عضد هذه الحركة السلطان نور الدين ثم الملوك الأيوبيون وخواتينهم فبنوا عدة مدارس ومساجد جعلت تلك الأرض القاحلة مزدهرة بالعمران ناضرة بالقصور والأشجار والأزهار دعيت بالصالحية نسبة لأولئك الفلسطينيين الذين عرفوا لعلمهم وتقواهم بالصالحين .

(دهمان — القلائد الجوهرية ص ٢ — ٣) .

حي الصوفانية : ١٧٢ .

في القسم الشرقي من المدينة ما تزال تحمل نفس الاسم .

حي قبر عاتكة (قبر عائكة) : ١٦ ، ٢١ .

قال ياقوت في أرض عاتكة خارج باب الجابية : منسوب إلى عاتكة بنت يزيد ابن معاوية أم البنين وهي زوجة عبد الملك ابن مروان . قال ابن حبيب : وكانت تضع خمارها بين يدي اثني عشر خليفة كلهم لها حرم : أبوها يزيد بن معاوية وأخوها معاوية بن يزيد وجدها معاوية بن أبي سفيان وزوجها عبد الملك بن مروان وأبو زوجها مروان بن الحكم وابنها يزيد بن عبد الملك وبنو زوجها الوليد وسليمان وهشام وابن ابنها الوليد بن يزيد، وابن ابن زوجها يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وابراهيم ابن الوليد المخلوع وهو ابن ابن زوجها أيضاً وعاشت إلى أن أدركت مقتل ابن ابنها الوليد بن يزيد . ويطلق لعهدنا على قصر عاتكة وأرض عاتكة أو قبر عاتكة وهي من أحياء دمشق خارج السور ظاهر باب الجابية .

(غوطة دمشق — كرد علي ص ٢٥٧) .

حي العفيف : ٢٥٨ .

جادة في الصالحية مما يلي الجسر الأبيض والشيخ محيي الدين بن عربي ما يزال يحمل نفس الاسم .

حي العقيبة : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

حي العمارة : ١٢ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٥١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

في القدم الشرقي من المدينة وكانت خارج باب الفراديس ، أنشئت في القرن الثامن الهجري فصاروا يلهجون باسمها ويقولون : « عند عمارة الإخنائي » فغلب هذا الاسم على خارج باب الفراديس وصار يسمى حي العمارة حتى الآن .

(إعلام الورى — ابن طولون ص ١١٦) .

حي عين الكرش (عين الكرش) : ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ .

ما يزال يحمل نفس الاسم ، وهي المنطقة التي تقع شمال جادة ساروجة وكانت توجد عين مياه عذبة تسمى عين الكرش ولا وجود لها الآن .

(مخطط دمشق في العهد المملوكي — للريحاوي) .

حي القصاع (القصاع) : ١٢ ، ١٩ ، ٢٢١ .

وهو من أحياء دمشق القديمة يقع ضمن

السور شرق جهة الجامع الأموي الباب الشرقي باب جيرون ويحمل نفس الاسم منذ القديم .

(المصدر السابق)

حي القنوات (القنوات) : ١٢ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٥١ .

في القرن التاسع عشر أحدث نوع من التطور على مخطط مدينة دمشق وشقت الطرق الجديدة وجددت أسواق ومناطق سكنية وأحياء منها حي القنوات الذي ضم الارستقراطية التركية التي تجمعت حول السراي ، وسمي بذلك لكثرة قناطر نهر قنوات الذي يجري فيه وما يزال يحمل نفس الاسم وطوله قبلة بشمال من ملاصقة باب المدينة الغربي وباب الجابية إلى مقبرة باب الصغير وعرضه شرقاً بغرب من أسوار المدينة إلى مقبرة ذي الجمار إلى حد مقبرة الصحابي زيد بن ثابت ويمتد غرباً لمحلة الشويكة ومحلة قبر عاتكة .

(مجلة العمران – عدد خاص عن دمشق سنة ١٩٦٧) .

حي القيمرية (القيمرية) : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ١٨٤ .

أحد أحياء دمشق القديمة شرق الجامع الأموي وقريبه ضمن السور القديم .

حي مسجد الأقصاب : ١٧ ، ١٩ ، ٢١ ، ١٣٥ .

ينسب هذا الحي إلى الجامع الذي فيه حيث جدد بناءه الأمير ناصر الدين بن منجك في شعبان سنة ٧٢١ هـ وأصبح اسمه مسجد الأقصاب أو مسجد القصب ، لا يزال عامراً في نفس الحي ويعرف بجامع السادات .

(الدارس ، للنعيمي ج ٢ ص ٤٢٩) .

حي المهاجرين : ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٧٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ .

سمي بهذا الاسم عندما أنزلت السلطة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر في سفح جبل قاسيون في الطرف الغربي من الصالحية من هاجر من مسلمي اقريطش – كريت – في حي قسمته إلى أقسام منظمة .

(محمد أحمد دهمان – القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية) .

حي مهاجرين أكراد : ٢٢ .

حي الميدان : ٩ ، ١٢ ، ١٤ ، ٥٦ ، ١٣٠ ، ١٦٨ ، ١٧٣ .

كان يسمى ميدان الحصى يبتدىء من مسجد مصلى العيدين باب مصلى ثم يمتد للجهة القبلية وكان الميدان الفوقاني يسمى القبيبات وهو يشمل الحي الذي يقع فيه جامع الدقاق ، ولقد كان في دمشق أربعة ميادين مشهورة هي : ميدان المرجة – يشمل ميدان القصر مكانه دائرة الشرطة وقصر الحكومة الآن –

والعلماء . ذكرها ابن عساكر وابن طولون .
(الريف السوري – وصفي زكريا ج ٢ ص ١٤٠) .

الدحداح = مقابر الدحداح .

الدرويشية (جادة) : ١٤ .

شيدها الوالي درويش باشا والي دمشق سنة ١٥٧٤ م لذلك فهي تحمل اسمه ، وكانت تتألف من جامع ومكتب ومدفن وسبيل . ما تزال تحمل نفس الاسم .
(مدينة دمشق – الريحاوي ص ٧٧) .

دمر : ١١ ، ٢٠ ، ٣٥ .

قرية صغيرة غرب دمشق بـ ٨ كم اشتهرت بجمال موقعها وتعدد أنهارها وجداولها تقع في واد جميل يجري فيه نهر بردى لا زراعة فيها لضيق واديها .
(تاريخ دمشق – ابن عساكر ص ١٣ . الريف السوري – وصفي زكريا : ٢/١٩٩) .

دندرة : ١٢٥ .

دوما : ١٦٢ ، ٢٦٢ ، ٣٦٩ .

مدينة شمال شرق دمشق بـ ١٢ كم وسط السهل الواسع المشهور بزراعة كروم العنب وهي في الطريق إلى بغداد ، تعتمد على الزراعة . ذكرها ياقوت في معجمه وضبطها بالتاء المربوطة (دومة) وذكرها ابن طولون في كتابه (ضرب الحوطة على جميع الغوطة) وهي مركز منطقة الآن وفيها مشفى ابن سينا .
(الريف السوري – وصفي زكريا : ١/٢٧٠) .

دومدوم : ٢٨٨ .

دياربكر : ٣٦٦ .

* * *

ر

الربوة : ١١ ، ٢٠ ، ٣٥ ، ١٧٤ .

هي التي قال عنها الرحالة ابن بطوطة : هي من أجمل مناظر الدنيا ومتنزهاتها وبها القصور المشيدة والمباني الشريفة والبساتين البديعة .

وعدها المتقدمون من قاسيون مع أنها واد وليست بجبل لأن الحد الطبيعي لهذا الجبل من الجنوب هو نهر بردى ، وهي أول منفسح الوادي الغربي الآخذ إلى دمشق وفيها يخرج بردى من سجنه الضيق بين شقي الجبل المزة وقاسيون وهو مضيق الربوة ، وينقسم فيها إلى عدة أنهار وهي : يزيد وثورى – من الشرق والشمال – وقناة الداراني ، ثم قناة المزة ثم قنوات وبانياس ، وبأسفل الوادي يسيل ما بقي من المياه في بردى .

يقول البدري : سميت بالربوة لأنها مرتفعة مشرفة على غوطتها ومياهها .

وهي معروفة تقع غرب دمشق ، كان لها شأن في الأيام الخالية ، وصفها البدري في القرن التاسع الهجري كما وصفها ابن طولون في القرن العاشر الهجري فكان الوصفان متشابهين إلا قليلا : عمران ممتد الرواق ونضرة وغضارة ، وطبيعة ساحرة ، ومياه متدفقة ، ثم خرب ما فيها ، ودثرت قصورها ، وتهدمت مساجدها .

مكانها في المضيق الذي يشكل آخر واد بردى وأول المتسع الذي تبدأ به أرض الغوطة الغربية ، سميت بالربوة والحقيقة أنها وادي تسيل فيه الأنهار المتفرعة من بردى .

(غوطة دمشق – كرد علي ص ٢٣٣ ، الريف السوري – وصفي زكريا : ١٨٨/٢ ، محاضرة دهمان ٢١ شباط سنة ١٩٤٣).

روسيا (الاتحاد السوفيتي) : ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٦٣ .

* * *

ز

الزرقاء : ١٦٧ .

زقاق الحياة : ٢٥٩ .

زقاق المسكي : ٢٦٥ .

في حي الصالحية شمال غرب جامع الشيخ عبد الغني النابلسي بين جادة أسد الدين وجادة بهجت الحلبي في سفح جبل قاسيون . وهناك جادة المسكية أمام الجامع الأموي حيث تباع فيها القرطاسية .

(مخطط دمشق لعام ١٩٧١)

* * *

س

ساحة الشهداء (المرجة) : ١٤ ، ٣٥ .

سان جرمن : ٢٨٣ .

ستي زيتونة : ٢٠ .

سراي المشير العسكرية (السراي العسكرية – القصر العدلي) : ١٥ ، ١٦ ، ١٦٥ ، ١٦٦ .

قصر المشيرية أو السراي هي مقر الباشا الوالي العثماني وهي قريبة من القلعة ، وقد أطلق عليها في العهد العثماني المتأخر المشيرية ويقوم في موضعها الآن القصر العدلي .

(اعلام الورى – تعليق محمد أحمد دهمان) .

سردينيا : ٢٦٣ .

سلانيك : ٢٧٧ ، ٢٧٩ .

عاصمة مقدونيا اليونانية تقع على خليج سالونيك على جزيرة في بحر إيجة استولى عليها الأتراك سنة ١٤٣١ م ثم عادت إلى اليونان سنة ١٩١٣ م وهي الآن ثاني كبرى مدن اليونان .

(الموسوعة العربية الميسرة : ٩٤٧) .

ما زال يحمل نفس الاسم حتى اليوم ، وهو يتفرع من شارع مدحت باشا المؤدي إلى باب شرقي ومنه يصل قصر أسعد باشا العظم ، يباع فيه أنواع السكاكر والبذور المتنوعة التي يحمل اسمها .

(مخطط دمشق – للريحاوي)

سمي بذلك لأنه كانت تجري فيه اجتماع للبيع والشراء كل يوم جمعة وما يزال يباع فيه حتى الآن الخضار والفواكه ، يقع قرب جامع الشيخ محيي الدين بن العربي .

ويقع في شارع الملك فيصل الآن وتصنع فيه الأدوات البسيطة وخاصة ما يلزم الفلاحين للحراثة والزراعة .

(قاموس الصناعات الشامية – القاسمي ج ٢ ص ٤٨٦) .

وهو حالياً شارع أبي عبيدة بن الجراح يقع قرب قلعة دمشق وتباع فيه المصنوعات الجلدية وخاصة الحقائب .

(مخطط دمشق في العهد المملوكي– للريحاوي) .

كان أمام باب القلعة الشمالي ميدان فسيح دعي (تحت القلعة) كانت تقام فيه سوق الخيل وهي ضرورية لتمويل الجيش المؤلف من الخيالة وحدهم ، وفي هذا الميدان كان الحاكم يجمع الحامية مرتين في الأسبوع أثناء الحفلة التي تتقدم مجلس القضاء فيستعرض الجند ويراقب الخيل والسلاح والأعتدة ويعلن الترقيات والقرارات ، ولما كانت سوق الخيل قد أصبحت مركز الحياة العسكرية وموقف الجند العادي أخذ جميع الصناعيين العاملين في سبيل أفراد الجيش كالخياطين وتجار الأقمشة وصناع الأسلحة وأصحاب المطاعم والخمارات وباعة السلع العتيقة وجميع من يعملون في سبيل الخيل

كباعة الشعير والتبن والسروجيين والغرابيل يتركون حوانيتهم شيئاً فشيئاً ضمن الأسوار ويأتون مجتمعين تحت القلعة حول الميدان المذكور .وعمل هذا السوق على جذب باعة الخضر والفواكه إليه وكانت تقام فيه سوق كل يوم جمعة وهو الآن جنوب سوقساروجة شمال القلعة في سوق العتيق في شارع الملك فيصل .

(دمشق الشام–جان سوفاجيه ص٤٠) .

سوق الدرويشية : ١٦ .

سوق الذراع : ١٣ .

سوق الزرابلية : ١٧ .

يمتد من شارع الثورة حالياً إلى مداخل السروجية وسوق الهال والسوق العتيق وهو ينسب إلى (زربول) – غير عربية– وهي نعل أي مداس كبير غليظ يعمل ويصنع في سوق الزرابلية، وهذا المداس ربما يبقى في رجل الفلاح سنين عديدة نظراً لغلظ نعله الأسفل .

(قاموس الصناعات الشامية – مخطط مدينة دمشق) .

سوق السكرية : ١٥ .

سوق السنانية : ١٦ .

ينسب إلى الوالي العثماني سنان باشا الذي أصبح والياً في دمشق سنة ٩٥٣ هولمدة أربع سنوات متصلة .

(تاريخ مدينة دمشق – للريحاوي ص ٧٧) .

سوق العبجية : ١٣ .

سوق العتيق : ١٨ .

سوق العصرونية : ١٠ ، ١٨ ، ١٦٨ .

وهي جادة ابن أبي عصرون تتفرع عن سوق الحميدية المعروف يباع فيه لوازم البناء والمطابخ والأواني البلورية والنحاسية وغير ذلك .

سوق العطارين : ١٣ .

سوق العلافين : ١٧ .

سوق علي باشا : ١٥ ، ١٧ ، ٢٠

ينسب إلى أحد ولاة دمشق العثمانيين لا وجود له الآن وكان يقع بين ساحة الشهداء وجامع البحصة (يلبغا) أو ما يسمى تحت القلعة

(دمشق الشام – جان سوفاجيه – تعريب أوفرام البستاني) .

سوق القاشاني : ١٣ .

سوق القباقبية : ١٣ .

سوق المحايرية : ١٨ .

أحد الشوارع التي تتفرع عن شارع الملك فيصل تصنع فيه الصناديق الخشبية – المحارة –

سوق مدحت باشا : ١٣ ، ١٦ ، ٢١ .

ينسب إلى رجل الدولة التركي البارز

مدحة باشا ١٨٢٢ – ١٨٨٣ م بطل الحركة الدستورية التركية وواضع الدستور العثماني سنة ١٨٧٦ وأصبح والياً في دمشق سنة ١٨٧٧ م عزل وتوفي مخنوقاً في السجن سنة ١٨٨٣ م .

يقع هذا السوق في القسم القديم من المدينة داخل السور شمال الجامع الأموي .

(زعماء الإصلاح – أحمد أمين ، مخطط دمشق) .

سوق المسكية : ١٣ .

سوق المناخلية : ١٨ .

أحد الشوارع التي تتفرع عن شارع الملك فيصل الآن وفيها باب المناخلية المعروف بباب الفرج ، وهناك شارع آخر باسم شارع المناخ .

(تاريخ مدينة دمشق – للريحاوي ص ١٧٩) .

سوق النحاسين : ١٩ ، ١٤٢ .

كانت تصنع وتنقش فيه الصناعات النحاسية المشهورة في دمشق التي فقدت أهميتها الآن ، ومن هذه الصناعات أصناف الأواني كالبواطي والطاسات ،والشماعدين والصواني والفوانيس وغيرها .

(قاموس الصناعات الشامية – للقاسمي ج ٢ ص ٤٨٦) .

سيدي خمار (مقام) : ١٦ .

* * *

ش

شارع بغداد : ٩ .

سمي بذلك لأنه يؤدي إلى طريق بغداد ويبتدىء من ساحة ١٧ نيسان حتى ساحة التحرير في القصاع .

شارع الملك فيصل : ٩ .

نسبة إلى الملك فيصل بن الحسين ، ويمتد من ساحة الشهداء حتى حي العمارة .

شارع النصر : ١٦

سمي بهذا الاسم بعد انتهاء الاستعمار التركي ، ولقد أنشئت في نهاية العهد العثماني وعرفت بشارع جمال باشا وكان فيها باب النصر في مدخل سوق الحميدية هدم سنة ١٨٦٣م .

(تاريخ مدينةدمشق– للريحاوي ص٨٣)

الشام – بلاد الشام – القطر الشامي – : ٧ ، ٨ ، ١٥ ، ١٨ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٣٤١ .

القطر الشامي و بلاد الشام كما عرفها العرب وكما درجت على لسان ساكنيها هي الوحدة الطبيعية التي يعرفها الجغرافيون باسم سوريا الطبيعية وتضم : سوريا – لبنان – فلسطين – شرقي الأردن – كيليكيا .

(المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني – د. ليلى الصباغ ص ٧) .

شيخ سعد (قرية) : ٣٨ .

إحدى قرى محافظة درعا وشمال شرقها كان يمر فيها الخط الحديدي الذي يربط دمشق بحوران والذي أنشيء سنة ١٨٩٤ م وهي قرية صغيرة سميت بذلك نسبة إلى مقام الشيخ سعد الأسود الموجود فيها .

ملاحظة : إن الخط الحديدي المذكور قد اقتلعت قضبانه أثناء الحرب العالمية الأولى ولا وجود له الآن .

(خطط الشام – محمد كرد علي)

شعيب النعمان : ١٦٧ .

شقودرة : ٢٧٧ .

من مدن البلقان – الجبل الأسود – – يوغوسلافيا – في القسم الجنوبي ، ذكرت في تاريخ الفتوحات العثمانية ، ولما استقلت دول البلقان أصبحت تابعة ليوغوسلافيا .

* * *

ص

صدر الباز : ١٧٣ .

وهي المنطقة الممتدة من ساحة الأمويين حتى الربوة .

الصرب : ٢٧٧ .

صعيد مصر : ١٢٥ .

صنعاء : ٧ .

الصين : ١٦٩ .

* * *

ض

ضهر العقبة : ١٦٧ .

* * *

ط

طاغستان (داغستان) : ١٧٠ .

طرابزون : ٢٦٣ .

طرابلس : ١٤٩ .

مدينة في شمال لبنان على البحر الأبيض المتوسط أسسها الفينيقيون نحو ٨٠٠ ق.م يعود اسمها اليوناني ومعناه : ثلاث مدن لوجود ثلاثة أحياء متميزة لكل من : الصوريين والصيدونيين واليونان فتحها العرب سنة ٦٣٨ م احتلها الصليبيون سنة ١١٠٩ م استرجعها السلطان قلاوون سنة ١٢٨٩ م احتلها العثمانيون حتى سنة ١٩١٨ م تسمى في الوثائق القديمة طرابلس الشام .

(أعلام المنجد ص ٤٣٥) .

طرابلس الغرب : ١٢٢ ، ٢٧٦ .

طرابلس الغرب عاصمة ج. ع. الليبية على شاطىء البحر الأبيض المتوسط . والحرب الإيطالية – التركية ٢٩ ايلول ١٩١١ حيث كانت للأتراك فرقة عسكرية فقط بينما كان تعداد جنود الفيلق الإيطالي أربعة وثلاثون ألفاً ثم وصل إلى خمسة وثلاثون ألفاً في العام ١٩١٢ م واحتل جنود الإنزال البحري

مدينة طرابلس الغرب في الخامس من تشرين الأول سنة ١٩١١ م ودرنة في الثامن عشر منه ١٩١٢ وبني غازي في التاسع عشر منه .

(تاريخ الأقطار العربية الحديث – لوتسكي ص ٣٩٦) .

طريق حوران : ٩ .

طريق الصالحية : ٩ .

طريق كيوان : ١٧٤ .

طريق الربوة – دمر ، ومفرق : الربوة– المزة ، سميت بذلك باسم طاحونة كيوان التي كانت عليها وتعمل بمياه بردى .

طلعة الشركسية : ٢٥٨ .

وهي الصعود المسمى باسم الجادة وتوازي جادة العفيف وتحمل الآن اسم جادة سكينة .

طلعة شورى : ١٢٥ .

طنطا : ١٢٦ .

* * *

ع

عدن : ٢٨٢ .

عدن أو جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية دولة عربية في الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة العربية على المحيط الهندي مساحتها ٤٠٠,٣٠٠ كم٢ سكانها ١١٠٠٠٠٠ نسمة عاصمتها عدن أي الشعب تقسم إدارياً إلى ستة محافظات اشتهرت في عهد المملكة السبئية في القرن الثاني ق.م. فتحها العرب سنة ٦٣٦ م ثم العثمانيون ١٥٣٨ – ١٦٣٠ م دخلتها القوات المصرية سنة ١٨٣٨ م ، استولى عليها الإنكليز سنة ١٨٣٩ م ، استقلت سنة ١٩٦٧ م وضمت إليها الإمارات والسلطنات التي كانت تشكل اتحاد إمارات الجنوب العربي وأهمها : لحج ،وحضرموت ،وشحر ،ومكلا .وبيحان ، جزر قران وبريم ، وكوريا موريا وسقطرة

(الموسوعة العربية الميسرة ، أعلام المنجد ص ٧٥٢) .

عذراء : ١٩ .

قرية عذراء شرقي دمشق تبعد عنها حوالي ٢٣ كم اشتهر بالمرج الذي يحيط بها والمعروف بـ (مرج راهط) ثم عرف بـ (مرج عذراء) وفي هذا المرج كانت موقعة فاصلة بين الضحاك بن قيس وبين مروان ابن الحكم قتل فيها الضحاك وتشتت جمعه وثبتت أقدام الدولة الأموية وفيها قتل حجر بن عدي وفيها قبره وقيل انه هو الذي فتحها .

(إعلام الورى – لابن طولون ص ٨٤ . وانظر ياقوت ، والريف السوري لأحمد وصفي زكريا : ٢٧٩/١) .

العراق : ٢٤ ، ٣٥ ، ٧٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

عربين (عربيل) : ٣٥ .

عربيل : يلفظونها بالنون ، من قرى الغوطة الشرقية جنوب دمشق بـ ٦ كم تقريباً تحيط بها البساتين من كل جهاتها ذكرها ابن طولون فقال : عربيل ويقال لها (عربين) وهي قرية جامعة وشربها من نهر (ثورا) وإليها ينسب العنب البلدي واللوز .

(غوطة دمشق – وصفي زكريا ٩٩/٢) .

العسالي : ١٦٥ .

كان لدمشق في العصر المملوكي طريقان عظيمان أحدهما طريق مصر وهو أعظمها لكونها العاصمة ، وكانت عند قرية القدم قبة تدعى (قبة يلبغا) وربما كان مكانها موضع القبة التركية القائمة أمام زاوية الشيخ أحمد العسالي ، فكان السلطان أو النائب إذا كان قادماً إلى دمشق وصحبته المواكب الرسمية منها حتى يدخل ، واذا كان خارجاً إلى مصر صحبته المواكب إليها . والطريق الآخر طريق حلب كان في سهل قرية القابون وما يزال يحمل نفس الاسم حتى الآن . وموضع العسالي باسم الجامع الذي أنشأه سنة ١٠٥٤ أحمد بن علي العسالي شيخ الخلوتية .

(القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية لابن طولون تعليق محمد أحمد دهمان ص ٦٦) .

عسفان : ١٦٧ .

عمان : ٢٨٢ .

هي الآن سلطنة مستقلة في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة العربية تشرف على البحر العربي في الجنوب وعلى خليج عمان في الشرق ، يحدها المملكة العربية السعودية وصحراء الربع الخالي في الغرب وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية في الغرب والجنوب مساحتها ٢١٢٣٧٠ كم٢ سكانها ٢٠٠٠٠٠٠ نسمة عاصمتها مسقط ، أهم مدنها : مطرح وصور ونخل ونزوى احتلها البرتغاليون سنة ١٥٠٨ م وأسس فيها أحد أفراد الأسرة اليمنية حكماً مستقلا سنة ١٧٤١ م فامتد نفوذها حتى زنجبار وشاطىء إفريقيا الشرقي .

(الموسوعة العربية الميسرة ص ٤٧٦) .

عنزة : ١٦٧ .

عين البجاع : ١١ .

عين الخضراء : ١١ .

عين الفيجة : ١١ .

عين الفيجة : قرية متوسطة هي أكبر قرى وادي بردى وأعمرها تبعد عن دمشق ٢٤ كم شمال غرب يسيل نهر بردى في واديها . ذكرها ياقوت فقال : قرية بين دمشق والزبداني عندها مخرج نهر بردى . ذكرها ابن طولون فقال : قرية عين الفيجة من متنزهات دمشق أصل النهر (يعني نهر بردى)

يهرع إليها الناس أيام استواء القراصيا ، فيها نبع الفيجة الذي تشرب منه مدينة دمشق ولقد تم إسالة المياه المذكورة إلى دمشق بواسطة أنابيب وزعت في مناهل منتشرة في أطراف المدينة عام ١٩٠٧ م من قبل الوالي المذكور آنفاً (ناظم باشا) وكان الماء تسيل بمعدل ساعتين في الصباح والمساء حتى عام ١٩٢٨ م و ١٩٣٢ حيث تم تدشين المياه بإسالتها إلى البيوت في دمشق على أوسع نطاق حيث بلغت تكاليف العمل ٢٧٠ ألف ليرة ذهبية دفعت من قروض وطنية كانت تسمى (قرض بشلك) وهو كما رأينا يعادل ٧٥ قرشاً سورياً يدفع عن كل صندوق من زيت الكاز الذي كان يرد على دمشق بكثرة قبل تنويرها بالكهرباء .

(ياقوت . والريف السوري لوصفي زكريا : ٢/٣٣٠ . ومجلة العمران عدد خاص عن دمشق سنة ١٩٦٧) .

عين الكفير : ١١ .

* * *

غ

غباغب : ١٦٤ .

قرية جنوب دمشق بعشرين كيلومتراً تقريباً على طريق الحج .

غوطة دمشق : ٧ ، ١١ .

غوطة دمشق : اشتق اسم الغوطة من (الغائط) ومعناه المطمئن من الأرض وجمعه (غيطان) و (أغواض) وقال ابن الأعرابي : « الغوطة مجمع النبات » ، وورد اسم الغوطة بلفظ التثنية في الشعر القديم والحديث وربما كان المقصود بـ «الغوطتين» : الغوطة الغربية والغوطة الشرقية ، وقيل إنه كان يطلق على الغوطة اسم « البريص » . وأقدم نص ورد فيه إشارة إلى تحديد الغوطة كتاب خالد بن الوليد لبني مشجعة ، لم يحدد القدماء الغوطة ولم يعرفوها التعريف المطلوب ، والغوطة حالياً هي كل ما أحاط بدمشق من قرى وكان من الأرض المطمئنة التي تروى من نهر (بردى) وما اشتق منه من الجداول والأنهار الصغيرة أو القنى ، وعلى هذا فحد الغوطة يبدأ غرباً من فوهة وادي الربوة فالمزة فداريا ، وينتهي جنوباً بصحنايا والأشرفية وسبينة وحوش بلاس ومن الشرق الريحان والشفونية وحوش مباركة وحوش خرابو والنشابية وبيت نايم ، وينتهي في الشمال بجبلي قاسيون وسنير (جبل قلمون) وجبل الحلو . مساحتها (٣٠ ألف هكتار أي نحو ٥٣ ألف فدان) بما فيها مدينة دمشق .

(غوطة دمشق — محمد كرد علي ص ١١ ، ١٢ ، ١٣) .

الغوطة الشرقية : ١١ .

الغوطة الغربية : ١١ . ١٢٥ .

* * *

قبور الشهداء : ١٦٧ .

القدس (بيت المقدس) : ٢٦٣.

مدينة عربية في فلسطين المحتلة وهي العاصمة فيها الأماكن والمقدسات للديانات السماوية الثلاث .

القدم : ١٠ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ٢٦٢ .

هذه القرية من الامهات جنوبي دمشق مكانها جديد ، والقديمة كانت على مقربة منها الى الغرب ، ومن قصيدة لابي القيسراني وهو الذي خلد بشعره انتصارات المسلمين على الصليبيين .

وحاولوا المسجد الادنى فما عبرت

عن مسجد القدم الاقصى لهم قدم

وهي الآن /١،٥ كم / عن باب مصر (بوابة الله) في الطريق الى حوران ، ترويها ثلاثة أنهار : الاسود وقسم من الداراني وقسم من قنوات ، فيها جامع (حجر القدم) التي تنسب الى اسم القرية ، واليه يزعمون أن فيه أثر قدم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، بينما هو لم يصل الى أبواب دمشق بل لم يتجاوز بصرى في حوران وهذا المسجد بناه كوجك أحمد باشا والي دمشق سنة ١٠٥٤ هـ للشيخ أحمد العسالي شيخ الطريقة الخلوتية ، ويوجد مسطبة ومحراب كان يصلى فيه ركب الحاج عند ذهابه وايابه الى الديار الشريفة .

(غوطة دمشق ـ محمد كرد علي ص٢٤١ الريف السوري ـ وصفي زكريا ١٨٥/٢) .

قديد : ١٦٧ .

قرية السيدة زينب : ٧٤ .

قرية تحمل اسم السيدة زينب بنت الحسين بن علي رضي الله عنهم ، كانت من فضليات النساء وشريفات العقائل ذات تقى وطهر وعبادة ، هاجرت الى مصر وتوفيت فيها ، (ومكانها جنوب دمشق /٦ كم/) وكان اسمها قديما راوية ، ذكرها ياقوت في معجمه فقال عنها : راوية قرية من غوطة دمشق بها قبر أم كلثوم وقبر مدرك بن زياد الفزاري صحابي قدم الشام مع أبي عبيدة فمات بالشام فدفن بها وهو أول صحابي دفن بها ، كما ذكرها ابن عساكر في كتابه ، كما زارها ابن بطوطة (٧٢٥ هـ) (انظر ياقوت ، وكنز العلوم واللغة لمحمدفريدوجدي ص٥٤٠، والريف السوري ـلوصفي زكريا ١٧١/٢ وغوطة دمشق ـ كرد علي ص ٢٣٣) .

القسطنطينية : ٧ ، ٢٣٣ .

قصر زيوار باشا : ٢١ .

حاليا ثانوية جول جمال في حي الصالحية .

القطرانة : ١٦٧ .

القطر الشامي : ٥ ، ٦ .
القطر العربي السوري : ١٠١ .
القفقاس : ٣٩ ، ٦٢ .
القلعة (قلعة دمشق) : ١٠ ، ١٤ ، ٢٣ ، ٥٦ .

تقع في الزاوية الشمالية الغربية لسور دمشق القديمة وتسمى القلعة الايوبية بنيت على انقاض قلعة قديمة كانت في العهد الروماني أو البيزنطي ، وهي القلعة الوحيدة التي بنيت على مستوى أرض المدينة . بدأ بناءها الامير أتسز في القرن الخامس الهجري سنة ٤٦٩ هـ ورفع بعض ابراجها ولم تتكامل في عهده ، ولما انتزع البلد منه تتش بن ألب أرسلان أكملها واستعان بحجارة سور دمشق الخرب وجعل منها دار امارة وثكنات وبنى فيها دارا لولده رضوان ، وأحدث بابين مستجدين ، الاول من الشمال والثاني باب جسر الخندق الشرقي سنة ٥٢٧ هـ وانشأ فيها دار المسرة وحماما من شمالها وفرغ من ذلك كله سنة ٥٢٨ هـ ، اعتنى بها نورالدين الشهيد وبنى فيها دارا للعدل . وفي أيام صلاح الدين اقيمت المنشآت اللازمة للحكم والسكان والجامع ، وكان له برج خاص يسهر فيه وقصر له ولاهله ودار في بستان وايوان شمالي ، كما كان للقلعة جسر عبره صلاح الدين آخر مرة قبل وفاته سنة ٥٨٩ هـ = ١١٩٢ م وتوفي فيها ثم نقل رفاته بعد ثلاث سنوات الى ضريحه في الكلاسة ، وعني بها الملك العادل أخو صلاح الدين /٦٠٤ هـ = ١٢٠٦ م/ وألزم كل واحد من ملوك أهل بيته بعمارة برج من أبراجها وقد تجمعت فيها بيوت الاعوان وقاعة العرش ومركز الادارة المدنية والعسكرية ودار النقود ومصنع السلاح ، وكان فيها سجن وسوق وحمام وعدة مساجد وبرج لحمام البريد . خرب أسوارها التتر في غزوهم لدمشق سنة ١٢٦٠م. وفي العهد المملوكي أتم بناءها الملك الظاهر بيبرس وأهملت في العهد التركي حيث ردم خندقها وبقي ممر الدخول اليها من الجهة الشرقية (الباب الشرقي) يعود تاريخه الى سنة ١٣١٣ م . حاصرها تيمورلنك وأحرقها وعلقت النار من تحتها وهي الآن على الثلثين من علوها ولقد تغيرت أوصافها كثيرا عن الماضي .

(اعلام الورى ـ محمد أحمد دهمان ٨٠ . مجلة العمران عدد خاص عن دمشق سنة ١٩٦٧ صفحة ٩٦) .

قلعة الكرك : ٢٧٨ .
القلمون : ٤٠ .

يطلق اسم (قلمون) على القسم الشرقي من جبل سنير أو (آنتيلبنان) أي على السلاسل والآكام والهضاب المتجهة الى الشرق نحو بادية الشام ويفسرون كلمة (قلمون) بمعنى الجبل الحلو من اللغة اليونانية التي فيها (قالا) بمعنى الطيب أو الحلو و(مون)

بمعنى الجبل ، وحدوده من قرية الدريج ناحية التل في أقصى جنوبه الى قرية البريج ناحية حسية في أقصى شماله وهو بهـذا التحديد ينفصل عن هضبة حرمون اعتبارا من جبال الزبداني ووادي بردى ومضيق الربوة غربي دمشق .

(الريف السوري ــ غوطة دمشق ــ أحمد وصفي زكريا : ٤٦/١) .

القنيطرة : ٤٠ .

مركز محافظة الجولان جنوب غرب دمشق بـ / ٦٧ كم / ذات موقع استراتيجي هـام لا يوجد فيهـا أبنية أثرية سـوى الخـان المنسوب الى لالا مصطفى باشا الذي بنيت فوقـه دار الحكومـة (حـررت البلـدة من الاحتلال الصهيوني الاستعماري) .

قوصوه : ٢٧٧ .

من مدن البلقان (يوغوسلافيا) ذكرت في تاريخ الفتوحات العثمانية ، ولما استقلت البلقان أصبحت تابعة ليوغسلافيا .

*   *   *

ك

كربلاء : ٧٣ .

كردستان : ٢٨٤ .

الكرك : ٢٧٧ .

كريد (كريت) : ٢٢ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ٢٧٦ .

هي أكبر جزيرة باليـونان في البحـر الابيض المتوسط استولت عليها تركيا سنة ١٦٦٩ م ، أدت ثورة أهلها سنة ١٨٩٦ ــ ١٨٩٧ م الى نشوب الحرب بين اليـونان وتركيا وهزمت اليونان ولكن الدول العظمى أجبرت تركيا على الجلاء عنها سنة ١٨٩٨ م واحتلت حتى سنة ١٩٠٩ وفي العام ١٩١٣ م اتحدت رسميا مع اليونان ، وتكتب : كريد وكريت . ولقد بنـي حي المهاجـرين ١٨٩٨ للمهاجرين من كريد والبوسنة والبلقان من قبل الوالي حسين ناظم باشا .

(الموسوعة العربية الميسرة) .

الكسوة : ١٦٤ .

قرية جنوب دمشق على طريق الحج ، سميت بذلك لان فيها كان يقام احتفال تسليم كسوة المحمل الشريف الى الكعبة الشريفـة وكان الناس يودعون الحج الى القدم والى الكسوة .

(مجلة العمران عدد خـاص عن دمشق سنة ١٩٦٧ م) .

الكعبة الشريفة : ٥٧ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ .

كفرسوسة : ١٠ ، ١٦ ، ٥٦ ، ٢٦٥ ، ٣٦٦ .

كفر سوسية : كفر بالسريانية تعني القرية ولا يوجد في الغوطة الا كفر سوسيـة وكفر بطنا . أضيفت الى دمشق كأنها حي

من أحيائها ، وهي من أمهات قرى الغوطة الغربية ومن أقربها الى العاصمة ، تزرع الخضروات والاشجار المثمرة ، تسقى من نهر الداراني .

(غوطة دمشق ـ محمد كرد علي ص ٢١) .

كنيسة القيامة : ٢٦٣ .
كنيسة المهد : ٢٦٣ .
الكهف : ٦٦ ، ١٧٤ .

هو كهف النبي جبريل عليه السلام حيث جاءت الملائكة الى آدم عليه السلام لتعزيته بمقتل ابنه هابيل . وما يزال قائما حتى الآن في سفح الجبل .

(القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ـ ابن طولون ص٤٢).

الكوفة : ٧٣ .

* * *

ل

لارستان : ١٧٠ .
لبنان : ٢٦٢ ، ٢٦٣ .
لحج : ٢٨٢

الآن مدينةفيجمهورية اليمنالديمقراطية قاعدة امارة العبدلي أي لحج ، سكانها ألف نسمة ، وهي مركز تجاري .

ليبيا : ٢٨٢ .

* * *

م

مجلس الشعب : ٢٣٧ .
محطة الحجاز : ١٦ .

اهتم العثمانيون في عهدهم الاخير بالمواصلات الداخلية والخارجية فربطت دمشق بسكة حديد تصلها ببيروت وحوران والحجاز ، وشرع بانشاء الخط الحديدي الحجازي سنة ١٩٠٠ م وأنشئت هذه المحطة التي تحمل نفس الاسم حتى الآن .

(تاريخ مدينة دمشق ـ للريحاوي ص ٨٣) .

محلة عرنوس : ٢٠ .
محلة الشهداء : ٢٠ ، ٥٩ .
مخزن أسعد باشا : ٢١ .
مدائن : ١٦٧ .
مدرسة الأليانس : ١٨٥ .

احدى المدارس الموسوية بدمشق .

المدرسة الامينية : ٢٠٣ .

قبلي باب الزيادة المعروفبباب القوافين من أبواب الجامع الاموي ، بناها أتابك العساكر الملقب بأمين الدولة ربيع الاسلام أمين الدين كمسكين بن عبد الله الطغكيني المتوفى سنة ٥٤١ هـ وبنيت هذه المدرسة سنة ٥١٤ هـ وأول من درس بها علي بن المسلم الدمشقي المتوفى سنة ٥١٤ هـ وهي الآن في سوق الحرير .

مدرسة الانكليز : ١٨٥ .

المدرسة التجارية : ٢٠١ .

كانت تسمى بالمدرسة التجارية العلمية لا وجود لها الآن ومكانها في النوفرة شرق الجامع الاموي .

المدرسة الجقمقية : ١٨٤ ، ٢٠٠ .

وهي من مدارس الحنفية في دمشق وهي مدرسة استعدادية (اعدادية) كانت تقع شمالي الجامع الاموي . أسسها سنجر الهلالي وولده شمس الدين ، فانتزعها الملك الناصر حسن سنة ٧٦١ هـ وأمر بعمارتها فبنيت بالحجر الابلق وجاءت في غاية الحسن واحترقت في غزو تيمورلنك فجدد بنيانها سيف الدين جاقماق وخص الخانقاه بالصوفية وأضاف اليها مدرسة للايتام وتربة ، وجعلت في القرن الماضي مدرسة للذكور وهي اليوم في حالة خراب أو ما يقرب منه .

(خطط الشام — كرد علي : ج٦ ص ٨٩) .

مدرسة جمعية الاسعاف الخيري : ١٨٥ .

تأسست في ١٢ أيار (مايس) سنة ١٩١٠ م وهي مدرسة ابتدائية ومؤسسها السيد مصطفى القباني رئيس جمعية الاسعاف الخيري وهي الآن مدرسة خاصة قرب مجلس الشعب غربا .

مدرسة الحبالين : ٢٠٣ .

كانت قائمة في سوق الحبالين بدمشق القديمة داخل السور ولا وجود لها الآن .

المدرسة الرشدية العسكرية : ٢٠٠ .

أنشأها الوالي مدحت باشا ، وكان هناك في نفس الوقت مدارس ابتدائية ورشدية واعدادية . وهي في منطقة البحصة قرب ساحة الشهداء تلاصق جامع يلبغا ولقد هدمت مؤخرا بعد فتح الشارع الجديد . والرشدية العسكرية يوجد فيها مرحلتين : ابتدائية واعدادية تدرس فيها العلوم العسكرية ، ومن ينهي دراسة الرشدية العسكرية الاعدادية يلتحق بالكلية الحربية في استانبول ليصبح ضابطا .

(أدهم آل الجندي) .

المدرسة الريحانية : ٢٠٣ .

كانت بجوار المدرسة النورية المعروفة أنشأها ريحان الطواشي وهو من أكبر خدام نور الدين سنة ٥٦٥ هـ ، وهي كتاب للذكور ولا يزال على بابها حجر زيّر عليه بخط جميل الاوقاف المرصدة لها .

المدرسة العازارية : ١٨٥ .

وهي مدرسة (المنصور) حاليا أسسها الآباء العازاريين (رئاسة الطائفة اللاتينية السورية) وهي مدرسة حكومية الآن في باب توما .

المدرسة العثمانية : ١٨٥ ، ٢٠٢ .

كانت تسمى مدرسة (الشيخ كامل القصاب) مؤسسها سنة ١٩٠٦ م ، وكانت هذه المدرسة أهلية في حي البزورية المعروف ودام عهدها ما يقرب ربع قرن وتخرج منها عناصر بارزة (وهي الآن مدرسة رسمية) .

(أعلام الادب والفن — أدهم آل الجندي ج٢ ص ٧٧) .

المدرسة العلميـة الوطنيـة : ٢٠١

وكانت تسمى (الكلية العلمية الوطنية للبنين) الغيت وكانت في شارع الجلاء .

مدرسة عنبر : ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ .

مدرسة الفرير : ١٨٥ .

وهي مدرسة (الاخوة) وكان اسمها قديما : (قلب يسوع للاخوة المريميين) تدار باشراف وزارة التربية وتقع في ساحة أبي العلاء المعري في شارع الجلاء بدمشق .

المدينة المنورة : ٧ ، ٣٨ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٦٨ .

المرجة (ساحة الشهداء) : ١٤ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٣٥ ، ٢٥٩ .

هي ساحة الشهداء اليوم وكانت تدعى الجزيرة ، نقبل أن يغطى نهر بردى كان ينقسم الى قسمين يكونان جزيرة محاطةبالماء تدعى (بين النهرين) ومنذ حوالي القرن غطي هذان النهران وأصبحت ساحة كبيرة .

وسميت بساحة الشهداء منذ / ٦ / أيار سنة ١٩١٦ م كما سميت ساحة البرج في بيروت بنفس الاسم ، وذلك بعد أن نفذ السفاح جمال باشا حكم الاعدام بواحد وعشرين شهيدا عربيا هم من خيرة رجال النهضة العربية أعدم بعضهم بدون محاكمة ومنهم أبو الحرية عبد الحميد الزهراوي وهؤلاء يشكلون القافلة الثانية من الشهداء وكان اعدام القافلة الاولى في ٢١ آب سنة ١٩١٥ م في ساحة البرج ببيروت . وما تزال تحمل نفس الاسم حتى الآن .

(علام الورى — ابن طولون — تعليق محمد أحمد دهمان ص ١٤٠) .

المزة : ١٠ ، ٣٥ ، ٥٦ ، ١٧٣ ، ٢٦٥ .

الحقت بدمشق وأصبحت حيا من أحيائها سميت على اسم حفيد (عيسو) ومعناها الخوف ، وقيل يونانية الاسم بمعنى التل أو الربوة . بنيت القرية الحالية فوق قناة ، أما القرية القديمة فهي تحت قناتها الراكبة على مقسم نهر الداراني المعروف بمقسم (النفلة) وما برحت آثارها ظاهرة حتى اليوم .

والمزة من أجمل قرى الغوطة موقعا وهواء وقربا من دمشق تشرف على مضيق الربوة شمالاذكرها النعيمي في كتابه (الدارس في تاريخ المدارس) وذكرها ابن طولون في

والحرب العالميةالاولى تشتهر بكثرةمساجدها وكنائسها وسوقها التركية .

(الموسوعة العربيــة الميسرة ص ٤٥٦) .

الميدان باب مصلى : ٢١ .

الميسات : ٢٥٩ .

ميسلون : ٣٨ .

غرب دمشق على طريق لبنان فيها ضريح البطل الشهيد (يوسف العظمــة) وزيـر الحربية السوري في العهد الفيصلي حصلت فيها المعركة المعروفة في ٢٤ تموز سنة ١٩٢٠ والتي انتهت باستشهـاد يوسف العظمـــة واحتلال الافرنسيين بقيادة الجنرال (غورو) لسوريا .

* * *

ن

النقرة : ٢٧٧ .

النمسا : ٢٧٦ .

نهر بردى : ١١ ، ٢٠ ، ١٧٣ ، ٢١٧ .

نهر تورا (ثورا) : ١١ ، ٢١٧ .

نهر دجلة : ٣٦٦ .

نهر عقرباء : ١١ .

نهر القنوات : ١١ .

نهر يزيد : ١١ ، ٢١٧ .

النوفرة : ٢٠ .

النيرب : ٢١٧

النيرب : كلمة سريانية معناها الوادي وكانت محلة عامرة آهلة بالسكان تلي الربوة من جهة دمشق والمراد بها هنا سفحقاسيون مما يلي الربوة ويقال أيضا : النيربان ، يعني بهما النـيرب الاعلى وهو الذي بـين نهر يزيد وثوري ، والنيرب الاسفل هو مابين (ثورى) و (بردى) . ويصف ياقوتالنيرب فيقول : قرية مشهورة بدمشق علـى بعد فرسخ وسط البساتين أنزه مكان رأيته . ويقول البدري : انها أعظم المحلات وأخضرها وأنضرها حسنة الاثمار كثيرة الازهار ، وبها سويقة وحمام يقال له (حمام الزمرد)وجامع بخطبة وهي مسكن الرؤساء والاعيان وبهـا دار قاضي القضاة .

(محاضرة ألقاها محمد دهمان في قاعة المجمع العلمي العربي بدمشق في ١٩٤٣/٢/١٢ — ص ١٦)

نيويورك : ٢٩٦ .

* * *

هـ

هاديا : ١٦٧ .

الهامة : ١١ .

قرية غرب دمشق على الطـريق الى بيروت ، وتبعد عن دمشق حوالي ثلاثة عشر كيلو مترا على ضفة نهر بردى اليسرى في منخفض تحيط به الجبال ، ذكرت في(البرق المتألق في محاسن جلق) لمؤلفه ابن خـــدا

ويردي (القرن الثاني عشر الهجري)اشتهرت بالمشمش البلدي .

(الريف السوري ـ وصفي زكريا ج ١ ص ٤٦) .

الهرسك : ٢٧٦ .

الهنـد : ٢٨٨ .

* * *

و

وادي فاطمة : ١٦٧ .

وادي القرى : ١٦٧ .

* * *

ي

يافـا : ٣٨

مدينة عربية في فلسطين العربية المحتلة على شاطيء البحر الابيض المتوسط ، سكانها / ١٢٠ / الف نسمة وهي مرفأ هام .

(كنز العلوم واللغة ـ محمد فريد وجدي ص ١٥) .

يانية : ٢٧٧ ، ٢٨٥ .

من مدن البلقان تقع شمال غرباليونان قرب الحدود الالبانية على جبال (بندوس) ذكرت في تاريخ الفتوحات العثمانية ولـمـا استقلت دول البلقان اصبحت تابعة لليونان.

يبرود : ١٦٣ .

اليمن : ٨١ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٢٩٧ .

اليونان : ٢٧٧ .

* * *

كشاف الاعــلام

أ

هو جد رسول الله محمد (ص) ، ولد في بلدة (أور) من بلاد بابل قبل ميلاد المسيح بألفي سنة . وهو من الجيل الثامن من ذرية سام بن نوح ، تزوج بسارة ثم بهاجر فولدت له اسماعيل ، وهو الذي هاجر إلى بلاد العرب وبنى مع أبيه إبراهيم الكعبة ، ثم رحل أبوه إلى بلاد الشام وبقي هو في بلاد العرب وتزوج منهم . وكان إبراهيم يعاود ابنه بالزيارة في مكة ، فأمر في آخر زياراته ببناء البيت فبناه هو وابنه ، ولما ارتفع جداره قام إبراهيم على حجر ليلحق الحائط ، ذلك المحل يسمى مقام إبراهيم ، وذاك الحجر الأسود المعروف . ثم رحل ابراهيم إلى الشام وتوفي بها بعد أن عاش ١٥٧ سنة .

(محمد فريد وجدي – كنز العلوم واللغة ص ٩) .

هو أحمد بن محمد البقاعي : ١٨٨٠ — ١٩١٥ م كان ضابطاً في الجيش العثماني ، قام بالتدريس بدمشق في بعض المدارس الابتدائية لأنه كانت العادة أن يقوم بعض الضباط وهم باللباس العسكري وخاصة تدريس الرياضيات والمواد العلمية واللغة التركية ، وكان هؤلاء أيضاً من اختصاصيي سلاح المدفعية الميدانية . توفي في أيلول ١٩١٥ بمرض التيفوس .

حمصي الأصل كان يشتغل بالجراحة البسيطة ولايحمل شهادة طبية .

طبيب ولد بدمشق سنة ١٨٨٣ م وتخرج من معهد الطب في استانبول، وكان طبيباً في الجيش العثماني برتبة يوزباشي (نقيب) خلال الحرب العالمية الأولى ، وكان أستاذاً أصيلا في معهد الطب بدمشق للأمراض الداخلية ، كما كان طبيب المركز بدمشق (مدير الصحة) وذلك بتاريخ ١٩١٨/١٠/٢٢ أحيل على التقاعد في أيلول ١٩٣٣ وتوفي في ١٩٦٢/١٠/٩

(المعلومات من أبنائه بواسطة أدهم آل الجندي) .

هو الشيخ أرسلان بن يعقوب بن عبد الله بن عبد الرحمن الجعبري ، كان يعمل نشاراً للخشب ويتصدق بثلثي أجرته ، وكان مشهوراً بالزهد والصلاح ، ولد

بدمشق بتاريخ لم نعرفه ، وتوفي فيها سنة ٦٩٩ = ١٣٠٠ م وقبره معروف يقال له (الشيخ رسلان) تخفيفاً . ألف رسالة في التوحيد ، منها نسخة مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق ، وله رسالة أخرى مخطوطة أيضاً في ترجمته .

ولد في معرة النعمان سنة ١٧٠٥ م وصار متسلماً لوالده بالمعرة وحماة ، وكان قبلا حاكماً في حماة ، وقد أقام في ولاية دمشق أربعة عشر عاماً ، وتولى ولاية دمشق في ظروف صعبة ، وقد نجح في الإدارة والحكم وحاز كثيراً من المدح بالنسبة للولاة المتقدمين عليه ، عين والياً في حلب ، وبعد ذلك عزل وقتل في سيواس بتركيا سنة ١٧٥٨ م وصودرت أمتعته وأمواله .

(البديري الحلاق — حوادث دمشق اليومية ص : ٣٥) .

من مواليد دمشق سنة ١٨٩٢ م خريج معهد الطب في استانبول ، خدم في الجيش العثماني برتبة يوزباشي (نقيب) ، وتنقل في وظائف عديدة . تولى وظيفة طبيب مستشفى ابن سينا بدمشق بتاريخ ١٩٢٥/١/١ وأصبح مديراً للشؤون الصحية في وزارة الصحة في ١٩٥١/١٢/٣١ وهو الآن متقاعد .

(أدهم آل جندي — معلومات شخصية بتاريخ ١٩٧٥/٥/١٤)

ب

عمل قائمقاماً ، أصبح نائباً في مجلس المبعوثان عن دمشق ، كان صديقاً للشهيد عبد الوهاب الإنجليزي ومن أعضاء اللامركزية ، أعدم فجر يوم السبت ٦ أيار سنة ١٩١٦ شنقاً في ساحة المرجة بدمشق مع قافلة الشهداء الثانية .

(أدهم آل الجندي – شهداء الحرب العالمية الكبرى – ص : ١٠٢)

شكري غانم : ٢٩٦ ، ٣٠٠ .

أديب عربي نابغ من لبنان ، نزح إلى باريس حوالي عام ١٨٨٢ م ونظم مسرحية عنترة عام ١٨٩٨ باللغة الإفرنسية وقدمت على مسرح الأوديون عام ١٩١٠ ، وهو أحد أقطاب المؤتمر العربي الأول الذي عقد في حزيران ١٩١٦ وكان نائباً لرئيس المؤتمر .

(شكري غانم – عنترة – ترجمة الياس غالي – ص ٧) .

شكيم : ٢٥٠ .

الشيشكلي : ٢٠٨ .

ص

صالح حيدر : ٢٩٨ .

الشيخ الصفتي : ٢٣٧ .

ط

طالب حسين : ٢٤٩ ، ٢٦٧ .

طالب النقيب : ٢٩٣ .

الشيخ طاهر الجزائري : ١٨٤ .

هو العلامة طاهر بن صالح بن أحمد بن موهوب السمعوني الجزائري ، أصله من الجزائر ، هاجر والده إلى دمشق سنة ١٨١٤ م ، وكان من بيت علم وشرف معروف. دخل الشيخ طاهر المدرسة الجقمقية الاستعدادية وتخرج منها وأتقن اللغات العربية والفارسية والتركية ومبادىء العلوم. كان عنده مكتبة نفيسة ، وتولى التعليم لأول مرة في المدرسة الظاهرية والابتدائية. ولما أسست الجمعية الخيرية من علماء دمشق وأعيانها سنة ١٨٧٥ دخل في عداد أعضائها ثم استحالت إلى (ديوان المعارف) وكان المرحوم إماماً في علوم الأدب واللغة والتفسير والحديث والأصول ، وبعد الاضطهاد الحميدي رحل إلى القاهرة ، سنة ١٩٠٥ حتى ١٩٢٠ ، عاد إلى دمشق وتوفي فيها في كانون الأول ١٩٢٠ ودفن في سفح جبل قاسيون .

(أدهم آل جندي – أعلام الأدب والفن – ص : ٢٢٢)

ظ

الملك الظاهر بيبرس البندقداري : ١٨٥ ، ٢١٦ .

هو السلطان ركن الدين بيبرس البندقداري أشهر سلاطين المماليك وأول من وطد حكمهم في الشام بعد زوال دولة بني أيوب إثر دخول التتار دمشق في أيام ملكهم هولاكو ، وقد أسهم إلى جانب السلطان سيف الدين قطز في كسرة التتار في معركة عين جالوت المشهورة سنة ١٢٥٩ م وقضى معظم حياته في محاربة الفرنج وتحرير أجزاء هامة من الوطن العربي من أيديهم وخلد اسمه أكثر من حصن وقلعة ومدينة . توفي في قلعة دمشق ثم نقل جثمانه ليدفن في المدرسة الظاهرية التي تعتبر من روائع العمارة في العهد المملوكي .

(انظر د. سعيد عبد الفتاح عاشور – الظاهر بيبرس ص : ٣٧ وعبد القادر ريحاوي – تاريخ مدينة دمشق ص : ١٩٢)

ع

عارف التوّام : ٢٩٥ .

الأمير عارف الشهابي : ٢٠٣ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ .

١٨٨٩ –١٩١٦ م ينتمي نسبه الى بني مخزوم من قريش الذين حكموا حوران ووادي التيم فلبنان على ما هو معروف . ولد في حاصبيا مقر الأمراء الشهابيين سنة ١٨٨٩ وتلقى دراسته الإعدادية في دمشق وكان من حلقة وطنية تتردد على الشيخ طاهر الجزائري . وفي عام ١٩٠٧ سافر إلى استانبول فاتصل بالطلاب العرب وأسس مع بعض زملائه جمعية النهضة العربية ، وهي أول جمعية قومية عربية منظمة نشأت في أوانها قبل إعلان الدستور العثماني ، والشهيد عارف من رواد القومية العربية الأول الذين وضعوا أسسها في أوائل القرن الماضي . وشارك الشهيد عبد الغني العريسي في إصدار جريدة المفيد في بيروت ثم دمشق ، له آثار أدبية ، وكان شاعراً وأديباً ، فر إلى الجوف مع بعض زملائه عندما شعر بنوايا السفاح جمال باشا ، وقبض عليهم في مدائن صالح وأعدم صباح ٦ أيار ١٩١٦ شنقاً في بيروت مع قافلة الشهداء الثانية .

(أدهم آل جندي – شهداء الحرب العالمية الكبرى – ص : ١٢٢)

عاصم بسيسو : ٢٩٢ .

عباس العلاف (أبو عبده) : ٢٤٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

السلطان عبد الحميد الثاني : ٢٦٨ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ .

(١٨٤٢ – ١٩١٨) م هو أحد

سلاطين بني عثمان ، عرف باستبداده في مقاومة الدستور ، لقب بالسلطان الأحمر لكثرة ما سفكه من الدماء ، خلع عام ١٩٠٩ ، واشترك في الحرب العالمية الأولى .

(أعلام المنجد)

عبد الحميد الزهراوي : ٢٨٤ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

عبد الحميد سعيد : ٢٥٠ .

عبد الرحمن الشهبندر : ٢٠٣ ، ٢٩٢ .

هو الدكتور عبد الرحمن الشهبندر (١٨٧٩ – ١٩٤٠) م انحدر من أسرة منتشرة في البلاد العربية وقد اشتهرت بالتجارة فغلب عليها لقب الشهبندر . ولد في دمشق سنة ١٨٧٩ وتلقى علومه في المكتب الرشدي العسكري ، وفي عام ١٨٩٦ دخل الجامعة الأمريكية ، وفي عام ١٩٠٦ حاز على الشهادة الطبية ، وهو خطيب وسياسي بارز ، اشترك في حركة تركيا الفتاة ثم في جمعية الاتحاد والترقي وانسحب لما رأى انحرافها ، لعب دوراً سياسياً بارزاً في العهد الفيصلي في سورية ، ثم سافر إلى مصر ، وكان في دمشق أثناء ثورة ١٩٢٥ ولعب دوراً هاماً فيها ، اغتيل يوم السبت ٦ تموز ١٩٤٠ من قبل ثلاثة مجرمين في عيادته الطبية بدافع ديني .

(أدهم آل جندي – شهداء الحرب العالمية الكبرى – ص : ١٧٢)

السلطان عبد العزيز : ٢٦٨ .

(١٨٣٠ – ١٨٧٦) م أحد سلاطين بني عثمان ، تولى السلطة سنة ١٨٦١ . تابع تنظيمات أخيه عبد المجيد لكنه بذر مال الدولة ، وعلى أيامه انسلخت رومانيا والصرب والبلغار ومصر عن الامبراطورية العثمانية .

(أعلام المنجد)

عبد الغني العريسي : ٢٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

عبد الغني النابلسي : ٣٧٠ .

(١٦٤١ – ١٧٣١ م) هو عبد الغني ابن اسماعيل بن عبد الغني النابلسي . شاعر ، عالم بالدين والأدب ، مكثر من التصنيف ، متصوف ، ولد ونشأ في دمشق ، ورحل إلى بغداد وعاد إلى سورية وتنقل بين فلسطين ولبنان وسافر إلى مصر والحجاز ، واستقر في دمشق وتوفي ودفن فيها في جامعه بالصالحية له مصنفات كثيرة جدا .

(خير الدين الزركلي – الأعلام ج ٤ ص : ٥٨)

الأمير عبد القادر الجزائري الحسني

(١٨٠٤ – ١٨٨٣) م هو عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار بن القادر ويتصل نسبه الشريف مع الحسن السبط ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

ولد في أهواز جزيرة العرب سنة ١٨٠٤ ، قاد عدة معارك ضد المستعمرين الإفرنسيين وانتصر عليهم ، وأول معاركه كانت خنق النطاق ومعركة رأس العين ومعركة المقطع . لقد تواطأ العدو مع جيران الأمير على خذلانه فاضطر للتسليم بشروط العدو ، ووافق عليها الجنرال لامورسيير ومنها أن يذهب الأمير مع أهله إلى بلاد المشرق (دمشق) ، ولما قامت حوادث سنة ١٨٦٠ م في بلاد الشام لعب دوراً إيجابياً حسناً فيها توفي سنة ١٨٨٣ م ودفن عند الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي داخل القبة .

(أدهم آل جندي – أعلام الأدب والفن – ٢/٢٢٠) .

عبد القادر الخرسا : ٢٩٨ .

عبد القادر زهرا : ٢٩٥ .

عبد القادر بن موسى بن عبد الله الحسن : ٢٥

عبد الكريم الخليل : ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣ .

عبد الله بن زياد : ٧٣ .

السلطان عبد المجيد : ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

هو عبد المجيد الأول (١٨٢٣ – ١٨٦١) م أحد سلاطين بني عثمان ، خلف أباه محموداً الثاني (١٨٣٩) . من أهم أحداث عهده إصدار (خطي شريف) و (خطي همايون) سنة ١٨٣٩ وحرب القرم سنة ١٨٥٣ ، أجرى إصلاحات إدارية وفكرية واجتماعية عرفت بالتنظيمات .

(أعلام المنجد)

الشيخ عبد المجيد السقطي : ١٩٠ .

عبد المسيح الانطاكي : ٢٨٥ .

عبده الأصفر : ١٩٠ .

عبد الوهاب الانكليزي : ٢٠٣ ، ٢٩١ .

(١٨٧٨ – ١٩١٦) هو الشهيد عبد الوهاب بن أحمد الانكليزي ، تكنت عائلته بالإنكليزي لأن الجد الرابع كان عصبي المزاج فكان يقال له (إنك مثل البارود الإنكليزي) وغلبت الكنية عليه كما وقع في بعض الأمر في مثل هذه المناسبات .

ولد في قرية المليحة من غوطة دمشق سنة ١٨٧٨ م وتلقى دراسته في مدرسة الحقمقية الرشدية ثم ألغيت هذه المدرسة سنة ١٨٩٣ ونقل طلابها إلى الصفوف المعادلة لصفهم في مدرسة عنبر الإعدادية بدمشق . ذهب الشهيد مع زميله الشهيد شكري العسلي إلى استانبول ودخلا الصف الأول من القسم

الإعدادي ، وفي عام ١٨٩٩ دخلا المدرسة الملكية الشاهانية وتخرجا عام ١٩٠٢ وعين في عدة وظائف إدراية ، من أعضاء اللامركزية العربية أعدم يوم السبت ٦ أيار شنقاً في ساحة المرجة من قبل السفاح جمال باشا مع قافلة الشهداء الثانية .

(أدهم آل جندي – شهداء الحرب العالمية الكبرى ص : ١٠٢) .

عبد المطلب : ١٦٨ .

الطبيب عثمان باشا : ١٤٢ .

عثمان بن الحبال : ١٦ .

عثمان بن الحبال (الحبلة) من مشاهير رجال الطائفة الصوفية المسماة القلندرية ، ظهرت بدمشق سنة ٦١٦ هـ وهي كلمة أعجمية معناها المحلقون ، واسمه الحقيقي هو الشيخ عثمان بن كوهي الفارسي ، ورد اسمه في قصة الملك الظاهر بيبرس الشعبية ، وكانت هذه الطائفة التي ترأسها عثمان المذكور مكروهة من الفقهاء ورجال الدين ، ومقامه الآن في الباب الصغير .

(ابن طولون – تعليق محمد أحمد دهمان – إعلام الورى – ص : ٣٨)

عرابي الحلاق : ١٤٢ .

كان يقوم بمهمة قلع الأضراس والحجامة وإخراج الدم من ظهر المرضى ويعالج بعض أمراض جهاز البول ، لا يحمل شهادة طبية . وهو من حي الشاغور في دمشق .

(أدهم آل جندي – ٢٢ / ٥ / ١٩٧٥ م)

العرايشي : ٢٤٩ .

عرودك : ٣٧٠ .

المولى عرودك : اسم أبيه فتيان ، وزاويته تقع في طلعة العفيف – الماوردي – بير التوتة . ولقد شيد هذه الزاوية في حياته ، وكان يشتغل بالنول ، وقد دفن والده في قرية أنفار في البقاع (لبنان) – مشغرة ، وتوفي في دمشق سنة ١٤١٧ م ودفن في غرفة النول التي كان يعمل بها النسيج ، والمشهور عنه أنه صاحب كرامات ، وتقام الأذكار والنوبة في زاويته ليلة الاثنين من كل أسبوع ولا تزال حتى الآن .

(معلومات أخذت من الأستاذ أدهم آل جندي بتاريخ ٢٢/ ٥/ ١٩٧٥ م بدمشق)

عزة الأعظمي : ٢٩٣ .

عزة الجندي : ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

عزيز خان : ٣٩ .

عزيز علي المصري (مقدم) : ٢٩٣ . ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

هو ابن أحمد الحلواني الرفاعي، من أهالي حي العقيبة بدمشق ، كان شيخ القراء بدمشق منذ سنة ١٩٢٥ م وكان عالماً متخصصاً بعلم القراءات والتجويد وتفسير القرآن ، وتوفي في ١٨ ربيع الأول سنة ١٣٦٣ هـ وعاش زهاء خمس وثمانين سنة ، وخلفه ولده الشيخ أحمد ، وكان شيخاً للقراء وعالماً وصاحب معمل نسيج ، وقد توفي في ١٨ شعبان سنة ١٣٨٤ هـ .

(١٨٤٤ – ١٩١٨) م أحد سلاطين بني عثمان ، تسلم السلطة ١٩٠٩ – ١٩١٨ ، استخدمه حزب تركيا الفتاة لتنفيذ أهدافه ، عجز عن مواجهة إيطاليا والبلقان .

(١٨٧٣ – ١٩٥٤) م خطيب وزعيم شعبي ، حمصي الأصل ، استوطنت أسرته في دمشق منذ قرن ونصف ، وولد في حي العقيبة سنة ١٨٧٣ ، أخذ علم الحديث عن المرحوم الشيخ بدر الدين الحسني ، سافر إلى مصر ، التحق بالجامع الأزهر وتخرج منه ، وتلقى التفسير على الشيخ محمد عبده ، عاد إلى

دمشق ، أسس مع الشهداء عارف الشهابي ورشدي الشمعة وعبد الغني العريسي وغيرهم جمعية الفتاة ، وأسس المدرسة العثمانية ، وكان مديرها لمدة ربع قرن ، وسافر ثانية إلى مصر واجتمع بأقطاب اللامركزية كالشيخ رشيد رضا ورفيق العظم ، قبض عليه بعد عودته ووضع بالسجن ، ونجا من سفك السفاح جمال باشا ، سافر إلى الحجاز وحكم عليه بالإعدام غيابياً ، سافر إلى مصر وأسس حزب الاتحاد السوري ، وحكم بالإعدام غيابياً من قبل الإفرنسيين ، سافر إلى اليمن سنة ١٩٢٢ وقابل الإمام يحيى حميد الدين ، عاد إلى دمشق سنة ١٩٣٧ بعد العفو عنه ، أسس جمعية العلماء ومؤتمر العلماء وتوفي في ٢٧ شباط ١٩٥٤ ودفن في مقبرة باب الصغير بدمشق بجوار الصحابي بلال الحبشي .

(أدهم آل الجندي – أعلام الأدب والفن – ج٢ – ص ٧٨)

محمد كرد علي : ٢٧٦ .

هو العلامة محمد كرد علي (١٨٧٦ – ١٩٥٣ م) أصل أسرته من السليمانية ، تنسب إلى الأكراد الأيوبية . ولد بدمشق سنة ١٨٧٦ من أم شركسية ، أخذ عن الأساتذة المرحومين طاهر الجزائري ومحمد المبارك وسليم البخاري شتى العلوم ، وعهد إليه سنة ١٨٩٦ بتحرير جريدة الشام الأسبوعية زار مصر سنة ١٩٠١ ، ضايقه الأتراك وهاجر إلى مصر سنة١٩٠٣ وأصدر جريدة المقتبس ، عاد إلى دمشق سنة ١٩٠٨ بعد الانقلاب العثماني وأصدر جريدة المقتبس فيها . رحل إلى باريس وهرب إلى مصر ثانية ، وعاد إلى دمشق سنة ١٩١٩ وأسس المجمع العلمي العربي ، وكان رئيسه حتى وفاته ، أصبح وزيراً للمعارف سنة ١٩٢٨ وتوفي ودفن في دمشق في ١٩٥٣/٤/٢ .

(أدهم آل جندي – أعلام الأدب والفن – ٢٣٧/١)

الشيخ محمد كوتو : ١٩٠ .

السلطان محمود الثاني : ٣٢ ، ٢٦٨

(١٧٨٤ – ١٨٣٩) م أحد سلاطين بني عثمان ، بقي في السلطة من ١٨٠٨ حتى ١٨٣٩ ، قاوم التوسع الروسي على الدانوب ، تنازل للروس عن بسارابيا بموجب معاهدة بخارست سنة ١٨١٢ م ، في عهده استقل اليونان سنة ١٨٣٠ ، هزم محمد علي باشا جيشه بالقرب من نصيبين سنة ١٨٣٩ ، أمر بقتل الانكشارية .

(أعلام المنجد ، الموسوعة العربية الميسرة)

محمود باشا بوظو : ٢٥٩ .

محمود حسن : ٢٣٨ .

هو محيي الدين بن العربي الطائي الأندلسي ٥٦٠ – ٦٣٨ هـ الملقب بالشيخ الأكبر ، وهو أكبر علماء الصوفية ، ولد في الأندلس (اشبيلية) يوم الاثنين ١٧ رمضان سنة ٥٦٠ هـ وطاف بلاد الشام سنة ٥٩٨ هـ توفي ليلة الجمعة ٢٢ ربيع الأول سنة ٦٣٨ هـ بدمشق ودفن فيها في جامعه بالصالحية المعروف .

ولقد اختلف الناس قديماً وحديثاً في ابن العربي لأنه كان ظاهرياً في العبادات ، باطنياً في الاعتقاد ، له أربعمئة مصنف منها : الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية ، وفصوص الحكم ، وترجمان الأشواق ، ومحاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ، وجامع الأحكام ، ولقد اعتنى بقبره سلاطين آل عثمان ، وبنى عليه السلطان سليم خان مدرسة ورتب له أوقافاً طائلة .

(انظر كنز اللغة والعلوم ، المنجد في اللغة والعلوم ، ابن طولون : القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ص : ٤٠٠)

أحد سلاطين بني عثمان ، تسلم السلطة سنة ١٨٧٦ م ، خلف السلطان عبد العزيز ، ولم يستمر حكمه غير شهور .

ولد سنة ١٨٦١م تقريباً ، كان أستاذاً للعلوم الدينية في المدرسة التجارية بدمشق وعالماً جليلا ، وكان رئيساً لديوان محكمة التمييز في زمن الرئيس الأول للمحكمة المرحوم مصباح محرم ، أصيب بمرض السل وتوفي سنة ١٩٢٦ م .

* * *

الاقــوام

اصطلح ابن طولون ومعاصروه من المؤرخين على استعمال (رومي – أروام) بالمعنى الذي نعرفه في عصرنا الحديث (تركي – أتراك) . وفي الوقت نفسه يستعمل ابن طولون ومعاصروه (تركي – أتراك) للموظفين والجند من المماليك بصفة عامة ، بينما نحن نطلق (رومي – أروام) على اليونانيين في زمننا الحاضر .

(ابن طولون – تعليق محمد مصطفى – مفاكهة الخلان في حوادث الزمان . ص : ١١)

★ ★ ★

المصطلحات والألفاظ العامية

ا

العامية		الفصحى	رقم الصفحة
ابريم	:	العقال	٢٨
اجيبوا	:	أحضره	٣٤٤
ارباب الكسوة والعلمية		....	٢٠٨
استوى	:	نضج	١٧٧
الأغباني	:	عمامة	٢٠٨
اغْضِرْ	:	أقدر	٢٥٥
اكْسِرْ الصُفْرَه	:	تناول طعام الفطور	١٧٩
ألف لا شن عليها	:	ألف لا شيء عليها	١٩١
أللّي	:	قال لي	٢٢٤، ٣٢٩
أمْبَارِحْ	:	البارحة	٣١٣
أواعي	:	ملابس	٣٢٢
أدَرْ	:	قدر	٣٧٣
آوْهَا	:	ها هو	١١٣
إيْشْ	:	أي شيء	٣٠٥

* * *

ب

العامية		الفصحى	رقم الصفحة
باستون	:	(عصا)	٣١
بالهَنَا	:	بالهناءة	٣٤٢
بتشوفوا	:	تنظرون	٣٧١
بَدالِكْ	:	عوضاً عنك	١١٢
بدّك	:	بودك	٢٢٩
بدي	:	بودي	٢٥٤
بردقاني	:	برتقالي	٢٣
البرادي	:	الستائر	٩٠
البرذون	:	(نوع من الحمير)	٢١١
برّا	:	خارجاً	٢٢٠
بسكليت	:	(دراجة)	٣٦
البشكير	:	المنشفة	٢٦
بعَتني	:	بعثني	٣٣٥
بَعْدِيْنْ	:	بعد ذلك	٣٧٢
البقجة	:	الصرة	٩٤، ٢١٢، ٣٢٨
بكْره	:	غداً	٣٤٩

العامية	الفصحى	رقم الصفحة
حطّ	: وضع	٢١٥
		٢٧٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ .
حطّ بالخرج	:	٢٧٥
حكايتي محها	: حكايتي معها	٣٧٣
حلّي	: اذهبي	١٨٠
الحنتور	: عربة تجرها الدواب	٣٨
حوّاوين	: حيوانات	٣٧٢
حُوْ بَرْدو	: شِدّة البَرْد	٣٠٤

* * *

خ

العامية	الفصحى	رقم الصفحة
خبّي	: خبّيء	٣٣٥
		، ٣٤٠ ، ٣٥٢
خجا	: معلم الاولاد	١٨٩
خرْجيّا	: خراج(نفقات)	٣٢٣
خُشْ	: ادخل	٣٠٦
خفيف الدم	: صاحب نكتة	٢١٣
خلّيْ	: (اسمح)	٢٥٣
		٣٠٦ ، ٣١٦ ، ٣٢٤
خيّكْ	: أخوك	٣٠٦

* * *

د

العامية	الفصحى	رقم الصفحة
الدامسكو	: قماش اشتهرت به دمشق	٩٤
دايخة	: دائخة	٣٣٠
الدبكة	: الرقص الشعبي الجماعي	٢١٣
دَخْلِكْ	: أرجوكِ	٢٥٥، ٣٢٨
دَقْنَكْ	: ذَقْنَكْ	٣٢٢
دكتّه	: رباط السروال	٢١٨
دَنَبو	: ذنبه	٣٤٢
دُوءْ	: ذُقْ	١٧٩

* * *

ر

العامية	الفصحى	رقم الصفحة
راحه	: رائحة (ذاهبة)	٣٢٥

* * *

ز

العامية	الفصحى	رقم الصفحة
زلمه	: رَجُلْ	٢٥٥
زِنْسْ	: جنس	٣٧٢
زَنْكين	: زنكيل (غني)	٣٧٢

* * *

العامية	الفصحى	رقم الصفحة
ل		
لأرْجيـْكْ	: لأريك	٣٠٤
لاشلَحْ	: لأخلع	٣١٤
لاقينا	: اجتمعْ بنا	٣٢٠
لحد هلأ	: حتى الآن	٣٧٣
لَشوفْ	: لِأرَ	٢٦١
لعبة المقارع	: لعبة المقلاع	٢١٢
لفانة	: ليست بالحلوة ولا بالحامضة	١١٤
لفافة كتاب	:	٨٧
لَكَـانْ	: لأجل هذا	٢٥٥
للمونة يا عيّار	: (للمؤونة ياعيار) نداء يطلقه بائع البصل	١٧٧
لنشوف	: لِنرَ	٣٧٦
لِيْشْ	: لأي شيء	٢٥٤ ، ٣١٣

* * *

العامية	الفصحى	رقم الصفحة
م		
ما بنا	: ما بقي	٣٧٢
ما جيتي	: ما جئت	٣١٦
الماشطة	: من تقوم بتمشيط العروس	٩٩
ما ينحمي لك	: دعاء لإبعاد المكروه	٣٧٢
المُجدَّرة	: نوع من الطعام	٢٥٥ ، ٣٥٥
محبّينُه	: محبّوه	٣٢٩
المخاريق	: لعبة المقارع	
مَرَس	: حبل	٩٤
مرفعْجيّة	: (طبالين)	٧٩
المست	: حذاء من جلد رقيق	٢٨
مسكّر	: مغلق	٢١٥
مَشْكُولة	: موضوعة للزينة	٣٢٦
مشيّلين	: محملين	٣١٢
مَصَاري	: أموال	٣٧٢
مضربية	: مدربيّة	٣٠
مَعَاديته	: معاد له.عدوه	٣٢٢
من شان إيش	: من أجل أي شيء	٢٥٥
مِنْشالةِ	: محمولة	٣٢٢
مهركل	: مُزْرٍ	٢٥٣
منين	: من أين	٣١٣ ، ٣٢١
الميّه	: (الماء)	٣٠٦

* * *

كتاب دمشق في مطلع القرن العشرين ، صور للوجوه المختلفة عن الحياة الاجتماعية والفلكلورية في دمشق إبان تلك الفترة لم يبق منها اليوم إلا ظلال لا تكاد تلمحها إلا في الأحياء القديمة فسجلها المؤلف تسجيلا حياً متحركاً يسمعنا فيه الصوت والنغمة واللهجة والحركة واللون .

مطبعة وزارة الثقافة

دمشق — ١٩٧٦

سعر النسخة

١١٥٠ ق.س.ل